تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد



أعمال
الدورة الأولى

- مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة
- المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة
- آثار وتراث منطقة تافيلالت

مركز الدراسات والبحوث العلوية
الريصاني / دجنبر 1989

المملكة المغربية
وزارة الثقافة

تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد



أعمال
الدورة الأولى

- مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة
- المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة
- آثار وتراث منطقة تافيلالت

تقديم

محمد بن عيسى
وزير الثقافة



بسم الله الرحمٰن الرحيم

فهرس

الندوة الأولى :
مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة

الندوة الثانية : (139-140)

المؤسسون الأولون للدولة العلوية الشريفة

الندوة الثالثة :

آثار وتراث منطقة تافيلالت

تـقـديـم

محمد بن عيسى
وزير الثقافة

وفق التوجيهات السامية لصاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصر الله باعتماد اللامركزية منهجا في التخطيط والعمل الثقافي للحكومة، سارعت وزارة الثقافة الى إنشاء مؤسسات رئيسية متخصصة عبر الخريطة المغربية، تترافق خطواتها مع خطوات الجامعات ومؤسسات البحث الوطنية، وتهدف هذه المؤسسات ـ أساسا ـ الى استكشاف المخزون التاريخي والفني والادبي لمختلف جهات المملكة، من منظور يأخذ بعين الاعتبار أصالة معطيات كل جهة وخصوصياتها التاريخية والابداعية والبيئية.

وضمن هذا التوجه، وبتنسيق مع السلطات والهيئات المسؤولة اقليميا ومحليا، خصت وزارة الثقافة إقليم الرشيدية بأولوية تحركها. وقد قوبلت بدايات التحرك بترحاب متحمس، وتجاوب صادق من فئات وشرائح سكان الاقليم. ولما برز من تنامي الأرضية الثقافية للاقليم سنة تلو أخرى، فقد تأهل مسار ذلك التحرك للحظوة بوافر العناية السامية لراعي الثقافة والمثقفين صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله.

وتحديدا، يمكن التذكير بملتقى سجلماسة الذي نظمته الوزارة سنة 1988، وما قدم خلاله من بحوث هامة أصدرتها في كتابين حول : «نشأة الدولة العلوية» و«سجلماسة تاريخيا وأثريا».

ومن خلال ما عرفه الملتقى من مداخلات ونقاش، وما تأكد من تطلع المواطن المغربي الى تعميق فهمه لتاريخه الحافل بالأمجاد، ومن إجماع الرأي على التشارك في تيسير أدوات الدراسة التاريخية المتخصصة، ولمّ شتات الموزع منها، تولّد إنجاز قارّ تمثل في : «مركز الدراسات والبحوث العلوية»، وفي إنجاز موسمي تجسده «جامعة مولاي علي الشريف الخريفية» بالرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الامير المولي رشيد.

وتمشيا وفق خطة توظيف المعالم التاريخية التي تعتمدها وزارة الثقافة في عملها، قام المسؤولون في إقليم الرشيدية مشكورين، بترميم قصبة تاريخية رحبة المرافق، حيوية الموقع، في مدينة الريصاني، لاحتضان المقر الدائم للمركز ولاستقبال دورات الجامعة الخريفية. وتبذل الوزارة قصارى الجهد لتزويد المعلمة الموظفة بما تحتاجه من التأطير المناسب، والتجهيزات العلمية والتقنية والادارية.

ولن في صدارة المهام المطروحة على المركز والجامعة، تجميع أصول ومصورات الوثائق والمخطوطات والمواد المرجعية الخاصة بتاريخ الدولة العلوية الشريفة والمحفوظة داخل المغرب وخارجه. وبدءا في إنجازها، أوفدت وزارة الثقافة صفوة من الاساتذة الجامعيين المختصين الى كل من : موريتانيا - تركيا - اسبانيا - البرتغال - فرنسا - انجلتره - وهولانده، والذي عاد جميعهم بحصيلة من البيانات تملي دسامتها حتمية مواصلة العمل في هذا الاتجاه، من أجل توفير إمكانات جديدة لاضاءة زوايا نضال ملوك ورجالات المغرب بالصورة الصحيحة المثلى والمستوفية للشروط العلمية.

ولعرض حصيلة تلك المهام، تم تخصيص أولى الندوات الثلاث التي انتظمتها الدورة الاولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية على مدى الفترة من 7 الى 14 دجنبر 1989 بمركز الدراسات والبحوث العلوية، والتي استضافت خمسين باحثا جامعيا. وإن في هذا الحشد، وفيما قدم من عروض قيمة وجادة، مع ما واكب ذلك من نقاش واسع، مسوغات كافية للتفاؤل بمستقبل فاعلية الجامعة كفضاء بحث ودراسة، يؤمن استمرارها وتطورها.

ولأن وضوح الشخصية الوطنية وتماسكها وتوازنها في مواجهة الاختراقات الثقافية، ترتبط بالتاريخ الوطني أوثق الارتباط. فإن لبلادنا تاريخا عريقا تتناسق حاليا جهود علمية مغربية مكثفة من أجل الارتقاء بكتابته.

ولئن ظل المغرب محافظا على شخصيته الحضارية رغم تعرضه لعنيف الحملات الاستعمارية، فذلك نابع من وعي أبنائه بتجذر تاريخهم، إلا أن سبره مايزال بحاجة الى مزيد من الانخراط والعمل الدؤوب في ظل القيادة الحكيمة لصاحب الجلالة، وتأكيده الموصول على أن المغاربة : «يجب أن يعرفوا تاريخهم وأصالتهم وعلامات ماضيهم المجيد».

وعندما يتعلق الأمر بالمغرب المعاصر، فإن ذلك يعني دون شك أولا تسليط كاشف الاضواء على تاريخ الدولة العلوية الشريفة، ودورها المتميز في بنائه وتحديثه، وبالتالي إثراء الدراسات التاريخية والأثرية الخاصة بمنطقة تافيلالت، مهد الدولة العلوية الشريفة. وإن في الوعي بالماضي زخم دافع للحاضر وتقدم واثق في آفاق المستقبل.

ومن هذا المنطلق، يسعد وزارة الثقافة إصدار وقائع الدورة الاولى لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية في هذا الكتاب، تمكينا للمثقفين والمهتمين والمواطن المغربي عموما، من الاستفادة من عطاء البحث التاريخي الذي شكل

وعاء الدورة، وسجل إضافات تخدم الاحاطة المرجوة بتفاصيل وجزئيات تاريخ الدولة العلوية الشريفة التي يتقدم المغرب في ظلها نحو مواقع حضارية جديدة.

وتجدد الوزارة هنا شكرها لكل الاساتذة الباحثين الذين ساهموا في جعل ميلاد الجامعة مناسبة علمية ثرية وخصبة، وبخاصة العمداء والأساتذة أعضاء المجلس الاداري الاستشاري لمركز الدراسات والبحوث العلوية السادة :

- ذ. عبد الوهاب بن منصور
- ذ. أحمد التوفيق
- د. العربي مزين
- د. ابراهيم بوطالب
- د. محمد حجي
- ذ. مولاي هاشم العلوي

فتحية تقدير لفاعلية دورهم في توجيه نشاطات المركز والجامعة، وإن من شأن امتداد مشاركتهم وأمثالهم من الأساتذة الجامعيين والباحثين في عمل المؤسسات الثقافية، ما يمثل دعما ولاريب في الارتقاء بها الى مستوى إنجاز المناط بها من مهام بالكفاءة الواجبة.

الندوة الأولى :

مصادر تاريخ الدولة العلوية الشريفة

الاساتذة المشاركون

- **عبد الوهاب ابن منصور**
مؤرخ المملكة ومحافظ ضريح محمد الخامس

- **د. عبد الهادي التازي**
مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي

- **محمد المنوني**
باحث وأستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **د. محمد حجي**
استاذ بكلية الآداب - الرباط

- **محمد زنيبر**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **محمد بن عبد العزيز الدباغ**
محافظ خزانة القرويين

- **أحمد التوفيق**
مدير معهد الدراسات الافريقية

- **د. ابراهيم بوطالب**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **محمد بن عزوز حكيم**
باحث، مؤرخ

- **د. عبد العزيز التمسماني خلوق**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **د. أحمد بوشرب**
أستاذ بكلية الآداب - المحمدية

- **الحسين بوزينب**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **د. محمد المنصور**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **د. مصطفى ناعمي**
أستاذ جامعي، المعهد الجامعي للبحث العلمي.

- **عبد المجيد القدوري**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **د. عبد الرحيم بن حادة**
أستاذ بكلية الآداب - فـاس

- **عبد الحفيظ الطبايلي**
أستاذ بكلية الآداب - الجديدة

عـرض افتتـاحـي

عبد الوهاب ابن منصور

السيد الوزير
السيد عامل صاحب الجلالة على اقليم الرشيدية
اخواني الاساتذة الكرام
ايها السادة

أريد في البداية أن أنوه تنويها حارا بوزارة الثقافة وعلى رأسها الاستاذ الجليل السيد محمد بن عيسى، الذي شهدت الوزارة في عهده تطورا كبيرا محسوسا، والذي يبذل لها من شبابه ومعارفه ما يستطيع وفوق ما يستطيع، منطلقا في ذلك من إخلاصه لوطنه وسعيه الجاد لتحقيق رغبات ملكه صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني أعزه الله.

ولن أغفل كذلك التنويه والاشبادة بعامل صاحب الجلالة السيد أحمد عرفة الذي عرفناه فعرفنا فيه كل نشاط وكل خير وكل اجتهاد. وعرفنا أنه يجد بالليل والنهار لترقية هذا الاقليم الذي هو في حاجة الى مواهبه ومعارفه، نظرا لتخصصه في أكبر شيء يهم الاقليم وسكانه، الا وهو الماء والزراعة، والتنمية الاقتصادية بوجه عام.

وبعد هذا أريد أن أقول إنني لن ألقي درسا تاريخيا مفصلا، ولا عرضا معمقا، وإنما هو مدخل أقدم به العروض والدراسات المعمقة والمفصلة التي سيقوم بها إخواني الاساتذة الاجلاء، والمحور الذي تدور حوله هذه الدورة

للجامعة الخريفية لمولاي علي الشريف ينحصر في أمرين اثنين وليسا بالامرين السهلين :

الامر الاول هو (المؤسسون الاولون للاسرة العلوية الشريفة).

والأمر الثاني هو (مصادر تاريخ هذه الاسرة سواء كانت كتبا أو وثائق).

وفي البداية أقول ان القرن الذي نشأت فيه هذه الدولة، وهو القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) بدأ صافيا مشرقا كأيام فصل الصيف، وانتهى صافيا مشرقا كأيام فصل الصيف أيضا، ولكن كانت بين بدايته المشرقة الصافية وبين نهايته المشرقة الصافية غيوم متلبدة، وسحب متجمعة، بل عواصف ورعود وبروق كأشد ما تكون البروق والعواصف والرعود في أيام الشتاء الباردة، أما أن بداية هذا القرن كانت صافية مشرقة، فلان المغرب كان في بداية هذا القرن بلغ أوج عظمته السياسية والحربية والاقتصادية، ورخاء مجتمعه، ذلك ان الذي كان يحكم المغرب في بداية هذا القرن هو السلطان أحمد المنصور السعدي الملقب بالذهبي، هذا السلطان العظيم الذي انتصر في معركة من أعظم المعارك العربية التي يسجلها التاريخ بمداد الفخر والاعتزاز للمملكة المغربية، هي معركة وادي المخازن، التي انتصر فيها هو وأخوه عبد المالك السعدي، على الجيش البرتغالي الذي كان يقوده «سبستيان» ملك البرتغال، وهذا الملك أيضا هو الذي أرسل جيوشه الى السوادين وفتحها، وهذا الملك ايضا الذي اشتد الرخاء في عصره وكثر الذهب حتى لقب بالذهبي، هذا الملك الذي خلد اثارا عمرانية كبيرة تشهد بحسن ذوقه، وعلو كعبه في ميدان التشييد والبناء والعمران، ومن أكبر آثاره في هذا الباب قصر البديع بمراكش الذي تحدث عنه المؤرخون بإسهاب، وذكروا ما كان يسوده من جلال وجمال، وما كان منقوشا على جدرانه وسقوفه من أشعار رائقة تعطرت باثباتها وذكرها كتب التاريخ. هكذا كانت بداية هذا القرن، ولكن هذا الملك الذي أدركه الأجل سنة 1012 بمدينة فاس خلف بعده خلْفٌ لم يضيعوا الصلوات وحدها ولم يتبعو الشهوات وحدها، بل اضاعوا الملك وعرضوا الكيان المغربي للانهيار حتى كاد الناس ان ييأسوا، وحتى كاد القنوط يعم النفوس، لقد اختلف أبناء احمد المنصور الذهبي عن العرش، وصار بعضهم يكيد لبعض، وبعضهم يحارب بعضا، وأنشأوا كتلا وتجمعات تناصر بعضهم ضد البعض، بل أن منهم من استعان بالعدو الأجنبي على بني جلدته، ومنهم من تنازل أو عرض التنازل عن بعض الموانىء والجهات المغربية

للاجانب مقابل ان يعينوه على إخوانه وأبناء جلدته، وهكذا عاش المغرب فترة زمنية في حروب وفوضى، فلم تكن هناك حكومة ثابتة، ولا اقتصاد منظم، ولم تكن هناك سلطة تهاب، وإنما صارت في المغرب زعامات وإمارات يكفر بعضها ببعض، ويلعن بعضها بعضا، كان هناك زعامة الدلائيين بالاطلس التي كان يمتد نفوذها الى فاس ونهر ابي رقراق، كانت هناك زعامة الخضر غيلان الذي جاء بعد العياشي، وكانت مجالاته في الشمال الغربي للمملكة ومقر حكمه في القصر الكبير، كان الريف خاضعا للشيخ أعراس، كان هناك إمارة بسوس على رأسها ابو حسون بودميعة من ذرية سيدي أحمد بن موسى الجزولي السملالي، كانت هناك زعامات وإمارات في جهات أخرى، لم تبلغ مبلغ هذه الزعامات أو هذه الامارات التي ذكرتها، وهكذا فبعد القوة والوحدة، وبعد الرخاء الذي عرفه المغرب في أواخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر على عهد المنصور الذهبي، تفرقت المملكة اشتاتا، وتوزعت اطرافا، واصبح ينطبق عليها ما قاله ابن الخطيب :

«وتفرقوا شيعا، فكل مدينة فيها أمير المومنين ومنبر»

لكن الله تعالى كان ألطف بعباده، فكما أنه يتجلى بجلاله يتجلى فيما بعد بجماله، وكما أن الله يغيث الناس بالمطر من بعد ما يحصل لهم القنوط يصلح الأحوال السياسية لأمة من الامم بعد ان يصيبها الفساد، (وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد)، لقد أنزل الله مطر الرحمة بالامة المغربية ونشر رحمته على عباده بأن أظهر بعد الأهوال والظلمات التي عرفها المغرب بعد وفاة المنصور الأسرة العلوية الشريفة التي انبعثت من هذه الجهة التي نوجد فيها الان، والتي كان مقرها مدينة سجلماسة.

هذه الدولة أيها الاخوان قامت لا بزعامة قبلية، كما قام بنو مرين في المغرب، ولا بدعوة دينية كما قام المرابطون والموحدون، وإنما قامت اعتمادا على ما كانت تتمتع به لدى الشعب المغربي ولا سيما سكان هذه الجهات من احترام وقداسة، لانها من سلالة رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ولأن الذين ظهروا في هذه الأسرة منذ دخل جدهم الحسن الداخل سنة 664 هـ الى هذه الارض ـ ما عرفوا الا بالخير ولا اشتهروا الا بالفضل، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم المولى علي الشريف الذي درس بالقرويين، وكان من العلماء الافذاذ، والذي بلغ من شهرته بالفضل والتقوى وحسن السيرة والشجاعة والصبر

في القتال أن دعاه المسلمون الاندلسيون، وهم في الرمق الاخير من حياتهم، الى الاندلس، فدخل بجيش مغربي اليها وجاهد في الله حق الجهاد، وإن كان الخرق قد اتسع على الراتق في ذلك الوقت، وبلغ من محبة الاندلسيين واكبارهم له انهم دعوه الى الملك فأبى، لانه لم يدخل طمعا في ملك ولا في جاه، وإنما دخل رغبة في الثواب، دخل ابتغاء مرضاة الله، فعاد من حيث اتى بعد ان ادى واجبه في تلك الجزيرة المنقطعة.

أيها الاخوان الاعزاء

في النصف الثاني، بل أواخر النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري، كانت الشخصية المرموقة في هذه الجهة، هي شخصية مولاي الشريف بن علي، وهو والد السلاطين الثلاثة الذين انشأوا حكم هذه الاسرة المجيدة، مولاي الشريف بن علي بويع هنا سنة ثلاث وأربعين وألف (1043)، وكانت الاحوال مضطربة في هذه الجهة، سيما بعدما امتد اليها نفوذ ابي حسون بودميعة، وأرسل ولاته وحكامه اليها، حكامة الذين افسدوا البلاد، وظلموا العباد، وفرضوا على الناس غرائم وضرائب قاسية تأخذ أشكالا وأسبابا متنوعة بعضها أو هي من بيت العنكبوت، حتى انهم كانوا يفرضون ضريبة على من يستظل من حر الشمس في فصل الصيف، وضريبة على من يخرج الى الشمس يستدفيء بها في الفصول الباردة، هذا الشريف بويع هنا، ولكن المحاولة الاولى لبيعته اعتراها ما يعتري المحاولات الاولى في كل حركة سياسية، فقد كان هناك أخذ ورد، بل ان مولاي الشريف نفسه قد اعتقل من طرف اتباع أبي حسون بودميعة، وأرسل الى ناحية سوس حيث عاش اسيرا، ولكن في مبرة وإكرام نظرا لمكانته الدينية، حتى أن أبا حسون زوجه هناك، وهناك في سوس ولد ابنه السلطان مولاي اسماعيل، في السنوات التي تلت بيعة مولاي الشريف، كان له أبناء وأكبرهم وأقواهم وأشدهم في ذلك الوقت هو مولاي محمد الذي كان فارسا مغوارا، وكان معروفا بقوته البدنية، ومهارته الحربية، فما زال يجاذب السملاليين أصحاب ابي حسون يجاذبهم حول الملك من جهة، ويجاذب الدلائيين الذين هم في الاطلس وفي الشمال من منطقة تافيلالت الجبل من جهة ثانية واستطاع في فترة من الفترات ان يصل الى فاس، وان يبايع بها ملكا على المغرب سنة 1059 التي توافق سنة 1649 ميلادية، ثم ضايقه الدلائيون فاختار ان يشرق، فذهب الى الصحاري والجهات الشرقية من المملكة، فكانت له صولات وجولات في نواحي

تازة والريف ووجدة وفكيك، ومنطقة الظهرة وسائر الصحاري المغربية التي كانت تمتد يومئذ الى ليبيا، حتى انه وصل الى الاغواط وعين ماضي، وهاتان المدينتان توجدان الان في قلب الصحراء الجزائرية وتبعدان مآت الكلومترات عن الحدود المغربية الحالية، وظهر أيضا وهو يخوض المعارك في تلك الجهات ويقيم أودها وينظم شؤونها، ظهر له منافس هو أخوه السلطان مولاي رشيد، ومولاي رشيد هو من العلماء النابهين، درس بفاس، وكان محبوبا من الطلبة حتى انهم تكتلوا من حوله وقام هو على رأسهم بعملية من أجرإ العمليات، وهذه العملية هي انقاذ طريق التجارة بين فاس ووسط المغرب وبين شواطىء البحر الابيض المتوسط، اذ كان هناك في ذلك الطريق يهودي على ما تذكر الروايات يعرف (بابن مشعل)، كان يعترض القوافل ويفرض عليها الضرائب، بل بلغ من تعنته وتجبره ان كان ينتهك حرمات الأوانس والعواتق من بنات فاس، فكان التجار مرغمين على ان يقدموا له عروسا في كل سنة يفتض بكرتها ويعبث بها، هذا اليهودي استطاع المولى رشيد ان يتخلص منه بعملية جريئة يمكن ان تكون اساساً لفلم سينمائي نرجو الله ان يقيض من يكتب حواره في المستقبل، لان قصته طريفة، ولان بهذا الفلم يمكن ان يخلد جزء من تاريخ المغرب.

وأغتنم هذه المناسبة فألفت نظر اخواني الكرام الى قصة ابن مشعل وأدعوهم الى ان يبحثوا عن حقيقتها وعن حقيقة ابن مشعل نفسه، وأنا معهم جاد في البحث، ذلك ان مولاي رشيد ظهر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، بينما نجد ذكر دار ابن مشعل في القرن التاسع للهجرة، رأيت في كناشه سيدي احمد زروق، الذي توفي على ما أذكر سنة 899، ذكر ابن مشعل ودار ابن مشعل، بينما المؤرخون الذين جاءوا من بعد سيدي احمد زروق بقرنين يشيرون الى ان مولاي رشيد هو الذي قتل ابن مشعل وأن مقتل مولاي محمد كان في دار ابن مشعل قبل ان ينقل الى مدفنه في بسيط انكاد، وفي بعض الروايات انه نقل فيما بعد الى تافيلالت، على اي حال حصلت منافسة بين الاخوين وانتهى الامر بانتصار مولاي رشيد وقتل مولاي محمد، وكان ذلك سنة 1075، واذ ذاك صفا الجو لمولاي رشيد، صفا له الجو من منافس من اسرته، فانطلق يمهد ملك العلويين في المغرب، فاستولى على فاس بعد أخذ ورد، وذهب الى مناطق اخرى فاستولى عليها، وقضى على الزاوية الدلائية وخربها وان لم يهن رجالها، واستولى كذلك على مراكش الى ان ادركه بها الاجل سنة 1082 هـ، فخلفه أخوه

السلطان العظيم الذي كان أصغر منه سنا، وهو مولاي اسماعيل بن الشريف الذي كان خليفة عنه في مدينة مكناس، وبدأ ينشيء بها الجنات والمغاني والقصور، ثم حاول فيما بعد أن يجعل منها عاصمة تضرب بها الامثال على غرار ما سمع عن «فرساي» عاصمة لويس الرابع عشر، هذا السلطان الجليل، مولاي اسماعيل الذي طال ملكه سبعة وخمسين عاما، هذا الملك هو الذي يعتبر المؤسس الاكبر لهذه الاسرة، اولا لان ملكه طال هذه المدة من سنة 1082 هـ الى سنة 1139 هـ، ولانه استطاع خلال هذه المدة ان يهديء المغرب ويهدنه وينظمه، وينشيء له جيشا قويا وينجز عددا من الاعمال العمرانية والسياسية والدبلوماسية لهذه المملكة، هؤلاء الاخوة الثلاثة ايها الاخوان جديرون بدراسات معمقة وابحاث مستفيضة مفصلة، تعتمد على ما خلفه المؤرخون المغاربة من كتب وياما اكثر ما كتب من كتب عن هذا العهد، ولكن كثيرا من الجوانب لا تزال غامضة فيما يتعلق بحكم هؤلاء الملوك او السلاطين الثلاثة، ولا يمكن للانسان الا ان يقر ويعترف بفضل هؤلاء الملوك، وسنعترف اكثر وأكثر عندما ترفع الحجب المسدلة الان على بعض الجوانب من أعمالهم ومنجزاتهم، فهم الذين اعادوا للمغرب وحدته، وهم الذين رسخوا وتبثوا كيانه بعد أن كان موزعا اشتاتا وأطرافا.

كان المغرب قبل قيام الاسرة العلوية كما تعلمون، قد ذكرت بعض الامارات والزعامات المحلية والجهوية في المغرب، ولكن لم أشر الى اشياء اخرى كانت في الشواطىء، لقد كانت اكثرية مدن الشواطىء المغربية محتلة او مهددة بالاحتلال او مضايقة بالاحتلال، سبتة ومليلية وطنجة وجزر ملوية وجزيرة بادس وجزيرة نكور، واصيلة والمعمورة والجديدة، كل هذه كانت تحت الاحتلال الاجنبي، اسباني وانجليزي وبرتغالي، وقد استطاع المولى اسماعيل على الخصوص ان يحرر بعض هذه المدن ويستعيدها للدولة المغربية، وله فضل في ذلك كبير، وله اعتراف واي اعتراف من التاريخ والمؤرخين على ما فعل، ومولاي اسماعيل هو الذي أنشأ جيشا قويا لهذه المملكة، وهو الذي أنشأ في كل طريق قلاعا وحصونا وقصبات تقيم فيها حاميات عسكرية تحرس الطرق وتؤمن السابلة، وتضمن الطمأنينة على الانفس والاموال للمارين، وهؤلاء الملوك الثلاثة هم الذين انشأوا علاقات دبلوماسية مكثفة ولا سيما على عهد المولى اسماعيل مع الدول الاوروبية، وقد بلغ من عظمة مولاي اسماعيل أنه دعا ملكين

من اعظم ملوك اوربا، وهما ملك فرنسا لويس الرابع عشر، وملك انجلترا جاك الثاني الذي حصلت بينه وبين أمته نزاعات لانه اتهموه بالميل الى الكاثوليكية، ومعاداة البروتستانية، هذا السلطان الجليل دعاهما الى الدخول في الاسلام، لقاء اعانة يعينهم بها لتثبيت عروشهم وضمان ملكهم، فهؤلاء الملوك الثلاثة الذين سيدور احد المحورين في هذه الندوة عليهما، ولاشك ان ما كتب عليهم ليس بالشيء القليل، ولكن ما لم يكتب هو اكثر وأكثر، وتنبغي بالخصوص الاستعانة والرجوع الى المؤلفات التي كتبها المؤلفون المعاصرون او الدين جاؤوا من بعدهم، وهي كثيرة، بعضها معروف وبعضها مجهول، ولكن التجربة التي قضيناها في هذه السنين الثلاثين الأخيرة علمتنا ان اليأس بالنسبة لمصادر التاريخ المغربي ينبغي ان يزول لان الشيء الذي ظهر خلال هذه العشرات من السنين الاخيرة علمتنا ان هناك أشياء موجودة، وإنما ينبغي الصبر في البحث عنها كما ينبغي انتشار الوعي لدى الذين يحتفظون بها ويقتنونها ولسبب من الاسباب ربما لقلة الوعي فقط لا يريدون ان يظهروها، كما ينبغي الاستعانة ايضا، وهو شيء ضروري، بما كسبه الاجانب، وبالوثائق الاجنبية المحفوظة في الخارج، والتي سيحدثكم عنها اخونا الاستاذ الكبير السيد عبد الهادي التازي، فهذه الوثائق تكشف لنا حقائق يسكت عنها المؤرخون المغاربة بالمرة، او يشيرون اليها اشارات عابرة لا تسمن ولا تغني من جوع الباحث والدارس.

اخواني الاعزاء

هذا، كما قلت، مدخل لهذا المحور الاول، وهم الملوك المؤسسون الثلاثة للاسرة العلوية المجيدة، ونرجو ان شاء الله، بل نحن متيقنون اننا سنستمتع وسنستفيد من معارف واستنتاجات اخواننا العلماء الاجلاء الذين دعوا الى المشاركة في هذه الندوة، لاننا نعرفهم ونقرأ انتاجهم ونستفيد منهم، ولا شك ان الاجيال الحاضرة والاجيال المقبلة ستكون مدينة لما يبذلون من جهود ويقومون به من دراسات وأبحاث ربما تكون احيانا على حساب صحتهم او على حساب أسرهم، ولكن إخلاصهم لوطنهم وغيرتهم على تاريخ بلدهم، تجعلهم يستهينون بكل صعب ويسترخصون كل غال ونفيس في سبيل اظهار عظمة المغرب وبيان فضله ومجده وما اسدى من خير للانسانية في ماضيه، فهم مشكورون، ونحن بعلمهم منتفعون، والسلام عليكم ورحمة الله.

من مواجهات الدولة العلوية للتحديات

عبد الهادي التازي

كنت سعيدا ـ حقيقة ـ أن أتوصل بدعوة من زميل عزيز هو الاستاذ محمد بن عيسى الذي يعمل جادا، يعمل جادا في الحقل الذي كم نحن في حاجة الى الجدية فيه، وحتى لا اخذ كثيرا من وقتكم فسأكتفي بإضافة تزكيتي الكاملة لما قاله الزميل الاستاذ السيد عبد الوهاب ابن منصور في حق معالي السيد الوزير وفي حق عامل صاحب الجلالة على هذا الأقليم، وسأدخل مباشرة للموضوع الذي أرجو ان اكون مختصرا فيه والذي أحيلكم فيه على البحث الذي كتبته بعنوان : «تأسيس الدولة العلوية والتحديات الخارجية»، فأبتدىء اولا باقتباس كلمة جميلة دالة سمعناها من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني في استجواب صحفي قبل نحو من ثلاثة أسابيع، تحدث في هذه الكلمات بتعبير جميل ذكي عن تاريخنا ومراحل تاريخنا.

يقول صاحب الجلالة : «إننا إذا قمنا بتخطيط إليكترو تاريخي لبلادنا فسنجد كذا وكذا.» هذا التعبير «إليكترو تاريخي» اعجبني لانه يصور حقيقة كان يسمى «بالكراغلة»، وانتم تعلمون ما مدلول «الكراغلة» الذي هو جمع كرغلي، والكرغلي هو الناشيء بين اب تركي وام عربية، على كل حال القضية

تحتاج الى كثير من الدرس وتحتاج الى كثير من التعمق الذي يثير الانتباه حقا في الرسائل المتبادلة بين القمة، كان الان يفوق الوصف فيما يتصل بصفاء الجو بين الجهتين..

سيقف الزملاء الاعزاء على رسالة جد خطيرة عبارة عن منشور دوري وجه من السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى دول اوربا حتى لا يقفوا بجانب اتراك الجزائر في تمردهم على الذين يرأسونهم في اسطانبول ! هذه الرسالة المغربية تكشف المصادر العثمانية عن انها كانت باتفاق مع الباب العالي، وقد سبب ذلك الموقف للمغرب متاعب شتى لكنه كان دائما يتمسك بالصبر ويتدرع بما يفرضه حسن الجوار على ما نسمعه في كثير من تلك التواريخ، المغرب كان يجد نفسه امام اخوة له تجمعهم معه اصرة الدين. احيانا ومن اغرب ما يجب ان نلاحظه في هذا التاريخ على ما اذكر ان الاصطدامات والاحتكاكات التي كانت تقع بيننا وبين اتراك الجزائر، كانت احيانا بوحي من قوة خارجية بعيدة عن الجزائر والمغرب، بحيث سيكون من حقكم ان تتبعوا أوقات الاصطدام الثنائي بين الطرفين وتبحثوا عن اسبابه في الوثائق الفرنسية، في المراسلات التي تبودلت بين ملوك فرنسا واتراك الجزائر، كان المغرب في كل هذه المواقف ازاء جيرانه، كان يجد نفسه متمثلا بقول الشاعر الذي يقول :

قومي هموا قتلوا أميم اخي فإذا رميت يصيبني سهمي !!

ولذلك كان المغرب دائما يلجأ الى نوع من أنواع الصبر والتحمل حتى تفرج الامور..

السيد الوزير

السيد عامل صاحب الجلالة

السيد مؤرخ المملكة

السادة الزملاء

أردت ان لا يطول بحثي أمامكم وانما هي افكار اثرتها امامكم، والبحث سيوزع عليكم جميعا... فيما يتصل بالسيد الوزير أنا اقدر وأكبر تحديده للتاريخ الذي ينبغي ان تكون فيه هذه الندوة في كل سنة، ينبغي ان يكون لها تاريخ معين بحيث يحسب له الحساب ويدخل في يومياتنا حتى نستفيد من هذه الندوة، لي

الجهة الاولى بقية افريقيا السوداء اقول بقية افريقيا لان المغرب من دول افريقيا كما نعلم.

الجهة الثانية الدولة العثمانية ـ الدولة العثمانية البحث في وثائقها يصطدم بعدة عراقيل، في صدر تلك العراقيل موقف الحكومة التركية، ونقولها بصراحة، الحكومة التركية تدعي انها ما تزال في طريق ترتيب ارشيفاتها، ولذلك فان المتتبع او الذي تمكن من الوصول الى اسطانبول، لا بُد ان يجد نفسه امام عدة متاعب، ومع ذلك بفضل وجودي قريبا من تركيا عندما كنت سفيرا لبلادي في بغداد، كنت اتردد على اسطانبول وكنت اعثر على بعض الوثائق الهامة، المكتوبة احيانا باللغة العربية وأحيانا باللغة التركية.. وسأغتنم هذه الفرصة لاجعل بعضها رهن اشارة الباحثين وهي توجد عندي هنا في هذا الملف خاصة فيما يتعلق بعهد سيدي محمد بن الشريف ومولاي رشيد ومولاي اسماعيل، هذه الوثائق كما قلت لكم كتبت احيانا باللّغة العربية وكتبت احيانا باللغة التركية.. الذي اريد هنا امام الاخوان ان اقوله ـ فيما يتصل بهذا المصدر التاريخي الهام والهام جدا جدا.. ان علاقتنا بالعثمانيين كانت تصطدم بعدة عراقيل، العرقلة الاولى ان العثمانيين كانوا يرتبطون مع فرنسا بمعاهدة ثنائية : الاتفاقية التي ابرمت بين سليمان القانوني وبين فرانسوا الاول، هذه الاتفاقية كانت تجعل من فرنسا والعثمانيين حلفاء ملتزمين بمحاربة اسبانيا، في حين نحن المغاربة كنا لا نرى وجها لمحاربة اسبانيا من دون ما موجب، هذه التعقيدات كلها تكشفها هذه الوثائق التي عثرنا عليها في ارشيف الباب العالي. ان الامر الذي استنتجته، واقوله بكل تواضع وانتظر من اخواني وزملائي ان يؤيدوه او ينتقدوه هو انه ـ خلافا لما يقال عند كثير من المؤرخين ـ انه لم يكن هناك اطلاقا واقول اطلاقا بهذه اللفظة، لم يكن بيننا وبين الباب العالي اطلاقا اي سوء تفاهم، الذي كان بيننا وبينه في بعض الاحيان احتكاكات واصطدامات هم الاتراك في الجزائر ! بحيث ان الرسائل المتبادلة بين ملوك الباب العالي وبين الملوك العلويين كلها كانت تفيض لباقة ومجاملة احيانا، اكثر من هذا كان الفريقان، الشرقي في اسطانبول، والغربي في فاس، كانا يشعران بثقل العبء الذي يفرض من قبل اتراك الجزائر على المغرب او على العثمانيين انفسهم ! بحيث ان الفرنسيين ـ وهم اصدقاء العثمانيين ـ كانوا يشكون دائما من اتراك الجزائر لانهم كانوا لا يسيرون وفق احترام المعاهدات.. وهذه نقطة جد مهمة وتحتاج منا الى دراسات نفسية وتاريخية واجتماعية لما يوجد عليه اتراك الجزائر انذاك او ما

يده، هذا التقرير يحتوي على 13 صفحة، كتبه بأسلوبه الدبلوماسي على ذلك العهد، يحذر شارل - نظرا لما يربطه معه من صداقة - يحذره بأنه ينبغي له أن يحل مشكلة طنجة قبل ان يتوجه اليه مولاي اسماعيل ! وهو - في الواقع وبالتأكيد - كان متفقا مع السلطان مولاي اسماعيل حتى يُخوِف شارل الثاني ! والتقرير في منتهى الاهمية لانه يتناول من خلاله الموقف العثماني من القضية المغربية..

وهناك كذلك من الامور التي استرعت انتباهي وانا اعالج هذا التاريخ الدولي، ما يتصل بعلاقات المغرب مع فرنسا والتي لاشك ان زملاءنا سيتناولونها باسهاب، ومع اسبانيا ومع البرتغال ومع الكثير من الدول التي اجد امامي هنا لائحة بها : مع البلاد المنخفضة، مع بروسيا، مع النامسا، مع روسيا، مع جنوة، فلورانسا، البندقية، سردينيا، موناكو، صقلية، ومع الولايات المتحدة الامريكية.. ولكن لابد لي هنا ان الفت النظر الى جهة من الجهات الاخرى، وأترجى معالي الوزير والمشرفين على هذه الجامعة أن يهتموا بها وأعتبرها من النقط الاساسية في التأريخ لبداية الدولة العلوية وتعتبر كما يقول الفرنسيون قطب الرحا (Le point Focal) وهي ما يتعلق بالوثائق التي توجد في الفاتكان، ولا أقصد فقط بالفاتكان ما تحتوي عليه أرشيفات الفاتيكان في روما، في المقر المعروف للفاتكان، ولكن كذلك ما يوجد في ساحة اسبانيا من روما، مما يعرف في الملفات هناك بـ (La Propaganda)، انتم تعلمون أن الكنيسة كانت تتبع باهتمام كبير تحركات المغرب، عن طريق رجال الدين الذين كانوا يتوسطون بين الملوك وبين الدول الاخرى فيما يتصل بعلاج القضايا «ذات الاهتمام المشترك» كما نقول اليوم، هذه الملفات بقيت على الرف، وقد وجدت فيها ما يغرق من الوثائق، مكتوبة بكل صراحة بلغات اخرى وبالاخص باللغة الايطالية، هذه الجهة من الجهات الهامة التي ينبغي ان يلتفت اليها.. أنا اتحدث كما تلاحظون باختصار لانني لا اريد ان ادخل في التفاصيل وقد قصدت ان اثير الانتباه لبعض اللقطات التاريخية فقط مؤملا ان أستفيد من تدخلات السادة الزملاء في الجلسات المقبلة...

وهناك من الجهات الخارجية التي تعمدت تأخير الكلام عنها الامبراطورية العثمانية، الوثائق التركية، وينبغي ان نعترف بأن جهتين اثنتين ما تزالان في الظل فيما يتصل بالتأريخ للدولة العلوية الشريفة.

تطور تاريخنا عبر الدول الماضية، فعلا سنجد ان هذا المغرب كان يتمتع حقيقة بمواقف تتسم بكثير من انواع التحدي، بدأت بهذا لأذكر انني من خلال ممارستي لكتابة تاريخ المغرب لم أقف إطلاقا على دولة من الدول التي مرت بهذا المغرب، نشأت كما نشأت الدولة العلوية الشريفة، الدولة العلوية حقيقة واجهت أنواعا كثيرة من التحدي : تحدي على الصعيد الداخلي وتحدي كذلك على الصعيد الخارجي، هذا التحدي الخارجي الذي انعكست اثاره في الارشيفات الاوروبية، واقصد كذلك بالارشيف الاوربي الارشيف العثماني الذي يصور جدا المرحلة الحاسمة التي قامت فيها الدولة العلوية. وتجسيدا لما قاله الزميل الاستاذ عبد الوهاب في مدخل الدولة العلوية أحضرت لكم نموذجا لخريطة تؤكد ان المغرب كان على عهد قيام الدولة العلوية ليس مغربا واحدا ولكنه سبعة مغارب بالاضافة الى المغارب الاخرى التي كانت تحت الهيمنة البريطانية او تحت الهيمنة البرتغالية او الاسبانية ! هذه الخريطة تعمدت ان تكون ملونة لتبين هذا المزيج، هذه الفسيفساء التي تثبت حقيقة ما اقول هنا، ظهرت الدولة العلوية الى جانب الامبراطورية العثمانية في الجزائر.. ومع وجود الزعيم اعراس والخضر غيلان في الشمال، والدلائيين بفاس ومملكة مراكش، وبقايا السعديين ايضا بمراكش، ومملكة سوس، اضافة الى ما قلنا.. من وجود بريطانيا واسبانيا والبرتغال في بعض اطراف المغرب !! هذه الخريطة مأخوذة حقيقة من مراجع بريطانية علاوة على «مصادر دوكاستري» فقد ذكرها وليفريد بلونط (WILFRID BLUNT) الذي كتب تأليفه «بلاك سانرايز» وتعرض لها كذلك «دوكاستري» في موسوعته «مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب (S.I.H.M) وهي تؤكد بكيفية لا يختلف فيها اثنان هذه الحقيقة.. فلنرجع الى التحديات فيما يتصل بالعالم الخارجي، وسأشير في البداية الى التحدي الذي كان يتمثل في بريطانيا، وبريطانيا في ذلك الوقت، ما ادراك ما بريطانيا ! لقد سمعنا عن السفارات المتبادلة بين السلطان مولاي اسماعيل وبين بريطانيا فيما يتصل اولا بتحرير طنجة، وسأذكر تأكيدا لما قاله السيد الوزير فيما يتعلق بالاهمال الملحوظ فيما يتصل بتاريخنا، انه فيما يتصل بتاريخ طنجة، ذهب سفير مغربي اشتغل مع الدولة اكثر من اربعين سنة، ولم يحظ في كتب التاريخ المغربي بنصف سطر واحد من الذكر ! هذا هو ابن حدو، ابن حدو الذي كان يتقن اللغة الانجليزية والذي كان يقول الشعر باللغة الانجليزية والذي اصبح عضوا في اكاديمية المملكة البريطانية، وقد احضرت لكم تقريرا كتبه الى شارل الثاني بخط

رجاء واحد آخر وهو أن ارى الدورة المقبلة تشهد وجود الفتاة المغربية معنا !! لم أر وجها هنا بيننا، أنتم تعلمون ان من المصادر البارزة لتاريخ الدولة الحديث شخصية الاميرة خناثة زوجة السلطان مولاي اسماعيل، هذه خناثة التي ضبطتُ لها ازيد من عشرين مراسلة مع ملوك فرنسا وهولندا واسبانيا. لماذا شاركت خناثة بالامس وهي من هذه المنطقة ولا تشارك اليوم خناثة جديدة في هذا الملتقى ؟

شكرا لكم سيدي الوزير وشكرا لكم السادة الاعزاء !!

المصادر الرئيسية لتاريخ الدولة العلوية

محمد المنوني

تعتبر الدولة العلوية أكثر الدول المغربية مصادر تاريخية، اعتبارا بانفساح أيامها، واعتبارا ـ أيضا ـ بمعايشتها لمرحلة نهضة أوربا وخصوصا القرن التاسع عشر، حيث ازدهرت كتابة التاريخ بأوربا، وفي فرنسا بصفة أخص.

وقد بدأ تدوين المصادر العلوية مع أيام السلطان مولاي إسماعيل، ثم ازدهرت كتابتها ـ فيما بعد ـ عبر أيام ثلاثة من الملوك، انطلاقا من العاهل سيدي محمد بن عبد الله، وبتوجيهه كان تدوين سفرائه لرحلاتهم، حتى يسجلوا بها ارتساماتهم عن الدول التي سفروا إليها.

وبعد محمد الثالث، فإن حفيده السلطان محمد الرابع، هو الذي اقترح على اكنسوس تأليف «الجيش العرمرم».

ثم تصاعد هذا الاهتمام مع السلطان الحسن الأول، وهو المشير على شيخه أحمد بن الحاج العالم الفاسي، بتدوين « الدر المنتخب المستحسن»، وفي مراكش ندب عالمها محمد بن ابراهيم السباعي، إلى تأليف «البستان الجامع لكل نوع حسن».

وبهذه المبادرات، مضافا لها أعمال خواص المؤلفين، تجمعت ثروة

مصدرية ضخمة، وهي التي يحاول هذا العرض ان يلم بنظرة سريعة على خطتها، فنشير - اولا - إلى مؤرخين يقدرون مهمتهم، ومنهم الزياني في «الترجمان» ومشتقاته، ثم الناصري في «الاستقصا».

بينما كان معظم الباقي من المؤرخين، علماء مرموقين ولامعين في تخصصاتهم، غير انهم لم يزاولوا مهنة التاريخ، فلما ألفوا في هذه المادة لم يسيروا على خطة واضحة، وضخموا أعمالهم بالاستطرادات المنوعة، ومع هذا ننصفهم بأنهم حافظوا على مجموعة مهمة من الافادات الموضوعية، وكانت تضيع لو لم يدونوها.

وملاحظة أخرى : ان غالب هؤلاء المؤرخين اهتموا بالجانب السياسي، واهملوا الالتفات الى بحث المجتمعات.

وإلى هنا : نشير إلى ان هؤلاء المؤرخين ينقسمون - مبدئيا - إلى رسميين وأشباه الرسميين : الزياني، وأكنسوس، وابن الحاج، والسباعي، وابن زيدان.

ومن فريق غير الرسميين نذكر الضعيف، والجعيدي مؤلف الابتسام، ثم الناصري والحاج المشرقي وسواهم.

كما أن هذه المؤلفات تتفرع إلى كتب في عموم تاريخ الدولة، وأخرى في سيرة ملك بمفرده، وثالثة تتناول العلويين ضمن تاريخ المغرب العام، كواقع «الاستقصا»، ويمكن أن يضاف له «الترجمان».

وفي اتجاه آخر : يأتي التاريخ العلوي خلال مؤلفات التراجم : «نشر المثاني»، و«التقاط الدرر»، و«سلوة الأنفاس»، و«إتحاف أعلام الناس»، و«الاعلام» المراكشي، وغيرهم.

والآن : نشير الى مؤلفات ملحقة بهذه المادة، ومنها الرحلات العلوية، اعتبارا بأنها تؤرخ للوجه الدبلوماسي للدولة، ومثلها في ذلك الوثائق الدولية.

وثالثا : المؤلفات في تراجم الموظفين الرئيسيين : الوزراء والكتاب ومن إليهم، مثل «فواصل الجمان» وما ضاهاه.

ثم المجموعات الشعرية والقصائد في مديح الملوك، مع التحفظ من تجاوزات الشعراء.

فضلا عن كتب الأنساب التي تؤرخ للأسرة العلوية.

وهذه الأنماط، سيقدم العرض التالي نماذج منها على الترتيب الآتي :

- الرحلات كوجه للدولة دبلوماسيا.
- الوثائق.
- تاريخ عموم الدولة.
- تاريخ الدولة ضمن التاريخ العام للمغرب.
- سير الملوك.
- تراجم الموظفين بالبلاط.
- مؤلفات الانساب.
- المجموعات الشعرية.
- مؤلفات موضوعية للملوك والامراء.

فهي تسعة اقسام، تستوعب 104 من نماذج المصادر العلوية.

الرحـلات

1) رحلة الوزير في افتكاك الاسير، وكلمة الوزير الواردة في العنوان هي اللقب العائلي للمؤلف : محمد بن عبد الوهاب الغساني الاندلسي ثم الفاسي، ت 1119 / 1708-07.

كتبها عن رحلته الى اسبانيا، سفيرا عن السلطان مولاي اسماعيل الى كارلوص الثاني عام 1102 / 1691-90
من منشورات مؤسسة فرنكو بالعرائش 1940.

2) رحلة الاسحاقي : محمد الشرقي بن محمد.
تاريخ وفاته غير مضبوط.
وحج عام 1143 هـ، في رفقة الاميرة خناثة ام السلطان مولاي عبد الله.
خ. س 1428 ز : المجلد الاول.

3) «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» تأليف الغزال : أحمد بن المهدي بن محمد الحميري الاندلسي الفاسي ت 1191 / 1778-77.

سجل بها ارتساماته عن الرحلة التي قام بها الى اسبانيا، سفيرا عن السلطان محمد الثالث الى كارلوص الثالث. عام 1180ـ79 / 1766.
منشورة في تطوان ثم في بيروت.

4) «الاكسير في فكاك الاسير» : اسم رحلة سفارية لابن عثمان : محمد ابن عبد الوهاب المكناسي، ت 1214 / 1799.
الفها عن سفارته الأولى عن السلطان العلوي محمد بن عبد الله عام 1193 / 1779، وكذلك الى ملك اسبانيا كارلوص الثالث، في شأن تجديد الصلح، وافتكاك الاسرى الجزائريين باسبانيا.
منشورة بتحقيق الاستاذ محمد الفاسي.

ولابن عثمان «البدر السافر، لهداية المسافر الى فكاك الاسرى من يد العدو الكافر».
كتبها عن سفارته الثانية، وكان فيها سفيرا عن نفس العاهل لدى حاكم مالطة، ثم امير نابولي، عام 1195 / 1781، قصدا لافتداء الاسرى المسلمين بالولايتين.
خ. س. 12523
خ. ع. حـ 52.

6) ولابن عثمان «احراز المعلى والرقيب، في حج بيت الله الحرام، وزيارة القدس الشريف والخليل، والتبرك بقبر الحبيب».
وهو عن رحلته الثالثة سفيرا عن السلطان المنوه به الى اسطنبول ثم الحرمين الشريفين، عام 1200 / 1785.
خ. س. 5264
خ. س 12307

7) «الترجمانة الكبرى، التي جمعت اخبار المعمور برا وبحرا» للزياني : ابي القاسم بن احمد بن علي نزيل فاس، ت 1249 / 1833.
جمع فيها مقيداته عن رحلاته المشرقية الثلاث، وكان في الثانية منها سفيرا عن السلطان محمد بن عبد الله الى اسطنبول عام 1200 هـ.
منشورة باعتناء الاستاذ عبد الكريم الفيلالي.

8) «الرحلة الابريزية الى الديار الانجليزية»، مؤلفها هو الفاسي : محمد الطاهر بن عبد الرحمن بن محمد الرضي الفهري، ت 1285 / 1868.

سفر فيها كاتبا للبعثة التي وجهها السلطان محمد بن عبد الرحمان، الى فيكتوريا ملكة بريطانيا، عام 1276 / 1859.

منشورة

9) «تحفة الملك العزيز بمملكة باريز»، للعمروني، الحاج إدريس بن محمد ابن إدريس الفاسي، ت : 1296 / 1878.

وهي عن رحلته لفرنسا عام 1276 / 1859، وكان فيها سفيرا عن السلطان محمد بن عبد الرحمن الى نابليون الثالث.

منشورة.

10) «رحلة» الصفار : محمد بن عبد الله بن عبد الكريم الاندلسي ثم التطواني، ت 1298 / 1881.

ذهب الى فرنسا عام 1261 / 1845، كاتبا لسفارة قائد تطوان الحاج عبد القادر البخاري، عن السلطان مولاي عبد الرحمن، الى الملك لويس فيليب الأول، وعن هذه السفارة سجل الرحلة المنوه بها.

خ. س 113.

11) «تحفة الاحبار بغرائب الاخبار»، تأيف الجعايدي : ادريس بن محمد الحسني السلوي، ت : 1308 / 90-1891.

سجل فيها ارتساماته عن الرحلة التي ذهب فيها كاتبا لبعثة الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي، سفيرا عن السلطان الحسن الاول، الى فرنسا وانجلترا وايطاليا وبلجيكا عام 1293 / 1876.

منها مخطوطه ناقصة في الخزانة العلمية الصبيحية بسلا.

12) «التحفة السنية للحضرة الحسنية بالمملكة الاصبنيولية»، تأليف الكردودي : احمد بن محمد بن عبد القادر الكلالي الفاسي، ت 1318 / 1900.

وهي عن رحلته امينا في السفارة التي أوفدها السلطان الحسن الأول إلى ملك اسبانيا الفونسو 12 عام 1302 / 1885.

من منشورات المطبعة الملكية بالرباط.

13) كناش عن رحلة السلطان الحسن الاول الى سوس عامي 1399، 1303 هـ.
من مصورات خ.ع 21. «فيلم».

14) «رحلة شمال المغرب» تأليف المشرفي : الحاج العربي بن عبد القادر الحسني المعسكري الغريسي نزيل فاس، ت : 1313 / 1895.
دون فيها مسار الرحلة الحسنية الى هذه المنطقة، ابتداء من 17 شوال 1306 هـ.
خ. س 2420.

15) «رحلة تباشير الفرح» اسم رحلة حسنية من نظم الخالدي : خليل ابن صالح العامري الحسني التلمساني نزيل فاس، ت : 1326 / 1908.
ارجوزة بها 605 بيتا، نظم فيها مراحل واخبار الرحلة الحسنية الى تافيلالت عام 1311 هـ.
منشورة في المطبعة الحجرية الفاسية في حجم صغير.

16) «رحلة السلطان مولاي يوسف الى فرنسا»، دون اعمالها كاتب فرنسي اهتم فيها بالرسميات، ثم عربها عبد السلام بن يوسف المترجم الممتاز.
نشرت عام 1927 موضحة بالصور، في المطبعة الدولية بباريس في حجم كبير عريض.
وجاء عنوانه «اقتبال جلالة مولاي يوسف سلطان المغرب الاقصى بقصر البلدية بباريس، وافتتاح المعهد الاسلامي ومسجد باريس».

17) «رحلة الجلالة المحمدية الى طنجة»، تأليف الكردودي : أحمد بن محمد الحسني الكلالي الفاسي نزيل الرباط، ت : 1391 / 1971.
وصف فيها الزيارة الملكية التي قام بها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس الى طنجة عام 1366 / 1947.
خ. س 10339.

18) «رحلة الجلالة المحمدية الى الولايات المتحدة»، للمؤلف نفسه.
وهي عن رحلة العاهل ذاته الى الولايات المتحدة سنة 1957، ايام الرئيس إيزنهاور.

خ. س 10340.

19) «رحلة الجلالة المحمدية، الى الشرق العربي» لنفس المؤلف.
وهي عن رحلة العاهل المنوه به عام 1379 / 1960 الى المشرق العربي : مصر وسوريا والسعودية وعمان والكويت والعراق وبيروت.
خ. س 10341.

20) «مع جلالة الحسن الثاني في باريس» (1970) تأليف الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة.
المطبعة الملكية بالرباط سنة 1970.

21) مع جلالة الحسن الثاني في فاس وتازة ووجدة وتلمسان (1970) لنفس المؤلف.
المطبعة الملكية بالرباط سنة 1970.

22) مع جلالة الحسن الثاني في نوانيبو (1970) للمؤلف ذاته
المطبعة الملكية بالرباط 1970.

23) ولنفس المؤلف : مع جلالة الملك الحسن الثاني في حاضرة الفاتيكان (1980).
المطبعة الملكية بالرباط 1400 / 1980.

24) مع جلالة الملك الحسن الثاني في نيروبي وجدة ومكة (1981) للمؤلف نفسه.
المطبعة الملكية بالرباط 1401 / 1981.

25) الرحلة الملكية الى المملكة المتحدة البريطانية (1987) للمؤلف المنوه به.
المطبعة الملكية بالرباط 1407 / 1987.

26) «التحفة السنية بالرحلة الملكية الحسنية الى العاصمة الجزائرية» (1988) تأليف الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة.
المطبعة الملكية بالرباط 1408 / 1988.

27) دفاعا عن الوحدة الترابية للمملكة المغربية.
للدكتور عبد الهادي التازي.
كتبه عن رحلة صاحب السمو الملكي.
ولي العهد الامير سيدي محمد، في اول مهمة سياسية بأفريقيا (1980)
نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي.

الوثـائـق

صنف أول :

28) الاتفاقات الدولية للسلطان سيدي محمد بن عبد الله.
نشرها الاستاذ كايي بالرباط سنة 1960.

29) «كناش شروط الاجناس»، به عقود ومعاهدات بحرية وتجارية بين الدولة العلوية ودول اروبا : ابتداء من عام 1180 هـ الى عام 1310 هـ.
خ. ع. د 1694.

30) «كناش في شؤون بحارة العدوتين».
يبتدى من شعبان عام 1183 / 1769.
خ. ع. د 1409 : مصور من المكتبة الناصرية بسلا.

31) «اربع وثائق عن العلاقات الفرنسية المغربية».
قدم لها ونشرها بالفرنسية الاستاذ حانون هوست رينو : من سنة 1794 الى سنة 1810.
مجلة هيسبريس.

32) رسالة - بالانكليزية - من الرئيس الامريكي الاول جورج واشنطن، الى السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

وفيها يتوسل الرئيس الامريكي بالعاهل العلوي، لاستخدام نفوذه على باشوات تونس وطرابلس، للسماح للسفن الامريكية بالملاحة في حوض الابيض المتوسط.

الرسالة منشورة - في نصها الاصلي بالانكليزية مع ترجمتها الفرنسية

ـ في كل من جريدتي «ماروك سوار» و«لوماتان الصحراء»، في تاريخ موحد : الاربعاء 27 فبراير 1985 / 6 جمادى الثانية 1405.

33) «وثائق لدراسة تاريخ المغرب».
اصدار المكتبة العامة بتطوان في ثلاثة اجزاء، من اعداد الاساتذة احمد المكناسي، ومصطفى الكوش، ومحمد الغازي الرويفي والمهدي الدليرو.

وهدف مؤلفوها الى فهرسة الوثائق التاريخية في المكتبة العامة بتطوان، وبذلك عرفت المجموعة بـ 1704 وثيقة عن عصر السلطان الحسن الاول.

34) «الوثائق» هو عنوان المجموعة الدورية التي تتابع اصدارها مديرية الوثائق الملكية بالرباط، من اعداد الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور، مدير المؤسسة، ومؤرخ المملكة.
صدر منها ست مجموعات تستوعب 873 وثيقة عن المطبعة الملكية بالرباط.

35) «انبعاث امة».
مجموعة كبرى لتسجيل متنوع الوثائق عن النشاط الملكي ايام المغفور له جلالة الملك محمد الخامس، وامتدادا مع عصر جلالة الملك الحسن الثاني، صدر منها 33 جزءا موزعة على السنوات، آخرها عن عام 1988 المطبعة الملكية بالرباط.

36) نص البيعة التي رفعها سكان مدينة الداخلة وإقليم وادي الذهب الى صاحب الجلالة أمير المومنين الحسن الثاني ـ أيده الله ـ القصر الملكي بالرباط.
إصدار مديرية الوثائق الملكية ـ بالرباط.
المطبعة الملكية بالرباط 1979/1399.

37) «ملف الصحراء المغربية الغربية».
اعداد الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور مؤرخ المملكة.
المطبعة الملكية بالرباط 1405 / 1984.

38) «تاريخ المغرب الدبلوماسي»، تاليف الاستاذ الدكتور عبد الهادي التازي.

موسوعة مغربية لمصورات الوثائق الدبلوماسية الوطنية الغميسة، مع تعريف بها، ودراسة عن عصورها، مما جعل هذا العمل اسهاما فريدا في البحث التاريخي المغربي، فضلا عن ما يكشف عنه من جهد بذله المؤلف في التنقيب عن الوثائق، وهي متناثرة ودفينة احيانا في مراكز الأرشيفات بالبلاد الاسلامية والاجنبية.

ومن جهة اخرى، فان «تاريخ المغرب الدبلوماسي» يعتبر تتمة وافية لما لم يدونه دوكاستري ومن جاء بعده، على ان تاريخ المغرب الدبلوماسي سيتكامل اكثر، بالاضافات التي وعد المؤلف بانجازها استقبالا، بعدما نشر منه عشرة مجلدات.

صنف ثان من الوثائق :

39) الرسالة الكبرى لأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، ت : 1102/1691.

40) الرسالة الصغرى لنفس المألف. وهما - معا - برسم السلطان مولاي إسماعيل، منشورتان ضمن مجموعة «رسائل أبي علي اليوسي».

41) مراسلات بين اطراف متعددة، والمعني بالامر جملة رسائل متبادلة، بين الامير العلوي مولاي محمد الاول من جهة، مع الرؤساء الذين تقاسموا النفوذ بالمغرب في فترة ظهور الدولة العلوية.

خ. س 1296، 1322، 4485، 88-1089.

42) «مجلد من دفاتر جيش عبيد البخاري».

خ. ع. ك 394.

43) «مجلد آخر».

خ. ع. ج 5

44) «جنى الازهار، ونور الابهار، من روض الدواين المعطار».

هدف به مؤلف - غير مذكور - الى تلخيص الوثائق الشاهدة، المدونة بدفاتر جيش عبيد البخاري.

خ. س 1064 ز.

45) «رسائل من السلطان مولاي اسماعيل» الى الشيخين ابي السعود عبد القادر الفاسي الفهري وولده ابي عبد الله محمد الفاسي.

عددها 41 رسالة، يتصل كثير منها باجراءات عبيد البخاري.

نشرها الاستاذ محمد الفاسي في مجلة «تطوان» : عدد خاص سنة 1962.

مع مجلة هيسبريس تمودا : عدد خاص سنة 1962.

46) «رسائل اسماعيلية» صدرت عن السلطان مولاي اسماعيل إلى ولده الامير المأمون، وعددها خمسة.

المطبعة الملكية بالرباط 1967/1387.

تحقيق الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور.

47) دفتر هدايا وصلات السلطان محمد الثالث، ويتعلق الامر بهدايا وصلات العاهل العلوي لاشراف الحرمين الشريفين واليمن، وللاشراف العلويين بتافيلالت، وبرسم السلطان العثماني عبد الحميد الأول.

خ. س 591.

48) «دفتر هدايا وصلات السلطان محمد الثالث» ويتعلق الامر بهدايا العاهل المنوه به للحرمين الشريفين واليمن ومصر والشام، وللاشراف العلويين بتافيلالت، مع جيش مدينة الصويرة عن عام 1199 هـ.

خ. ع : ضمن مصورات جائزة الحسن الثاني سنة 1982 : حرف ر.

49) «دفتر احصاء الاشراف العلويين بتافيلالت» مع موضوعات اخرى.

خ. س 107..

50) «دفتر احصاء الاشراف العلويين بتافيلالت».

ويشتمل - ايضا - على بيان ما ينوب كل واحد منهم من الصلة السلطانية عن عام 1204 هـ.

خ. س. كـ 2823 ز.

تاريخ الدولة العلوية :

15) «نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي»، للأفراني : محمد الصغير بن الحاج محمد بن عبد الله السوسي ثم المراكشي، استمر بقيد الحياة إلى عام 1155 / 1742.

تشتمل على 81 مبحثا، منها 75 لأيام السعديين، والباقي لتاريخ بدايات الدولة العلوية إلى عصر السلطان مولاي إسماعيل.

وكانت أول نشرة لنزهة الحادي في باريس سنة 1888.
ولهذه الطبعة مصورة صدرت بعناية مكتبة الطالب بالرباط.
وفي فاس نشرت بالمطبعة الحجرية دون تاريخ.

52) «تاريخ الدولة العلوية»، تأليف الحاج عبد الكريم بن موسى الريفي، كان حيا عام 1153 / 1740.

يتناول تاريخ الدولة العلوية من بدايتها إلى منتصف رجب 1153 هـ.
حققته الأستاذة آسية بنعدادة.
د.د.ع. كلية الآداب بالرباط :
السنة الجامعية 88-1989..

53) «تقاييد تاريخية» للقادري : عبد السلام بن عبد الله الخياط بن محمد الحسني الفاسي : ت : 1228 / 1813.

أوجز فيه تاريخ الدولة العلوية إلى عصره، وذيل بلمحة عن تاريخ السعديين.

خ. س. 248 : في جزء يشتمل على 24 ص.
خ. س. 11485 : ضمن مجموع
ح. ع. حـ 111 : ضمن مجموع.

54) «تاريخ الدولة العلوية» للضعيف : محمد بن عبد السلام بن أحمد الرباطي، كان حيا عام 1233 / 1818.
منشور.

55) «البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف» للزياني أبي القاسم بن أحمد بن علي نزيل فاس، ت : 1249 / 1833.

خ. س. 242 : في سفر.

ح. س. 11542 : في سفر بعضه بخط المؤلف، إلى مخطوطات أخرى.

56) «الروضة السليمانية، في ملوك الدولة الاسماعيلية ومن تقدمها من الدول الاسلامية..» للزياني المذكور آنفا.

وهي في الواقع نسخة من البستان مع بعض الاضافات إلى عام 1239 / 1823.

خ. ع. د 1235، مع نسخة بنفس الخزانة، وأخرى في خزانة كلية الآداب بالرباط.

57) «الدر المنضد الفاخر، بما لأبناء مولانا علي الشريف من المحاسن والمفاخر» للكردودي، محمد بن عبد القادر بن احمد الحسني الكلالي الفاسي، ت : 1268 / 1852.

كتب منه ترجمة السلطان مولاي اسماعيل، وحالت منيته دون إتمامه.

خ. س. 11676 : بخط المؤلف.

خ. ع. د. 1584.

58) «الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي» تأليف أكنسوس : محمد بن أحمد بن محمد المراكشي، ت : 1294 / 1877.

توسع في القسم الرابع منه في تاريخ الدولة العلوية حتى أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، في حوليات متتابعة الى عام 1282 هـ.

منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية في جزءين.

59) «الحلل البهية في ذكر ملوك الدولة العلوية» للحاج المشرفي : محمد بن محمد بن مصطفى الحسني الفاسي، ت : 1334 / 1915.

شرح فيه قصيدة في سلاطين الدولة العلوية نظم محمد الغالي بن المكي ابن سلمان الفاسي، وانتهى في بعض نسخه إلى أيام السلطان مولاي عبد العزيز.

خ. س 1020.
خ. س 12489
خ. ع. د 1463.

60) «نزهة المجتلي في أبناء أبي الحسن علي».
نظم غريط : محمد بن محمد المفضل بن محمد الأندلسي الفاسي، ت : 1364 / 1945ا
ارجوزة أرخ فيها للدولة العلوية من بدايتها حتى عصر السلطان مولاي يوسف، وتجاوزت 3000 بيت.

خ. ع 57 : مصورة على الشريط.

61) «الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة» لابن زيدان : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العلوي الاسماعيلي الحسني المكناسي، ت : 1365 / 1946.
منشور في المطبعة الاقتصادية بالرباط.

62) «العز والصولة في معالم نظم الدولة» لابن زيدان.
من منشورات المطبعة الملكية بالرباط في سفرين بتحقيق الاستاذ عبد الوهاب ابن منصور.

تاريخ الدولة العلوية ضمن التاريخ العام للمغرب

63) «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب» للزياني : أبي القاسم بن أحمد بن علي نزيل فاس، ت : 1249 / 1833.
خ. ع. د 658 : الى مخطوطات اخرى بنفس الخزانة.
وطبع منه القسم الخاص بالدولة العلوية في باريس 1886.

64) «ألفية السلوك في وفيات الملوك» للزياني.
أرجوزة من ألف بيت، أوجز فيها تاريخ دول الاسلام مشرقا ومغربا الى عام 1222 هـ.

65) ولنفس المؤلف ارجوزة الفية اخرى نظم فيها تاريخ الدول السابقة للاسلام.

66) وعلق المؤلف نفسه على الألفيتين بشرح سماه «بغية الناظر والسامع، والهيكل الجامع، لما في التواريخ الجوامع».
خ. س 1250 : في سفره، مع مخطوطات اخرى.

67) «الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى» للناصري : أحمد بن خالد السلوي. ت : 1315 / 1897.
نشر ـ للمرة الثانية ـ بمبادرة دار الكتاب بالدار البيضاء، وصدر في تسعة اجزاء : الاجزاء السابع والثامن والتاسع : ثلاثيها في تاريخ الدولة العلوية الى مبايعة السلطان مولاي عبد العزيز.

تراجم الملوك ومن اليهم

68) «روضة التعريف بمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف» للأفراني سابق الذكر.
المطبعة الملكية بالرباط 1382 / 1962.

69) «زهر البستان في اخبار احوال مولانا زيدان» تاليف محمد بن العياشي المكناسي، ت : 1139 / 1727-26.
به ـ الى جانب موضوعه ـ اخبار عن السعديين والعلويين الى عصر التأليف.
خ. ع. د 2152، مع مخطوطتين بالخزانة الحسنية.

70) «جمهرة التيجان، وفهرس الياقوت واللؤلؤ والمرجان في أشياخ أمير المومنين مولانا سليمان».
للزياني :
عرض بها اشياخ واسانيد واجازات السلطان مولاي سليمان، وصنفها في صياغة منظومة على بحر الرجز، ثم علق عليها بشرح وضح فيه نقطها الموضوعية، بسلاسل مرسومة في مربعات أو دوائر.
خ. س 3771.

خ. س 6778.
خ. س 11485
خ. ع. كـ 1220 خالية من الرسوم التوضيحية.

71) «التاج والإكليل، في مآثر السلطان الجليل : سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل» للزياني :
خ. س 616.
خ. س 2953.
خ. ع. كـ 241.

72) «عقد الجمان، في شمائل السلطان، سيدنا ومولانا عبد الرحمن» للزياني.
خ. س 126 / 1
خ. س 4791
خ. ع. ج 40.

73) «تكميل الترجمان في خلافة مولانا عبد الرحمن» للزياني.
خ. س 126 / 2
خ. س 2746.

74) «الابتسام، عن دولة ابن هشام» تأليف إدريس الجعادي، كان حيا عام 1266 / 1850.49.
خ. س 12490.

75) «الفتوحات الوهبية، في سيرة مولانا الحسن السنية، ومفاخر اختراعاته البهية،»، مؤلفه هو السملالي : حسين بن محمد بن عبد الرحمن السوسي نزيل فاس، ت : 1309 / 1891.

من مخطوطات مؤسسة علال الفاسي بالرباط : قطاع الخزانة.

76) «مطالع الحسن واتباع السنن بطلوع راية مولانا الحسن» مؤلفه هو السملالي : علي بن محمد السوسي نزيل فاس، ت : 1311 / 1893.
أرخ فيه لايام العاهل المنوه به الى منتصف ايامه.

خ. س 81.

77) «الدر المنتخب المستحسن، في بعض مآثر أمير المومنين مولانا الحسن» تأليف ابن الحاج : أحمد بن محمد بن حمدون السلمي الفاسي، ت : 1316 / 1899.

خلافا لعنوان الكتاب صنفه مؤلفه في تاريخ الدولة العلوية، وتوسع ـ كثيرا ـ عند عصر السلطان الحسن الاول.

خ. س 12184 : الاجزاء 1،4 مكرر 5، 6، 7، 8، 9، مع اجزاء مفردة.

78) «الدرر الجوهرية، في مدح الخلافة الحسنية» لابن الحاج : أحمد بن محمد بن حمدون السلمي الفاسي، سابق الذكر.

تناول فيه سيرة السلطان الحسن الأول، واهتم ـ اكثر ـ بتسجيل أعداد من نصوص الظهائر الصادرة عن المترجم، مع مجموعة من القصائد التي مدح بها في مناسبات مختلفة الى عام 1308 هـ.

خ. س 512 : في سفرين.

79) ولنفس المؤلف : «الدرر الابريزية في المناقب العزيزية».

وهو خاص بالسلطان مولاي عبد العزيز الى عام 1316، حيث حالت وفاة المؤلف دون اتمام الكتاب.

خ. س 4107.

80) «البستان الجامع لكل نوع حسن، وفن مستحسن، في عد بعض مآثر السلطان مولانا الحسن»، تأليف السباعي : محمد بن ابراهيم بن محمد التكرور الحسني المراكشي، ت : 1332 / 1914.

خ. س 12432

خ. ع. د 1346.

81) «المفاخر العلية، والدرر السنية، في الدولة الحسنية العلوية» تأليف اللجائي : عبد السلام بن محمد العمراني الحسني الفاسي.

ت : 1332 / 1914.

خ. س 460.

خ. س 12068.

82) «المنزع اللطيف في التلميح لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف» لابن زيدان .

خ. س 10821

خ. ع. ج 595.

83) «نضال الملك محمد الخامس».

لمحمد الرشيد بن محمد بن عبد الله ملين الرباطي.

نشر منه جزءان في المطبعة الملكية بالرباط.

84) «الحلل البهيجة، في فتح ثغر البريجة».

تأليف المسلماني : محمد بن القاسم بن محمد المراكشي، كان حيا عام 1182 / 1778.

وصف فيه إجراءات فتح مدينة الجديدة بمبادرة السلطان العلوي محمد الثالث.

تراجم الموظفين بالحاشية السلطانية :

85) «سنا المهتدي الى مفاخر الوزير ابي العباس اليحمدي».

تأليف الزرويلي : علي بن أحمد بن قاسم بن موسى مصباح الحمسي، المتوفى عام 1130 / 1718.

من مخطوطات الخزانية الحسنية في نسختين 521، 20 ز.

86) «تقييد في ترجمة الوزير الصفار» لمؤلف غير مذكور.

ترجم فيه لمحمد بن عبد الله الصفار التطواني، وزير الشكايات أيام السلطان محمد الرابع، وصدر ايام السلطان الحسن الاول.

خ. س 12419.

87) «الدورة السنية، في ذكر الدولة الحسنية».

لابن داني : محمد بن أحمد بن محمد الحسني المدرومي المراكشي، ت : 1331 / 1913.

أرخ فيها للعصر الحسني عن طريق مجموعة من التراجم لعيون الحاشية الحسنية.

خ. س 481.

88) «فواصل الجمان في انباء وزاراء وكتاب الزمان».

لمحمد غريط سابق الذكر.

ترجم فيه لزمرة من الوزراء والكتاب الراحلين، عبر أيام السلطان مولاي عبد الرحمن، وانتهاء عند الدولة الحفيظية.

منشور في المطبعة الجديدة، بفاس.

مؤلفات الانساب

89) شذرات من الديوان الاسماعيلي، وهو يميز الاشراف من غيرهم.

يشتمل الموجود منه على سبع صفحات بذيل مخطوط في حجم صغير.

خ. س 3402.

90) «الدرة المكنونة في وصف اهل الدولة الميمونة» : (الدولة العلوية)، تأليف ابن دفين طيبة : العربي بن عبد السلام الفركلي، كان حيا عام 1136 / 1729.

خ. س. 4492.

91) «ارجوزة في الفروع العلوية»، ناظمها هو الحسني : محمد التهامي بن عبد الله بن الشريف بن قاسم العلوي اليوسفي الشاكري، ت : 1210 / 1795.

خ. س 4777.

خ. س 12305.

92) «المطالع الزهراء، الجامعة لاسماء بني الزهراء».

تأليف الحسني : محمد الزكي بن هاشم بن الكبير العلوي المدغري، ت : 1270 / 1853.

ألفه في فروع المولى علي الشريف دفين سجلماسة بالريصاني.

خ. س 148

خ. س 656.

خ. س 5063.

93) «الدرر البهية، والجواهر النبوية، في الفروع الحسنية والحسينية»، تأليف الفضيلي : إدريس بن أحمد العلوي الحسني الفاسي، ت : 1316 / 1898.

موسوعة كبرى للأنساب الهاشمية بالمغرب، صنفها في سفرين : الأول خاص بالعلويين، والثاني للأدارسة والحسينيين.

منشورة بالمطبعة الحجرية الفاسية.

المجموعات الشعرية

94) أزجال المنداسي : سعيد بن عبد الله التلمساني، نزيل المغرب، ودفين قصر الرتب بإقليم الرشيدية.

بين هذه الاشعار قصائد في مديح السلطان مولاي اسماعيل.

خ. ع. كـ 1644 : اول مجموع ص 2ـ71.

95) «ديوان اشعار زجلية في مديح السلطان محمد الثالث»، ناظمها هو الأفراني : أحمد بن إبراهيم بن علي السوسي الأقصوي، تاريخ وفاته غير منكور.

خ. س 10680.

96) «القصيدة الشمقمقية»، نظم ابن الونان : أحمد بن محمد الحميري التواتي ثم الفاسي.

وهي الارجوزة التي نظمها في مديح السلطان سيدي محمد بن عبد الله.

ومن شروحها : «فتح المنان في شرح قصيدة ابن الونان» تأليف الحاج العربي المشرفي سابق الذكر.

خ. س 12427 في سفرين.

خ. ع. ج 629 في سفر.

وثانيا : شرح احمد بن خالد الناصري سابق الذكر، باسم : «زهر الافنان، من حديقة ابن الونان». منشور بالمطبعة الحجرية الفاسية في سفرين.

وثالثا : شرح الادوزي : عبد العزيز بن محمد السوسي اليعقوبي، (ت 1336 هـ/ 1918).

خ. ع 93 : فيلم.

ورابعا : اقتطاف زهرات الافنان، في دوحة قافية ابن الونان للبطاوري : المكي بن محمد بن علي الرباطي (ت :1854 / 1936).

خ. س 1277 ز في سفرين.

97) ديوان للحوات : سليمان بن محمد بن عبد الله الحسني العلمي الشفشاوني نزيل فاس، ت : 1231 / 1816.

جمع فيه مدائحه الشعرية في السلطان مولاي سليمان.

خ. س 101.

خ. ع. د 753.

98) النوافح الغالية، في الامداح السلمانية، اسم ديوان لابن الحاج : حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون السلمي المرداسي الفاسي، ت : 1232 / 1817.

دون فيه اشعاره في مديح السلطان مولاي سليمان.

خ. س 222، مع نسخ اخرى. كان موضوع الاستاذ احمد العراقي في رسالته دبلوم الدراسات العليا.

مؤلفات موضوعية للملوك والأمراء

99) «مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان».

تأليف السلطان العلوي محمد بن عبد الله بن اسماعلي بن الشريف الحسني، ت : 1204 / 1790.

قصد بتأليفها توعية معلمي الكتاتيب القرآنية حتى يتفقهوا في العقائد والشعائر، وبالتالي يلقنون ذلك لصبيان الكتاتيب.

خ. س 3747 الى مخطوطات متعددة.

100) «درة السلوك، وريحانة العلماء والملوك» تأليف الامير العلوي :

عبد السلام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الحسني، ت : 1228 / 1813.

دون به منوعات من العلوم، ووزع ذلك بين سبعة اقسام وخاتمة، وكان موضوع القسم السادس في وقائع الملوك وآثارهم، فيقدم المؤلف عروضا عن الدول التي تعاقبت على المغرب الى عصره، وبذلك يقدم معلومات عاصرها عن الدولة العلوية.

خ. س 237 : الى مخطوطات اخرى.

101) رحلة الامير العلوي عبد السلام بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله آنف الذكر.

وهي رحلة حجازية عام 1185 هـ

خ. س 12392.

102) «إمتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع»، تأليف السلطان مولاي سليمان بن السلطان محمد بن عبد الله العلوي الحسني ت : 1238 / 1822.

خ. س 6040 مع نسخ اخرى متعددة.

103) الخطبة الإصلاحية للسلطان مولاي سليمان.

منشورة.

104) «داء العطب قديم» اسم مذكرات سجلها السلطان مولاي عبد الحفيظ بن السلطان الحسن الاول ت : 1356 / 1937.

خ. س 11400.

خ. س 1260 : مخطوطتان شبه متكاملتين.

رحلة مويط

محمد حجي

لابد في البداية من ابداء الملاحظات التالية :

1) أن هذا الكتاب الذي نتحدث عنه يعد من المصادر الاجنبية المعتمدة عند الدارسين للعصر العلوي الاول، ونقلوا عنه منذ عهد المؤلف حتى الان.

2) وهو مكتوب باللغة الفرنسية القديمة وطبع في القرن السابع عشر في نحو 350 صفحة من الحجم الصغير. وكاد ينعدم في المكتبات العامة الكبرى بحيث لا يوجد منه في المغرب فيما نعلم - سوى نسختين أو ثلاث.

3) أنه ترجم الى العربية، وكان من المقرر ان ينشر بمناسبة هذه الدورة الاولى من ملتقى جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، لكن صعوبات تقنية حالت دون ذلك.

○ فمن هو مويط ؟ وما خلاصة محتوى كتابه ؟ وما هي أهمية مادته ومصداقية شهادته ؟ سأحاول الاجابة عن هذه الاسئلة الثلاثة بايجاز.

○ مويط شاب فرنسي باريسي متعلم له موهبة في الكتابة، وذاكرة قوية تختزن الاحداث وتتذكرها بتفاصيلها في الوقت المناسب، وفضول تاريخي واجتماعي يدفعه الى التعرف على المواقع التي يمر بها، والاشخاص الذين يلاقيهم أو يخدمهم أو يسمع عنهم.

وهو - كمعظم الفرنسيين في عصره - مسيحي كاثوليكي متعصب لنصرانيته عندما يؤول الامور دينيا، لكنه في كثير من الاحيان عندما يتعرض

لاحداث عامة سياسية او عسكرية او اجتماعية، يكون موضوعيا الى حد ما، اللهم الا اذا جمح به الخيال في قضايا الجنس والحريم.

خرج مويط من باريس في اخر يوم من يوليوز سنة 1670، اي في الفترة التي كان مولاي رشيد قد بويع وهو يمهد البلاد ويوحدها. وابحر مويط من ميناء صييب في 16 شتنبر قاصدا الهند الغربية على ظهر سفينة شراعية تجارية ذات حمولة 120 طنا تدعى «الملكية» مسلحة بستة مدافع. وذلك ما يذكرنا بطبيعة هذه الفترة التي انتشرت فيها القرصنة. وبعد قضاء شهر في البحر ومعاناة اختلاف مهاب الرياح التقت السفينة الفرنسية بسفينتين سلاويتين تحملان رايات تركية ـ كما جاء في النص الفرنسي ـ ولا يعني ذلك سوى رايات اسلامية لان الاوروبيين كانوا انذاك يخلطون بين الامرين ويسمون كل ما هو اسلامي تركيا. وبعد مخابرات ومعارك تغلب القراصنة السلاويون وقادوا مويط ومن معه مغللين في الاصفاد الى مدينتهم. كان عدد الاسرى اربعين رجلا وأربع نسوة، باعوهم في سوق النخاسة المعروف حتى اليوم بباب القنانط في الرباط. وكان حظ مويط ان اشتراه اربعة اشخاص ثلاثة مسلمون ويهودي. فعمل نحو سنتين خادما في بيت احد سادته المسلمين بسلا، ثم في اسطبل سيده حاكم القصبة. ولما بويع مولاي اسماعيل عزل هذا الحاكم واستصفى امواله. وبذلك انتقل مويط الى ملك السلطان والتحق بالمولى اسماعيل في فاس ثم سار في ركابه الى مكناس عاملا في اشغال البناء وغيرها زهاء تسعة اعوام اخرى. وقد تعلم مويط خلال مدة اقامته بالمغرب اللغة العربية، والاسبانية السائدة فيه ايضا بسبب الاندلسيين المهاجرين الى ان من عليه المولى اسماعيل بالسراح بعد ان افتداه جماعة الرهبان الفرنسيين، فرجع الى مسقط رأسه.

وبعد ان أقام مويط مدة في باريس شاهد وصول سفير المولى اسماعيل (ابن عائشة السلوي) الى بلاط لويس الرابع عشر حيث ابرمت معاهدة مغربية فرنسية. كان لهذه السفارة المغربية صدى واسع في فرنسا، اثارت ذكريات مويط، فأراد ان يُعرّف قومه بالمغرب والمغاربة وكتب رحلته او قصته هذه. يذكر مويط في مقدمة الرحلة وخاتمتها كتابه الآخر في تاريخ المغرب على عهد السلطانين المولى الرشيد والمولى اسماعيل ويحيل عليه، ونحن الان بصدد ترجمته كذلك الى اللغة العربية.

تتركب الرحلة من ثمانية عشر فصلا، خصص المؤلف الفصول العشرة

الاولى اخبار اسره وما شاهد في المغرب من مدن وأشخاص وعادات. وهذا اهم اجزاء الكتاب.

أما الفصول الستة التالية فذكر فيها اخبار اسرى اخرين من فرنسا واسبانيا والبرتغال تعرف عليهم اثناء وجوده بالمغرب وروى عنهم اخبار مغامراتهم التي يغلب عليها الطابع العاطفي الاسطوري، ومع ذلك لا تخلو من اشارات تاريخية مفيدة عن العصر العلوي الاول. وخصص الفصل السابع عشر للحركة التجارية في موانيء المغرب كتطوان واصيلا والقصر الكبير، والمعمورة، وسلا، وأزمور، والوليدية، وآسفي، واكادير، داعيا الحكومة الفرنسية الى توثيق الصلات بهذه المراكز وتقوية المبادلات التجارية معها، بتصدير المنتجات الفرنسية اليها، وجلب البضائع المغربية منها.

من بين الفوائد التي تهم المؤرخ في رحلة مويط ما جاء في الفصل الثاني من وصف مدن سلا الثلاث : سلا، والرباط، والقصبة، وأسوارها وابراجها، وما جدد المولى الرشيد منها، ومقام الاندلسيين المهاجرين والمطرودين فيها، واليهود وتجارهم وما لهم من صلات مع ابناء دينهم المقيمين في هلاندا.

وفي الفصل الثالث وصف دور فاس البالي والجديد بما فيها من غرف وافنية وشرفات واعمدة واروقة واحواض وأشجار، وزخارف الفسيفساء والجبس والخشب والمرمر، اضافة الى الاسرة والفرش والستر الحريرية المطرزة والزرابي «التركية».

ويتحدث الفصل الخامس عن تجديد مولاي اسماعيل لمدينة مكناس، واشتغال الاسرى المسيحيين، ومن ضمنهم مويط، في عمليات الهدم والبناء. وتوقف اعمال البناء بسبب طاعون سنة 1678 الذي قضى على نصف سكان المدينة، واضطرار المولى اسماعيل الى المقام بجبال الاطلس.

كما وصف المؤلف في نفس الفصل مدينة مراكش، لا عن مشاهدة ولكن رواية عن بعض الاسرى الذين حدثوه عنها، وبخاصة قصر البديع الشهير قبل تخريبه. وتؤكد الاوصاف ما عند المؤرخين المسلمين أمثال الفشتالي وابن القاضي والسراطي. ووصف كذلك اعتماذا على الرواية منطقة سوس وما فيها من مدن وقصبات. اما القصر الكبير فقد وصفه من مشاهدة، لانه قضى فيه ثلاثة شهور.

الفصل العاشر الذي تحدث فيه عن وصول رهبان «لاميرسي» الفرنسيين لافتداء الاسرى، وكان هو من بين المحررين، عاد لوصف مدينة مكناس وما شيد فيها من القصر ودور الحريم والحصون والاسوار والابراج والابواب الثلاثة :

الباب الرئيسي المسمى باب القلعة او باب الحقول، وباب الحجر المطل على الروامزيين، وباب المدينة المطل عليها، كما تحدث عن سكان مكناس وطبيعتهم وتجارتهم وما تزخر به البادية من بساتين الخضر وأشجار الفواكه وغابات الزيتون.

وفي هذا الفصل ايضا وصف دقيق للمولى اسماعيل الذي كان يومئذ في عنفوان شبابه ابن سبع وثلاثين سنة. وصف جسمه وكأنه رسام صور بريشته تقاسيم وجهه وحسن ملامحه وتفرع لحيته ولونه الفاتح وطول قامته، ونحافة جسمه مع سعة ملابسه. كما وصف خلقه وشجاعته العظيمة بحيث يسير دائما على راس جنوده، يصففهم بنفسه عند المعركة، ويكون دائما هو المهاجم الاول لاعدائه، ولا يفر ابدا. وعن مهارة المولى اسماعيل في ركوب الخيل ونظام حاشيته وحرسه يقول مويط : «رايته مرارا يمسك احد ابنائه في ذراع، والرمح في يده الاخرى، ويعدو مسافة طويلة دون ان يكبو فرسه. ويوجد دائما في حاشيته العديد من الشرفاء والقواد ينيف عددهم على مائتين، يرتدون الزي التقليدي برشاقة ويرافقونه على ظهور الجياد صباح مساء عندما يذهب للتفسح، فضلا عن اربعة الاف من حراسه السود الذين يعيشون في الخيام حول مدينة مكناس».

غادر مويط المغرب من مرسى تطوان، فوصف هذه المدينة وأسوارها وقصبتها، وذكر ان سكانها الاندلسين في غاية الثراء بسبب اعمال القرصنة (الجهاد البحري) والتجارة التي يمارسونها مع سبتة وطنجة وبلاد الجزائر وأوربا، واشار الى كثرة عدد الاسرى واليهود فيها.

أما تافيلالت فتحدث عنها مويط في الفصل الحادي عشر رواية عن اسير فرنسي يدعى بيدرو الكاسكوني، فر من طرابلس متنكرا في زي مرابط، وصحب ركب الحجاج المغاربة العائدين من مكة فسار معهم الى تافيلالت. وصف دخول الركب الى حاضرة المنطقة بعد ان خرج خليفة الملك لاستقبالهم. وصحبهم الى القصر، كما وصف شدة جودة موسم التموز في تلك السنة، حتى ظن الناس ان ذلك من بركة المرابط المزعوم القادم عليهم، وسيكتشف امر هذا

الاسير المتصلح عندما حل الى مراكش ويعود الى الاسر وينقل الى مكناس مع اسرى المولى اسماعيل الاخرين.

وعاد مويط للحديث عن تافيلالت في الفصل الثاني عشر رواية ايضا عن اسير برتغالي يدعى الدون لويس كونزاليس بقي في الاسر ثلاثين سنة. وهو من سلالة فتح طنجة، كان يقيم بها برتبة فأرس اول، فأسره المغاربة ذات يوم عندما ابتعد عن المدينة واقتادوه الى القصر ليسلموه الى العامل. وبعد مغامرات كثيرة حمل الأسير البرتغالي الى المولى الشريف امير تافيلالت فاقترع عليه ابناؤه الثلاثة ان من نصيب اصغرهم المولى اسماعيل، وظل في خدمته ثلاث سنوات، قبل ان ينتقل الى خدمة المولى محمد فالمولى الرشيد فالمولى الحران، ثم لاقى مخدومه الاول المولى اسماعيل عندما تولى الملك فكان في ذلك خلاصه وتحريره.

طال مقام كونزاليس اذن بتافيلالت فعرفها عن قرب ووصف موقعها وتربتها ووفرة النخيل فيها والاقاليم التابعة لها من دير الاطلس ودرعة وتوات، كما ذكر الانهار الرئيسية بالمنطقة وروافدها وعددا من القصور التي يقيم فيها الشرفاء، وطريقة عيشة السكان. وطبيعتهم، وأفاد بأن خليفة مولاي اسماعيل في تافيلالت هو مولاي محرز اكبر ابنائه.

اما عن اهمية مادة رحلة مويط فان معظم الكتاب عبارة عن ارتسامات مؤلف ومشاهدته وحديثه مع الناس، او روايات عن اسرى آخرين ـ قال انه يثق بهم ـ ظل بعضهم في المغرب ثلاثين سنة كما رأينا. ومما يلاحظ أن هذه المشاهدات والارتسامات والروايات لا تتناقض لا مع منطق الاحداث ولا مع الواقع بالنسبة للثوابت، لذلك فهي في غاية الأهمية، لاسيما وقد انفرد بها كلها تقريبا لانها ليست من صنف الاحداث الذي يهتم بها مؤرخونا.

ومن أهم مشاهدات صاحب الرحلة :

- كيفية القتال في البحر وطرق الاستيلاء على الغنائم.
- كيفية بيع الاسرى بواسطة الدلال وفحص المشترين لهم.
- المطامير الذي يحبس فيها الاسرى مع ذكر المقاييس وأعداد الاسرى وأجناسهم.
- افتداء الاسرى : دور الرهبان والحاشية والمبالغ المقدمة، والمساومة.
- وصف المولى اسماعيل الدقيق.

ـ وصف الحياة داخل بيوت سلا وفاس والقصر الكبير.

ـ تشدد المغاربة في عدم معاملة الاسرى ماداموا مسيحيين، ودعوتهم الى اعتناق الاسلام عن طريق الترغيب والاغراء، لا سيما صغار الاسرى الذين ينشؤونهم عن الاسلام.

وبالرغم عن كل تلك الايجابيات التي يستفيد منها المؤرخ في رحلة مويط. فان هنالك سلبيات لا يصعب على القارىء تحاشيها او التحرز منها، كاستنتاجات المؤلف المتحاملة على الاسلام والمسلمين، وخطئه في بعض الاحداث التاريخية كخلطه بين يعقوب المنصور وابي جعفر المنصور، وبين محمد الحاج الدلائي والمجاهد العياشي، اضافة الى مبالغته احيانا واقحامه القصص الغرامية كلما وجد لذلك سبيلا.

وبالجملة فان رحلة مويط شهادة لها اهميتها ومادة مفيدة للباحثين في تاريخ العصر العلوي الاول.

البحث التاريخي عن الدولة العلوية في الجامعة المغربية

محمد زنيبر

احتلت الدراسات التاريخية مكانا مهما في الجامعة المغربية منذ نشأتها من ثلاثين سنة خلت. وكان عليها ان تعيد النظر في الكتابات الاستعمارية التي لم تخل من تحامل وأخطاء مقصودة وغير مقصودة وان تواصل البحث في تاريخ المغرب وتغنيه وتملأ ثغراته بالعثور على وثائق ومخطوطات جديدة.

وكان للتاريخ الحديث والمعاصر حصة الأسد في المجهود الذي بذل من لدن الباحثين المغاربة في الفترة المذكورة. وحينما نقول التاريخ الحديث والمعاصر، فإننا نعني بذلك، أساسا، تاريخ المغرب في عهد الدولة العلوية التي ينطلق حكمها في سنة 1666 مع تولي المولى الرشيد بن مولاي الشريف.

وهاته الابحاث الجديدة تختلف من حيث تصور التاريخ ومن حيث المنهاج ومن حيث الأسلوب. فكانت التآليف التقليدية تركز على عقد ترجمة واسعة للسلاطين، كما نرى، مثلا، في الاستقصا للناصري او في إعلام الناس لابن زيدان، فتوزع بهاته الصورة التاريخ على عهود السلاطين حسب تعاقبهم. لكن الأبحاث الجديدة تتأثر كثيرا بالمدارس العصرية، حيث انها تجتنب، في الغالب، منهاج السيرة والترجمة وتهتم بقضايا دقيقة ومحددة في الزمان واحيانا في المكان. بحيث يمكن تصنيف الدراسات المغربية الجديدة عن العصر المذكور الى ثلاثة اصناف من الاعمال :

ـ ابحاث تنصب على تاريخ المغرب، بوجه عام.
ـ ابحاث تنحصر في التاريخ المحلي.
ـ اعمال خاصة بتحقيق المصادر.

1 ـ تاريخ المغرب، بوجه عام

من بين الاعمال التي تدخل في هذا الصنف، نذكر، على الخصوص.

ا ـ عبد الله العروي في اطروحته بعنوان :

Les origines Sociales et Culturelles du Nationalisme marocain 1830-1912
Maspero 1977.

وهو عمل قصد به المؤلف الى البحث في نشوء الفكرة الوطنية بالمغرب، انطلاقا من القرن التاسع عشر، حيث قام بدراسة للمجتمع المغربي والاطوار التي مر منها حتى بزوغ القرن العشرين. فميز بين الخاصة والعامة والقى بعض الاضواء على كلتيهما. وألقى نظرة دقيقة على عدد من رجال الفكر الذين كان لهم دور واشعاع في المجتمع. واهتم بفكر الاصلاح ورجاله. فهو، اذن، يخص حقبة ذات دلالة في تاريخ المغرب الذي بدأ يدخل في تحولات كبرى. وقد اثار اهتماما كبيرا عند صدوره لما عرف به المؤلف من جرأة في التحليل والاستنتاج.

ب ـ محمد المنوني : **مظاهر يقظة المغرب في العصر الحديث.**

كتاب يعالج نفس الموضوع الذي عرض له العروي، ولكن عن طريق جمع الوثائق والشهادات والنصوص. فالكتاب ينطلق بنا من عهد مولاي سليمان في أوائل القرن التاسع عشر ليرصد كل الكتابات الداعية الى الاصلاح، سواء تعلق ذلك بالجيش أم بالصناعة أم بالتعليم الخ.. ويستمر بسرده الى عقد الحماية في 1912. ولا تخفى أهمية هذا الكتاب بما وفق إليه الاستاذ المنوني بخبرته الطويلة من الكشف عن عدد من الربائد الغميسة. والتصدي لكل الموضوعات والقضايا التي اثيرت بمغرب القرن 19 وبداية القرن 20 الى عقد الحماية.

ج ـ الشابي مصطفى.

L'Analyse de quelques cas de grandes familles du pouvoir au Maroc, pendant le XIXe siécle, d'aprés l'œuvre de A. Ben Zidane

بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، قام به صاحبه من أجل ان يدرس مجتمع الخاصة، اي الاسر المقربة من السلطان التي كان لها مميزاتها ومكانتها. فهي تدخل في نوع دراسة تاريخ النخبة والأطر المسيرة. ولا تخفى أهمية الموضوع لا بالنسبة للتاريخ السياسي ولا بالنسبة للتاريخ الاجتماعي.

د ـ نعيمة هراج التوزاني : **الأمناء بالمغرب في عهد السلطان الحسن الأول.**

بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا. انصب على موضوع طريف يخص السياسة المالية، وتنظيم الادارة المكلفة بأخذ الجبايا. وهو يبين، في نفس الوقت، تأثير الاحداث على السياسة المالية، مما اضطر المخزن الى اعادة النظر فيها. وما دمنا في موضوع الشؤون المالية، فلنذكر أن عددا من الباحثين اتجهوا إليها وهو تطور نوعي في الدراسات التاريخية المغربية، كما يتضح من استعراض رسائل اخرى.

هـ ـ بنكرعى حليمة : **مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين** (نوقشت بالرباط في 1984ـ85). والموضوع، وإن كان يرجع بنا الى عهد السعديين، مفيد للتعرف على سياسة العلويين الأوائل، نظرا للتواصل التاريخي بين الدولتين.

و ـ نجيدس محمد : **قضية المكس في المغرب في القرن التاسع عشر** (نوقش بالرباط في 1987) وهو يثير موضوعا ذا حساسية كبرى لا بالنسبة لمن يؤدون الضرائب، ولا بالنسبة للفقهاء الحريصين على الاكتفاء بالضرائب الشرعية.

ز ـ عبد العزيز الخمليشي : **المخزن والضرائب المفروضة على التجارة الداخلية** : مكوس الحواضر (نوقش بالرباط في 1989) وهو بحث جامع في الموضوع لانه استقرأ جل المصادر والمراجع المغربية والاجنبية واستفاد من المحاولات السابقة. ويتميز بما قدمه من اضافات وتصحيحات.

ح - محمد بداري : **الحسبة 1850-1912 : مساهمة في التهميد لدراسة التحول الطارىء على الجهاز المخزني المغربي** : موضوع مهم لانه يقربنا من التعرف على الحياة الاقتصادية بالمغرب وبعض الاجهزة الادارية الملكفة بها. وهو، في نفس الوقت، يدخل في تاريخ النظم والمؤسسات. نصل الان إلى بعض القضايا والأحداث السياسية ذات الأهمية.

ط - العماري احمد : **مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر، واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1930 الى 1902 من خلال رحلة علي السوسي «منتهى النقول»** بحث مهم وموسع عن قضية الحدود المغربية وما تعرضت له من اعتداءات في القرن التاسع عشر، بالاعتماد على عدد من الوثائق ومنها المخطوط المذكور. يمكن اعتباره من الابحاث التي اوفت الموضوع حقه (نوقش بالرباط في سنة 1981). وقد اقتبس المؤلف منه كتابا نشر مؤخرا.

ي - محمد البزاز : **المجلس الصحي الدولي بطنجة** (ن 1980) من الموضوعات المهمة الذي كشف فيه المؤلف عن جانب كان مجهولا في علاقات المغرب الخارجية، ذلك ان المجلس الصحي لم يكن مؤسسة ذات صبغة تقنية وانسانية، كما يوحي به اسمه، بل كان له دور سياسي خطير ادى به الى التدخل في شؤون المغرب الداخلية والتطاول على المخزن. كل ذلك باعتماد المؤلف على جملة من الوثائق والحجج التي كان له الفضل في العثور عليها واستغلالها.

ك - ثريا برادة : **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**. بحث نوقش في 1984. وهو ينصب على موضوع خطير بالنسبة لتاريخ المغرب، اذ تعرض جيشه لهزيمتين كبيرتين في القرن 19، وظهر ضعف ذلك الجيش وقصوره في فترة كانت البلاد احوج ما تكون فيها للدفاع عن سيادتها وترابها. فكان لابد من دراسة تنصب على هذا الجهاز الاساسي والضروري في حياة كل دولة.

ل - علال الخديمي : **حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية 1907-1908** لقد كتب الفرنسيون كثيرا عن العمليات العسكرية التي قاموا بها لاحتلال المغرب، ولكن دون ان يدرسوا الموضوع من سائر جوانبه، ولا ان

يهتموا برواية المغاربة ولا بآرائهم عن الاحداث. فهذا بحث جامعي ممتاز نوقش بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة 1985، جاء ليسد هاته الثغرة ويعيد للروايات والمصادر المغربية وزنها، في نطاق بحث موضوعي ينحو الى ابراز الحقيقة.

م - محمد المنصور :

Political and Social development in Morocco during the regn of Mulay Sliman (1792-1822)

من الابحاث الأساسية التي تدخل في صلب التاريخ الخاص بالدولة العلوية في فترة جد حساسة، وهي الفترة التي حكم فيها المولى سليمان والتي بدأ المغرب يعرف فيها تحولات سياسية واجتماعية ناشئة عن تزايد الاتصال مع الاروبيين وتزايد تدخلاتهم في شؤون المغرب الداخلية والخارجية.

ن - جيرمان عياش :

Les Origines de la guerre du Rif. S M E R Rabat 1981

المؤلف، كما هو معلوم، استاذ تاريخ بكلية الاداب منذ تأسيسها وقد انصب اهتمامه على تاريخ المغرب المعاصر الذي كتب في شأنه عدة مقالات جمعت، على حدة، ونشرت في كتاب خاص، وأما التأليف المعنون «اصول حرب الريف» فهو ينصب على دراسة الفترة التاريخية التي سبقت حرب الريف ومهدت لها. فهو يعرف أولا بمعطيات المغرب ومؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ويتحدث عن عراقة الدولة المغربية، ثم ينتقل بعد ذلك الى دراسة الاطماع الاستعمارية والاحتلال الاجنبي وسياسة ليوطي والمشاكل مع اسبانيا.

وبعد ذلك، ينتقل الى دراسة الوضع بالريف، معرجا على تاريخه وعلاقاته الوثيقة بالمخزن وما اجتازه من ازمات بعد تدخل اسبانيا، ثم يأتي الى العلاقات بين اسبانيا وأهل الريف متحدثا عن اتصالاتهم بأعيانهم ومنهم اسرة الخطابيين الذي كان يرأسهم عبد الكريم. وبعد ذلك يعرض لنشأة زعيم الثورة

محمد بن عبد الكريم وعلاقاته بالاسبان، منتهيا بتحليل الظروف التي ادت به الى التفكير في الثورة.

ص ـ الحسن اغزادي : **ابن عبد الكريم وحرب الريف (1921ـ1926)** بحث تقدم به هذا الاستاذ الذي يعمل في كلية الاداب بفاس لنيل دكتوراة الدولة. وقد نوقش في السنة الجامعية 1988ـ89 وهو يتناول، ايضا، موضوع حرب الريف التي استقطبت اهتمام عدد من الباحثين بالداخل والخارج.. وقد تناول بعض الجوانب التي لم يتناولها البحث السابق.

ع ـ عثمان بناني : **الاستعمار الاسباني والمقاومة الوطنية في شمال المغرب في الفترة من عام 1912 الى عام 1926** : بحث تناول نفس الموضوع لكنه تجاوز من حيث التاريخ فترة الحرب الريفية، اذ ينطلق من 1912، وهو ينطوي على مجهود في التحليل والتوثيق.

ملاحظات عامة :

من استعراض الاعمال المنجزة من هذا الصنف في كتابة تاريخ الدولة العلوية، نستطيع ان نبدي الملاحظات التالية :

1 ـ ان الالحاح وقع على القرن 19 وما بعده، بحيث ان الفترات السابقة مازالت تفتقر الى اهتمام المؤرخين. ومن دون شك أن الذي شجع الباحثين على السير في هاته الوجهة هو توفر المصادر والأرشيف، وتكاثر الابحاث والكتابات الأوروبية عن تلك الفترة، واتصالها مباشرة بتاريخنا الحالي.

2 ـ هناك، بالتالي، فترات مهمة تحتاج كما اشرنا الى المزيد من البحث والتوثيق التاريخي مثل نشأة الدولة العلوية وعهد المولى اسماعيل وفترة الازمة التي اندلعت بعد وفاته وعهد السلطان محمد بن عبد الله. ونحن لا ننكر ان أشياء نشرت عنها من مقالات وكتب، ولكنها، في الغالب، لا تتقيد بقواعد البحث العلمي.

3 ـ الجديد في الابحاث المنجزة انها لا تتعرض لترجمة الاشخاص من سلاطين ووزراء الخ.. بالاسلوب التقليدي المبني على الاطناب والاطراء. بل انها تنصب على قضايا تاريخية قد تتجاوز الاشخاص وتتجه الى دراسة التطور

العام الحاصل في المجتمع. ومن هنا تميزت عن الكتابات التقليدية وبدأت تنافس الكتابات الاجنبية الحديثة وتبرز عليها في احيان كثيرة.

2 ـ المونوغرافيا التاريخية

اتجه عدد من الباحثين الى البحث في تاريخ منطقة معينة، مستندين الى بعض الوثائق والمصادر وربما الى الرواية الشفوية والتنقيب الميداني. وهذا الاهتمام بالتاريخ المحلي له جذوره في تراثنا التاريخي التقليدي. الا ان الابحاث الجديدة تتميز بمنهاجيتها العلمية وقدرتها على استقصاء الموضوع، بفضل توفر المراجع الببليوغرافية وسهولة الحصول على المصادر النادرة، ولنستعرض عناوينها، مشيرين الى تاريخ مناقشتها :

ا ـ أحمد التوفيق **بعض جوانب تاريخ المغرب الاجتماعي في القرن 19 : اينولتان من 1850 الى 1912** (نوقشت بالرباط في 1976) تناول المؤلف في هذا البحث وضعية احدى القبائل المجاورة لدمنات، انطلاقا من ترتيب عزيزى متعلق بها. وحاول باجراء بحث ميداني ومراجعة المصادر المخطوطة والمطبوعة ان يلقي الاضواء على عدد من قضايا تلك القبيلة، على المستوى السياسي والاداري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. ويمتاز هذا البحث بدقة التحليل ووضوح المنهاج واثارة عدد من المشاكل التي ادلى فيها الباحثون الاروبيون بنظريات ومراجعتها وابداء راي جديد في شأنها مما جعله نموذجا للابحاث المماثلة.

بـ محمد اعفيف : **مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي : توات في القرن 19** (نوقش بالرباط في 1982) بحث يلتقي مع بحث العماري الآنف الذكر، لكنه يتركز في دراسة منطقة كبيرة كانت جزءا من التراب المغربي، وهي منطقة توات التي استولى عليها الفرنسيون في اول القرن وألحقوها بالتراب الجزائري. والدراسة تعطي فكرة عن مجتمعات الواحات المبنية على اقتصاد من نوع خاص وتراتب اجتماعي يحظى بالتزكية من لدن الجميع ولو كان يخلق فوارق طبقية مناقضة للتسوية بين الناس.

ج ـ أحمد مزيان : **مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر 1845ـ1903** نوقشت في 1986 بالرباط) عمل ينصب في نفس الموضوع، ولكنه في هذه المرة يعني منطقة لها مميزاتها بشرق المغرب وهي منطقة فيجيج، التي تتميز بسكانها ونوع انشطتها، ومجتمعها، وقد تغير وضعها، اثر احتلال الفرنسيين للجزائر. وقدمت مساعدتها لمقاومة الجزائر بقيادة الامير عبد القادر، ووقفت بجد وحزم في وجه التحرشات الفرنسية فالبحث، بالاضافة الى ما يقدمه من معلومات تاريخية واجتماعية واقتصادية عن المنطقة، يتصدى لذكر دورها التاريخي في مواجهة المخطط الاستعماري الفرنسي.

د ـ أحمد بوكارى : **زاوية ابي الجعد** (نوقشت بالرباط في 1984) مونوغرافية خاصة بدراسة الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد وتتبع مراحل نشاطها وإشعاعها، وعلاقاتها بالمخزن التي ترددت بين الصراع والمهادنة، وما تعرضت له، في بعض الاحيان، من اضطهاد وقمع. وما كان لها من علاقات مع الزوايا الاخرى.

هـ ـ حسن الفيكيكي : **قلعية ومشاكل الوجود الاسباني بمليلية 1497ـ1859**. دراسة عن منطقة الريف الشرقي وأهميتها في تاريخ المغرب عموما، بصفتها نافذة على البحر المتوسط، ومركز ممتازا للاتصال مع الاندلس واسبانيا وغيرها من شواطىء اروبا المتوسطية. والى جانب الفصول المخصصة لدراسة السكان والقبائل والبنيات الاقتصادية والاجتماعية، هنالك تتبع دقيق للكفاح الذي قامت به قلعية في مواجهة الاسبان والعمل على تقليص جيوب احتلالهم وطردهم، بالمرة من الساحل المغربي، باستغلال كل الوثائق الاسبانية والمغربية.

و ـ اكنينح العربي : **اثار التدخل الاجنبي في المغرب على علاقات المخزن بقبيلة بني مطير**. بحث يتعلق باحدى القبائل البربرية الكبرى بني مطير المستوطنة في هضاب الاطلس المتوسط المجاورة لمكناس. وهي من القبائل التي كانت تتقلب بين الطاعة والتمرد، والتي كانت لها مواقف مع المخزن ومع الفرنسيين.

ز ـ محمد اللحية : **الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر 1850ـ1912.** دراسة للحياة الاقتصادية، كما كانت في احدى المدن المغربية، على النمط التقليدي، اي باعتبار الفلاحة والصناعة والتجارة كما كانت تمارس انشطتها في المجتمع المغربي، قبل ان يعرف الاستعمار ويدخل في تحولات سريعة كان لها انعكاس على عاداته وأساليبه في الانتاج والتوزيع. فالدراسة، بهذا المعنى تحاول ان تقدم لنا صورة عن نظام اقتصادي متقادم.

ح ـ عبد الرحمن المودن : **اسهام في دراسة العلاقة بين المجتمع القروي والدولة في مغرب القرن 19 : قبائل ايناون والمخزن 1873 ـ 1902** رسالة جامعية تنصب على دراسة القبائل المجاورة لواد ايناون، احد روافد نهر سبو والواقعة بمنطقة تازة المعروفة بحساسيتها كممر حيوي وضروري بين غرب المغرب وشرقه. ونظرا لقربها النسبي من الجزائر التي كانت تحت الحكم الفرنسي، ولموقعها المركزي بين الريف والاطلس المتوسط، فقد عاشت احداثا كانت خطيرة في بعض الاحيان، وألزمت المخزن بالتدخل تارة بالقوة وطورا بالسياسة.

ط ـ علي المحمدي : **مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر : المجتمع الباعمراني وعلاقته بالمخزن.** دراسة لهاته القبيلة وأصولها ونشوءها، وتفنيد مزاعم الدول الاستعمارية الاجنبية بشأن انفصالها عن طاعة المخزن، البحث يبين، بالعكس، ان العلاقة كانت قائمة بين المخزن وقبائل سوس، بوجه عام، ومنها ايت باعمران، كما يبين ان السلطة القضائية لم تكن كلها خاضعة للعرف، بل كانت تابعة، ايضا للقضاء الشرعي.

ي ـ عمر أفا : **مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن 19، سوس 1822 ـ 1906.** أهتم المؤلف في هذه الدراسة بالوضع الجديد الذي بدأ يدخل فيه المغرب في اواخر عهد المولى سليمان العلوي وانعكاسه على تطور النقد المغربي، بالتركيز على منطقة سوس. وقد استند في عمله الى مجموعة مهمة من الوثائق والمصادر. وسار عمله على النسق التالي : مهد بنظرة اولى على عمل الدولة المغربية في مجال النقد، وبتقويم تاريخي لبلاد سوس. ثم عرج على الحالة النقدية بالمغرب وما اثارته من مشاكل وتدخلات ومحاولات للاصلاح.

وخصص القسم الاخير من رسالته لالقاء نظرة موسعة على وضع النقد بسوس ومقارنته بما كان عليه الوضع العام بالمغرب. هذا، وان الرسالة تشتمل على توثيق مدقق، ورسوم بيانية وتوضيحات ووثائق ذات اهمية.

ك ـ بوشتى بوعشرية : **احداث بوفكران**. موضوع يتعلق بتاريخ قريب منا جدا، اذ يعني الاحداث التي جرت بمكناس من أجل ماء واد بوفكران الذي حاولت الادارة الاستعمارية ان تحوله لصالح المستعمرين الأجانب. وتعد من التحركات الوطنية البارزة في تاريخ النضال التحرري المغربي، اذ فضحت الطبيعة التعسفية والاستغلالية التي كانت تسير عليها السياسة الاستعمارية. والبحث، بهذا المعنى، يمثل مساهمة جادة في كتابة تاريخ الحركة الوطنية.

ل ـ محمد الاخصاصي :

La politique française au Maroc 1830-1844

هذا عمل جامعي تقدم به الباحث امام جامعة باريس، وهو ينصب على الفترة المعاصرة لاحتلال الجزائر. فيعرض لموقف المغرب من الحدث. وقد كان موقف تضامن ومساندة للجزائر ولكل الرجال الذين تجندوا لمقاومة العدوان الفرنسي. وظهر ذلك التأييد بصورة فعالة لحركة الامير عبد القادر. وتأثر علاقات المغرب مع فرنسا بسبب ذلك تأثرا عميقا، وتعرض لتدخلات وضغوط دبلوماسية متواصلة، ثم لعمليات انتقام عسكرية كانت اخطرها هي التي انتهت بمعركة اسلي، وتكبد فيها المغرب هزيمة فظيعة.

م ـ رشيدة برادة : Le Makhzen sous Moulay El - Hassan

بحث جامعي نوقش بجامعة باريس. وقد اهتمت فيه الباحثة بدراسة المخزن ونظامه في عهد الدولة العلوية وما عرفه من تطورات وما ادخلت عليه من اصلاحات في عهد مولاي الحسن الذي اظهر وعيا بضرورة الاصلاح وقام بمحاولات في ذلك السبيل، لكن النتائج لم تكن في مستوى النيات.

من استعراض هاته العناوين، يتضح لنا ان البحث تركز حول بعض الجهات او بعض القبائل او بعض الموضوعات المحددة في الزمان والمكان. ونلاحظ، مثلا، ان اهم المناطق في المغرب الحالي مازالت لم تستقطب اهتمام

المؤرخين مثل الحوز ودكالة وعبدة والشاوية وتادلا والغرب وجبالة الخ.. فباعتبار المغرب ككل، هنالك عدم توازن في الدراسات التاريخية التي انجزت. وهنالك ايضا، مدن تحتاج الى كتابة تاريخها او اعادة كتابته، حسب المناهج العلمية الحديثة.

ومع ذلك، فان ما انجز لحد الساعة له قيمته وأهميته التي لايمكن تجاهلها، والتي من المحقق انها ستفيد كل من حاول ان يكتب تاريخ المغرب في المستقبل. فملاحظتنا تنطوي، في الحقيقة، على تقدير ما تم انجازه، وعلى حث الباحثين الجدد المهتمين بالمونوغرافيات الاقليمية على التوجه الى اقاليم ومدن اخرى في المغرب حتى يحصل استتمام النظر الى كل الجهات. وبذلك تتوفر لنا المادة الكافية لمراجعة كل المحاولات السابقة لكتابة تاريخ البلاد. وتقديم صورة جديدة ومتكاملة عن ذلك التاريخ.

3 ـ تحقيق المصادر

هناك عدة مصادر ظلت مخطوطة او مطبوعة طبعة حجرية اصبحت بسببها مفقودة. وبعضها ربما كان منزويا في الخزانات الخاصة لا تصل اليه الايادي، فكان في حكم المفقود وكان من الطبيعي ان يتجه البحث العلمي الناشيء في جامعتنا الفتية الى تحقيق بعض تلك المصادر. فيتصدى لها القادرون على قراءتها وتحقيق نصوصها. وهو عمل يتطلب من الجهد والخبرة ما هو غني عن البيان.

لكن قبل ان استعرض تلك الاعمال الجامعية، ارى من الواجب ان انوه بمجهودات بذلت خارج الجامعة لنشر عدد من النصوص يصعب علينا ان نذكرها كلها. وانما اشير هنا، مثلا، لما قامت به المطبعة الملكية بعناية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور، مؤرخ المملكة. فمن ذلك

- روضة التعريف لليفرني
- نشر أزاهر البستان لابن زاكور
- العز والصولة لابن زيدان.
- الاعلام لابراهيم بن العباس التعاريجي
- تاريخ تطوان لمحمد داود الخ..

هناك مبادرات اخرى ادت الى نشر

- رحلة العياشي المعروفة بعنوان : ماء الموائد.
- الاكسير في فكاك الاسير لابن عثمان المكناسي.
- نزهة الحادي لليفرني
- رحلة الوزير للغساني
- الاغتباط لبوجندار الخ...

نصل الان الى بعض المصادر التاريخية التي نشرت في اطار البحث الجامعي، فنذكر منها :

ا ـ نشر المثاني : للقادري، الذي اختفى من السوق بعد طبعته الحجرية، والطبعة الحالية، التي استكملت كل محتوياته، صدرت في اربعة اجزاء، فيما بين 1978 و1986 بتحقيق الاستاذين محمد حجي وأحمد التوفيق، ولانحتاج الى الالحاح على اهمية الكتاب، سواء كمصدر للتاريخ السياسي او الاجتماعي او الثقافي.

ب ـ التقاط الدرر : للقادري، ايضا، وهو مختصر عن السابق وقد قام بتحقيقه الاستاذ هاشم العلوي القاسمي سنة 1979 وصدره بجزء خاص كمقدمة تحليلية للتعريف بالكتاب وابراز اهم الموضوعات التاريخية الواردة فيه، ونشر في سنة 1983 بدار الافاق في بيروت في جزئين : او لهما خاص بالدراسة المذكورة، وثانيهما يتضمن المتن في 530 صفحة مع الفهارس الضرورية.

ج ـ تاريخ الضعيف : لمحمد عبد السلام الرباطي المعروف بالضعيف. وهو مصدر مهم لتاريخ الدولة العلوية، اذ يتضمن معلومات ووثائق لا توجد في غيره. وبعد ان ظل مخطوطا طوال عشرات السنين، حظى بالاهتمام في الفترة الاخيرة، فعرف نشرتين مختلفتين.

1 ـ اولاهما كانت بتحقيق احمد العماري في مجلد واحد دار المأثورات 1986.

2 ـ ثانيتهما لاحمد البوزيدي الشيخى دار الثقافة 1988 في جزئين.

تلك نظرة خاطفة على معظم ما انجز من ابحاث ذات قيمة علمية في رحاب الجامعة المغربية والتي لها صلة بعهد الدولة العلوية منذ نشأتها، وهي تمثل الخطوات الاولى في هاته الطريق الطويلة، طريق البحث التاريخي، وتقدم للباحثين والاساتذة والقراء مادة دسمة ومفيدة للمطالعة والتفكير.

ارتسامات تاريخية حول مولاي اسماعيل من خلال : «رحلة الوزير، في افتكاك الأسير»

محمد بن عبد العزيز الدباغ

ان الاطلاع على الرحلات السفارية او غيرها يساعد في كثير من الاحيان على الاستفادة من المشاهدات، والتأمل في التعليقات، وعلى البحث عن اسباب التعرض لبعض الموضوعات واهمال بعضها او الاكتفاء بالاشارة اليها دون أي تعليق او تحليل.

وقد عد المؤرخون هذه الرحلات من مصادرهم التي يرجعون اليها في تدوين اخبارهم لما لها من الشفوفية في وصف الاحداث او لما لها من الاستطرادات العفوية التي تعين الباحث على الربط بينها وبين استنتاجاته التي يصل اليها.

ومن البديهي ان مؤرخي الدولة العلوية الشريفة قد استخدموا هذه الرحلات في ابحاثهم واستنطقوها استنطاق الخبراء فكانت بسبب ذلك من اهم المصادر التي اعتمدوا عليها سواء بالنسبة الى الرحلات التي كانت في بداية انطلاق الدولة او في الرحلات التي كانت بعد ازدهارها.

ولم تكن الفائدة منها مقتصرة على الجوانب السياسية ولكنها قد افادت في الدراسات الاجتماعية والادبية والجغرافية فاعتبرت بسبب ذلك زادا ثقافيا ينهل منها كل حسب اختصاصه وحسب رغبته.

ومن اهم الرحلات التي دونت على عهد المولى اسماعيل رحمه الله الرحلة الموسومة برحلة الوزير في افتكاك الاسير للكاتب محمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني المدعو حمو المتوفى عام تسعة عشر والف بمدينة فاس وهي الرحلة التي قام بها الى الاندلس بأمر من المولى اسماعيل وقد نشرها الفريد البستاني عام 1940 بعد ان استخلصها من مخطوطات عدة وكتب عليها حواشي وتعليقات ووضع لها الجداول والفهارس والتراجم في اللغتين العربية والاسبانية.

وما زالت هاته الرحلة لحد الآن قابلة للدراسة وممهدة للتعريف بحياة المولى اسماعيل وبمواقفه البطولية ازاء التحرير الوطني الشامل وازاء العمل من اجل تثبيت الشخصية المغربية في الاطار الدولي.

كان كاتبها من اقدر الناس بيانا ومن احسنهم اسلوبا وهو في رحلته هاته كان يمزج اللغة العربية احيانا بمفردات اسبانية حفظا على المصطلح الشائع آنذاك. ذلك المصطلح الذي كان يدل بدقة على المقصود من العبارة حتى لا يفهم منها غيرها وقد كان المولى اسماعيل يقدره ويقربه اليه ويهيئه للمهمات الكبار ولا ادل على ذلك من اختياره ليكون سفيرا في رحلته هاته الى اسبانيا عام 1102 هـ موافق 1691/1690 م وفي اختياره ليكون له فيما بعد سفيرا الى الدولة العثمانية في شهر شوال من سنة 1103 هـ موافق يوليه 1692 م ومن الطبيعي ان هذا الاختيار لم يقع عليه من المولى اسماعيل الا لما كان يعهده فيه من سداد الرأي ومن القدرة على المناظرة وحسن التخلص من المزالق وقد وصفه الشريف مولاي عبد الرحمن ابن زيدان في كتابه الاتحاف ج 4 ص 61 بأنه فقيه علامة مشارك متقن كاتب بارع يكتب كما يراد منه وانه انتهت اليه رياسة صنعة الترسيل ولم يعزز في عصره بمثيل.

وقد سبق لي ان وجهت عنايتي لدراسة هاته الرحلة فنشرت بحثا حولها بمجلة دعوة الحق الغراء عام 1969 بالعدد الرابع من السنة الثالثة عشرة بينت فيه بعض ما يتعلق بها في المجال الفكري والادبي واشرت فيه اشارات خفية الى مجهود المولى اسماعيل في تحرير البلاد والعمل على وحدتها ورايت من المفيد اليوم ان اتعرض في هذه الندوة المباركة الى هذه الرحلة من جديد وان

اوجه عنايتي للمجال التاريخي المتعلق بالمولى اسماعيل وما اذكره اليوم اعتبره امتدادا لما قدمته من قبل في البحث السابق.

ومن المعلوم ان من يتعرض لهذه الرحلة ملزم بذكر اسبابها والافصاح عن ملابساتها وبواعثها فالمولى اسماعيل بعد ان عمل على استتباب الامن الداخلي بالبلاد وعلى القضاء على الثوار الذين كادوا ان يفتنوه عن الوحدة المغربية وجه عنايته لتحرير الثغور من الاحتلال الاجنبي وتلك خطة لم يحد عنها المولى اسماعيل لانها داخلة في الميثاق الأول لتأسيس هاته الدولة، الهادف الى العمل من اجل ازالة التمزق الذي اصيب به المغرب بسبب كثرة ولاياته التي كان بعضها يحارب البعض الآخر وبسبب تقلص اطرافه التي تقع في قبضة بعض الدول الاوربية كطنجة والمهدية والعرائش واصيلة وسبتة وجزيرة بادس وقد عمل عدد من المجاهدين في عهد السعديين على ارجاع هذه الثغور وغيرها الى الوطن الام فوفقوا احيانا الا انهم لم يستطيعوا ان يحرروا كل ما كان بقبضة البرتغاليين والاسبانيين والانجليز، فورث المولى اسماعيل عبء هذه المهمة الشاقة التي مازالت بعض ذيولها قائمة الى الآن خصوصا منها ما كان ناتجا عن ضعف السعديين في اخريات ملكهم وعما تولد عن ذلك من محاولات فردية او اقليمية لم تكن قادرة على توحيد البلاد وعلى حماية الحدود وطرد الاعداء وذلك ما اهاب بالدولة العلوية ان تقوم به وما جعلها تتحمل الصعاب من اجل تحقيقه وتحقيق ابعاده.

ان المولى اسماعيل عاش في حقبة كان المغاربة فيها يلبسون احذية سوداء حزنا على ضياع مدينة العرائش في عهد الاضطراب الذي كان بالمغرب بين ابناء احمد المنصور السعدي فقد تطاول احدهم وهو المامون المعروف بالشيخ على الحق الوطني ودفعه الطيش الى الاستنجاد باسبانيا من اجل التغلب على اخيه زيدان وواعدهم اذا نصروه ان يمنح لهم مدينة العرائش وفعلا فقد نفذت المؤامرة بتعاون مع قائده المدعو بالكرني الذي وجد من اهل العرائش مقاومة كبيرة الا انهم في الاخير غلبوا على امرهم بعد ان استشهد عدد كبير منهم وسقيت ارض العرائش بدمائهم الطاهرة الزكية ولما رأى المغاربة ان ارض العرائش وطئتها الاعداء وان ابناء المنصور لم يستطيعوا حماية

البلاد. توجه بعضهم الى ابي عبد الله العياشي لينقذهم من ذلتهم وكاد الامر ان يستتب لولا وجود معارضة داخلية ادت في الاخير الى مقتله على يد الدلائيين الذين هم بدورهم كانوا يتطلعون الى حكم البلاد.

وهنا جاء دور القيادة التي انطلقت من سجلماسة على يد ابناء الشريف العلوي حيث تولى الحكم اولا المولى مّحمد بن الشريف الذي بويع عام خمسين والف واستطاع ان يحرر درعة من قبضة ابي حسون السملالي الذي كان يحكم بلاد سوس وما جاورها ولم يكن باستطاعته ان يتغلب على جميع من كان بالمغرب من زعماء الزوايا وزعماء الاقاليم الذين كانوا يتطلعون الى الحكم وبدأ في مسالمة بعضهم الشيء الذي دفع اخاه المولى الرشيد الى الغضب والى منازعته والبيعة لنفسه لانه لم يكن يرغب في ان تكون الدولة العلوية دولة اقليم من اقاليم المغرب بل اراد ان تكون الدولة محققة للوحدة التي كان ياملها والده رحمه الله وشاءت الاقدار ان يقدم اخوه المولى مّحمد لمحاربته فيسقط الاخ صريعا برصاصة قبل بداية المعركة وهنا رأى الجيش ومن والاه بان الخير للمغرب الا يزاد في اضطرابه فبايعوا المولى الرشيد وتمت له البيعة من انصاره وانصار المولى مّحمد، وهنا قرر مواصلة القضاء على الدويلات الجهوية فتغلب على الدلائيين وانضاف ما كان بيدهم الى حكمه.

وبعد وفاته عام 1082 هـ 1722 م تولى المولى اسماعيل حكم البلاد فاستمر في نفس الخطة الهادفة الى اقرار الامن الداخلي والقضاء على الفتن ليجد السبيل بعد ذلك الى تحرير المحارس والثغور.

وتذكر المولى اسماعيل الفاجعة التي كان المغرب قد اصيب بها اثناء احتلال العرائش واراد ان يعيد نشوة الانتصار الى المغاربة بارجاع هاته المدينة الى اصلها عساهم بذلك ان يخلعوا تلك الاحذية السوداء الى الابد ورأى ان المناسبة واتته ليرجع الامور الى نصابها بعد ان تمكن من القضاء على كثير من اعدائه الداخليين وبعد ان اعد الجيش اعدادا صالحا،وتوجه هذا الجيش الى مدينة العرائش وحاصرها حصارا طويلا واخيرا استطاع ان ينسف سورها،فلم يجد الاسبانيون سبيلا الا الفرار الى الحصون الموجودة بها ولكنهم استسلموا اخيرا استسلاما اعتبره الجانب المغربي ناتجا عن العجز وعدم القدرة على

الاستمرار الحربي وبذلك يعتبر استسلامهم غير داخل في التنازلات الارادية الصلحية التي يعفى المحاربون بسببها من الاسر، وبهذا الرأي أفتى الفقهاء المغاربة الذين رأوا ان جميع النصارى الذي كانوا بالعرائش يعتبرون اسرى لا يمكن اطلاق سراحهم الا بفداء واما الاسبانيون فانهم كانوا يقولون بان هؤلاء النصارى لم يستسلموا الا بعد ان واعدهم الجيش المغربي بالامان وقد كان قاضي مكناسة السيد ابو عبد الله محمد المعروف بابي مدين السوسي من الفقهاء الذين الفوا في هذا الموضوع كتابا سماه السهم الرائش في حكم غنيمة العرائش، وبين فيه ان استرجاع الارض كان بعد حرب ومواجهة وان النصارى لم يستسلموا استسلام المهادنين ولكنهم استسملوا بعد ان عجزوا عن المواجهة فالارض سقطت عنوة ولم تسقط صلحا واعتمد المولى اسماعيل على فتوى الفقهاء في رسالة وجهها الى كارلوص الثاني ملك اسبانيا وهي الرسالة التي حملها محمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني اثناء رحلته هاته وتذكر الرسالة ان الاسبانيين يزعمون انهم يملكون تلك المدينة بمقتضى معاهدة بينهم وبين المامون الشيخ السعدي مع ان الحقيقة حسب ما يذكره الفقهاء تثبت ان تلك المعاهدة غير سليمة نظرا لعدم التكافؤ بين القوتين ذلك ان الملك السعدي وقع عليها تحت الضغط والاكراه ولم يشر الغساني في رحلته الى جميع مضمون هاته الرسالة وانما تحدث منها على أمرين :

الامر الاول : المطالبة بإعادة الكتب الاسلامية الموجودة باسبانيا الى المغرب.

الامر الثاني : تحرير الاسرى المسلمين الموجودين باسبانيا سواء كانوا مغاربة او غير مغاربة.

وذكر الغساني ان عدد الاسرى المطلوب فكاكهم يبلغ الخمسمائة وان عدد الكتب المطلوب إرجاعها خمسة الاف ولم يشر الى اسباب تحديد ما طلب لان ذلك كان ضمن الرسالة المكتوبة التي حملها (وقد اطلعنا عليه بعد نشر هذه الرسالة من قبل بعض الباحثين) ذلك ان الاسبانيين كانوا قد طالبوا المولى اسماعيل بفك مائة نصراني من اسرى مدينة العرائش وكان قد وعدهم بقبول رغبتهم الا انه بعد ما اطلع على فتوى الفقهاء ارسل سفيره هذا وهو يحمل هذه الرسالة التي بين فيها ان وعده بالسراح مازال قائما الا ان عنصر الفتوى جعله

يطلب تعويض خمسين منهم بخمسمائة اسير مسلم والخمسين الاخرى بخمسة الآف كتاب ونظرا لقيمة هذه الرسالة فاني سأمليها عليكم نقلا عن الدكتور عبد الله العمراني الذي اوردها في كتابه حول مولاي اسماعيل بن الشريف صفحة 173 فقد جاء فيها ما ياتي :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

من عبد الله اسماعيل المتوكل على الله المفوض امره الى الله امير المومنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني ايده الله آمين.

(الطابع الشريف)

الى عظيم الروم. وملك اقاليم اسبانيا وبلاد الهند والمتولي امورها والمتصرف في اقطارها دون كارلوص. السلام على من اتبع الهدى اما بعد.

فقد بلغنا كتابكم صحبة خديمكم دون مانويل بيردلون وخديمكم دون ابيل مسيح (علق الدكتور العمراني على هذين الاسمين وكتبهما بالحروف اللاتينية اما الاول فقال عنه الاسم الصحيح هو مانويل فييرادي لوكو Manuel Viera de lucu واما الثاني فهو Don.....) وهو الكتاب الذي وجهتم لنا جوابا عن كتابنا الذي اصدرناه لكم ووصلكم صحبة الفرايلي قبل هذا.

وبعد ان قراناه وفهمنا لفظه ومعناه والقى إلينا خديمكم دون انيل مسيح

ما في خاطركم، وما طلبتموه منا من فك هذه المائة من النصارى الذين وقع الكلام فيهم قبل هذا، رددنا اليكم جواب كتابكم، ووجهناه مع خديم دارنا العلية بالله، كاتبنا ومتولي الاقرب من بساطنا السيد محمد بن عبد الوهاب الوزير ولولا مزيتكم عندنا ومعرفتنا بمنصبكم ما سمحنا بفراق كاتبنا عن بساطنا لمهمات امورنا.

واننا لخديمنا الاكبر الاعز الاشهر ابي الحسن علي بن عبد الله ان يبعث معه رجلا من اصحابه، فوجه خديمنا عبد السلام بن احمد جسوس معاشرا له ومرافقا. وعند الكاتب المذكور قضية دخول جند الاسلام المظفر بالله على نصارى العرائش. وفي علمه وعلى باله كل ما كان في ذلك من الكلام والاسباب، وكيفية الخبر في ذلك فثقوا به وتعرفوا منه. فانه حفظه ووعاه من اوله الى آخره لملازمته لبساطنا العلي بالله في سائر اوقاته.

ونحن بلا شك كنا اعطينا القول لهذه المائة من النصارى بالسراح، ولكن وقع من النصارى ما اختل منهم من الاسباب ما يوجب عدم الوفاء لهم بذلك. فمنهم من كان ينادي بلفظ «مينا على رؤوسهم» ومنهم من لم يرض بخروجهم على ذلك، لذلك القول، وكاد يفتك بمن دخل اليهم من خدامنا الذين اوفدناهم عليهم. وبعضهم ركب لجج البحر فارا بنفسه حتى ادرك وقتل على الموج.

وحاجنا مع هذا كله ملتنا، وعلماء شريعتنا، وائمة ديننا، بان قالوا لنا : ان المسلمين كانوا اشرفوا على الغنيمة ساعتئذ، ووقع الغلب والظفر، ولم يبق للنصارى الا الموت بالسيف او بالغرق، فلا وجه لسراحهم في الشريعة راسا، وكنا في هذه المدة نتراد الكلام مع هؤلاء العلماء حفظهم الله وقالوا لنا هؤلاء المائة يكونون اسارى ويسترقون من كل وجه.

كيف وقد اخذوا العرائش من اول وهلة بلا موجب، بل اضغطوا الشيخ ابن السلطان الذهبي، وقبضوا عليه حتى أنفقوا عليه اموالا عديدة، ومسكوا اولاده بسببها حتى اعطاهم العرائش على ضغط منه، وعلى غير تاويل حقيقي في ذلك. وذكرونا في مسألة غدر اسلافهم باهل غرناطة وغيرهم بما يزيد على الاربعين الفا بعد تعدى الشروط على ستين شرطا، ولم يوفوا لهم بواحد منها... الى غير ذلك من الغدر والمكر باهل غرناطة وغيرهم من اهل الاندلس في كل بلد وقرية، فالفيناهم ما تكلموا الا بالحق، وبقينا في حيرة من أجل هذه المسألة من وجهين :

الاول : لا نقدر أن نخالف شريعتنا التي هي أساس ديننا.

الوجه الثاني : ذلك القول الذي سمعه في تلك المائة احببنا الوفاء به، وانفت نفوسنا أن يسمع عنا الناس قلنا كلمة ولا نوفي بها. ولولا معارضة العلماء لنا بهذا الاحتجاج القوي، لكنا سرحنا هذه المائة مع الفرايلي واصحابه الذين أتوكم قبل هذا مسرحين. فلاجل هذا أبصرنا كلام علمائنا في هذه النازلة لا بد منه، ولا محيد عنه. واحببنا أن يسمع الناس انا وفينا في قولنا، ولم يلزم فيه

حرج ولا معارضة، ولا كثرة اعتراض، ولم يلزم فيه من حجة الشرع إثم. فاردناكم تعلمون لنا وجه خلاص هذه المائة بالوجه الذي عملناه لكم، وأعطيناكم فسحة فيه. والا فالمائة المذكورة ارقاء اسارى من جملة اخوانهم. وذلك أن تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة. خمسة الآف كتاب. مائة كتاب عن كل نصراني، من كتب الاسلام الصحيحة المختارة المثقفة في خزائنهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة، وما والاها من مدن وقرى، حسبما يختارها خديمنا المذكور من المصاحف وغيرها. وتعطون خمسمائة اسير من المسلمين في الخمسين الاخرى. عشرة اسارى لكل نصراني. وان لم توجد الكتب التي هي مرادنا، فاجعلوا عوضها من اسارى المسلمين واعطوهم لنا من الاسارى الذين في الاغربة وغيرهم. وقبلنا منكم في العدد المذكور الرجل والمرأة والصبي الصغير والكبير. والشيخ المسن، من ايالتنا وغيرها، اذ ما لنا قصد الا في الاجر والثواب في فكاك اسرى المسلمين كيفما كانوا ومن أي بلد كانوا. والا فالاعتناء الكلي انما يكون باهل الدواوين من الجند او العلماء حملة الشريعة. وعامة المسلمين انما نقصد بفكاكهم وجه الله تعالى. فان انتم سارعتم لهذه المسألة فما عملكم الا الخير في ارواحكم، وفي اخوانكم، وان ثقل عليكم هذا الامر ولم تقدروا عليه فارجعوا خديمنا الكاتب الذي وجهناه اليكم في امان الله كما اتاكم والمائة من النصارى نصيرهم من جملة الاسارى اخوانهم يخدمون مثلهم. واذا نحن ابصرنا منكم المسارعة لاغراضنا، والجد في ابتغاء مرضاتنا، وانجزتم بارواحكم في هذه المسألة، فلا ترون منا الا ما يعجبكم. وحتى باقي نصاراكم الذين هم عندنا من اصحاب العرائش وغيرها من غير هذه المائة نعمل لكم الكلام في سراحهم بما يرضينا فيهم عندكم ان عملتم الواجب الذي لنا عليكم، وتعرفتم الصواب الذي تعين عليكم كما ذكرتم في كتابكم.

وبرجوع خديمنا حامله بما ذكرناه في هذه المسالة، تتلقاه هذه المائة نصراني بسبتة ويكون ملتقى الجميع فيها، ولا عندنا معكم في هذا الا الجد الصحيح، والعمل الصريح بحول الله تعالى .

وكتب لسادس عشر ذي الحجة الحرام خاتم عام واحد ومائة والف (1690.9.20)

ولم يكن مضمون هذه الرسالة بالأمر الهين على ملك اسبانيا فهي كما يلاحظ تحتوي على نقط اساسية تدعو الاسبانيين الى التفكير الجدي فيها والى البحث عن حلولها وهي تمزج اللين بالقوة والترغيب بالترهيب والاغراء بالتهديد واهم هذه النقط تلخص فيما ياتي :

اولا : في مشروعية التحكم في مصير هؤلاء النصارى يجعلهم ارقاء نظرا لكونهم غلبوا في الحرب واخذت منهم العرائش عنوة زيادة على ان هذه المدينة انما استرجعها اهلها بعد ان كانت قد غصبت منهم غصبا .

ثانيا : مسألة المعارضة وما تتطلبه من مشاورات بين الاسبانيين انفسهم فهذا الملك المغربي يطلب عوض كل اسير نصراني عشرة من اسرى المسلمين ويبرر ذلك بانه لم يشترط في الاسرى المسلمين أي شرط فهو يقبلهم صغارا وكبارا ذكورا واناثا كانوا من ايالته او غير ايالته لانه لا يرجو من سراحهم الا وجه الله تعالى .

ثالثا : مسألة ارجاع الكتب الاسلامية الى المغرب وفق الرغبة التي تتلاءم مع مصالح المسلمين. وهذه القضية تتطلب مراجعة القوانين الداخلية للاسبان فيما يتعلق بالاوقاف المخصصة لكنائسهم واديرتهم وهل لهم الحق في اخراج ما بها ولو كان اصل تملكه لم يكن عن طواعية من اهله كما وقع بالنسبة الى الخزانة الزيدانية التي استولى عليها القراصنة الاسبانيون واستبدوا بها ولم يعيدوها لاصحابها .

رابعا : مشكلة تدخل المولى اسماعيل في المطالبة بفك الاسرى الذين لا ينتمون إلى ايالته، ويقصد بهم الاسرى المحتجزين من الجزائر او من الدولة العثمانية، وهم بهذا المقترح صاروا يفكرون في تطلع المولى اسماعيل الى تحرير المسلمين كيفما كانت اراضيهم وصاروا يخشون على انفسهم من ان يقوى المولى اسماعيل على التحكم في الثغور المغربية كلها وان يعمل على تحرير بعض الثغور التي هي في قبضة النصارى ولو لم تكن تحت مملكته بل خشوا ان تكون البادرة سبيلا الى ربط علاقات طيبة مع ولاة الجزائر وهم لا يريدون أن يفسحوا الطريق امام تحسين هذه العلاقة التي يرون انها اذا وقعت كانت خطرا على الاسبانيين وعلى من جاورهم من دول اوربا.

ورغم ما تضعه هذه الرسالة من صعوبات امام الاسبانيين وما تخلقه من مشاكل لهم فان الغساني يقول حينما قدم رسالته الى كارلوس ما تأتي : (ص 57).

وحين انفصلنا عنه يوم ملاقاتنا معه وناولناه الكتاب السلطاني دفعه الى النصراني الحلبي المترجم ليترجمه ويعجمه فلما عجم الكتاب وراي ما فيه وما اشار به عليه امير المومنين ايده الله من اعطاء خمسة الاف كتاب وخمسمائة اسير ثقلت عليه الوطاة العلوية ولم يدر كيف يتلقى هذه الاشارة وعرف انها عزمة من الملك نصره الله ولم يمكنه الا الاضطراب لما اشرب في قلبه وقلب اهل ديوانه من صيت هذه الامامة العلوية، وعلو همتها ابقاه الله بمنه، ووقعت المشورة منه في ذلك مع اهل ديوانه فرأوا ان الاجابة الى ما دعاهم اليه المولى اسماعيل والامتثال لأمره المطاع اعزه الله تعالى اولى لهم واوفق.

وقد ابان الغساني بعد ذلك عن تعدد الجلسات والاستشارات وانهم في الاخير رضوا بان يؤدوا الف اسير لانه تعذر عليهم تمكين المغرب من الكتب المطلوبة بدعوى انها كانت قد احرقت، ولم يجد الوفد المغربي حرجا في قبول ذلك لان الرسالة المولوية كانت قد اباحت لهم أن يقبلوا تعويض الكتب اذا تعذر دفعها على الاسبانيين بأسارى آخرين.

ولم يحدد الغساني في رحلته تاريخ تسلم المغاربة لهؤلاء الاسرى لان ذلك ربما وقع بعد كتابة نص الرحلة لأنني اظن ان هذه الرحلات كانت توضع بمثابة تقرير مفصل يقدم للملك اثر رجوع السفير من عمله ويباح اطلاع الجمهور عليه، ويكون مع الرحلة تقرير سري اخر خاص بالملك على اساسه تبنى نتائج المفاوضات والمشاورات الا اننا يمكن ان نطلع على ذلك عن طريق وثائق اخرى اثبتها المؤرخون ونجد الاشارة الى هذه الجزئية في كتاب التاريخ الدبلوماسي للمغرب للدكتور عبد الهادي التازي فقد جاء في الجزء التاسع منه صفحة 112 ان هؤلاء الاسرى ارجعوا الى المغرب في شهر شتنبر من سنة 1691 ميلادية اي بعد رجوع الغساني من رحلته بنحو اربعة اشهر.

واذا كان من الطبيعي ان يتحدث الغساني عن محتوى الرسالة التي حملها الى ملك اسبانيا فانه كان من الطبيعي ايضا ان يشير الى بعض الاحداث التي لها ارتباط بالمجال السياسي العام.

ومن اهم هذه الاحداث تعرضه للحرب التي كانت قائمة بين المانيا وحلفائها من الايطاليين والاسبانيين وبعض الدول المجاورة للاتراك من جهة وبين الدولة العثمانية من جهة اخرى، وقد حاول ان يفسر الاسباب التي دعت الى ايجاد هذا الحلف والى عدم انسياق بعض الدول النصرانية اليه وهنا ذكر ان فرنسا لم تنضم اليه نظرا لما لها من المصالح التجارية في بلاد الترك واشار الى ان موقف فرنسا هذا مضافا الى اسباب سياسية اخرى ادى الى وقوع حرب بينها وبين هؤلاء الحلفاء، لكن هذه الحرب وان عظمت فهي في الحقيقة لم تصل الى حد يجعل الفرنسيين يساعدون الاتراك على رد العدوان الالماني ذلك لان الفرنسيين انفسهم رغم ما لهم من تسهيلات تجارية في ارض الترك لم يكونوا مسالمين لهم الى حد كبير. فقد كانوا من حين لاخر يتسببون في بعض المصاعب للدولة العثمانية الا ان هذه المصاعب لم تصل الى المقاطعة والتنافر ولهذا قال الغساني بعد الاشارة الى الحرب القائمة بين فرنسا وبين الامبراطور الالماني ما ياتي (78).

وبسبب محاربة الفرنسيين للانبرادور حسب ما تقدم في ذكر الاسباب المثيرة لها، ينسبون له المعونة لملك الترك قواه الله ويزعمون انه يمده بما يحتاجه من الامور الحربية مثل المدافع وغيرها. وبسبب مقام الباشدور للفرنسيين ببلاد اسطنبول يزعمون انه يمده والصحيح هو ان اهل فرنسا اهل اسباب وتجارة وجل تجارتهم انما هي في الناحية الاسطنبولية ولاهل الاسباب والتجارة عند طاغية الفرنسيين - دمره الله - منزلة ومكانة اذ كانوا هذه السنين هم اهل ديوانه وجل بطانته. فكان يساعدهم فيما يؤول الى منفعتهم من الاسباب والتجارة التي يعود نفعها عليه ويحصل له بسببها من الاموال ما يحصل بخلاف غيره من الاجناس مثل هذا الجنس الاسبنيولي فان التاجر عندهم لا يعد شيئا.

وقد ذكر بعد ذلك ان القوة العثمانية قد انتصرت في بعض معاركها وذكر خبرا استفاده من الجريدة المهتمة بذكر اخبار الدول فقال: (799) والذي ورد هذه الساعة من الاخبار عن ملك الترك ايده الله انه جمع جموعا كثيرة وانه لا يثني العنان بحول الله وقوته دون مدينة باينا التي هي قاعدة المانيا ومحط سريره ولقد اخرجوا في اخبارهم التي يكتبونها على عوائدهم في هذا الشهر

ان وزير السلطان سليمان برز بمحلته وبها مائة الف مقاتل وخمسة وعشرون الف مقاتل وان جيش التتار قام في ميعاد حملة الترك بثمانين الف مقاتل وقد صادف وصولهم الموضع المعتاد لمحلة القبطان من خدام الانبرادور مخيما بموضع من المواضع ومعه ستة الاف مقاتل فحارب التتار محلة القبطان المذكور فاسروا من قومه اربعة الاف شخص وقتلوا عدة ولم يفلت من الباقين الا النزر الذي لا يعد لقلته.

ولاعتداد النصارى بمحاربة الاتراك وافتخارهم بذلك فان دولهم كانت تمنح امتيازات للمحاربين ذكر منها المؤلف ما لاحظه في اسبانيا التي كانت تمنح لقبا تشريفيا لكل اسباني ادلى بشهادة من قيادة الجيش الالماني تثبت انه شارك في الحرب ضد تركيا ولا يخفى ما لهذا الامتياز من منافع سواء ممن لم تكن لهم القاب سابقة او ممن ارادوا ان يحملوا القابا اشرف مما كانوا يحملونه وهم بواسطة هاته الالقاب قد يستفيدون في الارث وفي الزواج وفي كسب الرزق وتلك كلها تدعو الاسبانيين الى الوصول الى هذه الشهادة من الجيش الالماني باي وسيلة كانت.

والمؤلف في عرضه هذا كما لاحظنا كان يُجل الاتراك ويصفهم باحسن الصفات ويدعو لملكهم بالنصر والظفر في حين نراه حينما يذكر اعداءهم يغمزهم بأخس الالقاب ويدعو عليهم بالخزي والهزيمة والدمار. ولا اظن ان كاتبا محترما عند المولى اسماعيل يسمح لقلمه ان يكتب شيئا غير متلائم مع رغبات ملكه الهمام. والظاهر ان موقفه هذا كان من اسباب اختياره ليكون ضمن الوفد الذي ارسله المولى اسماعيل عام 1103 لدراسة الاوضاع الطارئة الناتجة عن الخلاف المغربي التركي حول الحدود الشرقية للمملكة المغربية.

ومن النصوص الموجودة داخل الرحلة الممجدة للعثمانيين والمستبشرة بانتصاراتهم ما ذكره اثناء مغادرة مدينة قالص وهو قوله (9) وبينمانحن في تهيئة الرحيل اذ دخل علينا قسيس من قسوس النصارى تربي في قسطنطينية واخبرنا بالفتح الذي من الله به على جيش المسلمين وان السلطان سليمان امده الله تعالى بمعونته استخلص مدينة (بير الاغراض) وعمالتها وما حولها وهو معتن بما هد من حيطانها، ومشتغل باصلاح ما خرب من اسوارها، وقد جعل

بها من العملة لاصلاحها وخدمة البنيان اثني عشر الفا واستبشرنا اذ ذاك بما خول الله تعالى من نصر المسلمين وكان النصارى يرون له بفتحه تلك المدينة واسترجاعها قوة وبدا وينكرونه احسن النكر.

ولعل هذا النكر الحسن الذي اشار اليه انما كان من بعض النصارى مجاملة للوفد المغربي ليس الا والا فاننا لاحظنا من قبل ان الاسبانيين كانوا يتفاخرون بمحاربة العثمانيين ويتسابقون الى الجيش الالماني ليكونوا ضمن المحاربين ولينالوا بذلك الجاه والشرف.

ومن المعلوم ان السلطان سليمان الذي نكر الغساني خبر انتصاره هو سليمان الثاني بن ابراهيم الذي بويع في شهر نونبر عام 1687 ميلادية، وكانت ايامه الاولى ايام اضطراب بسبب تسلط الانكثارية على تسيير الحكم لكنه استطاع تاديبهم والتغلب عليهم خصوصا بعد ان عقدت الدولة مجلسا للتشاور فيما يجب عمله لانقاذ السلطة وكانت نتيجة هذا الاجتماع ان ولي صدارة الوزارة مصطفى باشا الكوبرلي الكبير ومنحت له الصلاحية في اختيار البرنامج الذي يستعمله لانقاذ البلاد وقد وصفه شكيب ارسلان رحمه الله في الملحق الذي علق فيه على تاريخ ابن خلدون فقال عنه (ص 258): انه قام بالامور خير قيام وبدأ باصلاح السلطنة من الداخل وملأ الخزائن بالأموال واستأصل الرشوة، وأخذ على ايدي الظالمين، وسن قوانين عادلة للخراج، وكان جانب من موارد السلطنة تحول الى الأوقاف فاسترجعها وقال ان الجهاد اولى بها، ثم بعد ان ملأ خزانة السلطنة بالاموال اللازمة نشر فرمانا يقول فيه: ان الله يامر المؤمنين بالجهاد الى اخر رمق من حياتهم وانه يجب على المسلمين ان ينفروا خفافا وثقالا. فثارت الحمية في رؤوس المسلمين ونفروا عن كل صوب وفي الوقت نفسه عامل النصارى بمزيد الرفق واطلق حرية التجارة.

ومن المعلوم في تاريخ الدبلوماسية المغربية ان السلطان المولى اسماعيل قد هنأ السلطان سليمان بجلوسه على عرش الدولة العثمانية، وان هذا الاخير قد تمنى دوام التواصل المغربي التركي لما في ذلك من المصلحة العامة ولعل هذا التواصل المرغوب فيه كان من اسباب المواقف السليمة والاخوية التي كان

يبديها الغساني في رحلته كلما ذكر اسم سليمان هذا أو ذكر جيشه في مقاومة الحلف الالماني او غيره.

وعلى كل حال فان رحلة الغساني كانت نموذجا من نماذج التقريرات السياسية العامة لان الذين كانوا يدونون مثل هذه الرحلات لم يكونوا يدونونها لانفسهم وانما كانوا يضعونها امام الذين ارسلوهم لتدرس وينتفع بها في المصالح العامة بالاضافة الى التقريرات السرية الخاصة التي سبقت الاشارة اليها من قبل.

وشيء آخر أرى من الضروري الاشارة اليه وأنا اتحدث عن هذه الرحلة من الجانب التاريخي المتعلق بالمولى اسماعيل، فهي تبدى ملامح القوة في نفس مؤلفها الممثل للكرامة المغربية والمعبر عن الامال المغربية في كون المولى اسماعيل هو المنقذ المنتظر لهذه البلاد من الذل والصغار وهو الامل المرجو لتحرير شواطيء المغرب وثغوره وابعاد شبح الاستعمار عنه بل انه مرجو الى اكبر من ذلك فهو الذي يمكنه ان يجعل الاندلس مرة اخرى دار اسلام ومقر ايمان ويتجلى ذلك مثلا في ان المؤلف حينما دخل مدينة شنل واعجب بجمالها وانتشى بذكر بعض الاشعار التي قيلت فيها قال (16):

وقد انشدت حين ابصرت هذه المدينة وجميل منظرها متمثلا ببيت من الحريري وضمنته بيتين اخرين:

آليت اذ نظرت عيني محاسنها — أن لا نظير لها في مطلق الصور

وهذان بيتا التضمين تدليلا

فالله ينقذها حتى يدان بها — دين المهيمن محروسا من الكدر
بكف محتسب للاجر منتدب — لله منتسب لافضل البشر

وهو بذلك يعبر عن احساس وطني عام كان يتجلى عند المجاهدين الذين كانوا مرابطين لتحرير الثغور المغربية استعدادا لنشر الاسلام من جديد فيما وراء الحدود ولهذا قال احد الشعراء المغاربة وهو محمد بن عبد الواحد البوعناني: بعد فتح العرائش.

ايا مولاي قم وانهض وشمر — لاندلس فانت لها الامير

ولعلنا بهذا العرض نكون قد حددنا قيمة هذه الرحلة في المجال التاريخي سواء بالنسبة الى ذكر اسبابها المباشرة الناتجة عن تبادل الاسرى بين اسبانيا والمغرب بعد حرب العرائش وتحريرها من يد الاسبان او بالنسبة الى ما استنتجناه منها من كون المغرب كان يتحمس لانتصار العثمانيين ضد الحلف الالماني ومن كون المغاربة كانوا يرون في المولى اسماعيل المنقذ العملي لبلادهم من التمزق والانحلال وانه قادر بهمته ان يتجاوز الحدود ليعيد الوجود الاسلامي ببلاد الاندلس ذاتها.

وقبل ان انهي عرضي هذا اود ان انبه الى ان مؤلف هذه الرحلة يدعى محمد بن عبد الوهاب الوزير باعتبار أن لفظة الوزير اسم عائلي لا باعتبار انها سمة وظيفية طارئة، وهذا ما يؤخذ من صلب الرسالة التي حملها بنفسه الى كارلوس الثاني وما يفهم من ترجمته عند ابن زيدان في كتاب الاتحاف وما يوجد في وصفه عند محمد الفاسي في البحث الذي كتبه حول الرحلات السفارية المغربية بمجلة المناهل العدد السادس من السنة الاولى عام 1962 فقد قال عنه انه احد كتاب المخزن الاسماعيلي وانه من عائلة مجيدة اندلسية نزح سلفها الى فاس وتعرف بابناء الوزير.

هذا واني قد غفلت عن هذه الحيثية اثناء تعليقي على هذه الرحلة في البحث الذي اشرت في اول عرضي هذا انني نشرته بمجلة دعوة الحق عام 1969 فقد لقبته انذاك بالوزير على اساس انه لقب وظيفي لا على اساس انه اسم عائلي، وما زال بعض الباحثين لحد الان يصفونه بالوزير وظيفة مع انهم اقرب الى معرفة هذه الاشارة من غيرهم نظرا لخبرتهم وكفاءتهم وقد جرنا - على ما اظن - الى هذا الخطا الوصف الذي وصفه به الفريد البستاني ناشر الرحلة، فقد قال عنه انه محمد بن عيد الوهاب الغساني وزير مولاي اسماعيل، وسفيره الى كارلوص الثاني ملك اسبانيا عام 1102 هـ 1690 - 1691 م، والظاهر انه لم يكن قد اطلع على نص الرسالة التي وجهها المولى اسماعيل الى كارلوص الثاني، فلو كان قد اطلع عليها لوصفه بالكاتب لا بالوزير، وهنا أنهي عرضي هذا مؤملا ان تتاح الفرصة لي ولغيري من الباحثين في ان نجدد النظر في هذه الرحلة عسانا بذلك ان نستنتج منها ما يمكن ان يضاف الى ما توصلنا اليه والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في فرنسا

أحمد التوفيق / ابراهيم بوطالب

تندرج هذه المهمة في نطاق البحث عن وثائق تاريخ المغرب في العهد العلوي، ولما كانت فرنسا، للاعتبارات التاريخية المعروفة، تتوفر على اغنى ارشيف اجنبي يهم تاريخ المغرب، فإن مهمة الاستاذين المكلفين كانت بالضرورة مهمة استطلاعية قبل كل شيء سيما إذا اعتبرنا قصر المدة المخصصة (تسعة ايام عمل) وتعدد مراكز الارشيف وتنوع طبيعتها وتعقد اجراءات الترخيص بمباشرة الاطلاع على الفهارس ثم على الوثائق وتعقد مسطرة الحصول على المصورات والمستنسخات.

ومع ذلك تمكن الاستاذان المكلفان من ولوج معظم مراكز الوثائق الموجودة بباريس ومن التعرف الاجمالي على محتوياتها مما يهم تاريخ المغرب وهذه المراكز هي :

- ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية.
- ارشيف الجيش الفرنسي بحصن فانسين.
- مكتبة مراكز الدراسات العليا الادارية الاسلامية.
- الوثائق الوطنية الفرنسية.
- المكتبة الوطنية بباريس.

كما قضى الاستاذ ابراهيم بوطالب يوما كاملا بمدينة نانط حيث اشتغل بقسم الوثائق المتعلقة بعهد الحماية.

ولم يتمكن الاستاذان من التوجه الى مدينة ايكس ان بروفانس حيث يوجد أرشيف غني بالوثائق المغربية تابع لمركز الابحاث والدراسات حول البحر المتوسط.

تأكد للاستاذين من هذه الزيارة ما يريانه من قبل من اهمية الارشيف الفرنسي بالنسبة لتاريخ المغرب وجددا خبرتهما فيما يتعلق بآخر تطورات التنظيم الجاري في مراكز الوثائق وبشروط الاستفادة منها، وبذلك كانت زيارة تمهيدية قد يترتب عنها توجيه مكلفين لمدة اطول إذا صح العزم على الشروع في عملية رسمية واسعة لتحرير الوثائق الاجنبية وأعدت لها الترتيبات المادية الضرورية، وبوشرت بناء على اتفاق رسمي بين الادارتين المغربية والفرنسية، وبهذا الصدد يكون من الافيد التنسيق بين وزارة الشؤون الثقافية والمصالح الاخرى التي اهتمت بهذه العملية او تهتم بها مستقبلا.

وقد حرص الاستاذان في حدود امكانات الوقت الوسائل المادية على تصوير عينة من هذه الوثائق تمثلت في ميكروفيلمين، ميكروفيلم من أرشيف وزارة الخارجية يضم وثائق اصلية بالعربية لاقدم مجموعة رسائل مغربية في هذا الارشيف عددها مئتان وسبعون يرجع تاريخها الى الفترة الواقعة بين عام 1533 وعام 1811 وهي مصنفة في المراسلات الدبلوماسية بعنوان : رسائل في لغات شرقية (1)، أما الميكروفيلم الثاني فهو من المكتبة الوطنية بباريس يضم 268 صفحة من ضمنها رحلة وصفية بتافيلالت وهي رحلة التمنتيطي ولا توجد منها نسخة بالمغرب ورقمها في المكتبة الوطنية هو 11531.

وقد كانت مناسبة تصوير الميكروفيلم الاول بواسطة المصلحة الدولية للميكروفيلمات التي لها الاختصاص في تصوير وثائق ارشيف وزارة الخارجية، كانت فرصة للوقوف بالصدفة على العمل الواسع النطاق الذي ينجزه هذا المركز لحساب البعثات الرسمية في بعض بلدان المغرب العربي فيما يتعلق بتصوير ما يوجد بفرنسا من وثائقها الوطنية.

وأخيرا يتقدم الاستاذان بالشكر الى السيد وزير الشؤون الثقافية ويعبران عن استعدادهما للاسهام في تحضير خطة مبادرة لنقل وثائق تاريخنا الوطني من الارشيف الاجنبي خدمة للصالح العام.

وثائق خاصة بمؤتمر الجزيرة الخضراء (1906 اسبانيا)

محمد ابن عزوز حكيم

إن الوثائق والمستندات والمصادر والمراجع المتعلقة بتاريخ الدولة العلوية والموجودة بالربائد والخزانات والمتاحف الاسبانية تعد بعشرات الالوف، لذا يجب على من يتولى أمر جرد تلك الوثائق والمستندات والعمل على الحصول على صورها ان يضع برنامجا مدققا للعمل الذي يجب انجازه على أن يكون هذا البرنامج منحصرا في زمن ملك معين او فترة من الزمن محددة او في حدث او في موضوع خاص.

وقد ارتأيت ان يقتصر عملي بمدريد على الحصول على صور الوثائق والمستندات الخاصة بموضوع لم يسبق لاحد ان اعتني به الاعتناء اللازم وهو موضوع المؤتمر الدولي المنعقد بالجزيرة الخضراء سنة 1906 وذلك وفق المجموعة الاولى من الوثائق الخاصة بالمؤتمر وتحتوي على 341 وثيقة عدد أوراقها 815 ورقة :

- جلسات المؤتمر
- الجلسة الافتتاحية
- 17 جلسة
- العقد العام
- وثائق مختلفة عددها 18

- 21 وثيقة خاصة ب 25 جلسة من جلسات المؤتمر.
- مجموعة من الرسائل بالعربية وعددها 79
- تقرير بالفرنسية عن الجلسة الخامسة للجنة (1906/2/3).
- مجموعة من الصفحات.
- عقد الجزيرة الخضراء بالفرنسية مع بروتوكول لها.
- 131 صفحة باللغة الاسبانية.
- 12 وثيقة بالاسبانية والفرنسية والعربية تشتمل كل واحدة منها على عدة صفحات في موضوع مؤتمر الجزيرة الخضراء..
- عقد الجزيرة الخضراء ويشتمل على 56 صفحة.

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في اسبانيا

عبد العزيز التمسماني خلوق

تكتسي الربائد الخاصة بالمغرب المحفوظة بالارشيفات الاسبانية اهمية قصوى نظرا لكثرتها من جهة، وتنوع مواضيعها من جهة أخرى. إنها تقدم للباحث مادة غزيرة وأساسية لدراسة العلاقات المغربية الاسبانية منذ قيام الدولة العلوية. مع ذلك، فإنها لم تحظ ـ لحد الان ـ ببحث واف ـ فيما نعلم ـ يميط اللثام عنها، ويعرف بمظانها، ويستعرض مضامينها. وفي هذا الاطار، نعطي فكرة عن المجمووعات الوثائقية النفيسة التي اطلعنا عليها بمدريد.

1 ـ الارشيف التاريخي الوطني بمدريد.

يحتوي هذا الارشيف Archivo Historico Nacional de Madrid على مادة واسعة تتناول الاتفاقيات التي عقدها سلاطين الدولة العلوية مع إسبانيا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتسلط الاضواء الساطعة على السفارات والبعثات المغربية الى اسبانيا. توجد ضمنها تقارير محررة من طرف القناصل الاسبان تتعلق بالمبادلات التجارية بين البلدين، وتمس جوانب من الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية في عهدي المولى سليمان (1792ـ1822) والمولى عبد الرحمن بن هشام (1822ـ1859).

أهم المحافظ التي وقفنا عليها تحمل الارقام التالية :

● المجموعة الأولى : مراسلات السفراء والقناصل الاسبان :

السنة	رقم المحفظة
1767/1766	Legajo 4308
1771/1767	Legajo 4311
1785/1767	Legajo 4355
1779/1772	Legajo 4312
1782/1780	Legajo 4314
1790/1780	Legajo 4316
1790/1783	Legajo 4318
1789/1785	Legajo 4317
1787/1786	Legajo 4319
1789/1788	Legajo 4321
1790	Legajo 4322
1791	Legajo 4324
1791	Legajo 4325
1792	Legajo 4327
1792	Legajo 4328
1793	Legajo 4330
1794/1793	Legajo 4331
1794/1793	Legajo 4332
1794	Legajo 4333
1795	Legajo 4335
1796/1795	Legajo 4336
1796	Legajo 4337
1797	Legajo 4338
1798/1797	Legajo 4339

1798	Legajo 4340
1799	Legajo 4341
1799	Legajo 4342
1800	Legajo 4343
1800	Legajo 4358
1810/1801	Legajo 6231
1814/1811	Legajo 6232
1820/1815	Legajo 6233
1825/1821	Legajo 6234
1833/1826	Legajo 6235
1840/1834	Legajo 8364
1850/1841	Legajo 8365

● المجموعة الثانية : البيانات الحسابية

السنة	رقم المحفظة
1795/1769	Legajo 4346
1800/1792	Legajo 4347
1811/1801	Legajo 5832
1810/1808	Legajo 3146
1823/1812	Legajo 5833
1833/1824	Legajo 5834
1850/1834	Legajo 5835

● المجموعة الثالثة : ملفات متنوعة

السنة	رقم المحفظة
1800/1767	Legajo 4349

Legajo 4351	1784/1769
Legajo 4352	1790/1783
Legajo 4345	1828/1791
Legajo 4332	1794/1793
Legajo 4350	1800/1768
Legajo 5821	1819/1801
Legajo 5822	1821/1809
Legajo 5823	1832/1820
Legajo 5824	1823/1822
Legajo 5825	1850/1833
Legajo 5836	1831/1778

● المجموعة الرابعة : ملفات ومراسلات (1781ـ1803) :

Letra A - Legajo 5802

Letra B - Legajo 5803

Letra C - Legajo 5804 y 5805

Letra D - Legajo5806

Letra E.F - Legajo 5807

Letra G - Legajo 5808

Letra H - Legajo 5809

Letra L - Legajo 5810

Letra M - Legajo 5811 y 5812

Letra N - Legajo 5813

Letra P.Q - Legajo 5814, 5815 y 5816

Letra R - Legajo 5817

Letra S - Legajo 5818

Letra T - Legajo 5819

Letra U.Z - Legajo 5820

● المجموعة الخامسة : مراسلات ومعاهدات

السنة	رقم المحفظة
1768/1766	Legajo 4344
1790/1766	Legajo 4310
1799/1769	Legajo 4348
1795/1777	Legajo 4313
1775/1765	Legajo 4309
1785/1780	Legajo 4315
1789/1786	Legajo 4320
1790	Legajo 4323
1791	Legajo 4326
1793/1792	Legajo 4329
1797/1794	Legajo 4334

● المجموعة السادسة : مراسلات

السنة	رقم المحفظة
1845/1833	Legajo 5828
1845/1833	Legajo 5829
1845/1844	Legajo 5830
1848	Legajo 5831

وتجدر الاشارة هنا الى ان بعض المؤرخين الاسبان وظفوا هذه المادة التاريخية لانجاز دراسات جامعية مركزة ومفيدة تمحورت حول سيدي محمد بن عبد الله (1757ـ1790) والمولى اليزيد (1790ـ1792)، نذكر منها :

• Rodriguez Casado (V), «Politica marroqui de Carlos III», Madrid, 1946.

- Arribas Palau (M), «Cartas arabes de Marruecos en tiempo de Mawláy al-Yazıd (1790-1792)», Tétuań. 1960.
- Lourido Diaz (R.), «Marruecos en la segunda mitad del siglo XVIII. Vida interna : politica, social y religiosa durante el Sultanato de Sïdï Muhammad B. Abd Alláh, 1757-1790», Madrid, 1978.

2 ـ المكتبة الوطنية بمدريد : أرشيف قسم افريقيا

خلال اقامتنا بمدريد ـ بداية ابريل 1989 ـ اقامت المكتبة الوطنية الاسبانية معرضا لمجموعات متنوعة من الصور الفوتوغرافية اتخذت من تاريخ المغرب المعاصر موضوعا لها واحتلت فيه الأسرة العلوية الشريفة المكانة المحورية. تكمن اهمية المعروضات النفيسة في أنها ترصد احداثا سياسية وعسكرية ترتبط بعضها بالبعض الاخر، ولا يمكن فصلها (حوادث الظهير البربري ـ مطالب الشعب المغربي ـ عريضة الاستقلال ـ حركة المدارس الحرة ـ النضال الوطني من أجل الاستقلال والوحدة ـ وقائع الازمة ـ المقاومة وجيش التحرير ـ عودة محمد الخامس من المنفى ـ مفاوضات مدريد). إنها ذخائر تاريخية غنية بفيض من الدلالات، تلقي الاضواء الكاشفة على مرحلة دقيقة من كفاح الوطنيين وتضحيات العرش، فتتحدث عن حياة السلطان محمد بن يوسف النضالية، وتلتقط صورا لوجوه بارزة رفعت راية الكفاح المسلح.

لقد عرضت هذه الصور النادرة حسب تسلسها الزمني، ورتبت بطريقة انيقة ومنسجمة، جعلتها تنقسم الى مجاميع وفق المواضيع التي تطرقت اليها حيث انها تغطي الفترة الواقعة بين عامي 1930 و1956. تتناول، اولا، حركة الاحتجاج ضد الظهير البربري الذي ادى الى إثارة سخط رجل الشارع وتفجير غضبه، وتقف، ثانيا، وقفة طويلة عند سنوات الأزمة في مطلع الخمسينات، مبرزة صلابة المواقف الوطنية.

من خلال هذا المعرض، الذي يحمل عنوان : «المغرب : من الوطنية الى الاستقلال (1930-1956)»، يستعيد الزائر صورة ماضينا القريب، ولنلفت النظر الى ان لجنة اختيار العينات المعروضة هيأت له دليلا شاملا يتضمن ايضاحات وشروحا موجزة تركزت حول ربائد هذه الصور التاريخية المغربية،

المحفوظة بأرشيف قسم افريقيا التابع للمكتبة الوطنية بمدريد. وفي هذا الصدد، راودتني فكرة التعريف بثروته الفوتوغرافية التي تخص تاريخ استقلال المغرب، اذ انها تعتبر، بحق، منجما ثريا زاخرا بالشواهد التاريخية،، ومصدرا وثائقيا لا يقل أهمية عن المحفوظات الأخرى.

تفتح هذه المجموعات الفوتوغرافية افق البحث التاريخي على مراحل الجهاد السياسي والكفاح المسلح، فمادتها الخام - والتي تمكنا من ملامستها خلال ترددنا على أرشيف المكتبة الوطنية الاسبانية - تعطينا ملامح المقاومة الحضرية المغربية، فتصف موجة المظاهرات الدامية التي انطلقت منذ 1930، احتجاجا على الاستلاب الثقافي والحملات القمعية الشرسة. فلو تصفحها الزائر وراجعها بإمعان، لوجد فيها بلادا بأكملها تخوض معركة التحرير، وحركة شعبية جامحة تطالب بالمغرب الموحد فهذه المجموعات تشتمل على رصيد هام من صور على جانب كبير من الأهمية، اذ انها تسجل نضال الشعب المغربي، والتفافه حول عاهله المجاهد الذي قاد البلاد الى الاستقلال، وسعى، في النهاية، الى تحطيم الحدود المصطنعة التي اقامها الاستعمار بين مناطقها الثلاث. ويمكننا ان نقدر عدد صورها الباهرة بمائة الف (100.000). وهي توجد حاليا قيد الترتيب، وقد عينت لجنة مكونة من أربعة اعضاء للسهر على تصنيفها. وسنحاول، فيما يلي تحديد بعض المحاور التي تناولتها الصور الهامة المكدسة في الادراج، والموجودة اليوم قيد الفهرسة.

ينقسم الارشيف الفوتوغرافي لقسم افريقيا التابع للمكتبة الوطنية بمدريد الى قسمين :

- القسم الاول : يرجع مصدره الى مجموعة طوماس كرسيا فيكيراس Tomás Garcia Figueras التي جمعها ببالغ العناية، وحرص على صيانتها حينما كان مسؤولا عن نيابة الأمور الأهلية، التابعة للاقامة العامة الاسبانية بتطوان، وقد نقلت الى الخزانة الاسبانية بمدريد عام 1966.

- القسم الثاني : أخذت صوره من مستودع مديرية المغرب والمستعمرات بمدريد سنة 1979.

وهذان القسمان يبرزان الوجه الحقيقي للوطنيين المغاربة ودورهم الاساسي والفعال في النضال السياسي والنشاط الثقافي، ويعالجان حركة المقاومة والفداء التي انطلقت في خريف 1953، وهما يتناولان المحاور التالية :

● المحور الأول : الحركة الاصلاحية في الشمال ابتداء من الثلاثينات : إن الباحث الذي يهتم بالعمل الاصلاحي الوطني في ظل العهد الجمهوري الاسباني (1931-1936) سيجد صورا شيقة وطريفة تتعقب نشاط ثلة من رجال حزب الاصلاح الوطني الذين اسسوا مدارس وطنية حرة، وأشرفوا عليها قصد نشر الروح الوطنية في صفوف التلاميذ، وسيتبين من خلالها ايضا انهم اقاموا صلات طيبة مع ادارة الجمهورية الاسبانية، فاتصلوا برجالها وجمعياتها المناهضة للاستعمار حيث قدموا ملتمسات، مطالبين بالاصلاحات. بيد أن البرنامج الاصلاحي لهذه الجماعة المثقفة ظل حبرا على ورق.

● المحور الثاني : طنجة كمركز للعمل الوطني والنشاط الدبلوماسي : في البداية، تستوقف الباحث صور رصدت استقرار الاسبان في طنجة حينما احتلتها جيوش فرانكو في 14 يونيو 1940 وفرضت وجودها على الحياة فيها الى غاية 11 اكتوبر 1945. هناك لقطات للمدينة تحت السيطرة المباشرة لاسبانيا. في تلك الاثناء، اخذت صور لدخول الخليفة السلطاني اليها، ولشخصيات طنجية رفعت شعار المدرسة الاسلامية الوطنية الحرة. وتنتقل عدسة المصورين لتخلد جوانب من الرحلة التي قام بها المغفور له محمد الخامس اليها في ابريل 1947، والتي كانت نقطة انطلاق للصراع بين القصر والاقامة العامة. ثم يعثر المهتم بأحداث العصر على جملة من الصور التاريخية التقطت، في مطلع الخمسينات، تبرز طنجة كعاصمة من عواصم العمل الوطني.

● المحور الثالث : محمد الخامس رمز السيادة المغربية والوطنية الخالصة : اولى الصحفيون المصورون اهتماما كبيرا للأوضاع في منطقة الحماية الفرنسية، فسجلوا الاحداث التاريخية التي شهدها عهد الملك المجاهد محمد الخامس الذي كان يحمل الام الشعب ومطامحه. لقد احتلت صوره مكانة

متميزة في هذا الارشيف الفوتوغرافي، منذ اعتلائه على عرش أسلافه سنة 1927. إنها صور ارتبطت بالواقع التاريخي المتحرك، فنقلت لقطات امينة لمراحل حاسمة من ذلك الكفاح الطويل، وهكذا فقد كانت العدسة تنتقل من «دفتر المطالب الاصلاحية» التي قدمها الوطنيون عام 1934 باسم «مطالب الشعب المغربي» الى «عريضة الاستقلال» (11 يناير 1944) التي تركزت على المطالبة بالاستقلال.

ننظر في ضوء هذه الصور أيضا الى أحداث ووقائع الازمة الفرنسية المغربية ابتداء من أوائل الخمسينات، اذ نشاهد لقطات انطوت على دروس في التضحية وقوة الارادة لمجابهة الارهاب الفرنسي الذي قام بنفي الملك الشرعي. وفي هذا الصدد، نجد صوت حركة الفداء وجيش التحرير حاضرا : ان ثمة صورا تمثل كل اجزاء الوطن بمختلف مناطقه، وتستحضر اعمال المقاومة المسلحة التي اتخذت من عودة الملك المجاهد هدفا اساسيا لها وتنقل، بالتالي، مشاهد حماسية لعودة بطل التحرير الذي اعلن عن «انتهاء عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الاستقلال والحرية».

● المحور الرابع : الحركة الوطنية في المنطقة الخليفية في الخمسينات : وقفنا كذلك على عدد كبير من الصور تصف المهرجانات التي نظمت بسانية الرمل التطوانية بعد مؤامرة 20 غشت 1953، وتبرز الشباب الوطنيين يعبرون عن تشبثهم بالمشروعية، ويندون بما كان يجري في منطقة الحماية الفرنسية من قمع واضطهاد شرسين، ويوجهون انتقادات شديدة للاقامة العامة ويشجبون سياستها، انها شهادات حية تنم عن روحهم الوطنية، لقد اتخذ، كما يظهر من اللقطات التاريخية، موقفا وحدويا واصبحت البلاد بأكملها تخوض معركة التحرير. وتركزت مجموعة اخرى من الصور حول المفاوضات المغربية الاسبانية بعد عودة السلطان محمد الخامس من المنفى وقد تمكن المغرب اثرها من ضم المنطقة الشمالية الى الوطن.

من المؤكد أن هذا الأرشيف الفوتوغرافي في غاية الاهمية لما يتضمنه من مادة تاريخية خصبة تفيد المهتمين بتاريخنا المعاصر ايما افادة، فأملي وطيد بأن يتأتى لمواطنينا الوصول اليه للوقوف على محتوياته. لذا ارجو ان يبدي

مركز الدراسات العلوية اهتمامه بربائده - وقد اوردت ضمن هذا التقرير بعض النماذج - للتعريف، بمصادر الدولة العلوية المعاصرة، المحفوظة بقسم افريقيا التابع للمكتبة الوطنية بمدريد، فهي، والحق يقال، تعتبر السراج الذي يستنير به جيل الاستقلال.

3 - ارشيف وزارة الخارجية الاسبانية بمدريد

كذلك اطلعنا على هذا الارشيف Archivo General del Ministerio de Asuntos Exteriores

تشكل وثائقه منجما ثريا ومادة ضخمة تقدر وحداتها بعشرات الالاف بحيث يعسر التعريف بها في هذا التقرير، فهي تتضمن ملفات متعددة يمتد تاريخها من 1850 الى 1930.

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في البرتغال

أحمد بوشرب

قصد البحث عن مصادر ووثائق الدولة العلوية بالارشيفات البرتغالية، يسعدني ان ابادر بالقول بان هذه الحصيلة كانت والحمد لله جد ايجابية واني عثرت على مئات الوثائق القيمة التي لم يكن احد من الباحثين يعلم بوجودها لاعتقاد الجميع ان تراجع البرتغال بالمغرب عسكريا وتجاريا بعد النصف الاول من القرن السادس عشر، وخصوصا بعد معركة وادي المخازن، انعكس على العلاقات بين البلدين وبالتالي على عدد الوثائق التي تهم تلك العلاقات فيما بين القرنين 17 و19، خصوصا وان بقاء البرتغاليين بالبريجة كان هامشيا. والوثائق المكتشفة تغطي المرحلة الطويلة الممتدة من عهد المولى اسماعيل (اول وثيقة تعود الى سنة 1708) حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمان (1844).

وقبل ان استعرض هذه الوثائق حسب مكان وجودها تجدر الاشارة الى ان قصر مدة المهمة، واضطراري الى التنقل بين ثلاثة ارشيفات متباعدة، والاقبال الذي يعرفه الارشيف الوطني البرتغالي خلال شهر ماي، وقلة المقاعد به (24 بقاعة المطالعة)، وصعوبة قراءة الوثائق وكثرتها حالت دون الاطلاع الدقيق على محتوى الوثائق التي تهمنا. فمجرد ضبط وجود تلك الوثائق وتحديد ارقامها وتبين هوية محرريها والمبعوثة اليهم، واحيانا الاطلاع السريع على

مواضيعها، وتطلب جهدا جهيدا وصراعا ضد الوقت، وعملا استرسل بدون انقطاع (خوفا من ضياع المقعد في حالة مغادرة القاعة) خلال اوقات افتتاح الارشيف الوطني الذي يضم اهم ما عثرت عليه من وثائق. ولولا معرفتنا بجل العاملين بذلك الارشيف، والمساعدة التي تفضلوا بتقديمها لنا تسهيلا لمهمتنا، ولولا تدخل مدير الارشيفات البرتغالية الدكتور «مطوزو Mattoso» لدى محافظ المكتبة الوطنية لتسهيل اطلاعنا على محفوظاتها المخطوطة، لما امكننا في تلك المدة الوجيزة الوصول الى ما وصلنا اليه من نتائج.

ومن جهة اخرى، تعذر علينا، لضيق الوقت وكثرة الطلبات المقدمة للمصالح التقنية بالارشيف الوطني، الحصول، رغم ما بذلناه من جهد على نسخ الوثائق التي اعتبرناها اساسية، والتي تبين لنا انها تستحق في هذه المرحلة النسخ قبل غيرها. لذا لم يبق لنا الا الاتصال باحد الباحثين الذي تطوع مشكورا بمتابعة استنساخ حوالي 110 وثيقة عربية وارسالها الينا في اقرب الاجال. وهذه الوثائق العربية تبادلتها السلطات المغربية مع قنصل البرتغال بطنجة فيما بين 1790-1832. وهي اما نسخ لرسائل عربية او اصول تحمل احيانا الخاتم السلطاني. وقد تمكنا من الحصول «بارشيف ما وراء البحار» الذي سنعود اليه على ميكورفيلم يضم 39 منحة تعود الى عهد سيدي محمد بن عبد الله، وتهم حصاره للبريجة.

وقد عثرنا على الوثائق المذكورة بالارشيفات الثلاثة التالية التي نوردها حسب اهميتها :

1) Arquivo Nacional da Torre do Tombo

«الارشيف الوطني» الموجود بحي Sao Bento بجانب البرلمان البرتغالي. ويحتوي على عدد كبير من الوثائق مرتبة ضمن وثائق وزارة الخارجية Ministério dis Negócios estrangeiros محتفظ بها في صناديق مرقمة.

وهي نوعان :

أ - الوثائق ذات الطابع العام. وهي في صندوقين يضم الاول الذي يحمل رقم 58 مجموعة من الوثائق الخاصة بحصار السلطان سيدي محمد ابن عبد

الله للبريجة وبظروف اخلائها. وقد طلبت استنساخ هذا الملف بالكامل الا انه تعذر علي تحقيق هذه الرغبة للاسباب السابقة الذكر. اما الصندوق الثاني الذي يحمل رقم 80، فيضم مجموعة من الوثائق عن العلاقات المغربية البرتغالية خلال القرن الثامن عشر ومن ضمنها معاهدة صداقة بين الطرفين.

ب - Consulado de Tanger

«وثائق القنصلية البرتغالية بطنجة» (1790-1844) وهي عبارة عن ثلاثة صناديق خشبية صغيرة تحتوي على مئات المراسلات التي تبادلها القنصل البرتغالي مع حكومته ومع المخزن المغربي وممثليه. ومن ضمن هذه المراسلات توجد نسخ واصول حوالي 120 رسالة عربية. وقد احصينا وثائق هذه الصناديق واطلعنا على مواضيعها وتعرفنا على هوية مرسليها. وتفاديا للاطالة اكتفي بلمحة عنها :

- الصندوق رقم 299.. ويحتوي على 128 ملفا تهم المرحلة 1790 - 1821 ويحتوي كل ملف على عدد كبير من التقارير المحررة بالبرتغالية واحيانا على نسخ او اصول لرسائل عربية.

- الصندوق رقم 300. ويضم 272 ملفا تغطي العشر سنوات التالية : 1822-1832.

- الصندوق رقم 301. ويضم بدوره 249 ملفا تغطي وثائقه المرحلة الممتدة من 1833-1844.

وبالطبع تختلف اهمية وثائق هذه الملفات اذ منها ما يهم اوضاع المغرب الداخلية وعلاقته بالقنصلية البرتغالية ومنها ما يخص مصاريف هذه الاخيرة وما كانت تواجهه من مشاكل كالديون مثلا. ومن جهة اخرى تختلف تلك الملفات من ناحية عدد الوثائق التي تضمها اذ يحتوي بعضها على عدد هائل من التقارير البرتغالية والرسائل العربية (انظر سنة 1797 مثلا).

2) الارشيف الثاني Arquivo Histórico Ultramarino (A.H.U)

«ارشيف ما وراء البحار» وهو الارشيف الخاص بما لمستعمرات

البرتغالية السابقة والوثائق الخاصة بالمغرب في العهد العلوي مرتبة في صناديق تحمل اسم «شمال افريقيا» Norte de Africa، او نسخت في دفاتر.

أ ـ «صناديق شمال افريقيا» Caixas Norte de Africa

وقد وقفت بها على عشرة تقارير وملفات نوردها فيما يلي :

ـ تقرير مؤرخ في 20 اكتوبر 1776 يهم تحرير الاسرى البرتغاليين بمكناس.

ـ ملف يضم وثائق القنصلية البرتغالية بالصويرة (1791).

ـ ملف يضم وثائق القنصلية البرتغالية بطنجة وجبل طارق (1791).

ـ تقرير عن شراء المواشي والقطاني بالمغرب (1795/6/22).

ـ تقرير من القنصل البرتغالي بطنجة عن وباء الطاعون بالمغرب (1800/4/14).

ـ تقرير عن شراء الأبقار بالمغرب (1801/8/31).

ـ تقرير عن نفس الموضوع (1801/10/4).

ـ تقرير حول المغاربة الاسرى بالبرتغال (1803/1/7).

ـ تقرير عن شراء الحبوب بالمغرب (1805/9/19).

ب ـ ويحتوي المجموع (Códice) رقم 2522 ابتداء من الورقة 268 على الرسائل التي بعثها احد خدام السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي كان فرنسي الجنسية، والتي حررها بالفرنسية الى قبطان البريجة وردود هذا الاخير بشان اخلاء الثغر وتسليمه الى المغاربة. وقد ضم الملف في البداية ملخص تلك الرسائل والردود قبل ايراد نصها الكامل وهي محررة بين 7 و 9 مارس 1769.

3) الارشيف الثالث : محفوظات المكتبة الوطنية، قسم المخطوطات Biblioteca Nacional Reservados

تم نسخ عدد من الرسائل المترجمة الى البرتغالية التي تبادلتها السلطات المغربية مع الادارة البرتغالية ولا تمس كلها المغرب. ولعل اهمية هذه الوثائق

تكمن في تغطيتها لمرحلة المولى اسماعيل التي تكاد وثائقها تنعدم بالارشيفين السابقي الذكر.

ففي المجموع رقم 512 نقف بالورقة 102 على ترجمة لرسالة بعثها المولى اسماعيل سنة 1708 الى الملك البرتغالي بشأن تحرير اسرى برتغاليين، وكان نفس الموضوع سبب تحرير رسالة بعثها العاهل المغربي سنة 1742 الى نظيره البرتغالي. وتوجد نسخة لترجمتها بالمجموع (códice) 799 ورقات 28-29.

وتوجد بالمجموع 1461 ورقة 339 رسالة من المولى اسماعيل الى الملك البرتغالي يذكره فيها بصداقة المغرب ويبرر له منعه بيع خيول للبرتغال. وتوجد نسخة ترجمة اخرى لهذه الوثيقة بالمخطوط رقم 10 وبالمجموع 296، اوراق 16-30، ترجمة لرسائل سلطانية الى الملك البرتغالي (1677).

ويوجد بالمكتبة الوطنية مجموع مخطوط يحمل رقم 8545 محرر في دجنبر 1899 يحتوي على يوميات السفراء البرتغاليين الذين زاروا المغرب ابتداء من دجنبر 1790، وكذا على ترجمات رسائل بعثها السلطان المغربي الى الملك البرتغالي. وتوجد هذه الوثائق من الورقة 37 حتى الورقة 179.

وهكذا تلاحظون ان الارشيفات البرتغالية تزخر بالوثائق التي تهم تاريخ المغرب في العهد العلوي. واعتقد ان صناديق القنصلية البرتغالية بطنجة تستحق أن تستنسخ وان تجلب الى المغرب نظرا لكثرة وثائقها وتنوعها وللاضواء التي تسلطها على جوانب متعددة من تاريخنا.

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في اسبانيا

الحسين بوزينب

يعتبر ارشيف Simancas من أهم ارشيفات الدولة الاسبانية. حيث يتضمن وثائق ادارية يمتد تاريخها من القرون الوسطى الى القرن التاسع عشر. وقد جمعت في هذا الارشيف وثائق مملكة قشتالة التي لا حاجة الى التعريف بمدى النفوذ الذي كان لها عبر العالم وبعلاقات امبراطوريتها التي لم تكن الشمس تغيب عنها. فالمغرب بطبيعة الحال، وهو جارها الجنوبي الذي ارتبط ارتباطا عضويا بجزء كبير من تاريخ اسبانيا، لم يكن ليبقى دون ان يترك اثرا في وثائق هذه المملكة. لهذا فان تصفحنا لفهارس Simancas يبين مدى كثرة الوثائق المتعلقة بالمغرب في شتى حقب تاريخه، زمن الحرب او السلم.

وتجدر الاشارة هنا الى ان عددا كبيرا من الوثائق المحفوظة في هذا الأرشيف لازال يحتاج الى الفهرسة والتصنيف، الشيء الذي يجعل كثيرا من الوثائق التي تهمنا لا تطل حتى في الفهارس العامة. كما أن بعضها قد يوجد ضمن الوثائق المصنفة تحت عنوان Francia أو Inglaterra حسب ما دلني عليه بعض العاملين في Simancas.

وفيما يلي سنعطي نظرة عامة عن المجموعات التي تحتوي على وثائق تخص فترة الدولة العلوية الشريفة :

1) Gracia y justicia (العفو والعدل) :

- السجناء الذين يلتحقون ببلاد الاسلام ويعتنقون دينها. بين 1560-1788. في المجموعات 1013 الى 1051.

2) Secretaria de guerra (كتابة الحرب) :

- حرب المغرب 1774-1776 في المجموعات 520 الى 536.
- أعمال وملفات صادرة عن السرايا القارة بمليلة والحسيمة وجزيرة بادس بين 1751 و1788 في المجموعات 1549 و1557.
- سوابق عن السجناء والمنفيين في افريقيا بين 1565 و1788 في المجموعات 4696 و4988.
- منتخبات من مختلف جنود اسبانيا وايطاليا والجيوب الافريقية بين 1734 و1788 في المجموعات 5369 الى 5438.
- تسجيل المراسلات والاوامر الى الجيوب الافريقية بين 1742 و1788 في المجموعتين 5650 و5651.
- مشروع قصف طنجة بين 1714 و1830 بين المجموعات 7301 الى 7327.
- حملات الى افريقيا عبر سبتة من 1720-1721 في المجموعات 490 الى 495.

3) Secretaria de Marina (كتابة البحرية).

- مساعدات الى مليلية والى صخرة بادس بين 1774 و1775 في المجموعات 429 الى 492.

- سفن Moros de paz (المغاربة المتعاملين مع الاسبان) وأشياء أخرى حول الملاحة الخاصة للاسبان والأجانب بين 1718 و1783 في المجموعات 493 الى 523.

- قرصنة وغنائم وسجناء بين 1726 و1783 في المجموعات 524 الى 551.

- مسلمون وسجناء الملك - مراسلات حول اسر سفن القراصنة. تسليح سفن اسبانية للقرصنة - إسترجاع النصارى السجناء والهاربين بين 1722 و1783 ضمن المجموعات 701 الى 709.

ـ في مجموعات ذات مواضيع مختلفة تتراوح بين 1765 و1783 توجد تحالفات مع المغرب.

4) Contaduria del sueldo (الكتابة المشرفة على المالية).

ـ تقاييد وحسابات وتقارير حول تموين الحاميات بين 1630 و1691 في المجموعات 331 الى 551.

5) Secretaria y superentendencia de hacienda (الكتابة المشرفة على المالية).

ـ أعمال نظارة مالقة والحاميات الصغرى بين 1760 و1799 في المجموعات 740 الى 745.

ـ حرب سبتة : سوابق حول تموين المدفعية والذخيرة وأشياء أخرى بين 1790 و1791 في المجموعة 746.

ـ ملفات حول اعمال قواد مغاربة وسلاطين المغرب وتركيا.. بين 1782ـ1799 في المجموعات 905 الى 908.

ـ اعمال وملفات تخص تموين الحاميات وأشياء أخرى بين 1727 و1799 في المجموعات 2167 الى 2174.

الوثائق المصورة

مجموعة 4922 :

1) طلب السجين الاسباني بمكناس Juan Termes الذي القلي عليه القبض أثناء توجهه على ظهر سفينة الى الحسيمة، استبداله بسجين مغربي لدى الاسبان في السفينة San Miguel (4 وثائق من سنة 1722).

2) رسالة من الحسيمة تحمل خبر وصول سفينة نقل البضائع وخبر عدم وصول سفينة اخرى زاغت عن طريقها. وتتكلم الرسالة عن الأخبار الرائجة حول الاستعدادات لحصار الجزيرة (28 أبريل 1722).

3) رسالة أخرى من السفينة التي رجعت الى مالقة تحكي أسباب

رجوعها، وتتضمن كذلك خبرا مفاده ان باشا تطوان قد استدعاه المولى اسماعيل ليستفسره عن أسباب انهزامه أمام القوات الاسبانية في سبتة. وبسبب هذا التقصير وقلة المبالاة، فرض عليه أداء 10 قناطر من الفضة إن لم يسلم له هذه الحامية. وهذا الخبر كان رائجا بين المغاربة. والباشا المذكور كان يستعد للسفر الى مكناس رغم أنه قد شرح لملكه استعصاء احتلال هذه الحامية (الحسيمة*) نظرا لبعدها بعض الشيء عن البر.

4) نسخة رسالة مؤرخة بمالقة يوم 30 ابريل 1722 تتحدث عن تبدد التخوفات التي كانت لدى حامية الحسيمة من هجوم مغربي، ولهذا السبب تقرر رجوع بعض الجنود الى مالقا.

5) رسالة في نفس الموضوع السابق مورخة بمالقا يوم 12 ماي 1722.

6) رسالة تتحدث عن اكتشاف باشا تطوان للعديد من الجواسيس المغاربة لصالح الاسبان الذين كانوا يدخلون حاميتي الحسيمة وبادس. وقد القى القبض على بعضهم وقتل أحدهم، الشيء الذي جعلهم يفرون الى الجبال تاركين عائلاتهم. وقد التجأ بعضهم الى الاحتماء بالاسبان في جزيرة الحسيمة.. الخ. (7 ماي 1722).

7) نسخة من الرسالة السابقة.

8) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة بمليلية في 30 أبريل 1722 تتكلم عن الاخبار التي حملها الجواسيس المغاربة عن الاستعدادات الجارية بتطوان وتسليح السفن والجنود وتهيييء المدافع للهجوم على الحسيمة. وتحمل خبر فرار جندي اسباني من قلعة San Miguel وقلق الاسبان على هذا لما قد يسببه من فضح للجواسيس الذين يدلون له بأخبارهم لصالح الاسبان. وقد اتى الى الحامية جاسوسان أحدهما بعد ما عذبه اخ القائد. والجاسوسان اخبرا عن تحسن الحالة الصحية للقائد Tasar وعن اعتقال أخيه وابنه في مكناس واحتماء أمه في مسجد خوفا ان تلقى نفس مصير أبنائها، وكل ذلك بسبب فقدان الشعير. فعلى ما يظهر، وبموجب اعراف الحكم، يقال انه كان على القائد Tasar أن يوفر مخزونات من الشعير. وعدم توفره عليها جعله يحاسب على مصير هذا الشعير.. وتقول هذه الرسالة انه لا خبر عن الاستعداد لمهاجمة الحسيمة، وأن

قصف هذه الحامية يتابع بنفس الوتيرة وان هناك خصاص في الحبوب عند المغاربة...

9) نسخة من الرسالة السابقة.

10) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة في سبتة يوم 14 ماي 1722 تحكي عدة أخبار منها انه شوهدت يوم 11 أبريل 4 سفن تقطع رأس تطوان، ربما كانت متوجهة الى جبل طارق ببعض السلع لا يعتقد انه شعير ولا دقيق لان المغاربة أنفسهم في حاجة الى هاتين المادتين. ويوم 12 صباحًا شوهد مغربي اسود خارج المنطقة التي كان يهاجم منها المغاربة، وفي الليل دخل الى سبتة. وبعد استنطاقه أخبر الاسبان بأن حاكم ميدان المغاربة هو أخ القائد علي المسمى أحمد، وأن جنوده يعانون من الخصاص في الطعام وأنهم مستقرون في آخر خطهم. وعمر هذا الجندي المغربي يناهز 18 سنة وكان جائعا جدا.

11) نسخة موجزة من الرسالة السابقة.

12) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة في سبتة يوم 27 نوفمبر 1722 مرافقة لخارطة حول المعارك التي دارت بين المغاربة والاسبان بالقرب من سبتة ابتداء من 23 نوفمبر 1722.

13) نسخة الرسالة السابقة..

14) الخارطة المشار اليها في الرسالة السابقة.

15) لائحة المواد الغذائية التي توجد بحامية سبتة والتي دخلت في هذا الاسبوع، مؤرخة يوم 26 نوفمبر 1722. وتعطي خبر مجيىء القائد علي وأثر هذا المجيىء.

16) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة في سبتة يوم 27 نوفمبر 1722 في نفس موضوع الرسالة السابقة.

17) نسخة من الرسالة السابقة.

18) نسخة من رسالة مؤرخة بسبتة يوم 4 دجنبر 1722 تتكلم على وضعية الجنود المغاربة في حصار سبتة.

19) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة بسبتة يوم 4 دجنبر 1722 تخبره عن وضعية حصار المغاربة لسبتة وتحصنهم في مواقعهم وكذا ضراوة النيران التي يطلقها الاسبان.

20) نسخة موجزة للرسالة المؤرخة بسبتة يوم 10 دجنبر 1722 في موضوع حرب سبتة وحصارها.

22) مسودة مؤرخة في 22 دجنبر 1722 في نفس الموضوع السابق.

23) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة بسبتة يوم 18 دجنبر 1722 تخبر باستمرار المغاربة في تحصناتهم وتعطي بعض الاخبار التي اتى بها متعامل مغربي مع الاسبان حول صنع بعض المدافع في تطوان لتعزيز سلاح الجبهة.. الخ.

24) نسخة الرسالة السابقة.

25) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة بسبتة يوم 18 دجنبر 1722 في نفس الموضوع السابق.

26) نسخة رسالة مؤرخة بسبتة يوم 18 دجنبر 172.

27) نسخة رسالة مؤرخة بسبتة يوم 11 دجنبر 1722 في نفس الموضوع السابق.

28) رسالة الى Marqués de Castelar مؤرخة يوم 11 دجنبر 1722 في نفس الموضوع السابق.

مجموعة 490 :

1) نسخة رسالة وزراء الحسيمة مؤرخة يوم 6 غشت 1719 تخص خبر حصار مليلية وسبتة وعزم الباشا أحمد بن عبد الله على اعلان الحرب على الحسيمة.

2) رسالة الى Marqués de Grimaldo مؤرخة بسبتة يوم 28 يونيو 1719 تتعلق بحصار سبتة وما حدث هذا الاسبوع.

مجموعة 491 :

1) مجموعة من الوثائق مؤرخة ابتداء من 28 ماي 1718 تتعلق بثورة بعض السجناء واختطافهم بعض الضباط والجنود كانوا على ظهر السفينة Laud وسفينتين أخريتين كانت تقترب للرسو في جزيرة الحسيمة، والمتابعات التي كانت لهذه القضية التي احدثت ضجة في الادارة الاسبانية انذاك.

2) وثيقة غير مؤرخة حول ثورة بعض السجناء الذين كانوا قد أرسلوا تحت الحراسة الى ارض المغرب للاتيان بأحجار لبناء التحصينات في جزيرة الحسيمة.

3) رسالة الى Marqués de Bedomar مؤرخة يوم 28 يونيو 1718 تتعلق ببعث ملف الثورتين المذكورتين.

4) نسخة من رسالة الى Pedro Ruy Pérez de Horduna مؤرخة بسبتة يوم 15 دجنبر 1720 صاحبت تقريرا حول معركة حدثت مع المغاربة يوم 9.

5) رسالة عن معركة 9 دجنبر 1720 وتقرير عن الخسائر في صفوف الاسبانيين.

6) رسالة مؤرخة في الحسيمة يوم 16 دجنبر 1720 تتعلق بخبر نقله الجواسيس المغاربة المتعاملون مع الاسبان حول معركة مع هؤلاء، ومفاده ان من 3000 مغربي ابيض تحت رئاسة القائد بن علي لم يهرب الا القليل وجرح القائد وأن من 6000 رجل أسود دخلوا المعركة بعد ذلك لم يهرب الا 500 رجل. وتتكلم الرسالة عن غنم بعض الاسلحة والعتاد والذخيرة والمؤن التي وجدت في منزل القائد بن علي. وتحكي الرسالة هلع المغاربة وتشتتهم عبر الجبال والطرقات، وأن الشيء نفسه حدث في تطوان فغادرها كل سكانها حيث بقي في نهرها الباشا وعبد الكريم قائد الميدان مع 8000 رجل تحسبا لانزال اسباني... وتضيف الرسالة اخبارا اخرى، منها انه بعد وصول السلطان خبر الهزيمة اطلق كل سجنائه وأمرهم بالالتجاء الى ميدان المعارك في سبتة، كما

ارسل 6000 فرسا و2000 من السود، وأرسل امرا الى شتى انحاء المملكة ليأتي الى مكناس كل من يستطيع ان يحمل السلاح وان يتركوا حرث الارض تحت طائلة الموت، ويسقط عليهم الغرامة... فبدأ الناس يخرجون تحت رئاسة 5 قواد، حيث كان يقال أنه اجتمع حوالي مليون رجل ولكن - يقول كاتب الرسالة - أن بدون شك وصلوا المائتي الف.. وكان السلطان قد امر بأن يزود هذا الجيش بكل جماله وجمال مملكته لتحمل الشعير والزيت والزبدة التي كان قد ادخرها منذ عدة سنوات...

7) رسالة الى Marqués de Tolosa مؤرخة بمليلية يوم 25 نوفمبر 1720 تتحدث عن خبر اصطدام حيوش المسلمين والنصارى في سبتة وسقوط العديد من الضحايا في صفوف المسلمين منهم 26 قائدا. والقائد عبد القادر الذي كان هو الحاكم العام لم يعرف مصيره هل اسر ام قتل. والباشا الذي قتل فرسه كان في حالة خطيرة. وكذلك النصارى، فقد فقدوا الكثير من جنودهم لان الجانب المغربي كان يتكون من 15000 رجل. وقد التجأ من بقي منهم الى منطقة النغرون Negron. وقد كان لهذا الخبر وقع في المغرب كله وان ملك مكناس امر بجمع 40 الف فرس تهيأ لمعركة قريبة ضد النصارى ونظرا الى تدفق الناس فإن المعارك سوف لن تتوقف وأن كل شبر من الارض سيقاتلون من أجله بكل ما يمنحهم الدم من قوة. ومن جهة اخرى فإن القائد Tasar لازال في هذا الميدان مستعدا لكل طارىء منذ أن وصلته هذه الاخبار وهو بصحبة قائد السود، وأنه يراسل باشا تطوان باستمرار.

8) نسخة رسالة من الحاكم العام لسبتة مؤرخة في سبتة يوم 19 يناير 1720 ترافق نسخا من رسائل قنصل جنوة الموجود في جبل طارق (هكذا) والطبيب الجراح في مكناس، وتتضمن اخبارا عن سلاح المغاربة. وهذه الاخبار لا تضيف جديدا عما اتت به رسالة ناظر الحامية. وترسل كذلك نسخة اخرى من رسالة لتاجر الى قبطان في الحامية يخبره عن سلاح تطوان الذي يكمن في : 20 galeras و50 caravos و1 marino و2 tartanas و600 سلم و 70 الف سهم و20 الف رجل منهم 1500 اسود. وهذه الرسالة تتكلم عن نوايا المغاربة في هجوم سبتة من عدة أماكن وهم الان في حصار لهذه الحامية..

الخ، ويطلب توزيع البارود الموجود في مخزن واحد على عدة اماكن نظرا لخطورة هذا المخزن الوحيد الذي يجمع كل ما يدخرونه من هذه المادة.

9) مسودة لثلاث رسائل ملكية الى ثلاثة مسؤولين في موضوع البارود المذكور.

10) رسالة الى Fez. Duran مؤرخة يوم 19 يناير 1720 في نفس موضوع النسخة رقم 8 المذكورة.

11) نسخة من رسالة *Juan Bautista Stierla قنصل جنوة في جبل طارق بعث بها فوق العادة يوم 14 يناير 1720 وتخص الاخبار التي توصل بها من تطوان حول تسليح بعض السفن وتهييىء الجيش ووصول التعزيزات من عساكر وبارود من مكناس استعدادا للهجوم على سبتة.

12) وثيقة تتضمن الأخبار التي بعث بها الطبيب الجراح في مكناس Bartolomé de Cuenca يوم 20 دجنبر 1719 حول راهب كان يريد الجواز الى اسبانيا عبر سهل سبتة فمنعه الباشا بسبب الاستعدادات الهائلة التي لم يشاهد لها مثيل من قبل. وتعطي الوثيقة خبرا مرموزا حول المراسلات المكثفة بين الباشا ومكناس.

13) رسالة مؤرخة بجبل طارق يوم 14 يناير 1720 تورد اخبارا حول تسليح الجيش في تطوان واعداد الاسطول للهجوم على سبتة من ناحية Almina حسب الوعود التي اعطاها الباشا للمولى اسماعيل تحت طائلة ضياع منصبه. ويصاحب الرسالة تقرير عن الجنود الذين وصلوا الى سبتة الى ذلك التاريخ.

الخزانة الوطنية بمدريد

تحتوي هذه الخزانة على عدة وثائق تهم تاريخ الدولة العلوية، غير أن عددها قليل جدا. ثم توجد عدة مخطوطات عربية واسبانية تهم نفس الموضوع. بعض هذه المخطوطات أخذ من تطوان ايام الحماية. وفيما يلي لائحة الوثائق والمخطوطات التي استطعنا ترصدها من خلال فهارس هذه الخزانة :

ـ مخطوط رقم 5058 = شرح على الفتوحات الالهية للمتوكل على الله محمد بن اسماعيل المعتصم بالله. النسخة ترجع الى سنة 1199 هـ ـ 1784 م.

ـ مخطوط رقم 5132 = مركز المجد والسنا ومارز الحمد والثنا، ينبوع المحاسن والمفاخر مجموع المجاهد والمآثر السلطان الأعظم الافخر... ابو الثنا.. إسماعيل.

ـ مخطوط رقم 5417 = الفتوحات الالهية في أحاديث البرية للمتوكل على الله محمد بن عبد الله بن اسماعيل الحسني المالكي المعتصم بالله.

ـ مخطوط رقم 5068 = قصائد شعرية مختلفة لعدة شعراء في المدح والهجاء من بينها قصائد في مدح المولى اسماعيل وبعض الوزراء والباشوات، وقصائد اخرى في هجاءء تطوان..

ـ مخطوط رقم 5065.4 = ترجمة الى القشتالية لرسالة للمولى اسماعيل الى Carlos II سنة 1111 هـ ـ 1699 م يخبره فيها بتسلمه بعض الهدايا ويعتذر على بعض الامور ويخبره باطلاق سراح بعض السجناء... الخ.

مخطوط بالاسبانية رقم 8077 = حياة المولى اسماعيل P. Cubero Sebastian-

ـ مخطوط بالاسبانية رقم 1635 = كتاب افتكاك الاسير الذي قامت به في مدينة مراكش وفاس ومكناس وسلا لصالح منطقة قشتالة والأندلس الطريقة الرهبانية سيدة الفضيلة سنة 1759.

ـ مخطوط بالاسبانية رقم 3705.4 = رحلة Jorge Juan الى البلاط المغربي.

ـ مخطوط بالاسبانية رقم 3100.2 = الخبر الموجز والخاص عما وقع ولوحظ في السفر الى المغرب سنة 1767.

ـ مخطوط بالاسبانية رقم 8689 مذكرة حولة أداء تعويضات الحرب في الامبراطورية المغربية ل Antonio Echinique.

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في بريطانيا

محمد المنصور

في لندن ركزت جهدي على وثائق الدولة الانجليزية سواء المحفوظة بوسط المدينة (Chancery Lane) أو الموجودة بالضاحية الجنوبية - الغربية للمدينة (Kew) . وكنت مدركا منذ البداية أن الحجم الهائل للوثائق المتعلقةبتاريخ المغرب يفرض منهجاً انتقائيا، فقررت أن أطلب تصوير الرسائل السلطانية التي تغطي المرحلة الأولى والوسطى من الدولة العلوية، وإغفال التقارير القنصلية الطويلة والتي تتطلب عملية الاطلاع عليها شهورا عديدة .

وأشير هنا الى الصعوبات المادية التي حالت دون تصوير الرسائل السلطانية المذكورة، فاكتفيت باحصاءها وتسجيل مراجعها.

- أولا، عنصر الوقت : عندما تقدمت بطلب التصوير أخبرت ان عملية الانجاز لا يمكن أن تتم قبل اسبوعين، وهو ما يتعدى الفترة التي انتدبت من أجلها .

- ثانيا، العنصر المادي : عندما استفسرت عن تكاليف بعض الصور اخبرت أن تكلفة تصوير بعض الظهائر السلطانية قد يصل إلى 1،40 جنيه أو ما يعادل 20 درهما. وأن إرسالها بالبريد يتطلب هو الآخر تكاليف اضافية. فأدركت أن المنحة اليومية التي حددت بـ 800 درهم لا يمكن أن تفي بتكاليف الاقامة والتصوير في نفس الوقت.

لذلك رأيت أن أترك لكم عملية التصوير عن طريق المراسلة، وقد الحقت بهذا التقرير قائمة بأسعار التصوير المعمول بها من طرف هيئة الوثائق البريطانية كما ألحقت به قائمة لأهم الرسائل السلطانية التي اعتقد أنها تشكل جزءا من تراثنا، وهي في كثير من الأحيان آية في الاتقان الفني لما زخرفت به من رسوم مذهبة على اطرافها، وحبذا لو أخذت لها صور بالألوان، لأن ما يماثلها في وثائقنا الوطنية قليل جدا .

أما الجزء الثاني من مهمتي فيتعلق بيوم قضيته بمكتبة جامعة أكسفورد، وهو يوم اعتقد أنه كان أكثر عطاء من الأسبوع الذي قضيته في لندن. ذلك أني تمكنت من تصوير مخطوط يتعلق بصميم تاريخ الدولة العلوية، وقد يكون فريدا من نوعه، إذ لا أعلم شخصيا وجود نسخة مماثلة منه في مكتباتنا العمومية. وهذا المخطوط هو :

«الجوهر الشفاف في ذكر من بسجلماسة من الذرية الأشراف» للعربي بن عبد السلام الفيلالي المعروف بابن دفين طيبة . ويشتمل هذا المخطوط على ما يقرب من 250 صفحة، وهو بخط مغربي، وربما تكمن أهميته في الرسائل السلطانية العديدة التي يتضمنها، والتي لا يستبعد أن تكون غير معروفة لحد الآن. وآمل أن تتاح فرصة دراسة هذا المخطوط والاجتهاد في البحث عن نظائره بالخزانات الخاصة بعد استشارة المختصين في هذا المجال. كما اقترح على سيادتكم تحقيق هذا المخطوط وطبعه ضمن مشروع إحياء تراث الدولة العلوية الذي يرجع لكم الفضل في إحداثه والسهر عليه .

هذا وأعد سيادتكم بتقرير أكثر تفصيلا عن مهمتي وعن الأهمية التاريخية للوثائق التي حملتها معي أو التي قد تتفضلون بتصويرها عن طريق المراسلة، وأبقى رهن إشارتكم للقيام بأي عمل من شأنه أن يتم ما بدأناه جميعا .

قائمة للرسائل السلطانية الموجودة ضمن وثائق وزارة الخارجية البريطانية والمتعلقة بالفترة الممتدة من عهد المولى اسماعيل الى عهد سيدي محمد بن عبد الله.

عنوان المراسلة :

Public Record Office

Chancery Lane. London WC 2A ILR

موضوع الرسالة ووصفها	مرجعها ورقمها
- من المولى اسماعيل الى الملك آن (23 يناير 1713)	SP 102/4 93
- من المولى اسماعيل الى الملكة آن (28 فبراير 1713)	SP 102/4 99
- مشروع اتفاقية بين المغرب وبريطانيا (1714)	SP 102/4 101
- من المولى اسماعيل الى جورج I (15 ابريل 1715)	SP 102/4 119
- من المولى اسماعيل الى ولي عهد بريطانيا (15 أبريل 1715)	SP 102/4 86
- من أحمد بن علي بن عبد الله الريفي الى شارل اديسون (1 فبراير 1718)	SP 102/4 118
- المعاهدة المغربية - البريطانية (1721)	SP 71/3 A
- من المولى اسماعيل الى جورج I (29 يوليوز 1723)	SP 102/2 146
- من المولى اسماعيل الى جورج I (مارس 1725)	SP 102/1 148
- من أحمد الذهبي الى حاكم جبل طارق (26 اكتوبر 1727)	SP 102/4 100
- من أحمد الذهبي الى جورج II (25 يناير 1728)	SP 102/3 190
- من محمد بن عبد الخالق الى حاكم جبل طارق (مايو 1750)	SP 102/4 51

- من المولى الرشيد الى السفير الانجليزي (30 نونبر 1669) SP 71/14 157
- من علي بن عبد الله الى شارل II (15 دجنبر 1681). SP 102/4 109
- من محمد بن حدو الى شارل II (15 شتنبر 1682) SP 102/4 112
- من محمد بن حدو الى شارل II (28 اكتوبر 1682) SP 102/4 111
- من علي بن عبد الله الى شارل II (5 يوليوز 1683) SP 102/4 108
- من محمد بن حدو أعطار الى شارل II (5 غشت 1683) SP 102/4 110
- من المولى اسماعيل الى شارل II (1684) SP 71/17 197
- من المولى اسماعيل الى شارل II 26 فبراير 1684) SP 102/2 128
- من المولى اسماعيل الى وليام (10 غشت 1689) SP 102/4 102
- ظهير اسماعيلي لفائدة حاييم طوليدانو (27 مارس 1691) SP 102/4 98 (1)
- من علي بن عبد الله الى جيمس فرنون (5 اكتوبر 1701) SP 102/4 122
- من محمد بن عبد الخالق الى حاكم جبل طارق (نونبر 1750) SP 102/4 123
- من عبد الصادق الى حاكم جبل طارق (29 نونبر 1750) SP 102/4 120
- من محمد بن عمر الى دوق بيدفورد (15 دجنبر 1750) SP 71/19 37

- من محمد بن عمر الوقاش الى ايرل هولدرنس (13 يناير 1753) SP 102/4 116
- من سيدي محمد بن عبد الله الى جورج II (25 يناير 1756) SP 102/4 104
- من سيدي محمد بن عبد الله الى حاكم جبل طارق (29 مارس 1765) SP 102/2 14
- من سيدي محمد بن عبد الله الى جورج II (30 يوليوز 1760) SP 102/4 90

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في موريطانيا

مصطفى ناعمي

لقد تمت الرحلة الى مدينة نواكشوط من 9 الى 19 ماي 1989 وهي فترة صادفت اشتداد النزاع الموريتاني السنغالي. فجاءت ظروف الاتصال مع المسؤولين بعين المكان جد صعبة. فقد كانت الحركة الادارية شبه مشلولة تماما كما أن الظروف الامنية ومنع التجول قد كانا بمثابة وسيلة فعالة للتخفيض من همة العاملين في قطاع البحث العلمي والمخطوطات، وعلى الرغم من هذه الملابسات فقد حرصت منذ وصولي الى نواكشوط على تحديد الاهداف ومراكز الاتصال وخلق أكبر قدر ممكن من فرص الاتصال. وهكذا قرر السيد عبد الودود ولد الشيخ مدير المعهد الموريتاني للبحث العلمي تخصيص جهوده لتسهيل مأموريتي. ومعلوم بهذا الصدد ان المعهد الموريتاني يعتبر المتوفر على أهم فهرس للمخطوطات بموريتانيا. وهو يقوم حاليا بجهود متواصلة في مجال فهرسة المخطوطات التي تم الحصول عليها.

وفي انتظار ان تخرج الفهارس كاملة على المستوى العلمي المطلوب فقد تمحور الجانب الذي اقتصرت عليه خلال هذه الرحلة حول موضوع التاريخ. وتقع الفهرسة لهذا الجانب ضمن 88 مخطوطا منها 83 من انتاج الموريتانيين انفسهم بافتراض النسخ المجهولة لموريتانيا ومن بين هذه 73 اثرا.

1) اربع نسخ من «شيم الزوايا» لمحمد اليدالي (توفي : 1166 هـ).

2) نسختان من : تقريض السماع في الذب عن بعض ابناء السباع للشيخ سعد ابيه المتوفى سنة 1335.

3) نسختان من تأليف سيد احمد بن حبث في ذكر القبائل التي خرجت من مراكش الى بلاد التكرور.

4) نسختان من تاريخ سينغال وموريتانيا لاحمد بن الجنيد.

أما الاربعة والستون المتبقية فلا تكرار في نسخها وقد تركزت على الجوانب التالية :

- السير والتراجم الفردية : 16 اثرا
- تاريخ القبائل وانسابها : 16 اثرا
- تاريخ الدول والامارات : 07 أثرا
- تاريخ الوفيات : 06 أثرا
- تاريخ الاعيان : 05 أثرا
- تاريخ عام : 06 أثرا
- جغرافية وتاريخ : 06 أثرا
- الشمائل (شمائل الافراد) : 04 أثرا
- حوادث السنين : 03 أثرا
- تاريخ احداث عامة : 03 أثرا
- طبقات العلماء : 01 أثرا
- قصص الانبياء : 01 أثرا
- المعارك والحروب : 01 أثرا

وللوهلة الاولى نلاحظ طغيان التآليف ذات النزعة القبلية سواء تعلق الامر بتاريخ دخول القبائل أو انسابها أو هجراتها. وتأتي في المرحلة الثانية التراجم الفردية. وتتسلسل بعد ذلك الجوانب الاخرى بدءا بتاريخ الدول العربية الاسلامية كالاموية والعباسية اساسا ثم الامارات الموريتانية. وتاريخ هذه الاخيرة يرتبط ارتباطا مباشرا ووثيقا بتاريخ الشمال الافريقي عامة والمغرب الاقصى خاصة. فلا يخفى ما لامارات الصحراء من علاقات سياسية مباشرة بالدولة العلوية خاصة خلال قيام ممثلي المولى اسماعيل بزيارات متكررة

المنطقة. وبعد ذلك تأتي الوفيات وتاريخها ثم جرد الاعيان والتأريخ لهم، ثم سرد التاريخ العام بدون تركيز على فترة زمنية محددة او ظرف مكاني معروف. ويقل اساسا نصيب المعارك والوقائع والتصنيفات وطبقات العلماء. والملاحظ أن هذه المخطوطات التاريخية جاءت فيها 39 في النظم وهو ما يعادل نسبة 48,75 %، باعتبار النسخ غير المكررة تبلغ 80 مخطوطا. أما النثـر فقد تناولته النسبة الباقية 51,25 % وإذا اتاح هذا امكانية استنتاج فهي تساوي جناحي النظم والنثر عند الموريتانيين، بالرغم مما يرجمون به عادة من تجاوز الحد في استخدام النظم التعليمي.

يبقى المشكل الجوهري هو استحالة تصوير اي مخطوط داخل هذه الخزانة نظرا للاسباب الادارية الآنفة الذكر. وهو نفس المشكل الذي واجهني عند الاتصال بقسم البحث بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الاسلامية. فقد أخبرني مدير هذا القسم بعدم توفرهم في عين المكان على آلة مصورة وأنهم اعتادوا التعاقد مع أحد المحلات التجارية الخاصة من أجل تصوير مخطوطاتهم ووثائقهم الادارية. غير انه اقترح فكرة تبادل ثقافي مع وزارة الثقافة المغربية يتكفل فيه كل طرف بإمداد الآخر بعدد من المخطوطات المحلية تعميما للفائدة. وقد ارتأى اذا ما تم قبول هذا الاقتراح من طرف الجانب المغربي ان يتجه متخصص موريتاني بتعيين من الادارة المعنية لاقامة لائحة مخطوطات قد تهم الطرف الموريتاني. وفي مقابل ذلك تتكفل وزارة الثقافة المغربية بارسال مبعوثها لنفس المهمة. وكبرهان على استعداد هذه الادارة قام السيد مدير البحث باعداد لائحتين الاولى للنوازل الفقهية المخطوطة والمصورة والثانية للمراجع التاريخية المطبوعة والمصورة. وهي فكرة لاقت استحسان السيد مدير المعهد الموريتاني للبحث العلمي الذي عبر عن استعداده لتنفيذ مشروع التبادل هذا.

نرى بذلك حجم الصعوبات التي تواجه الباحث، على أنها لا تفضي في نهاية المطاف الا الى تأكيد ضرورة وحتمية هذا التعاون الذي ينبغي ان يسلك هذا السبيل الكفيل وحده بتحصيل أكبر قدر ممكن من النسخ المصورة لمخطوطات الخزانتين.

من ناحية اخرى يعتبر حجم خزانات الخواص من الاهمية بمكانة كبيرة.

فانطلاقا من تحرياتي الميدانية اتضح ان زعزعة النظام التعليمي القديم تعتبر محاولة صعبة من طرف الادارات الرسمية التي لا تتوفر من الامكانيات على ما يؤهلها لاستقطاب هذه الخزانات الكثيرة جدا والمنتشرة عبر ارجاء التراب الموريتاني. فإلى حد الان وبالنسبة لمجمل القرى والمداشر والمدن العتيقة تخضع خزانات المخطوطات الخاصة لثقل الاختيارات الاجتماعية رغم مجهودات الادارة الوطنية. ان هناك من الخزانات الهامة ما يتواجد حاليا بين انقاض الزوايا المهجورة عرضة للتآكل من غير ان يهتم بمصيرها احد. وترتبت هذه الحالة اساسا على إرث أنظمة اندماج طبقة الزوايا والمرابطين.

فقد أطرت هذه الطبقة الانتاج الثقافي والعلمي حيث ما تزال هياكلها تنجز الطموحات العلمية وتحددها ارتكازاً على موقعها المخالف لموقع عرب حسان ذوي التخصص العسكري. وما يهم من هذه الرؤيا هو كون الانفصال التاريخي في المهام بين عرب حسان من جهة والزوايا والمرابطين من جهة ثانية قد تم فعلا خلال القرن السابع عشر. وقد ترتب عن هذا المخاض ظهور الإمارات التي لعب المولى اسماعيل العلوي دورا في تمتين بعضها. من هنا فإن تراكم المخطوطات المتعلقة بهذه الفقرة ينصب في مجمله على تنظيم المسار التاريخي للمغرب والصحراء حتى نهر السنغال.

انطلاقا من هذا المنظور فقد اعتمدت في جمع مادة هذا البحث حول المصادر التاريخية لدراسة نشأة وتطور الدولة العلوية على مختلف اوجه العطاءات الموريتانية التي ترتبط شكلا ومضمونا بحجم مناهلها من المدارس المغربية. فالمخطوطات تتعامل مع موضوعات تشاطر المغرب نفس الاشكاليات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وهكذا ليس من السهل تحرير الخطاب العلمي للباحث من تناسق المشاكل الواردة بهذه النصوص الموريتانية مع الاوصاف الضمنية المغربية. هذا ما يتضح من لائحة المصادر التاريخية التي صنفتها عن خزانة المعهد الموريتاني للبحث العلمي. كما انني اضيف الى هذا التقرير لائحة المخطوطات التي اخذتها من الخواص آملا ان يتجدد اللقاء مع الخزانات المعنية في ظروف اكثر ملاءمة وتجهيزا.

أكون في هذا التقرير قد اقترحت تصوير المخطوطات الواردة في

اللائحتين. وهو أمر يمكن ان يتم عن طريق التبادل المقترح من طرف المسؤولين الموريتانيين كما رأينا. أما في حالة ما إذا ارتأت الوزارة العمل بمنظور مخالف فالاولى أن تجهز المعني بتصوير المخطوطات الموريتانية بآلة لهذا الغرض على غرار ما قام به الالمان في عين المكان.

إن قاعدة التعامل مع الادارة الموريتانية في هذا المضمار تقتضي تخصيص فقرات زمنية تتجاوز عشرين يوما لكل رحلة. نلك لانني أقر بأني لم أجد من الوقت خلال عشرة ايام اشتغلت خلالها بمعدل 12 ساعة في اليوم، ما يكفي لجمع ما وعدني به قليل من الخواص المحليين ففي نواكشوط حيث يعيش العرف العلمي والاكاديمي على بنية اجتماعية راسخة منذ القرن السابع عشر تبدو مهمة تحصيل المخطوطات سهلة الى حد كبير.

وهو أمر لا يتناقض مع رغبة الموريتانيين الاكيدة وحرصهم الشديد على التشهير بمخطوطاتهم والتعريف بها والدفع بالاخرين الى تحقيقها وطبعها.

لائحة المخطوطات المحصل عليها

الشيخ محمد المامي : **ديوان**، نشر زاوية الشيخ محمد المامي.

يتوسع هذا الديوان في جميع المواضيع على اختلافها. فهو عبارة عن مجمل قصائد الشيخ التي تم جمعها من طرف الزاوية. والديوان يشمل بعض الاشارات الى ارتباطه بالزوايا، والمرابطين المغاربة واتباعه طرقهم كما هو الشأن في قصيدة **بمراكش لاحت**، حيث نراه يتوسل بأقطاب هذه المدينة (ص 125). ولد هذا الشيخ ما بين سنتي 1202 و1206 هـ. وقد اشتهر بارتباطه العلني بملوك الدولة العلوية باعتبارهم امراء المؤمنين يدين لهم بالبيعة والولاء.

محمد يحيى بن محمد المختار بن الطالب بن عبد الله : **الرسالة الوافية** والنصيحة الهادية لمن يراها من مؤمني البادية عن جعل الرباعية ثنائية.

يعتبر هذا المخطوط تجسيدا لمشكل اجتماعي يعاني منه المجتمع الموريتاني ذو النمط الترحالي. لقد جاءت مشكلة التقصير في الصلاة لدى الرحل خير اداة لصراع المرابطين والزوايا من أجل تصدر فقه النوازل ومشروعية الفقيه النوازلي كعالم قاض يحل محل أعلى مصدر للسلطة الدينية

والدنيوية. هذا ما يكتشفه المتتبع بطريقة نقدية لتطور هذه الظاهرة المجتمعية. وقد الف هذا المخطوط سنة 1362 هـ ليصبح اداة للتحاور العلني بين العالم محمد يحيى بن محمد المختار والعالم محمد الامين بن احمد زيدان في نفس السنة.

محمد الأمين بن احمد زيدان : رد محمد الامين على محمد يحيى الولاتي بشأن القصر.

تتجلى ديمومة البنى القبلية واستقرارها من خلال مظاهرها الاجتماعية والسياسية والدينية الواردة هنا كعامل يعود الى نمط العيش والقرابة. وايا كانت التعليلات الواردة في هذا الجواب النوازلي، فإن مجتمع البيضان يبدو مشابها لاي مجتمع يعتمد في حل مشاكله العالقة على التمايز الوظيفي بين الزوايا والمرابطين وحاملي السلاح من عرب حسان.

محمد يحيى بن محمد المختار : **الرد على محمد الامين بن أحمد زيدان بشأن قصر البادية.**

يندرج هذا المخطوط في نفس السياق ونراه من خلال المشكلات العالقة يحدد مجمل العوامل المتداخلة فيما بينها لتطور السلطة السياسية في مجتمع البيضان في فترة ما يسمى بتطور التنظيم القبلي والاميري. وقد تم الفراغ منه في نفس السنة التي عرفت كتابة المخطوطين السابقين.

محمد المامي : **كتاب البادية.**

يعتبر هذا المخطوط بنظري من أهم الادوات الهامة لتحديد منطلقات المشاكل الاجتماعية والسياسية والتاريخية العالقة بالمجتمع البيضاني.

ففي اطار ما يسمى بسوسيولوجية الفقه البدوي يمهد هذا الكتاب الطريق الى الوقوف على المحتوى الاجتماعي للنوازل والفتاوى والاجوبة، من هنا فهو يثير مجموعة من التساؤلات حول النظام الاجتماعي في علاقته بالاسلام او الاسلام كنص في علاقته بالنظام الاجتماعي كسياق في موريتانيا. لقد اصبحت خصوصية المجتمع الموريتاني مع مؤلفات الشيخ المامي متعددة حيث اخذ مسافة من المجتمع ليندمج فيه حسب راي الباحثين الموريتانيين. فمن هؤلاء

من يزعم بأن «**كتاب البادية**» هو الاعلان الحقيقي الشرعي لميلاد هذا المجتمع (محمد ولد أحمد البرناوي) (جدل التلاغي والتلاقي، مشروع تأملات أولية في كتاب البادية)، جريدة الشعب، الثلاثاء 14 فبراير 1989) يقول الشيخ المامي بأن المجتمع الموريتاني هو مجتمع «البلاد السائبة» حيث غياب السلطة المركزية، غياب امير السلطة والسياسة وحيث بالتالي تصبح سلطة القاضي، أي سلطة الشرع مجرد سلطة ادبية، يقول الشيخ «قلت ولا قول لي انظر هل هذا القول هو مستند القضاة في ايجابهم الصلح في بعض الاحيان، اذا خافوا تفاقم الامر، وهو لا يؤمر به على سبيل الايجاب فيما وقفنا عليه في كثير من الكتب، وان كان يجب على القاضي الامر به فذلك لا يستلزم سبيل الايجاب على الخصوم، هذا وقد روى لي سيدي أحمد بن سيدي عبد الله عن أبيه أنه يوجب للمصلحة، ويؤيده في هذه البلاد التي لم يؤلف عليها أن ليس فيها أمير السياسة، وهو صاحب الشرطة كما عند الامير وهو مانع من المواثبة، أما بلادنا فلا يمنع الواثبة فيها الا الايجاب الصلح والله تعالى اعلم». نرى اذن الى اي مدى كان الشيخ يهتم بتاريخ الوقائع القضائية.

هذه النماذج الفكرية تجد مثيلاتها في هذا الكتاب الهام. ومن هنا فقد اعتبرت الحصول عليه من بين الاولويات. ولا شك انه في حاجة الى تحقيق وطبع من طرف المتخصصين المغاربة وتحت اشراف وزارة الثقافة حتى تتجلى الرغبة المغربية الاكيدة في مد الجسور الثقافية والتاريخية عبر الصحراء. يتكون هذا المخطوط من 108 صفحات كتبت بخط مغربي حديث من طرف محمد عثمان ابن يحيى الدين مصطفى لاخيه محمد بن أحمد مسك بن العتيق بتاريخ غرة رجب 1399 هـ. وهي من قياس 29×26، تنقصه تسعة صفحات الاولى.

بعض مخطوطات المعهد الموريتاني للبحث العلمي

تأليف في ذكر المشائخ وطرقهم :

المؤلف غير مذكور

عدد الاوراق 42 (84 ص) 25 س بخط مغربي مسجل تحت رقم 526.

شيم الزوايا لمحمد اليدالي بن سعيد الديماني المتوفى سنة 1166 هـ 5 و18 صفحات) 30 س بخط مغربي جميل مضلمس مبسوط 18×12 سم.

انظام في التاريخ لعدة مؤلفين في دفتر واحد

والد بن خالنا الديماني المتوفى سنة 1797/1213 السفتار بن المحبوب الديماني المتوفى سنة 1322، ببكر بن احجاب الديماني المتوفى سنة 1322 هـ 15 (29 ص) 21 س بخط مغربي حديث واضح، 20×16 سم، مسجل تحت رقم 1303.

التبين المبين (عن كيفية التعلم)

محمد عبد الله بن محمد الامين المجلسي. الفه في تاريخ 11 ربيع الثاني 1972/1392 11 (21 ص) 14 س بخط مغربي مضلمس (مكتوب بقلم رصاص) 20×15 سم.

نقلة مأخوذة من الديباج المذهب في معرفة اعيان علماء المذهب.

لمؤلف مجهول من ثلاثة اوراق (5 ص) 18 س بخط مغربي مقروء 17×11 سم.

تأليف جغرافيا وتاريخ

الشيخ محمد المامي من 7 أوراق (14 ص) 25 س بخط مغربي واضح 21×16 سم.

تقاييد جلها في التاريخ.

لمحمد المامي (المتوفى سنة 1282 هـ). 10 (20 ص) 20 س بخط مغربي تراثي 20×15 سم مسجل تحت رقم 2012.

تأليف في التاريخ يذكر صاحبه في بدايته القبائل التي خرجت من مراكش الى بلاد التكرور.

لصاحبه سيد أحمد بن حبث الغلاوي الموريتاني المتوفى سنة 1904 عدد الاوراق 7 (14 ص) 16 س بخط مغربي بقلم أحمر سائل 15×11 سم

حوادث سنوات 21، 22، 1323 هـ لمحمد الديماني المتوفى سنة 1383 هـ

6 أوراق (12 ص) 10 س بخط مغربي واضح 17×11 سم

كتاب اخبار الاخبار الابار لاحمد بن احمد يور الديماني المتوفي سنة 1340 عدد الاوراق 14 (28 ص) 18 س بخط مغربي واضح جيد 22×17 سم

نظم طبقات العلماء لسيد بن المختار الموريتاني

عدد الاوراق 2 (4 ص) 21 س بخط مغربي واضح 22×18 سم مسجل تحت رقم 2461 ر

نظم غزوات شربب للمختار بن جنك الديماني المتوفي سنة 1322 هـ

3 أوراق (6 ص) 23 س بخط مغربي واضح 27×28 سم

نظم في مشاهير علماء الطريقة التيجانية لمحمد بن الداهي الديماني.

4 اوراق (8 ص) 15 س بخط مغربي واضح حديث 21×15 سم مسجل تحت رقم 2758 ر ت.

تأليف في أخبار البياضين لباب بن الشيخ سيدي الابييري المتوفى سنة 1342 هـ، 21 ورقة (42 ص) 23 س بخط مغربي واضح مبسوط 22×25،5 سم مسجل تحت رقم 2785.

تقريض السماع بالذب عن بعض ابناء ابي السباع للشيخ سعد ابيه بن الشيخ محمد فاضل القلقمى المتوفي سنة 1335 هـ.

عدد الاوراق 15 (30 ص) 29 س بخط مغربي ملون 18×11,5 مسجل تحت رقم 2762.

نزهة المستمع واللافظ الشيخ محمد الحافظ لمحمد الملقب بدبن سيد بن العلوي المتوفى سنة 1264 هـ 16 ورقة (32 ص) 22 س بخط مغربي واضح 21×16 سم مسجل تحت رقم 2737 ر ت.

رسالة الروض في انساب اهل الحوض لسيد عبد الله بن الحاج بن ابراهيم المتوفي سنة 1233 هـ 9 اوراق (18 ص) 20 س بخط مغربي واضح 16,5×22 سم

أوضح البيان في اولوية قطر اهل موريتان للمختار بن حوى الجكني المتوفى سنة 1974 م، 11 ورقة (22 ص) 19 س بخط مغربي واضح ومشكول 16×22,5 سم مسجل تحت رقم 2736 رت

مسرد نوازل الفقه المخطوطة والمصورة

الموجودة في م.ع.د.ب.إ - ج.إ.م

رقم ايداع	عنوان النوازل	اسم المؤلف	عدد
77	أجوبة	محمد فال بن مقالى	331
78	اجوبة	محمد مولود بن احمد فال	29
166	أجوبة محنض بابه	محنض بابه بن اعبيد 12777	5
177	الجزء الاول من نوازل القصر	القصري بن محمد المختار ابن عثمان	523
178	الجزء الثاني من نوازل القصر	القصري محمد المختار	519
179	الجزء الثالث	القصري بن محمد المختار	361
180	الجزء الرابع من نوازل سيد عبد الله	القصري محمد المختار عثمان سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم	191
213	نوازل الشيخ باي الكنتي	الشيخ محمد باي بن سيد اعمر ابن الشيخ سيد المختار الكنتي	807
212	فتاوى فقهية	محمد فال بن مقالي	37
220	فتاوي ابن الما	محمد سالم بن الما	26
	أجوبة محمد محمود بن حبيب الله	محمد محمود بن حبيب الله	
	نوازل بالعمش	الطالب محمد بن بلعمش	
	مجموعة امبوية	امبوبة المحجوبي	
	نوازل التشبيتي	الشريف حمد الله التشبيتي	
	نوازل الشيخ سيدرى	الشيخ سيدرى الكبير	نحو 500
	نوازل محمد عبد الرحمن		

المراجع : التاريخية المطبوعة والمصورة

عنوان الكتاب	اسم المؤلف	عدد	الملاحظات
194 رقم الحلل بأسماء الملوك والدول	لسان الدين بن الخطيب الاندلسي	80	رجز مخطوط
230 تذييل نظم الدول	محمد يحيى بن سيد أحمد موريتاني	44	
269 حياة العلامة محمد فال بن مال	أحمد بن انجبنان	9	
6 مدافن تشتس بايكيدى	المختار بن المحبوبي	14	مصور
19 شيم الزوايا	محمد بن سعيد اليدالي	24	
36 حوادث الايام	المختار بن المحبوبي	19	
37 نظم في التاريخ الموريتاني	والد بن طالب خالنا	3	
39 نظم في العمر	النابغة القلاوي محمد بن اعمر	3	
40 إمارة اولاد أحمد بن داماان	مجهول	4	
36 نظم مغازى شربية	المختار بن جنك	13	
51 ارجوزة في التاريخ الموريتاني	ابو بكر بن احباب	101	
96 طبقات الشعراء	محمد مولود بن الظي	6	رجز
120 وفيات اعيان موريتانيين	باب بن احمد بيب	3	
132 شرح عمود نسب العرب لأحمد البدوي	محمد الحسن بن احمد الخديم	103	
150 ارجوزة في حوادث الايام	عبد الحي بن القاب	9	تاريخ معاصر
191 ترجمة لبعض النحاة	المختار بنيحطية بن عبد الودود	3	رجز
225 شرح عمود النسب لاحمد البدوي	حماد بن الامين المحلي	408	أنساب وتاريخ

- حوليات تشبت — سيدي احمد بن احمد الديماني
- تاريخ نجشي — ادارة البحث

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في هولاندة

عبد المجيد القدوري

في هذا الصدد عملت على الاطلاع وتصوير فهارس الخزانات ودور الوثائق المتخصصة والتي لها علاقة بتاريخ المغرب وبعد التحريات اللازمة استطعنا جمع وبلورة الملاحظات التالية :

توجد بهذا البلد عدة مصالح يمكن الاستفادة منها في هذا الشأن :

أولا : الخزانة الجامعية لمدينة ليدن :

تتوفر هذه الخزانة على مصلحة تهتم بالدراسات الشرقية ويدخل ضمنها المغرب لعل من الامور التي تستوقف الباحث ان هذه الخزانة تتوفر على رصيد هائل من المخطوطات العربية عموما والمغربية على الخصوص لاسيما وان الاستشراق الهولندي انطلق في بدايته بواسطة جمع مخطوطات مغربية منذ القرن السادس عشر ولازالت توجد بها.

عثرت من جهة ثانية في هذه الخزانة على مجموعة وثائق تعرف Le fond de Renet Basset، فيها معلومات كثيرة عن المغرب لازالت غير معروفة، اضافة الى هذا الرصيد فان الخزانة تتوفر على مجموعة رسائل وردت في مخطوطات وتهم الدولة العلوية، ووثائق اخرى تتعلق بالحياة بفاس.

الى جانب هذه الوثائق والمخطوطات فإن الخزانة تتوفر كذلك على

مجموعة من الخرائط والصور تهم مغرب الدولة العلوية ولا تعرف في مناطق اخرى.

ثانيا : دار الوثائق الوطنية بلاهاي، من دون شك ان دار المحفوظات هذه تبقى اغنى وأهم بالنسبة للموضوع لما تتوفر عليه من امكانيات والتي يمكن تصنيفها على النحو التالي.

1 ـ توجد مجموعة رسائل تابعة لما يعرف هناك بوثائق.

وتمتد هذه المراسلات من نهاية القرن السادس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر، وتحتوي على وثائق مختلفة ومتنوعة لاسيما في فترتي السلطانين المولى اسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله، وتتطرق لمواضيع مختلفة كامثلة على ذلك : التجارة، الاسلحة ـ المعاهدات، الاسرى الخ..

2 ـ مجموعة وثائق ارتبطت وصدرت عن القنصليات الهولندية بالمغرب وبالخصوص طنجة ـ الصويرة ـ اسفي واكادير، لقد امتدت هذه المراسلات الى القرن العشرين لاسيما في قنصلية طنجة.

ثالثا، توجد وثائق اخرى مهمة بالنسبة للتجارة في دور الموثقين في كل من امستردام وهارلم بالاضافة الى مجموعة من الخرائط والصور تهم المغرب العلوي في كل من لاهاي، وبالارشيفات البحرية، الهولندية.

لاشك ان المهمة كانت جد ايجابية لانها بينت ورصدت أماكن، وإمكانيات دور الوثائق الهولندية، غير أن المدة قليلة لان المجهودات يجب ان تتظافر وأن مشاركة باحثين من هولندا أمر ضروري، الا ان هذه المبادرة حميدة وتستحق التنويه ونتمنى لها التوفيق.

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في تركيا

عبد الرحيم بن حادة

خلال اقامتي باستانبول لمدة سنتين جامعيتين، وبعد تمكني من اتقان اللغة التركية واللغة العثمانية، ولجت الارشيف العثماني قصد جمع كل الوثائق المتعلقة بالمغرب في القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر. وقد اشتغلت لمدة اربعة اشهر في ارشيفين اثنين :

1) ارشيف رئاسة الوزراء BASBAKANLIK ويعتبر هذا الاخير من اغنى الارشيفات حيث يتجاوز ما به من الوثائق مليوني وثيقة، معظمها غير مصنف ولازال لحد الان بعيدا عن تناول الباحثين.

والتصانيف التي تم انجازها حتى الان لا تتعدى عشرين تصنيفا.

ويتميز هذا الارشيف بتنوع الوثائق فمن الرسائل التي بعثت الى ملوك الدول الاجنبية، والتي لا غنى عنها في كتابة التاريخ الديبلوماسي الى الفرامين والاحكام التي صدرت الى ولاة وقضاه الدولة العثمانية في البلاد التابعة لها، الى الوثائق المالية التي تمكن من كتابة تاريخ اقتصادي للبلاد التابعة للحكم العثماني الى الوثائق الاسرية.

لقد اظهرت تجربتنا المتواضعة في الارشيف العثماني ان اعادة كتابة تاريخ البلاد العربية على ضوء مستندات الارشيف التركي اصبحت ضرورة ملحة، فمصر مثلا تتوفر عليها الاف الوثائق بل هناك 13 دفترا خاصة بمصر

(في كل دفتر حوالي 1000 وثيقة) وتاتي الشام في الدرجة الثانية بعد مصر من حيث الغنى الوثائقي. اما شمال افريقيا فنظرا لوضعيته الخاصة فانه لا يمكن باي حال ان يقارن مع مصر والشام والعراق.

ومع ذلك فقد تمكنا من جمع ما يزيد على 250 وثيقة تتعلق بتاريخ الدولة العلوية انطلاقا من العمل على خمسة تصانيف فقط، ولا يخامرني شك في احتواء التصانيف الاخرى على وثائق مهمة وهذه التصانيف هي :

1) الدفاتر المهمة MUHIMME DEFTERLERI

وعددها 208 دفتر (وعدد وثائق كل دفتر 1000 ـ 800) تغطي الفترة الممتدة من القرن السادس عشر الى الثامن عشر، وهذه الوثائق هي عبارة عن الفرامين والاحكام الصادرة من الديوان الى الولاة والقضاة وتحتوي بين الفينة الاخرى على مسودات رسائل.

وقد فهرست 71 دفترا منها تغطي الى سنة 1591. بينما بقي البعض الاخر غير مفهرس وكتبت كل الفرامين باللغة العثمانية بالخط الديواني وهو من اصعب الخطوط العثمانية قراءة واردئها.

وكانت حصيلة البحث في هذه الدفاتر 65 وثيقة تتعلق بالفترة السعدية و20 وثيقة تتعلق بالفترة العلوية.

2) ذيل المهمة : ZEYL MUHIMME

وهي عبارة عما تلاشى من الدفاتر المهمة ثم جمع في 13 دفترا تغطي الفترة ما بين 16 و18 وهي غير مفهرسة. ومعظم اوراقها نالت منه الارضة. كانت حصيلة العمل فيها اربع وثائق جديدة حول الفترة العلوية وتتعلق بركب الحاج المغربي. وهي رسالتان موجهتان الى والي مصر وتلحان على ضرورة العناية بحجاج المغرب (ولعل المقصود حجاج شمال افريقيا).

3) جودة خارجية : CEVDET HARICIYE

وثائقها عبارة عن مجموعة من الاوراق التي تشكل الوثائق المتعلقة بالعلاقات الخارجية للدولة العثمانية. وتغطي هذه الوثائق القرن الثامن عشر

باكمله، وهي مفهرسة في كتالوج يحتوي على اكثر من 10000 وثيقة، كانت حصيلة البحث فيها بالنسبة للمغرب64 وثيقة.

وتتوزع الوثائق المتعلقة بالمغرب ما بين :

أ ـ مراسلات بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله والسلطان عبد الحميد الاول وابنه احمد الكاتب.

أما مواضع المراسلات فقد تمحورت حول ثلاث نقط اساسية :

1) مشكلة الاسرى

2) المساعدات العسكرية التي قدمها المغرب للدولة العثمانية في حربها مع روسيا.

3) صدقات موجهة الى شرفاء مكة.

ب ـ اوامر صدرت الى المهمندرا روامين خزينة الدولة لتسوية مصاريف السفراء المغاربة الذين كانوا يتوافدون بشكل مثير للانتباه على استانبول خلال هذه الفترة (القرن الثامن عشر)، وتمكننا هذه الوثائق / الاوامر من اعطاء لائحة بالسفراء المغاربة :

- عبد الكريم العوني
- القائد محمد بن عبد الله
- قاسم افندي (ابو القاسم الزياني).
- مكي برقاض
- طاهر بن عبد الحق.

كما تمكننا من تتبع بعض نشاطاتهم اليومية وما كانوا يصرفونه واوجه ذلك خلال مقامهم باستانبول.

وقد كتبت هذه الوثائق بخط مقروء اللهم إلا في بعض الحالات حيث كتبت بخط العياقة وهو اصعب الخطوط العثمانية قراءة، وهو الخط المستعمل في دفاتر المالية.

4) جودت عسكرية : GEVDET ASKERT

هي الوثائق المتعلقة بالجانب العسكري للدولة العثمانية، وتجدر الاشارة الى انني لم افحص وثائق هذا التصنيف بشكل جدي حيث كان الرجوع اليه لنقل وثيقة مهمة تتعلق بتوزيع 3000 قنطار من البارود، التي بعث بها السلطان سيدي محمد بن عبد الله الى الباب العالي[1].

5) نامه همايون : NAME-I HUMAYUN

هي مسودات الرسائل السلطانية التي بعث بها الى ملوك وسلاطين الدول الاجنبية والى شريف مكة ايضا. وهي موزعة على 16 دفترا تغطي الفترة الممتدة من القرن 17 الى 19.

«غنمنا» منها 53 وثيقة متعلقة بالمغرب. وتجدر الاشارة الى ان فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله قد حازت حصة الاسد في هذه الرسائل وفيما يلي : جدول يبين ذلك :

المولى اسماعيل 4
مولاي عبد الله 4
مولاي عبد الملك 2
سيدي محمد بن عبد الله 37
مولاي اليزيد 6
مولاي سليمان 4
مولاي عبد الرحمان بن هشام 1

أما الوثائق التي تعود الى فترة السلطان مولاي اسماعيل، فقد عبرت عن المأزق الذي كانت تجتازه العلاقات المغربية - التركية -، كتب بعضها بلغة شديدة اللهجة. تبين على ان الباب العالي وقف الى جانب باشوية الجزائر في مناوشاتها مع المغرب. وتبين ان الدولة العثمانية كانت لا تزال ترغب في تبعية المغرب لها.

ولا مراء في ان الباب العالي حاول ان يشغل بعض الظرفيات السياسية الصعبة لاخضاع المغرب وهو ما نجده واضحا في رسالة موجهة من مولاي

عبد الله بن مولاي اسماعيل العلوي الى الباب العالي، والتي تبين ولاء وتبعية المغرب لاستانبول من خلال القاء خطب الجمعة باسم الخليفة العثماني.

على ان هذه الوثائق نفسها تبين ان المغرب اصبح يتعامل بعد افول الازمة مع الدولة العثمانية نداً لند في فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله. اذ اصبح مشاورا في المهمات والقضايا الصعبة، كما تؤكد ذلك رسالة حملها الحاج مكي برقاض «فاللازم علينا وعليكم من جهة الوحدة الاسلامية اخبار ما كان وسيكون والتعاضد فيما يمكن لنا» (15/) وهو ما حاولت الدولة العثمانية ممارسته وتطبيقه في الفترات اللاحقة، فبعد تعرض مصر للحملة الفرنسية ارسل الباب العالي الى مولاي سليمان يشرح له بتفصيل ظروف هذه الحملة ويطالبه بتضييق الخناق على المصالح الفرنسية في المغرب والوقوف الى جانب الانجليز الذين وعدوا بوضع حد للاحتلال الفرنسي لمصر.

2 ـ ارشيف طوب قابي : TOPKAPI SARAY ARSIVI

يعتبر ارشيف طوب قابي اقل اهمية من الارشيف السابق. لكنه مع ذلك يحتوي على وثائق لايستهان بها. وثائق هذا الارشيف يغلب عليها الطابع الاسري. فهي وثائق متعلقة بالاسرة المالكة، ولذلك نجد عدد الوثائق المتعلقة بالهدايا يغلب نسبيا.

وتجدر الاشارة الى ان ظروف العمل في هذا الارشيف تجعل الباحث ينفر منه. فالارشيف يحتوي على خمسة كتالوغات انجزها المؤرخ التركي ISMAIL HAKKI UZUNCARSILI صاحب المعلمة التركية الكبيرة OSMANLI TARIHI الا ان الاساس الذي اعتمد عليه في الفهرسة هو الاعلام فالبحث مثلا على الوثائق المتعلقة بالسلطان مولاي اسماعيل تدخل الباحث في متاهات قراءة كل الوثائق المتعلقة باسماعيل (وما أكثرها).

وغالبا ما تقدم لائحة بالوثائق المطلوبة ويعترض عليك في الحصول على بعضها. فمن اصل 60 طلبا لم نحصل سوى على 24 بدعوى ان الباقي قليل الاهمية بالنسبة لنا (في اعتقاد المسؤولة عن الارشيف).

ومن بين اهم وثائق هذا الارشيف التقرير الذي بعث به السفير التركي

عزمي افندي حول نشاط السفن الروسية في غرب البحر الإبيض المتوسط (وثيقة رقم 4034). بالاضافة ايضا الى تقرير السيد اسماعيل افندي البمعوث التركي الى فاس قصد الوقوف على اسباب النزاع الجزائري - المغربي - الذي يعتبر من طرف المغاربة خرقا لمبادىء حسن الجوار بين المغرب والدولة العثمانية (انظر الوثيقة رقم 4994).

تمكنا من تصوير بعض الوثائق فقط نتيجة اهتمامنا بالفترتين السعدية والعلوية معا من جهة وشروط تصوير الوثائق من جهة اخرى. ونضعها رهن اشارة المركز مع التنبيه الى وجود عدد كبير في التصانيف التي اشتغلنا عليها وتصانيف أخرى

من مصادر تاريخ الدولة العلوية في تركيا

عبد الحفيظ الطبايلي

لم تعد خافية اهمية الوثائق العثمانية بالنسبة للمهتمين بتاريخ الولايات العثمانية ودول البحر الابيض المتوسط في الفترتين الحديثة والمعاصرة، وتعود تلك الاهمية الى توفر اعداد مهمة من الوثائق - تقدر بالملايين - بفضل طبيعة الدولة العثمانية الشديدة المركزية، والتي كانت تعتمد على جهاز بيروقراطي معقد، لعبت في اطاره الوثيقة دورا اساسيا في ضبط المواقف وتنسيق القرارات. فما هو حظ المغرب العلوي من هذا الكم الهائل من الوثائق ؟

في الحقيقة، يستحيل تقديم جواب مقنع وواضح لهذا السؤال. فالمغرب كان خارج المجال الخاضع للعثمانيين، الامر الذي انعكس على الرصيد الوثائقي المتعلق به في الارشيف العثماني، فاذا كنا نجد مجلدات ومجموعات مهمة - كما ومضمونا - من الوثائق، تهم ولاية او منطقة عربية معينة، فان الامر يختلف كثيرا بالنسبة للمغرب حيث توجد الوثائق المتعلقة به مشتتة بين مختلف التصنيفات التي يتضمنها الارشيف العثماني. الا ان المؤكد، حسب الاتصالات التي قمنا بها والعينات التي وقفنا عليها، هو وجود وثائق متعددة عن المغرب العلوي تتطلب مجهودا أكبر للكشف عنها.

وشعورا منا بالصعوبات التي تتخلل البحث في الارشيف المذكور، مددنا المدة التي خولت لنا في الاصل للقيام بجمع هذه الوثائق من عشرة ايام الى شهر،

قضيناه باكمله في ارشيف رئاسة الوزراء باستانبول (BASBAKANLIK ARSIVI)·

والوثائق التي وقفنا عليها توجد ضمن تصنيفين مهمين من تصانيف الارشيف العثماني :

1 ـ تصنيف جودت : وقد استخرجنا من الوثائق المتعلقة بالمسائل الخارجية داخل هذا التصنيف، ما يزيد عن خمسين وثيقة يعود اغلبها الى القرن الثامن عشر.

2 ـ دفاتر الرسائل الهمايونية (نامة همايون) : وتضم هذه الدفاتر رسائل السلاطين العثمانيين الى الحكام المسلمين والمسيحيين وقد استخرجنا منها خمسة وعشرون وثيقة.

أما الاطار الزمني الذي تغطيه هذه الوثائق، فيمتد من 1099 الى 1687/1210 ـ 1795. الا ان ما يناهز تسعين بالمائة منها، يتعلق بفترة سيدي محمد بن عبد الله.

أما طبيعة ومضمون هذه الوثائق، فهناك أولا، الرسائل المتبادلة بين السلاطين المغاربية والعثمانيين، بنصها الكامل او ترجماتها الى العثمانية او ملخصات عنها، وهي تدور حول التعاون بين الدولتين الاسلاميتين، خاصة بعد الانهزام العثماني امام الروس سنة 1774، والثقل المتزايد الذي أخذ يحظى به المغرب على عهد سيدي محمد بن عبد الله. اضافة الى الرسائل المتعلقة بالهدايا المتبادلة بين الطرفين، وبافتكاك الاسرى المسلمين وبالمساعدات العسكرية التي كان يقدمها سيدي محمد بن عبد الله للدولة العثمانية.

وثانيا، هناك وثائق من نوع خاص، تهم السفارات المختلفة التي بعث بها سيدي محمد بن عبد الله الى الباب العالي، وهي عبارة عن تقارير وبيانات حسابية حول مصاريف السفراء واتباعهم والهدايا والرسائل التي كلفوا بنقلها بين الدولتين.

وأخيرا، نشر الى ان شهر من العمل في الارشيف العثماني باستانبول، كان غير كاف، بسبب صعوبات البحث وتشتت المادة، لتصوير ما عثرنا عليه

من وثائق تهم المغرب ضمن التصنيفين السابقي الذكر، وذلك في وقت كنا نطمح فيه الى الوقوف على الوثائق الموجودة في مراكز اخرى، وعلى المخوطوطات التركية التي تؤرخ للمغرب العلوي. لذلك، نؤكد على ضرورة الاهتمام بالوثائق التركية لغناها ولاهميتها في كتابة تاريخ المغرب، ونتمنى ان تخصص مدة اطول وامكانيات اكثر لتحقيق تلك الغاية. كما نثمن خطوة وزارة الثقافة هذه، التي نتمنى أن تتبعها خطوات اخرى لاغناء ثراتنا الوثائقي.

الندوة الثانية : (139-140)

المؤسسون الاولون للدولة العلوية الشريفة

الاساتذة المشاركون

- **محمد ابن عزوز حكيم**
باحث، مؤرخ

- **محمد رزوق**
أستاذ بكلية الآداب (1) البيضاء

- **حسن حافظي علوي**
أستاذ بكلية الآداب - مراكش

- **د. يوسف الكتاني**
أستاذ بكلية الشريعة - فاس

- **أحمد الأزمي**
أستاذ بكلية الآداب - فاس

- **محمد الدناي**
أستاذ بكلية الآداب - فاس

- **عبد الله بنصر العلوي**
أستاذ بكلية الآداب - فاس

- **أحمد عمالك**
أستاذ بكلية الآداب - مراكش

- **عبد السلام شقور**
أستاذ بكلية الآداب - تطوان

- **محمد عز الدين المعيار الادريسي**
أستاذ بكلية اللغة العربية - مراكش

- **بزوي أحمد الضاوي**
أستاذ بكلية الاداب - الجديدة

- **بلقاضي ميلود**
أستاذ بكلية اللغة العربية - مراكش

- **محيي الدين عبد الحميد**
أستاذ بكلية اللغة العربية - مراكش

سبتة والمولى اسماعيل من خلال الوثائق الاسبانية

محمد ابن عزوز حكيم

يمكن ان يفهم من عنوان هذا العرض ان هناك وثائق مغربية ووثائق اسبانية تتعلق بالحصار الاسماعيلي لمدينة سبتة وانني اخترت تناول الموضوع من خلال الوثائق الاسبانية.

والحقيقة هي اننا لا نتوفر على وثائق مغربية خاصة بالحصار المذكور، بل يمكن ان نقول انه ليست لدينا وثائق مغربية تتعلق بالمجهود الجبار الذي قام به المغاربة من اجل الدفاع عن حوزة البلاد والعمل على استرجاع المغتصب منها.

ولم تنحصر القضية في فقدان الوثائق وحدها، بل اننا لم نجد في كتبنا التاريخية ما يستحق الذكر، بدليل ان المؤرخ المغربي الوحيد الذي اهتم نوعا ما بموضوع الغزو الاجنبي لبعض الجيوب المغربية والمجهود المبذول من طرف المغاربة من أجل استرجاعها، هو الناصري في كتابه «الاستقصا».

وهنا يمكن لسائل ان يتساءل : لماذا اهتم الناصري اكثر من غيره من المؤرخين المغاربة بهذا الموضوع ؟

والجواب واضح وهو ان الناصري عثر على ما لم يعثر عليه سابقوه من المؤرخين وهما مصدران اجنبيان اعتمد عليهما اساسا في تناول الموضوع

الذي نحن بصدده، ويتعلق الامر بكتاب : Historia de Marruecos (تاريخ المغرب) الطبعة الاولى بسانطياكو سنة 1878 للراهب الاسباني ما نويل كاسطيبيانوس، وبكتاب : Memorias para lustouria de praça de Mazagao للمؤرخ البرتغالي لويس ماريا دو كوطو دي البكيركي (طبعة لشبونة سنة 1864).

وهذا لايعني ان الناصري استوفى الموضوع كما يجب، ذلك ان هناك مصادر ومراجع اجنبية كثيرة وكثيرة جدا تناولت الموضوع بكيفية اوسع وادق من الراهب كاسطيانوس ومن البرتغالي دو كوطو، زيادة على وجود الآلاف المؤلفة من الوثائق والمستندات المخزونة بالربائد والخزانات والمتاحف الاجنبية خصوصا منها الاسبانية والبرتغالية والتي لم ينشر منها لحد الآن الا عدد ضئيل وضئيل جدا.

وعلى كل حال فان الذي اريد ان اقوله هنا هو انه لا يمكن لنا ان نقوم باعادة كتابة تاريخ المغرب بصفة عامة وتاريخ الدفاع عن حوزة الوطن والعمل على استرجاع المغتصب منه خاصة، دون الاعتماد على الوثائق، والمستندات الاجنبية بالدرجة الاولى.

واقول انه يجب الاعتماد على هذه الوثائق والمستندات بالدرجة الاولى لأن المصادر والمراجع الاجنبية المطبوعة يجب ان نتعامل معها بنوع من الحذر.

وبخصوص تاريخ المغرب في عهد السلطان مولاي اسماعيل مثلا ارى انه من الضروري ان نعتمد على الوثائق الاسبانية بالدرجة الاولى ثم الانجليزية ثم الفرنسية في اعادة الكتابات التاريخية. وبخصوص الموضوعات التي تستقطب اهتماماتي هي :

- سقوط جزيرة النكور بيد الاسبان سنة 1673.
- استرجاع مدينة المعمورة (المهدية) سنة 1681.
- استرجاع مدينة طنجة سنة 1684.
- استرجاع مدينة العرائش سنة 1689.
- الحصار الاسماعيلي الاول والثاني لمدينة سبتة من سنة 1673 الى سنة 1689 ومن سنة 1694 الى سنة 1727.

- استرجاع حصن بادس سنة 1702.
- سفارة ابن ملو الى انكلترا سنة 1681.
- سفارة الحاج تميم التطواني الى فرنسا سنة 1682.
- سفارة الوزير الغساني الى اسبانيا سنة 1690.
- سفارة ابن عائشة الى فرنسا سنة 1699.
- موضوع الاسرى الاجانب بالمغرب في عهد مولاي اسماعيل.
- موضوع رعاية مولاي اسماعيل للرهبان الفرنسيسكان الاسبان بالمغرب.
- وهناك موضوع طريف وفريد من نوعه ويتعلق الامر بالمراسلات التي كانت بين زوجة مولاي اسماعيل الاميرة عائشة امبركة والملكة الاسبانية ماريا لويسا ذي سابويا زوجة الملك فليبي الخامس سنة 1703.

وهناك بدون شك من يتساءل لماذا لم اذكر من بين هذه الموضوعات قضية استرجاع مولاي اسماعيل لمدينة اصيلا سنة 1690 وسبب ذلك هو ان هذا الاسترجاع ما هو الا مجرد اسطورة ذكرها جميع المؤرخين المغاربة في الماضي ويرددها الكتاب اليوم، في حين اصيلا لم تحتلها البرتغال الا من سنة 1471 الى سنة 1550 ومن سنة 1577 الى سنة 1589 حيث سلمها ملك اسبانيا فليبي الثاني الى السلطان مولاي احمد المنصور الذهبي بصفة نهائية.

وللدلالة على ضرورة الاعتماد على الوثائق الاجنبية لاعادة كتابة تاريخنا، احببت ان يكون موضوع عرضي هذا «الحصار الاسماعيلي لمدينة سبتة من خلال الوثائق الاسبانية».

اجل، لقد قام مولاي اسماعيل بحصار المدينة المذكورة مرتين : الاولى من يوم 2 جمادى الثانية 1084 (14 سبتمبر 1673) الى يوم 21 رمضان 1100 (9 يوليوز 1689) والثانية من يوم 3 ربيع الاول 1106 (22 اكتوبر 1694) الى يوم 14 رجب 1139 (7 مارس 1727)؛ وهذا يعني ان الحصار الاول طال 15 سنة و9 اشهر و24 يوما، وان الحصار الثاني دام 32 و4 اشهر و12 يوما، فيكون المجموع هو : 48 سنة وشهزين وستة ايام.

والفضل في الحصول على هذه المعلومات الدقيقة يرجع الى الوثائق

الاسبانية، وذلك لان المؤرخين المغاربة الذين اشاروا الى الحصار الاسماعيلي لمدينة سبتة نجد منهم القادري يخصص له في «نشر المثاني» خسمة أسطر، وابن العياشي سبعة أسطر في «زهر البستان» واحمد ابن الحاج سبعة عشرة أسطر في «الدر المنتخب» والناصري ثلاثة عشرة سطرا في «الاستقصا» والفقيه محمد داود تسعة أسطر في «تاريخ تطوان».

وهنا يجب ان نشيد بعمل قام به فقيه بسيط اسمه محمد بن احمد الشراط من سكان قرية بنيونش المجاورة لسبتة والذي قام بجمع عدد من التقاييد القديمة التي عثر عليها بقبيلة انجرة وبتطوان واستخرج منها كل ما يتعلق بما قام به المغاربة من اجل استرجاع مدينة سبتة عبر العصور، والف بذلك مخطوطاً اطلق عليه اسم «الاستبصار والتفكير والاعتبار في اهم ما ورد من الاخبار عن كفاح المجاهدين الابرار من اجل مطاردة النصارى الكفار عن جميع المدن والامصار»؛ هذا المخطوط الذي قمت بتحقيقه والتعليق عليه ونشرته بتطوان سنة 1979 وفيه من المعلومات ما لم يوجد عند غيره من المغاربة.

وحيث ان مدينة سبتة التي حاصرها مولاي اسماعيل كانت ولازالت بيد الاسبانيين، فلا باس أن نذكر ان البرتغال هي التي احتلتها اول مرة يوم الاربعاء 14 جمادى الثانية 818 موافق 21 غشت 1415، وعلى اثر انهزام البرتغال في معركة وادي المخازن تمكن الملك الاسباني فليبي الثاني من احتلال مملكة البرتغال ورغم ذلك ظلت مدينة سبتة وطنجة واصيلا ومازاكان (الجديدة) خاضعة للحكم البرتغالي يحكمها جنرال برتغالي وبها حامية برتغالية الى ان استقلت البرتغال سنة 1640 وعندئذ تمكن الاسبانيون من اغتصاب مدينة سبتة.

ولم يكن الحصار الذي ضربه مولاي اسماعيل على سبتة هو الاول بل السابع من نوعه خلال احتلال المدينة المذكورة.

- الاول سنة 1416 الى سنة 1417.
- الثاني من سنة 1418 الى سنة 1426.
- الثالث من ابريل الى نوفمبر سنة 1562.
- الرابع من سنة 1629 الى سنة 1630.
- الخامس من سنة 1644 الى سنة 1646.

- السادس من سنة 1648 الى سنة 1653.
- السابع من سنة 1654 الى سنة 1655.

وأما الحصار الاسماعيلي الاول فقد كان هو الثامن ضمن سلسلة الحصارات التي عرفتها سبتة وقد استمر من يوم 14-9-1673 الى يوم 9-7-1689، وخلال هذه المدة جرت على ابواب المدينة المغتصبة عشر معارك كبرى لم نجد لها ذكر في اي مصدر من المصادر المغربية باستثناء مخطوط الشراط، في حين نتوفر على عدة مصادر ومراجع اسبانية تشير إليها، كما نتوفر على مئات الوثائق الموجودة في الربائد الاسبانية والتي مكنتنا من ضبط التاريخ الذي جرت فيه تلك المعارك وعدد القوات المغربية والاسبانية التي شاركت فيها وعدد الشهداء والجرحى المغاربة وعدد القتلى والجرحى الاسبان وعدد الاسرى من الجانبين، بل نجد فيها حتى اسماء القواد المغاربة الذين كانوا مرابطين على المدينة وحتى اسماء بعض الخونة من المغاربة الذين كانوا يبيعون اخوانهم للعدو فيخبرونه بما كان يجري في معسكر الدار البيضاء الذي اقامه المغاربة بالغرب من اسوار سبتة، وغير ذلك من المعلومات الدقيقة التي لم نجد لها اثرا في مصادرنا.

وهكذا نعلم ان المعارك العشر وقعت في الايام التالية :
- يوم 15 و16 يونيو 1674 (400 شهيد)
- يوم 3 ابريل 1676 (51 شهيدا)
- يوم فاتح يونيو 1679 (83 شهيدا)
- يوم 3 ديسمبر 1680 (600 شهيد)
- يوم 7 ابريل 1682 (100 شهيد)
- يوم 12 سبتمبر 1683 (108 شهيد)
- يوم 6 يونيو 1686 (40 شهيدا)
- يوم 2 ابريل 1688 (26 شهيدا)
- يوم 10 ماي 1689
- يوم 8 يوليوز من نفس السنة (210 شهيد)

واما الحصار الاسماعيلي الثاني فهو الحصار التاسع في سلسلة

الحصارات المغربية التي تعرضت لها سبتة وقد استمر من يوم 22-10-1694 الى يوم 7-3-1727، وخلاله جرت على ابواب سبتة 33 معركة وذلك في الايام التالية :

- 5 معارك جرت خلال سنة 1695 في يوم 10 يناير (38 شهيدا) و12 فبراير و13 ابريل (16 شهيد) و6 ماي (160 شهيد) و30 يوليوز (185 شهيد).
- معركة يوم 25 يوليوز 1699 (800 شهيد)
- معركتان يومي 9 سبتمبر و24 اكتوبر 1702 (56 شهيدا).
- معركة يوم 18 ماي 1703 (20 شهيدا).
- معركتان يومي 2 ماي و7 نوفمبر 1706 (83 شهيدا)
- معركة يوم 27 يونيو 1714 (100 شهيدا)
- معركة يوم 6 فبراير 1715 (180 شهيد)
- ثمانية معارك جرت سنة 1720 في يوم 27 ماي (400 شهيد) و15 نوفمبر (500 شهيد) ويوم 21 من نفس الشهر (500 شهيد) وأيام 9 و12 و17 و21 و28 ديسمبر (12.500 شهيد)
- اربع معارك جرت سنة 1721 في يوم 16 يناير وثاني فبراير و13 و15 منه (1000 شهيد)
- اربع معارك جرت سنة 1723 في يوم 13 يناير و11 و25 فبراير و17 اكتوبر
- اربع معارك جرت سنة 1726 في 6 يناير (150 شهيد) و7 ابريل (80 شهيدا) و8 سبتمبر و31 اكتوبر (120 شهيد).

ومن خصائص الوثائق الاسبانية بخصوص الموضوع الذي نحن بصدده انها تدلنا على اشياء مفيدة وتزودنا بمعلومات دقيقة لم نجد لها ذكرا ولا اشارة في اي مصدر او مرجع او مستند او وثيقة مغربية، ونذكر من هذه الحيثيات ما يتعلق بالاستعدادات التي قام بها قائد الحصار القائد على بن عبد الله الريفي من اجل تنفيذ اوامر السلطان؛ وما يتعلق بالرسالة التي وجهها مولاي اسماعيل الى حاكم سبتة يوم 10 دي الحجة 1103 موافق 23 غشت 1692 يخبر، فيها بانه امر القائد الريفي المذكور باقامة الحصار على المدينة؛ وما يتعلق بوصول

القوات النظامية المغربية الى ضواحي سبتة وكيف كانت القبائل المجاورة تشارك برجالها في تعزيز تلك القوات وتمويلها؛ وما هي الاسباب التي جعلت الحصار الثاني يتأخر الى اكتوبر من سنة 1694 وهي الحرب التي اندلعت بين المغرب وهولاندا في شهر فبراير من السنة المذكورة؛ كما تدلنا الوثائق الاسبانية عما كانت تحتوي عليه المراسلات المتبادلة بين حاكم سبتة والعاهل الاسباني من اخبار عما يجري في المعسكر المغربي بالدار البيضاء، وما تفتقر اليه سبتة من رجال ومعدات لمواجهة الحصار، وعن عدد القوات المغربية التي كانت تصل الى المعسكر المغربي من حين لآخر طيلة الحصار؛ وما ترتب عن وفاة القائد علي بن عبد الله في شهر غشت من سنة 1713، وماذا كان ينتجه معمل القنابل الذي احدثه مولاي اسماعيل بتطوان.

واخيرا نشير الى ان هناك من بين الوثائق الاسبانية عدة - مذكرات - وتقارير ودراسات سرية حول الجيش الريفي او جيش المجاهدين الذي انشأه مولاي اسماعيل خصيصا للعمل على استرجاع الجيوب المغتصبة وقد تمكن من استرجاع المعمورة يوم 30 ابريل 1681 وطنجة يوم 5 فبراير 1684 والعرائش يوم 11 نوفمبر 1689 وحصن بادس يوم فاتح فبراير 1702.

الجهاد البحري في عهد السلطان مولاي اسماعيل منطقة مصب أبي رقراق نموذجا

محمد رزوق

يرجع تاريخ البحرية في مصب ابي رقراق الى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أيام الملك الموحدي عبد المومن صاحب الاسطول الحربي المشهور ومؤسس دار الصناعة البحرية بضاحية سلا، وقد تقوت اكثر في عهد المرينيين، كما كانت المنطقة محل اهتمام من طرف السعديين، وحين استقرار الاندلسيين بها في بداية القرن السابع عشر اكتسب الجهاد البحري صبغة خاصة، اذ أصبح أهم مظهر للوجود الاندلسي، بالمغرب، فمن خلاله استطاع الاندلسيون ان يكونوا لهم بنية اقتصادية قوية مكنتهم من فرض انفسهم ككيان سياسي له وزنه بالمنطقة.

ويرجع نجاح الاندلسيين في عملياتهم البحرية الى عدة عوامل :

- وجود عدد من الاعلام العارفين بشؤون البحر
- حسن تسليحهم
- اختيارهم لضحيتهم بدقة، فهم لا يهاجمون الا السفن المنفردة، او السفن التجارية، او السفن الاقل تسلحا.
- استخدامهم لعدد من الحيل : فهم يتقمصون صفة التجار، ويخفون أعلامهم، ويضعون مكانها اعلام دول اوروبية [1].

---

1) انظر محمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم الى المغرب، ص 210.

ونتيجة لذلك فقد دخل هؤلاء في علاقات متعددة مع الاوروبيين سواء الاسبان او الانجليز او الفرنسيين او الهولنديين، وقيل الكثير عن هذه العلاقة، ولكن التجربة الاندلسية بالمنطقة انتهت الى ما انتهت عليه اخيرا بوقوعها تحت الاشراف العلوي، فكيف كان هذا الاشراف، وما هي نتائجه ؟

تمكن السلطان مولاي رشيد من بسط سيطرته على مصب أبي رقراق عام 1666، في اطار عمله الدائب لاسترجاع وحدة المغرب، وتهدئة الاوضاع.
وكان من نتائج ذلك :
- اندثار الاستقلال السياسي لمنطقة ابي رقراق
- توجيه الجهاد البحري، بحيث لم يخضع لرغبات رياس البحر، بل اصبح يخضع خضوعا كليا لتوجيه السلطان.
- اهتمام السلطان بمداخيله وعمل على الحفاظ عليها، كما عمل على الاهتمام باسطوله، ورجاله، لانه كان يقدر جيدا الدور الذي يمكن لهذا الجهاد أن يلعبه سواء على المستوى الاقتصادي أو على مستوى العلاقات مع أوروبا.

أولا : جهود السلطان مولاي اسماعيل في تقوية الجهاد البحري وتنظيمه :

1 - على المستوى التنظيمي :

أ - قام السلطان بمراقبة شديدة للقواد الموزعين بالمنطقة، وذلك رغبة منه في الحفاظ على مواردها الهامة، إذ كانت تشكل مصدرا ماليا أساسيا للدولة، وقد فرض عليه هذا الاهتمام حضورا مستمرا للبيت العلوي جعله يتخذ محلا لاقامة خليفته مولاي زيدان وأسس لهذا الغرض داخل القسم الجديد من القصبة دارا سلطانية.

ب - كان السلطان حريصا على مواصلة الجهاد البحري رغم الصعوبات التي كانت تعترضه، فخلال موسم سنة 1680 قام السلاويون بتشجيع منه بتحدي الحصار الاوروبي المفروض على المنطقة، لكن بلغت خسائرهم حوالي نصف عدد السفن العاملة، وأصبح عدد الاسرى السلاويين بفرنسا يقارب عدد الاسرى الفرنسيين بالمغرب لاول مرة، فتراجع بعض المجاهدين البحريين عن الاستمرار في المعركة، لكن السلطان شجعهم بكل الوسائل على الاستمرار في

الجهاد، بل ذهب الى حد معاقبة رياس البحر الممتنعين عن المشاركة في العمل.

2 ـ على المستوى الاستراتيجي :

قام السلطان باستثمار عدة نقط كمنطلق لعملياته الجهادية، ونخص بالذكر مرسى المعمورة بعد تحريرها عام 1681 ليتخذها كقاعدة أساسية للجهاد البحري، ولا يخفى ما كان لهذا الموقع من أهمية لدى الاسبان، حيث كان يتخذ أساسا لتأمين موقعهم بالعرائش، وكذلك لمهاجمة سلا.

3 ـ على مستوى التجهيز :

سعى السلطان مولاي اسماعيل الى توفير حاجيات الاسطول المغربي مجبرا الاقاليم المتحدة على مواصلة دورها كممون للبحرية المغربية، وتهديده باعلان الحرب عليها كلما بدا منها تقاعس في ذلك، ففي عام 1694 اعلن الحرب عليها لعدم وفاء قنصلها بالتزاماته فيما يخص الامدادات البحرية، ولم يتراجع عن ذلك الا سنة 1696 بعد ما تم توجيه شحنة عسكرية هولندية الى المغرب.

4 ـ على المستوى السياسي :

فرض السلطان مولاي اسماعيل على المجاهدين البحريين الانقياد لسياسته الخارجية، لانه كان يريد ان يعطي للاوروبيين الدليل على رغباته السلمية، بل واجه النشاط البحري الجزائري الى درجة تهديده لباشا الجزائر ابراهيم خوجة بالزحف على مناطق نفوذه، اذا لم يتوقف رياس البحر الجزائريون عن نشاطهم بالساحل المغربي.

ثانيا : اهتمام السلطان مولاي اسماعيل بجاليته الاندلسية وبجهادها البحري

اهتم السلطان بجاليته الاندلسية ولجهادها البحري الذي اصبح يشرف عليه، فلا غرابة ان نجد ان الكثير من علاقاته مع الدول الاوروبية تدور حول افتداء اسرى هذه الجالية، وهو لهذا الغرض لا يفتأ يذكر مخاطبيه بقضية الاندلس وما وقع فيها، ففي رسالة الى دون كارلوس الثاني ملك اسبانيا حول قضية افتكاك مائة اسير مسيحي يقول : «... وذكرونا (العلماء) في مسألة غدر

اسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم، وهي لما يزيد على الاربعين ألفا بعد تعدد الشروط على ستين شرطا، ولم يوفوا بواحد منها الى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرناطة وغيرهم من أهل الاندلس في كل بلد وقرية بعد بلد وقرية، فألقيناهم ما تكلموا الا بالحق...» [2].

لذلك فقد كان شرطه : «ان تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة، خمسة الاف كتاب... وتعطونا خمسمائة اسير من المسلمين في الخمسين الاخرى ..» [3].

وقد كانت هذه الرسالة هي موضوع سفارة الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني الاندلسي الى اسبانيا عام 1690 [4].

ومن بين قادة هذه الجالية نذكر عبد الله بن عائشة الاندلسي [5] اذ انطلق في عمليات جريئة كان أهمها مشاركته في الحملة الكبرى على السفن الانجليزية، والتي غنم فيها الاسطول السلاوي ازيد من 30 مركبا عام 1682، ويعتقد ان هذا النجاح هو الذي دفع بمولاي اسماعيل الى تعيينه أميرا للبحر بعد ذلك، وقد استطاع في موسم عام 1691 ان يأسر اكثر من عشرة مراكب، واصبح مجال عمله يشمل ايضا فصل الشتاء رغم الصعوبات التقنية.

وامام شدة هذه الحملات ستقوم انجلترا بمساعي دبلوماسية لدى السلطان من أجل وضع حد لحروب الاستنزاف هذه، وتوقيع معاهدة سلم مع المغرب، ونفس الشيء فعلته فرنسا.

وقد شجعت هذه الاعمال المغرب على الانكباب لاسترجاع باقي الثغور المحتلة، فبعث السلطان بأندلسي آخر هو احمد بن أحمد قردناش عام 1706 للملكة الانجليزية (آن) لمساعدته على استعادة سبتة من يد الاسبان، ووردت تعليمات اخرى على قردناش من السلطان بأنه على استعداد لامداد حامية جبل طارق باحتياجاتها التموينية في كل الاوقات، بيد أن جهود السفير انتكست بشدة

2) عبد الرحمان بن زيدان، الاتحاف، 2 64.63.
3) نفس المصدر والصفحة
4) دون ذلك في كتابه رحلة الوزير، في افتكاك الاسير.
5) انظر عن أعماله الجهادية البحرية

نتيجة الانباء التي وصلت الى لندن عن قيام المجاهدين البحريين المغاربة بأسر مركبين انجليزيين، وارسال بحارتهم البالغ عددهم 55 بحارا الى مكناس.

وقد رفضت الملكة (آن) عرض السلطان بالعمل ضد الاسبان ووعدت بالعمل على تحسين العلاقات المغربية الاسبانية، كما سويت مسألة الاسرى [6].

ونخلص الى القول بعد هذا الى أن الجهاد البحري عرف بعض الصعوبات نتيجة الاشراف المباشر للدولة عليه، لكن نذكر من جهة اخرى أن هذا الجهاد وجه انطلاقا من مصالح الدولة والمغاربة عموما وليس لفئة معينة، وبالتالي كان عاملا مهما من عوامل تركيز أسس الدولة اقتصاديا وسياسيا.

---

6) انظر مزيدا من الايضاح عند ب.ج. روجز، تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية، ص 114-117.

سجلماسة في فترة قدوم الشرفاء العلويين

حسن حافظي علوي

عرف اقليم سجلماسة تطورات عديدة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. وكانت عاصمته مدينة سجلماسة محط اهتمام عدد كبير من القوى السياسية ببلاد المغرب، تبعا للأهمية التي كانت لها في المجال الاقتصادي لأنها كانت أحد المراكز الرئيسية المتحكمة في التجارة الصحراوية.

وأهم ما ميز تاريخ المدينة واقليمها في هذه الفترة الزمنية هو الصراع القوي الذي خاضه كل من الموحدين والمرينيين والزيانيين من اجل السيطرة عليها، وما نتج عن ذلك من اضطرابات سياسية دفعت بسكانها الى التأرجح في طاعتهم بين خلفاء مراكش وسلاطين فاس وتلمسان.

وقد كانت مدينة سجلماسة قبلة للخلفاء الفارين من عاصمة دار الخلافة مراكش أمام ضغط منافسيهم على الحكم، كما هو الحال في فرار الخليفة الرشيد الى بلاد القبلة وإستقراره بمدينة سجلماسة قصد استجماع قوته. وقد اقام الخليفة الرشيد بهذه المدينة طيلة سنة 632 هـ / 1234 م، ثم غادرها في السنة التي تلتها بعد ان قوي وجمع الجيوش والاموال[1].

وساهمت مدينة سجلماسة بقسط كبير في الصراع حول الخلافة ببلاد

1) علي بن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور، الرباط، 1970، ص : 334

المغرب في مرحلة الضعف الموحدي. فقد سجل لنا ابن عذاري معلومات قيمة عن انتفاضة عبد الله بن زكرياء الهزرجي وخروجه عن طاعة الموحدين بها وقال «... استبد فيها امره وانقاد له أهل تلك الجهات والانحاء ووصلته العرب من جهة الصحراء. وفوض له الامور في تلك الجهات الامير ابو زكرياء الحفصي، وأطمعه في استمداده بأموال وزيادة ودعا له في الخطبة بسجلماسة[2].

ويفهم من كلام ابن عذاري ان انتفاضة الهزرجي بسجلماسة كانت تمثل خطرا حقيقيا على الخليفة السعيد الموحدي، لأن عامل المدينة دخل الصراع حول الخلافة ببلاد المغرب من بابه الواسع لما أعلن تبعيته للحفصيين وأسقط أسماء خلفاء مراكش من الخطبة. مدعما في ذلك بمساندة السلطان الحفصي من جهة ومساندة القبائل العربية المعقلية من جهة ثانية.

وشهدت مدينة سجلماسة في السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن السابع الهجري حروبا عديدة بين المرينيين وبني عبد الواد. لأن الصراع بين القوتين اتخذ بعد وقعة ابي سليط ـ التي دارت رحاها بين يَغْمُرَاسَن بن زيان وابي بكر بن عبد الحق سنة 655 هـ/1258 م وجهات مغايرة لما كان عليه الصراع بين الطرفين في السابق. وبعدما شكلت منطقة وجدة حلبة لحروب الطرفين في النصف الاول من القرن السابع الهجري حول يَغْمُرَاسَنْ بن زيان صراعه مع المرينيين الى المنطقة الجنوبية وأظهر رغبته الأكيدة في السيطرة على سجلماسة.

ويمثل الصراع المريني العبد الوادي حول سجلماسة مرحلة مهمة في تاريخ القوتين، لأنه يعبر بحق عن البعد الاقتصادي لاهدافهما السياسية، خاصة وأن الواحات الجنوبية للمغرب الاقصى كانت خلال هذه المرحلة منطقة مغرية لمختلف القوى السياسية المهتمة بتطور أوضاع بلاد المغرب، لانها كانت تمثل المصدر الاقتصادي الرئيسي التي تتم بواسطته عملية انعاش المراكز الحضرية الداخلية وكذا الموانيء في مناطق الشمال[3].

---

2) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب قسم الموحدين، دار الثقافة، البيضاء، 1985، ص :363

3) M. Kably : société pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen age Paris, 1986, P :52

أدت رغبة المرينيين والزيانيين في السيطرة على سجلماسة الى وقوع حرب بينهما خارج اسوار المدينة على مقربة من أحد ابوابها، وكان يعرف بإسم باب تاخنوست حسب رواية ابن ابي زرع[4] أو باب تاحسنت حسب رواية الناصري[5].

وقد تمكن ابو بكر بن عبد الحق من السيطرة على مدينة سجلماسة بعد حرب مع الزيانيين - تحت قيادة يغْمُرَاسَنْ بن زيان - لم تظهر فيها الغلبة لأحد[6]. لكن نفوذهم لم يستمر طويلا على المدينة، لأن ابا يحيى القطراني الذي عينه المرينيون رئيسا على مسلحة الجند بها قام بالدعوة لنفسه سنة 656 هـ/1259 م. في وقت كان فيه المرينيون قد انقسمو على انفسهم حول الزعامة بين الطاعة ليعقوب بن عبد الحق وابن اخيه عمر بن ابي بكر.

استغل القطراني انفسام المرينيين على انفسهم وضعف خلفاء الموحدين بمراكش، وسخر الاوضاع السياسية بالمغرب الأقصى لصالح طموحه من أجل السيادة. وفتك بشيخ الجماعة بسجلماسة عمر الورند غزاني. ثم تنكر للنفوذ الموحدي والمريني على حد سواء وجند الأجناد ووصلته من العرب الامداد[7].

لم يكن يحيى القطراني يتوفر على المشروعية للسير قدما نحو تحقيق استقلال تام بمنطقة سجلماسة. وهذا ما يفسره اعلانه البيعة للخليفة الموحدي المرتضى بعد مرحلة من القطيعة دامت سنتين[8]. ويظهر ان تقرب القطراني من الموحدين كان نتيجة ادراكه للضعف الذي لحق نفوذهم بكل مناطق المغرب الاقصى. لان الخليفة المرتضى اقتصر نفوذه خلال هذه الفترة على المناطق الواقعة جنوب وادي ام الربيع بل لم يستطع فرض سيطرة حقيقية سوى على المناطق القريبة من العاصمة مراكش.

4) ابن ابي زرع : القرطاس، ص : 296

5) الناصري : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، ج/3، دار الكتاب الدار البيضاء، 1954 ص : 18

6) عبد الرحمان بن خلدون : العبر ج/7، بيروت، 1981. ص : 234

7) نفسه، ص : 238

8) مجهول : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط 1972، ص : 84

ويمكن لهذا الضعف الذي عرفه النفوذ الموحدي ان يدفعنا الى الاعتقاد في ان بيعة القطراني للمرتضى لم تؤثر على تمتعه بإستقلال تام في منطقة نفوذه. خاصة وأن اعلان الوَلاَءِ للمرتضى وذكر اسمه في الخطبة كان الغرض منه على ما يظهر ابعاد النفوذ المريني عن سجلماسة، لان المدينة لو بقيت على تبعيتها لهؤلاء لارتبطت بهم في كل شيء، وهو ما يتنافى مع رغبة المستقل بها.

وقد حاول الخليفة المرتضى استغلال مبايعة القطراني له فعمل على ضم مدينة سجلماسة لنفوذه بعد ان طلب عاملها من الخليفة ان يرسل اليه قاضيا للاشراف على تطبيق الشريعة ومساعدته بحصة من الجند. فاستجاب الخليفة لهذا الطلب بعد ان اختار لهذه المهمة من يثق فيهم في تنفيد خطته وقد ازدادت مكانة قائد الجنود الذين ارسلهم المرتضى لسجلماسة تعزيزاً لدى عَاملها، واصبح هذا القائد يلعب دورا متميزا في تسيير شؤون المدينة حتى اصبح من اقرب المقربين لعاملها، وصار مستشاره وسيد خاصته، واستمر على ذلك الى أن تمكن من التخلص منه سنة 658 هـ/1261 م[9].

واذا كان ابن عذاري قد أرجع اسباب عودة سجلماسة الى طاعة المرتضى للجهود التي بذلها قائد الجند كما في الاشارة أعلاه، فإن ابن ابي زرع امدنا برواية مفادها ان تراجع انتفاضة القطراني كانت نتيجة الدور الذي لعبه علي بن عمر الذي ملك سجلماسة ثلاث سنين ونصفا، الى ان توفي سنة اثنتين وستين وستمائة[10]. وورد عند ابن خلدون حول نفس الموضوع ان علي بن عمر كان يمثل رغبة أهالي سجلماسة في مبايعة الخليفة المرتضى، وأن اشراف علي بن عمر على تسيير المدينة بعد وفاة القطراني كان بتعيين من الخليفة الذي تلقى بيعة سكان سجلماسة من قبل علي بن عمر والقاضي ابن حجام[11].

ويمكن القول ان مبايعة سكان سجلماسة للخليفة المرتضى كانت نتيجة لتنمرهم من الاضطرابات السياسية وظروف الفوضى التي عاشوها خلال ما يزيد عن نصف قرن. فهي على ذلك تعبير عن رغبتهم في الاستقرار، لان

---

9) ابن عذاري : البيان، قسم الموحدين، ص : 413

10) ابن ابي زرع : القرطاس، ص : 297

11) ابن خلدون : العبر، ج/7، ص : 248

الحروب التي خاضتها القوى السياسية المهتمة بالسيطرة على المدينة انعكست سلبيا على الاوضاع الامنية، كما ان تقلب ولاتها في التبعية لهؤلاء وأولائك قد رافقته بدون شك مرحلة قلقة لا تبعث على الطمأنينة.

وإذا كان النصف الاول من القرن السابع الهجري قد تميز بصراع حاد بين الموحدين والحفصيين والمرينيين والزيانيين حول السيطرة على سجلماسة، فإن النصف الثاني من نفس القرن تميز بظهور العنصر العربي المعقلي على مسرح الاحداث السياسية ومشاركته بفعالية في تطور الاوضاع بهذه المنطقة.

لقد كان عرب المعقل في الفترة التي نحن بصددها يهيمنون كلية على واحات تافيلالت·ودرعة، ووجد الطامعون في الاستقلال بهذه المناطق في هذه الجموع طاقة بشرية مكنتهم من تجنيد الجنود استعدادا لصراعهم مع الموحدين والمرينيين والأمثلة كثيرة في هذا الباب. فقد تحالف الخليفة الرشيد مع عرب المعقل اثناء إلتجائه لسجلماسة، كما اعتمد عبد الله بن زكرياء الهزرجي على عرب المعقل في خلعه طاعة الموحدين وبيعته للحفصيين، ونفس القول ينسحب على ما قام به يحيى القطراني في عهد الخليفة المرتضى.

غير أن اهم ملاحظة يمكن اثارتها في هذا الموضوع هي ان عرب المعقل في النصف الاول من القرن 7 هـ/13 م لم يشاركوا في الاحداث التي شهدتها سجلماسة بفعالية قوية، لأن جموعهم كانت وسيلة سخرها الطامعون في الاستقلال لتحقيق اغراضهم، ولم تذكر لنا المصادر ان بطون هذه القبائل في الفترة التي نحن بصددها قامت بمبادرة خاصة بها لفرض سيطرتها الفعلية، وانما كان الحديث عنها مرتبطاً بالحديث عن ولاة سجلماسة وطموحهم السياسي.

أصبح لعرب المعقل نفوذ قوي بسجلماسة لما تمكن عرب المنبات من السيطرة على المدينة سنة 662 هـ/1264 م. وقد تمكن هؤلاء من قتل عامل المرتضي عليها علي بن عمر وأقاموا بها دعوة يغمراسن بن زيان[12].ويمكن اعتبار هذا الحدث أول مشاركة سياسية فعلية لعرب المعقل في هذه المنطقة.

ولم يكن المرينيون ليقبلوا سيطرة يغمراسن بن زيان على مدينة

---

12) ابن ابي زرع : القرطاس، ص : 297

سجلماسة، خاصة وأن عرب المنبات شرعوا في ممارسة مراقبتهم على الطرق التجارية وحولوا اتجاهها نحو تلمسان. فاصبحت سجلماسة صلة وصل بين بلاد السودان الغربي وميناء هنين الواقع شمال العاصمة الزيانية. وأمام هذه التطورات جهز ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني حملة على المدينة في نفس السنة التي تمكن فيها عرب المنبات من السيطرة عليها، غير ان هذه الحملة لم تحقق الأغراض المرجوة منها(13).

وقد تحرك يغمراسن بن زيان في اتجاه سجلماسة بمجرد ما علم بتحكم عرب المنبات فيها مستغلا فرصته الذهبية التي هيأها له احلافه بها، فنظم ادارتها وعين عليها عبد الملك بن حنينة ويغمراسن بن حمامة إضافة الى ابنه يحيى الذي اقامه اميرا عليها(14).

إن الزيانيين لم يكونوا في حاجة الى تجهيز الجيوش وإرسالها نحو سجلماسة قصد ضمان استمرار نفوذهم عليها، لأن حلفاءهم - عرب المنبات - كانت لهم القدرة اللازمة لتحقيق ذلك اعتمادا على جموعهم المتحكمة في المدينة والمناطق المجاورة لها.

ولا نعرف الشيء الكثير عن علاقة الزيانيين بأهالي سجلماسة في الفترة التي خضعت فيها المدينة لنفوذهم بل ان كل ما وصلنا في المصادر التاريخية يؤكد ان المدينة مثلت خلال هذه الفترة منطقة جبائية مهمة بالنسبة للزيانيين، وان يغمراسن كان يرسل احد ابنائه كل سنة لضبط خراجها(15).

ويحتمل ان يكون عرب المنبات قد تمتعوا بإمتيازات واسعة دون غيرهم من السكان بفعل ما كان لهم من فضل في تملك الزيانيين لسجلماسة. كما ان سيطرتهم على مجالاتها قد عرفت نوعا من القوة طيلة فترة خضوع المدينة للزيانيين اي ما يزيد عن عشر سنوات فاصلة بين تاريخ تبعيتها لبني عبد الواد وتاريخ سقوطها في يد المرينيين سنة 673 هـ/1274 م وهي الفترة التي شهدت دخول الشرفاء العلويين الى منطقة سجلماسة.

13) ابن خلدون العبر : ج/7، ص : 114
14) نفسه نفس الصحفة
15) القرطاس، ص : 312

إن الاضطرابات السياسية التي شهدتها المدينة واقليمها في النصف الاول من القرن السابع الهجري والربع الثالث من نفس القرن تؤكد ان هذه المنطقة لم تعرف الاستقرار خلال المدة الزمنية المشار اليها اعلاه. وهذا ما يدفع الى الاعتقاد في ان سكانها قد ظاقوا ذرعا بظروف الفوضى وانعدام الامن. فهل يمكن اعتبار المجيء بالمولى الحسن بن القاسم الى سجلماسة في هذه الظروف بالذات محاولة من سكانها لتجاوز هذه الوضعية ؟.

إن حديث المصادر التاريخية عن المولى الحسن بن القاسم اقتصر على ذكر دوره في النهوض بالعلم والمعرفة وارشاد الفلاحين من اجل الرفع من مردود انتاجهم الفلاحي، فضلا عن تبرك السكان به، ودوره في اصلاح ذات البين، ولم تذكر هذه المصادر شيئاً عن اهتمام الشريف بالامور السياسية.

والذاكرة الشعبية باقليم تافيلالت تحتفظ الى اليوم برواية تؤكد ان تسمية تافيلالت كانت وليدة الفترة التي قدم فيها المولى الحسن الداخل الى منطقة سجلماسة، ويفهم من مضمونها ان الشريف كان يرشد الفلاحين قصد تحسين انتاجهم. ولفظ تافيلالت حسب هذه الرواية تم اشتقاقه من كلمة «أوفيوا» من فعل وفى، يفي. و«اوفيوا» معناها اوفوا بصيغة انتم في الامر. وهذه الكلمة هي التي كان يقولها الشريف مولاي الحسن لسكان سجلماسة، وكان قد علمهم طرق ري جديدة، وتعهد هؤلاء بالمقابل بتأدية ربع الغلة في حالة نجاح فلاحتهم. لكنهم رفضوا بعد ان تحقق لهم ذلك اعطاء الشريف ما وعدوه به، فكان يقول لهم «اوفيوا» اي اعطوني ما وعدتموني به يجيبونه «لا - لا» فسموا بـ «فيلالا» من اوفيوا + لا لا، ثم اضيفت تاء البداية وتاء النهاية لاعطاء هذا الاسم شكله البربري(16).

---

16) ذكر Gendre أي أصل كلمة تافيلالت من «فيلال» وهي اسم منطقة بالجزيرة العربية E. Gendre le Tafilalet p. 52 وذكرت P.J. Meunié ان الكلمة من «افيلال» او «اوفيلال» وهي تسميات لسلسلة جبلية صغيرة توجد على بعد 50 كلم جنوب، جنوب شرق مدينة الريصاني و4 كلم شمال، شمال غرب مدينة الطاون p. 10 «Abbar». وكلمة تافيلالت استعملت عند ابن خلدون اثناء حديثه عن مجالات عرب المقعل، العبر ج/6 ص : 77-87-89. والكلمة على ذلك ليست وليدة العصور الحديثة كما ذهبت الى ذلك P.J. Meunié راجع رسالتنا حول موضوع «سجلماسة واقليمها في القرن 8 هـ/14 م مساهمة في دراسة مجتمع الواحات في العصر الوسيط» مرقونة بخزانة كلية الاداب والعلوم الانسانية، ص : 76-77.

لقد اصبح الشرفاء يمثلون القوة الروحية والدينية بمنطقة سجلماسة في حين كان عرب المعقل يمثلون القوة العصبية بنفس المجال ـ ولا نعرف نوع العلاقة التي كانت تجمع بين عرب المعقل باعتبارهم اصحاب الزعامة والنفوذ بالمدينة وضواحيها، والعلويين الذين تمتعوا بمكانة متميزة داخل المجتمع السجلماسي استناداً على نسبهم الشريف.

إن معرفة بعض جوانب هذه العلاقة تقتضي استقراء اطوار تعمير اقليم سجلماسة في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. لان في ذلك تحديد لمجالات وصلاحيات نفوذ كل منهما. خاصة وان التطور الذي عرفته ساكنة اقليم سجلماسة على امتداد التاريخ الوسيط المغربي يفرض التمييز بين مرحلتين اساسيتين في اطوار تعمير هذه المناطق.

ـ مرحلة اولى تبتدىء بفجر التاريخ وتنتهي في بداية القرن السابع الهجري، شهدت فيها سجلماسة استقرار السود وصنهاجة وزناتة وعناصر اخرى مشرقية واندلسية.

ـ مرحلة ثانية تبتدىء مع بداية القرن السابع الهجري وتنتهي بقدوم جماعات ايت عطا في القرن التاسع عشر الميلادي، وفيها استقر عرب المعقل والشرفاء بسجلماسة وضواحيها[17].

ذكر ابن خلدون ان عرب المعقل كانوا قلة في المجموعة الهلالية «يقال انهم لم يبلغوا المائتين واعترضهم بنو سليم فأعجزوهم، وتحيزوا الى الهلاليين منذ عهد قديم، ونزلوا بآخر مواطنهم مما يلي ملوية ورمال تافيلالت، وجاوروا زناتة في القفار.. فعفوا وكثروا وانبتوا في صحاري المغرب الاقصى، فعمروا رماله وتقلبوا في فيافيه»[18]. ويفهم من هذا النص ان تكاثر عرب المعقل تطلب ما يزيد عن قرنين من الزمن اي ما بين تاريخ دخولهم بلاد المغرب رفقة الهلاليين في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وتاريخ سيطرتهم على الواحات الواقعة جنوب وشرق جبال درن.

---

17) راجع رسالتنا حول موضوع سجلماسة... ص : 118

18) العبر ج/6، ص : 77

وربما ساعد عرب المعقل على التكاثر انعزالهم في المناطق الصحراوية فلم يظهروا على مسرح الاحداث السياسية ببلاد المغرب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، لان عددهم لم يساعدهم على ذلك. فابتعدوا عن مناطق الصراع بين القبائل في مناطق الشمال، حتى اذا وصل القرن السابع الهجري وجدوا انفسهم مؤهلين من حيث العدد لفرض سيطرتهم، فزحفوا من مناطق الصحراء في اتجاه الواحات الواقعة شمالها.

كانت المجموعة المعقلية التي دخلت مناطق الواحات المغربية في القرن السابع الهجري تتكون من ثلاثة قبائل كبرى هي : ذوي عبيد الله، ذوي حسان وذوي منصور[19]. ويهمنا من هذه القبائل قبيلة ذوي منصور التي استقرت بمجالات سجلماسة ودرعة.

كانت مجالات ذوي منصور تتوسط مناطق استقرار عرب المعقل عامة. فهي تحد من جهة الشمال بمجالات ذوي عبيد الله ومن جهة الجنوب بمجالات ذوي حسان - وربما كان لقوة ذوي منصور وكثرة عددهم اثره في اختيارهم لسكني منطقتي سجلماسة ودرعة. فقد ذكر ابن خلدون ان هؤلاء كانوا يشكلون غالبية العناصر المكونة لعرب المعقل وقال «فهم معظم هؤلاء المعقل وجموعهم، وبطونهم اربعة : أولا حسين وأولاد ابي الحسين وهما شقيقان. والعمارنة اولاد عمران والمنبات اولاد منبا، وهما شقيقان ايضا، ويقال لهذين البطنين جميعا الاحلاف»[20].

وقبائل ذوي منصور هي اكبر قبائل المعقل تأثيرا في أحداث المغرب السياسية ابتداء من القرن 7 هـ/13 م، وقد اصبحت سجلماسة منذ هذا التاريخ خاضعة لنفوذهم كما اشرنا الى ذلك سابقا. وقد توزعت بطونهم بمجالات سجلماسة على الشكل التالي :

- أولاد حسين : كانت مناطق استقرارهم ما بين درعة وسجلماسة واكثر استقرارهم بدرعة[21]. لذلك نجد جموعهم في القرن 7 هـ/13 م ثم نجدها قد

19) نفسه، ص : 79-81-82
20) نفسه، ص : 87
21) نفسه، ص : 89

انتقلت الى سجلماسة في القرن 8 هـ/14 م وقت زعامة يوسف بن علي بن غانم لها[22].

ـ الأحلاف : ويتكون من العمارنة والمنبات قال ابن خلدون «ومواطنهم مجاورة لأولاد حسين من ناحية الشرق ومجالاتهم بالقفر تافيلالت وصحراؤها»[23] وقد كان الاحلاف وأولاد حسين على خلاف دائم بمنطقة سجلماسة الامر الذي انعكس سلبيا على الأوضاع الامنية بها غير ان العصبية كانت تجمعهم في حرب من سواهم على حد تعبير ابن خلدون[24].

ـ أولاد ابي الحسين : وهم اقل بطون ذوي منصور مشاركة في الاحداث التي عرفتها سجلماسة في القرنين السابع والثامن الهجريين ويرجع السبب في ذلك الى كونهم «عجزوا عن الطعن ونزلوا قصورا اتخدوها بالقفر ما بين تافيلالت وتيكورارين»[25].

ولا نعرف الشيء الكثير عن انساب عرب المعقل، لان ما اتت به المصادر في هذا الباب متناقض ومتضارب. وقد اعترف ابن خلدون بذلك صراحة حين قال «وسلافة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال، وهو غير صحيح، وهم يزعمون ان نسبهم في اهل البيت الى جعفو بن ابي طالب، وليس ذلك ايضا بصحيح، لان الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ونجعة، والصحيح والله اعلم من امرهم انهم من عرب اليمن»[26].

وقد ابطل الناصري في كتابه طلعة المشتري صحة القول بالاصل اليمني لهذه القبائل وقال بان «لفظ معقل الذي كلامنا فيه بفتح الميم وسكون العين المهملة وكسر القاف بوزن مسجد، ولفظ معقل الذي في بني الحرث ابن كعب ضبطه صاحب القاموس بضم الميم وفتح العيم المهملة وكسر القاف المشددة بوزن معظم»[27].

---

22) نفسه، ص : 87
23) نفسه، ص : 89
24) العبر ج/6، ص : 89
25) نفسه، ص : 86
26) نفسه، ص : 79
27) الناصري : طلعة المشتري في النسب الجعفري، طبعة فاس، 1309 هـ ص : 114

كما لخص نفس المؤلف ما ورد عند ابن خلدون حول اصل عرب المعقل ونسبهم في سبعة قضايا هي : دخولهم للمغرب في عدد قليل، وتكاثرهم بمن اجتمع اليهم من القبائل، وغُمُوضُ انسابهم لدى الجمهور، وانتسابهم لجعفر بن ابي طالب، وقول ابن خلدون بان الطالبيين والهاشميين لم يكونوا اهل نجعة وبادية، ونسبتهم لعرب اليمن، واعتماده على النسابة في التعريق بفروعهم[28].

وبعد أن ناقش الناصري ما جَاءَ في كتاب العبر حول هذا الموضوع اكد على صحة نسب عرب المعقل لآل البيت. وجعل اسباب نزوحهم الى المغرب نتيجة لصراعهم مع ابناء عمومتهم العباسيين[29].

إن الناصري حينما قال بالاصل الجعفري لبعض بطون المعقل اثار قضية جد اساسية قد تفيد في معرفة نوع العلاقة التي كانت بين عرب المعقل والشرفاء. فهل اثيرت فعلا قضية النسب بين القوتين الرئيسيتين بمنطقة سجلماسة في الفترة التي نحن بصددها ؟ اننا اذا افترضنا ان ما قاله الناصري حول صحة نسب عرب المعقل للجعافرة قد تبناه هؤلاء في فترة سيطرتهم على الواحات الجنوبية للمغرب الأقصى، جاز لنا ان نقول بأن الامر يتعلق بمنافسة الشرفاء حول المكانة التي اصبحت لهم داخل سجلماسة خصوصا والمغرب الاقصى عموما.

ان مادة المصادر التاريخية المعروفة التي زامنت الفترة التي نحن بصددها لا تتحدث عن اية منافسة للشرفاء الحسنيين بسجلماسة حول قضية النسب. وكل ما يمكن استنتاجه من معلوماتها هو ان سجلماسة عرفت تواجد قوتين رئيسيتين كان لهما اقوى التأثيرات على مجريات الاحداث بها. ويتعلق الامر بقوة عرب المعقل التي استمدوها من وفرة أعدادهم، وقوة الشرفاء التي هي قوة روحية دينية استمدوها من نسبهم الشريف. ولا وجود لاي حديث في المصادر عن دور الجعافرة بالمنطقة لان اهتمام اصحابها انصب على عرب المعقل جملة دون تمييز. في حين اوردت بعض الكتب معلومات مهمة عن الشرفاء الحسنيين المستقرين بوادي ايفلي والغرفة والسيغة، والمكانة التي

28) نفسه، ص : 110-109

29) نفسه، ص : 111-110

خصها بهم سكان سجلماسة فضلا عن التقدير الذي نالوه من سلاطين بني مرين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

إن شرفاء العرب الاقصى في القرن 7 هـ/13 م كانوا ينقسمون الى قسمين : شرفاء استقروا بالمغرب قديما وهم الشرفاء الصقليون الحسينيون وشرفاء قدموا في التاريخ المشار إليه أعلاه الى المناطق الجنوبية وهم السعديون وشرفاء سجلماسة الحسنيون [30]. وهذا ما يدفع الى الاعتقاد في أن تبني عرب المعقل للنسب الشريف إنما كان وسيلة منهم للبحث عن مشروعية لتدعيم نفوذهم وسيطرتهم على مناطق الجنوب، ومزاحمة العلويين على المكانة التي اصبحت لهم بمناطق سجلماسة.

ولا غرابة في تبني عرب المعقل للنسب الشريف في هذه الفترة الزمنية بالذات. لان التحولات التي عرفها المجتمع المغربي في العهد المريني كان لها دور كبير في ذلك، خاصة وان المخزن المريني كان يولي أهمية بالغة لآلِ البيت. قال ابن السكاك : «أما ملوك بني مرين فلا أعرف منهم الا من كان معظما للشرفاء مكرما لهم، مقدما لهم على غيرهم، متمما بمصالحهم. الا ان بعضهم إمتازوا في ذلك بمزيد قوة إختصاص، كالملك المجاهد ابي يوسف الذي محا دولة بني عبد المؤمن ومهد الدولة المرينية، كل ذلك ببركة تعظيمه لما هو من رسول الله» [31].

وذكر ابن عبد العظيم الازموري ان ابا يوسف يعقوب المريني كان يكاتب شرفاء المغرب الاقصى. وسن سنة ارسال الكسوة الى البيت الحرام. واورد نفس المؤلف رسالة بعث بها هذا السلطان الى الشرفاء المغاربيين سكان طيط من عمالة أسفي هذا نصها «اردنا منكم ومن كمال فضلكم أن تعينوا وأنتم أجل أهل الفضل ثلاثة رجال من بيتكم الشريفة يتوجهون الى بلاد الحجاز شرفها الله ويقدمون على من ارسلنا مع صلحاء المغرب» [32].

---

30) محمد القبلي : مساهمة في تاريخ التمهيد لدولة السعديين، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية، الرباط، العدد 3ـ4، 1979، ص : 11ـ12.

31) أبن السكاك : نصح ملوك الاسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، مخطوطة خ.ع. رقم 5، 383 ص : 42ـ43.

32) ابن عبد العظيم الازموزي : بهجة الناظرين وانس الحاضرين، مخطوطة : خ.ع. رقم ج/377، ص : 33

لقد كان اهتمام المرينيين بالشرفاء نتيجة رغبة سلاطينهم في تعويض الفراغ الايديولوجي الذي يعانون منه. فتقربوا من اشراف الشرق لضمان عطف الرأي العام الخارجي ومن الاشراف المحليين لكسب عطف الرأي العام الداخلي (33).

في هذه الظروف دخل الشرفاء الحسنيون منطقة سجلماسة وقد لخص الفضيلي الآراء التي ذكرت في هذا الموضوع وقال «قال الشيخ العلامة الولي الصالح سيدي ابراهيم بن هلال في مَنَاسِكِهِ... أجداد شرفاء بلدنا سجلماسة الذين نزلوها اوائل الدولة المرينية، قال الامام الحافظ ابو محمد عبد الله بن علي بن طاهر. وذلك سنة اربع وستين وستمائة. فقلت وهذا التاريخ اخذ من الشجرة الحسنية التي اتى بها السيد ابو ابراهيم من ينبع. وقيل في دولة عبد الواحد الموحدي المخلوع على ما قاله ابو العباس احمد بن يوسف السجلماسي، فيكون ذلك في العشرة الثالثة بعد ستمائة والصحيح الاول وعليه فيكون ذلك في دولة يعقوب المنصور المريني» (34).

إن الذي جاء بالشريف مولاي الحسن بن قاسم الى سجلماسة سنة 664 هـ / 1266 م من الينبوع بالحجاز هو السيد ابو ابراهيم العمري، في وقت كانت فيه المدينة خاضعة لعرب المنبات الذين اعلنوا طاعتهم للزيانيين. وَذَكَرَ الفضيلي ان مولاي الحسن لما اطمأنت به الدار تنافس اهل سجلماسة في مصاهرته، واهل العصبية بها وقتئذ هم اولاد المزاري واولاد المغراوي واولاد البشير واولاد بن عاقلة واولاد المعتصم، فاختار لمصاهرته اولاد المزاري لمروئتهم وديانتهم (35).

إستقر الشريف مولاي الحسن بن القاسم بمكان يسمى المصلح وبه توفي حسب رواية الناصري (36). ولايوجد هذا الاسم اليوم في اسماء القصور بهذه المناطق، غير انه يطلق على حقول ومزارع بالقرب من قصر السيفة في جماعة

---

33) محمد القبلي : المقال السابق ص : 11-12

34) الفضيلي : الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية، طبعة فاس 1314، ص : 53

35) نفسه، ص : 75

36) الناصري : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى، الدار البيضاء 1955 ج/7، ص : 6

بني محمد بتافيلالت. وهذا ما يؤكد بأنه هو المكان الذي تواجد فيه القصر قبل خرابه. وقد استقر الشرفاء بعد وفاة مولاي الحسن بوادي إيفلي والسيفة واتخدوا بهذه المناطق قصورا عديدة لعبت دورا كبيرا في التطور الحضاري باقليم سجلماسة في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي (37).

تكاثر عدد الشرفاء بسجلماسة في القرن الثامن الهجري لانهم كانوا يتخدون زوجاتهم من عصبيات مختلفة تبعا لرغبة سكان سجلماسة وغيرهم في التقرب منه عن طريق المصاهرة. ويتضح ذلك من خلال مخطوطة محلية نشرها Bassac وهي لصاحبها مولاي أحمد البلغيتي المتوفى بقصبة سيدي ملوك بوادي ايفلي عام 1900 م. وقد ذكر هذا الشخص ان مولاي علي الشريف 762 هـ - 848 هـ / 1361 م - 1445 م كانت له ثلاث زوجات هن : نجمة الحبشية وفاطمة العامرية التادلية والزهرة الامزرية السجلماسية (38).

ونظرا للمكانة التي اصبحت لشرفاء سجلماسة بمنطقة استقرارهم بوجه خاص وببلاد المغرب بوجه عام فان قوة نفوذهم اصبحت مع الزمن تفوق قوة عرب المعقل رغم قلة عددهم مقارنة مع جموع ذوي منصور.

ومع حلول القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي إزدادت مكانة الشرفاء قوة لدى سلاطين بني مرين، وتعززت معها مكانة شرفاء سجلماسة بمناطق استقرارهم. فقد كان السلطان ابو الحسن المريني يسعى الى التبرك بأشراف المغرب قاطبة (39). كما ان ابا عنان فارس كان على علاقة طيبة بشرفاء سبتة وسجلماسة وشرفاء طيط. وقد وصلتنا رسالة من هذا السلطان الى شرفاء سبتة ضمن «مجموعة مؤلف من ظهائر شريفة وعقود انكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين وغيرهم» تفيد في معرفة ان هذا السلطان كان قد اتخد بعض خاصته من شرفاء سجلماسة وهذا نص الرسالة : «الحمد لله وبما في براءة السلطان ابي عنان المريني رحمه الله ما نصه انه يأمر فيه الشرفاء

---

37) راجع رسالتنا حول سجلماسة، ص : 106-114.

38) Bassac : Sijilmassa traduction d'une manuscrit arab, B.S.G, Alger 1930 : p 232

39) إبن السكاك : المصدر السابق، ص : 25

الاخيار اهل سبتة : سيدي احمد بن طاهر الشريف الحسيني الصقلي، وسيدي ابازرهون عبد العزيز بن عبد الرحمان الشريف المومناني الحسني، وابن اخيه السيد ابا علي حسّون بن محمد بن عبد الرحمان الحسني المومناني، ان تقبضوا اخاهم ليلا يقطع الى الجزيرة الخضراء، الى ان يأتي صاحبنا به الى فاس، وهو سيدي مولاي علي الشريف بن لحسن «كذا» بن محمد الحسني وهو صغير مع اهل سجلماسة آيت بوعصامت «كذا» وان بوصوله يأخد اثره «كذا» ان شاء الله قد يكفي مالهم عن رقابهم وكتب في اول شوال «كذا» بدون تاريخ [40].

يتعلق الامر في هذه الرسالة بأحد الشرفاء الصقليين شرفاء سبتة الذي كان على خلاف مع السلطان ابي عنان فارس، فاراد الفرار الى الاندلس، فألقي عليه القبض من قبل اخويه سيدي ابازرهون عبد العزيز بن عبد الرحمان والسيد أباعلي حسون بن محمد بن عبد الرحمان. ويأمرهم السلطان في رسالتهم بأن يحتفظوا بأخيهم الى حين مجيء مولاي علي الشريف بن الحسن بن محمد الحسني السجلماسي رسولا من قبل السلطان إليهم. وتتضمن الرسالة ايضا اشارة تفيد في معرفة ان الشريف السلجماسي كان على خلاف مع سكان قصر تابوعصامت وان اباعنان وعده بتأديب هؤلاء وانصافه في خلافه معهم.

كما إحتفظ لنا نفس الكتاب بظهير وجهة السلطان ابو العباس أحمد المريني الى شرفاء سجلماسة عام 763 هـ / 1363 م يطالبهم فيه بأن يحضروا الى المدينة البيضاء «فاس الجديد» ليأخذوا عطاياهم وهباتهم التى ألفوا أخذها من السلاطين المرينيين. والدعوة في هذا الظهير موجهة الى شرفاء صنوص وهو اسم احد القصور الموجودة الى اليوم بوادي إيفلي وشرفاء أَخَنُّوس الموحدين الى اليوم بوادي ايفلي ايضا ثم شرفاء السيفة وهذه الكلمة تطلق اليوم على مقاطعة من المقاطعات الست التي تضمها تافيلالت بالمعنى المحلي للكلمة، اي سهل تافيلالت المحيط بموضع مدينة سجلماسة.

وهذا نص رسالة هذا السلطان كما دونها صاحب الكتاب : «الحمد لله تقييد من كتاب بعض من ملوك بني مرين وهو ابو العباس احمد المريني رحمه

40) مجموع مؤلف من ظهائر شريفة وعقود انكحة متعلقة بالشرفاء السجلماسيين وغيرهم، مخطوطة، خ.ع. رقم د. 723، ص : 115-116.

الله، على سبيل الاختصار، وهو يخاطب فيه اولاد الشيخ الولي الصالح السيد ابا علي حسون الحسني، واولاد مولاي عبد الله بن ابي البركات الحسني اهل السيفة، واولاد السيد احمد بن محمد بن علي الشريف الحسني اهل صوص، واولاد مولاي محمد بن علي بن يوسف الشريف الحسني اهل خنوس بالقدوم الى حضرته من المدينة البيضاء، لما جاء من الغنائم وهي ستون الفا من النصري وعشرون الف قنطار من الريال الرومي وغنائم كثيرة، ليأخذوا ما هي عادتهم من الخراج وان من لم يحضر لالوم علي من جانبه» (41).

وهكذا فان المكانة التي كانت لعرب المعقل بمدينة سجلماسة وضواحيها قد عرفت تواجدا بعد استقرار الشرفاء بنفس المنطقة. ويرجع السبب في ذلك الى ان مكانة عرب المعقل ارتكزت على قوة عصبيتهم، ولم يكن بامكان هذا العامل مواجهة السر الكامن وراء مكانة الشرفاء وهو نسبهم الشريف. غير انه رغم امتلاك الشرفاء لدعم سكان سجلماسة وامتلاكهم للسند الشرعي اللازم لفرض نفوذهم وسيطرتهم الفعلية على تلك المجالات، فان عرب المعقل ظلوا اصحاب القرار بها في القرنين السابع والثامن الهجريين، واثروا في احداثها تأثيراً قويا. لان الشرفاء خلال هذه الفترة لم يهتموا بشؤون السياسة وامورها. ويكفينا دليلا على ذلك ان مولاي علي الشريف 762 هـ ـ 848 هـ / 1361 م ـ 1445 م إبتعد عن الخوض في الشؤون السياسية رغم انه بعد صيته وكثرت أتباعه حتى هابته ملوك مرين وتَخَوَّفُو منه (42). فضلا عن انه تلقى رسائل عديدة من أهل الاندلس يدعونه فيها للقدوم عليهم قصد مبايعته بها (43).

41) نفسه، ص : 116
42) الفضيلي، المصدر السابق، ص : 82-83
43) أحمد بن محمد بن يوسف الحسني، الانوار الحسنية في نسبة من بسجلماسة من الاشراف الحسنية، مخطوطة، خ.ع. رقم د. 1351 ص : 37

المولى اسماعيل رائد تحرير الانسان من خلال تأسيس جيش عبيد البخاري

د. يوسف الكتاني

إن الامة التي لا تعنى بتاريخها ولا تهتم به، ولا تسجله ولا تحفظه، أمة لا حاضر لهاولا مستقبل، وقد حفظ الله على أمتنا المغربية تاريخها مسجلا مكتوبا منذ مطلع الاسلام في هذه الديار، ودخول المولى ادريس وتأسيسه الدولة المغربية العتيدة .

إن تاريخنا باحداثه السياسية والفكرية والاجتماعية مما يحملنا على الاعتزاز به، والافتخار، ما حققه الاجداد والآباء في معاركهم وانتصاراتهم وجهادهم في سبيل التنمية والتقدم والتطور .

ومن باب الاعتزاز بهذا التاريخ المشرف، وفي إطار نشره وتعريف جيل الشباب بحقائقه، واطلاعهم على صفحاته، لدارسته وأخذ العبرة منه، وصلا للماضي بالحاضر، وتحفزا وتوثبا نحو مستقبل يتفق مع آفاق القرن الواحد والعشرين، والذي ستشهد فيه بلادنا مزيدا من التطور والتقدم والخير باذن الله، يأتي انعقاد جامعة «مولاي علي الشريف» الخريفية بموضوعها الممتاز، المتعلق بثلاثة من رواد الدولة العلوية وهم : مولاي محمد بن الشريف، ومولاي رشيد، ومولاي اسماعيل باعتبارهم مؤسسي الدولة وطلائع ملوكها، وقد اخترت التحدث عن الملك العظيم المولى اسماعيل الذي ملأت صورته البطولية عقلي

منذ حداثة سني، وطغى على خيالي بقوته وانتصاراته وطول مدة حكمه .

وسيستقطب حديثي موضوعا كبيرا في تاريخنا هو جيش عبيد البخاري الذي حقق المولى اسماعيل بتأسيسه قوة دفاعية هائلة، جعلته مهابا من جميع الدول وجمع فيه الأرقاء والعبيد المبثوتين في مدن المغرب وقراه، وحررهم وأنشأ منهم جيشه الكبير الذي ما زالت بقاياه الى الآن بالحرس الملكي .

وسأسترق من وقتكم دقائق لتأمل هذه الصورة الكاملة الرائعة، التي رسمها ادباؤنا لرائد جيش عبيد البخاري، والتي تبعث في النفس كامل الاعجاب والسرور، فقد وصفه صاحب كتاب جنى الازهار بقوله : «نخبة السادات الملوك، واعظم أهل العدل والسلوك نور أنوارهم المنيرة، وقمر كواكبهم المستنيرة، طالع السعود، والمرتقى أوج الصعود، ظل الله سبحانه على البرايا، وواحد الدهر والمزايا، الشريف العالي القدر المنيف، الغني نسبه وحسبه عن الترجمة والتصنيف، العلوي القرشي، الهاشمي المولوي، مظهر شرائع الدين، المعتصم بالله رب العالمين، السنى الجليل، أبو الفداء مولانا إسماعيل»(1).

ونعته العلامة أبو علي اليوسي بقوله :

«قطب المجد ومركزه، ومحاز الفخر ومأزره، وأساس الشرق الباذخ ومنبعه، ومناط الفضل والتسامح ومجمعه»(2).

وقال عنه صاحب نشر المثاني :

«أحيا الله بالامام مولاي إسماعيل رسوم الدين بعد دروسه وأضحك به وجه الزمان بعد طول عبوسه، وأخمد به الفتن بعد تأجج نارها، واحيا به المعالي بعد الاخذ بثأرها، وبسط له اليد على رعيته فعلت أقداره، ولاحت في افاق الدنيا شموسه وأقماره، وتكاملت في الحسن أنجاد المغرب وأغواره، وشمخ فيه ملكه، فدار بالنصر والتمكين فلكه، فانتعش به كل الارامل والايتام، ورسمت فيه للدين ائمة وأعلام، وأولاه الزمان زمامه، وأكمل السعد واليمن مرامه، فشدا بذكره صادحا، وما أحسن قول من قال مخاطبا له ومادحا :

---

(1) جنى الازهار ونور الابصار من روض الدواوين المعطار لمؤلف مجهول - مخطوط الخزانة الحسَنية عدد 11860

(2) من رسالة اليوسى الى المولى اسماعيل، انظر الاستقصا 82/7

وأطلت أيام السرور فلم يصب من قال : أيـام السرور قصار
وجبرت من جرح الزمان فكذبت أقوالهم جـرح الزمـان جبـار[3]

هذا الملك العظيم الذي أجمعت الامة المغربية على مبايعته بعد وفاة أخيه الرشيد، ولم ينازعه أحد في انه كان أحق وأهلها، وكانت أيامه أمن وعافية وانضباط، إذ دوخ بلاد المغرب كلها، واستولى على سهلها ووعرها، حتى انتهى الى تخوم السودان وما وراء النيل، وامتدت مملكته الى بسكرة ونواحي تلمسان، والله اعلم حيث يجعل رسالاته[4].

وقد فسح الله له في العمر، ومكن له في الارض حتى طال حكمه، وامتد سلطانه حتى بلغ سبعا وخمسين سنة، ونعت بالحي الدائم، هذه المدة التي لم يستوفها أحد من خلفاء الاسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدى صاحب مصر الذي بقى في الخلافة ستين عاما[5].

ولقد قضى هذه المدة المديدة في بناء الدولة المغربية وتشييد أركانها، وتحرير ما اغتصب من أجزائها، كالمهدية بالمعمورة، وطنجة، والعرائش وغيرها[6].

وحصن حدود المغرب وجهاته، وأمنه من كل غزو أو اعتداء، حتى هابه البعيد قبل القريب، وكان أعز ما عنده العمل على نشر الدين واعلاء كلمته، ولذلك كان يدعو ملوك أروبا في رسائله إلى الدخول في الاسلام[7] كما كان يشترط عليهم افتداء أسراهم عن كل نصراني مقابل مائة كتاب من كتب الاسلام الصحيحة، المختارة المثقفة في خزائنهم باشبيلية وقرطبة وغرناطة[8] وقد جمع محاسنه كلها صاحب البستان بقوله :

«ولقد شاهدت الكثير من اثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من اثاره، ولا

(3) الاعلام للعباس بن ابراهيم 66/3 المطبعة الملكية سنة 1977
(4) نزهة الحاذي بأخبار ملوك القرن الحادي، محمد الصغير اليفرني ص 304 و305.
(5) انظر الاستقصا 99/7
(6) نزهة الحاذي ص 305 و306
(7) الاتحاف لعبد الرحمان بن زيدان 51/2
(8) من رسالة لملك اسبانيا، الاتحاف 65/2

بناء أضخم من بنائه، ولا أكثر عددا من قصوره، فقد جعل هذا السلطان مباني العالم كلها في بطن تلك القلعة المكناسية[9].

وقد كان من مدح الاديب أبي عبد الله الجزولي قوله :

مولاي إسماعيل يا شمس الورى يا من جميع الكائنات فدى له
ما أنت إلا سيف حق منتضى الله من دون البرية سله
من لا يرى لك طاعة فالله قد أعماه عن طرق الهدى وأضله[10]

تأسيس جيش عبيد البخاري
مظهر من مظاهر تحرير الانسان

يعتبر الاسلام في حقيقته وهدفه وتوجيهه للناس إعلاما وإعلانا لحقوق الناس وواجباتهم، وما ينبغي أن يكونوا عليه منذ خمسة عشر قرنا، من قبل أن تعرف الانسانية كلها هذه المواثيق البشرية، والمعاهدات الدولية.

ولا شك أن هذا الاعلان الالهي يعلو ويسمو على كل المواثيق الوضعية والعهود البشرية، لكونه يقوم على الايمان بالله، وابتغاء مرضاته ورغبة في ثوابه، وخوفا من عقابه. وإن القرآن والسنة ظلا دوما المنبع والمصدر، لكل حقوق الانسان وحرياته، وقد حفلت نصوصهما بالمبادىء الانسانية السامية لتلك الحقوق والحريات، وكان منهما مكملا للآخر في تفصيل وتدقيق معجز رائع، وعلى هديهما سارت دولة الاسلام ومجتمعات المسلمين في مختلف العهود[11].

وقد سارت الدولة المغربية على هذا النهج القويم، وحافظت على حقوق الانسان ودافعت عنها مختلف الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، حتى إذا انتقل الامر الى الدولة العلوية، سارت في طريق من سبقها من الدول، بالدفاع عن حقوق الانسان، واحترام كرامته، وتوفير العدل له، سواء داخل المملكة أو خارجها، علما بأنه في هذا الوقت الذي كان ملوكنا ينافحون ويدافعون، عن

9) الاستقصا 103/7
(10) نزهة الحاذي ص 309
(11) معالم اسلامية للدكتور يوسف الكتاني ص 9 و13

حقوق مواطنيهم ويرعونها، ويسهمون في تحرير الانسان أيا كان، في الداخل والخارج، كانت بلاطات ملوك اوربا وممالكها، تعج بالارقاء الذين استعبدوهم عن طريق الاسر والقرصنة، التي طالما تنافس امراء أوربا فيها وسارعوا إليها، مما دفع ملوكنا الى عقد المعاهدات والسعي لديهم لتحرير الناس وافتدائهم بالاموال والقروض، مما ساهم بحظ وافر، على تقليص الرق بين الامم، والقضاء عليه، واشاعة الحرية، واقرار كرامة الناس .

إننا نستشتف هذا العمل التحرري، والسلوك الحميد شاهدا قائما في سير ملوكنا، وسجلات أعمالهم، وفي وثائق البيعة التي تعتبر دساتير لحقوق الانسان، وفي شتى المواثيق والمعاهدات التي عقدت بين ملوكنا وبين غيرهم من ملوك الدول والامم.

لقد كان في المقدمة المولى اسماعيل، وهو الذي خطا الخطوة الاولى في مجال تحرير الرقيق، والتي كانت الاساس الذي سار عليه فيما بعد حلفاؤه، وحققوا للانسانية صفحات رائعة في هذا الميدان .

لقد أصدر قراره بمجرد بيعته، عندما لاحظ كثرة الإسرى، والتنافس في اقتناء الرقيق، وذلك بمنع الرعية من تملك الرقيق وممارسة الحكم في مصيره، وجعل العبيد تابعين للدولة، وأسس منهم جيشا مغربيا وهو ما عرف «بجيش البخارى» الذي قصر أعماله على الجهاد (12).

وقد فتح حوارا متعددا بواسطة سفرائه وفي مقدمتهم السفير الغساني، مع مختلف الدول وخاصة الاوربية كاسبانيا والبرتغال وفرنسا، وعقد معهم معاهدات واتفاقيات لتحرير الاسرى من مختلف الاجناس وخاصة منهم المسلمين، مقابل فدية أو قروض، وهكذا أثمرت جهود المولى إسماعيل، وسعيه الحثيث، من أجل تحرير الرقيق، وصون كرامة الانسان، وأصبحت سياسة قارة للدولة، حتى إننا نجد طالعة بيعة المولى عبد الله، تنص على التزامه بحقوق الرعية والدفاع عنها، وإقرارها في كل الميادين والمجالات، وفرح الامة باختيار ملك عادل مستقيم يحقق لها الامن والعدل والاستقرار، والذي كان ولده محمد الثالث رائد تحرير الانسان لا في المغرب فحسب بل في جميع أنحاء العالم،

(12) معالم اسلامية ص 44 و45

وسواء كان مسلما أم مسيحيا أو يهوديا، والذي خصص ثلث ميزانية المغرب لتحرير الاسرى معتبرا ذلك واجبا دينيا. (13)

كيف أسس المولى إسماعيل جيش البخاري

لقد قام المولى إسماعيل بخطوة هامة قبل تأسيس جيش عبيد البخاري، إذ بادر الى تجميع وتوحيد جيش الودايا الذي كان يضم أهل السوس، وأهل المغافرة، وأهل الودايا، وصيرهم جيشا واحداً جمعهم له أبو الشفرة من قبائل الحوز فأثبتهم في الديوان ونقلهم الى مكناس .

فلما دخل المولى اسماعيل الى مراكش، ودانت له بالطاعة والولاء أخذ يكتب عسكره من القبائل الاحرار، فأطلعه كاتبه الباشا أبو حفص عمر بن قاسم عليليش (14) على دفتر أسماء العبيد الذين كانوا عسكرا للمنصور الذهبي وكانوا يعرفون بالحرس الاسود، فقرر جمع شتاتهم من سائر الجهات، وجعلهم الاساس في تكوين جيشه العتيد عبيد البخاري، واستغنى به عن الانتصار بالقبائل .

لقد كان هذا الجيش من أعظم جيوش الدولة العلوية إذ أشرف السلطان المولى اسماعيل بنفسه على إنشائه وتنظيمه وتموينه، وأراد أن يجعله قوياً مهيبا على نحو جيش الانكشارية الذي ألفه السلطان سليمان القانوني المتوفي سنة (1566م) وقد تم له ذلك بمؤازرة الباشا أبي حفص عمر بن قاسم المراكشي عليليش الذي كان يتوفر على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور الذهبي فجعله السلطان من حاشيته، وسأله هل بقي منهم أحد ؟ قال : «نعم كثير منهم ومن أولاده وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وقبائل الدير، ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم، فولاه أمرهم وكتب له الى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده واعانته على ما هو بصدده، فأخذ عليليش يبحث عنهم ويجمعهم ويتبع أثرهم إلى أن جمعهم وحملهم إلى حضرة السلطان بمكناس، فأعطاهم السلاح وكساهم وأجرى عليهم مؤنهم، وولى عليهم قواذهم، ووزعهم في أماكن

---

(13) انظر تفصيل الموضوع في معالم اسلامية 44 و47 والاستقصا 38/8

(14) يذكر الاستاذ محمد الفاسي أن اسمه هو محمد لاعمر اعتمادا على رسالة خطية للباشا المذكور وقعها باسم محمد وجهها الى الوزير اليحمدي. انظر مجلة هسبريس تمودة سنة 1962 ص 15 و67.

نزولهم واقامتهم، وعين عليهم قاضيا هو الفقيه محمد بن العياشي المكناسي وسماه قاضي القضاة للفصل فيما يقع بينهم من منازعات وخصومات. وقد كبر أمر جيش عبيد البخاري وعظم شأنه حتى استغنى به المولى اسماعيل عما سواه، وأصبح سنده في حروبه وفتوحه، ومعتمده في دولته وسياسته، وعين منه الولاة والقواد، وما زال منهم بقايا الى الآن ضمن الحرس الملكي .

سبب تسميتهم بعبيد البخاري : ميثاق وعهد

إن قيام نظام الحكم في المغرب على الاسلام، واتخاذ البيعة الشرعية أساسه ومعتمده، جعل مرافق الدولة المغربية وأجهزتها ودواليبها تقوم هي نفسها على الاسلام، وبمقتضى اوامره ونواهيه، وعلى مدى مقاصده ومكارمه، مما وفر لبلادنا طوال تاريخها استقرارها ووحدتها ورخاءها. وهكذا استمر خلفاؤنا وملوكنا يحتكمون الى الاسلام ويأتمرون بأوامر القرآن، ويهتدون بهدى سيد الانام، وجاءت بيعاتهم مسجلة لهذا الالتزام، مؤكدة لهذا النظام .

ومن هنا نجد المولى إسماعيل عندما اكتمل له اجتماع جيشه، والتئام أعداده، وانتظام أمره، بما يفوق مائة وخمسين ألف رجل، مع أعيانهم، وأحضر نسخة من صحيح البخاري وخطب فيهم قائلا : «أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل «فعاهدوه على ذلك، فأمرهم أن يحتفظوا بتلك النسخة وأن يحملوها عند ركوبهم، ويقدموها أمام حروبهم، فاستمروا على ذلك وعرفوا بعبيد البخاري [15].

وهكذا اتخذ المغاربة صحيح البخاري ميثاق عمل، ورمز وحدة بين الرعية والقائد، وبين الجند وملكهم، مما يدل على المنزلة العظمى التي بلغها صحيح البخاري. والمقام الكبير الذي لم يبلغه عندهم أي كتاب آخر غير القرآن، وهو دليل قوي ورمز عظيم على تمسك المغاربة بدينهم، واعتزازهم بسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام [16].

(15) الاستقصا 59.58/7.
جنى الازهار
المنزع اللطيف في ترجمة مولاي اسماعيل بن الشريف. عبد الرحمان بن زيدان ص 148 وما بعدها
(16) مدرسة الامام البخاري في المغرب 552.550/2

تعبئة شاملة في المملكة لجمع أفراد الجيش

لقد كان تصميم المولى اسماعيل قويا على تعبئة جميع عماله ورجاله، لتجميع بقايا الحرس الاسود من جيش المنصور الذهبي وغيرهم، بل إن السلطان نفسه جمع ألفي معتق منهم في حملة سنة 1678/1089، عندما غزا الصحراء وتخوم السودان، فجهزهم وسلحهم، وعين عليهم رؤساءهم وبعثهم إلى المحلة .

وقد تضمنت حملة التعبئة هاته كبار رجاله وقواده الذين ارسلهم إلى جهات المملكة نذكر منهم :

1) أبا حفص عمر بن قاسم المراكشي الذي توجه الى مراكش ونواحيها، حيث بلغ ما جمعه في خلال سنة ثلاثة آلاف عبد، أمره بشراء الاماء للعزاب منهم ودفع أثمان المملوكات منهن لاربابهن [17] وكساهم ووجههم إليه، فأرسلهم إلى مشرع الرملة من أعمال سلا.

2) أبا عبد الله محمد بن العياشي المكناسي بعثه إلى قبائل الغرب وبنى حسن، وقد جمع ألفي عبد وجههم هو بدوره إلى السلطان .

3) عمال الاقاليم بفاس ومكناس وغيرهما جمعوا ثلاثة الاف عبد، أرسلوها إلى السلطان فألحقهم بالمحلة .

4) القائد أبا الحسين علي بن عبد الله الريفي صاحب بلاد الهبط. قام بشراء الاماء للعزاب وسلحهم وكساهم ووجههم إلى السلطان .

5) قبائل تامسنا ودكالة جمعت ما عندها من العبيد، وزادت عليهم اخرين بالشراء ممن يملكونهم وسلحتهم وجهزتهم وأرسلتهم إلى السلطان وكان عددهم أربعة آلاف، وقد ظلت عملية الجمع والتجهيز لافراد جيش عبيد الخارى مستمرة متجددة، حتى فاق عدد أفراد الجيش مائة وخمسين ألف رجل [18] وقد فرقهم على قسمين : القسم الاول ويبلغ تعداده ثمانين ألف رجل وزعهم على قلع المغرب لتوطيد الامن، وقمع عتاة القبائل المتمردة .

(17) كان ثمن كل عبد أو أمة عشرة مثاقيل ـ الاستقصا 57/7

(18) الاستقصا 58/7

والقسم الثاني ويبلغ عدد أفراده سبعين ألف رجل، وضعهم بالمحلة يقاتلون ويدافعون كأنهم رجل واحد، يخوضون الملاحم، ويفتحون الفتوح .

وقد بلغ من عناية المولى إسماعيل بهذا الجيش أنه كان يعرفهم بأسمائهم، وأنسابهم، وصفاتهم، ويدفع لهم مرتباتهم بيده، ويتولى استعراضهم بنفسه. (19)

وما زالت بقايا هذا الجيش إلى اليوم تستعمل في القصور الملكية، منهم من يعمل في الحرس الملكي، ومنهم من يشتغل داخل القصور للعناية بالخيول والسيارات وبقية الخدمات وهم المعروفون بالفرايكية، ومنهم أصحاب الوضوء الملكي وغيرهم (20).

أسلوب فريد

لم يكتف المولى إسماعيل بجمع العبيد ولم شتاتهم، ولم يستعملهم للسخرة ومختلف الاعمال الشاقة كما كان الامر جاريا مع العبيد في كل مكان من العالم، بل اتبع معهم أسلوبا فريدا في تربيتهم وتكوينهم وتعليمهم، واشرف على ذلك بنفسه، وجعلهم من خاصة أمره واهتمامه، فقد أصدر أمره بالاتيان بمن بلغ من أولادهم عشر سنين ذكورا وإناثا .

فأما الاناث فيفرقن على نسائه وذوي الحيثيات العارفين بالتربية والاداب الملكية، لتهذيب أخلاقهن، والتأدب بالاداب السلطانية، وتعلم أنواع الطبخ والخياطة وسائر الاشغال البيتية الملكية .

وأما الذكور فيفرقون على الصنائع والحرف كالبناء والنجارة والحدادة والفلاحة، ويلزمون بركوب الحمر تدريبا لهم على الفروسية فإذا بلغوا الحادية عشرة من السنين ألزمهم بركوب البغال التي تحمل الجير والاجر والزليج لبناء قصوره .

فإذا بلغوا الثانية عشرة ألزمهم بضرب المراكز، وخدمة ألواح البناء، تدريبا لهم على تحمل الاعباء الشاقة .

---

(19) انظر تفصيل الموضوع في المنزع اللطيف ص 151 وما بعدها.
(20) المصدر السابق ص 152 و153

فإذا أكملوا الثالثة عشرة دفعهم إلى الجندية وكساهم ودفع لهم السلاح ليشتغلوا بالخدمات العسكرية، ويتعلموا فنونها راجلين .

فإذا بلغوا الرابعة عشرة دفع الخيل لهم دون سروج، وألزمهم ركوبها في بكرة وعشي، ويتعلمون الكر والفر والسباق حتى يتقنونه .

فإذا بلغواالخامسة عشرة دفعت لهم السروج، وألزموا تعلم الكر والفر والسباق والرماية عليها .

فاذا بلغوا السادسة عشرة صاروا من جملة الجند تجرى عليهم الجرايات، ويكتبون في الديوان، ويزوجهم بالبنات اللائي جئن معهم، ويدفع للرجل عشرة مثاقيل، وللمرأة خمسة مثاقيل، ويعين واحد من ابائهم الكبار رئيسا عليهم، ثم يوجههم الى الرملة. ولم يقتصر المولى إسماعيل على هذا المنهج التربوي الصارم، الذي اتبعه وحافظ عليه في تربية أفراد جيش البخارى وأبنائهم، بل ظل يراقب ويتتبع ذلك، ويوجه الظهائر للمسؤولين ولذوي الحيثيات، يحضهم على تربية وتأديب الاماء اللائي وجههن لهم، ويعتبر تكليفهم بمهمة تعليمهم وتربيتهم نعمة من الله تستحق الشكر، حاثا إياهم على عدم السماح لهن بالخروج من غير فائدة، متوعدا بأن من خالف في ذلك ولم يقم بواجب التربية فإنه تقطع رأسه .

كما أصدر أمره الى الباشا أن يكتب عنده اسم وسن كل أمة ومن هي عنده. وأن يحرضه على تعليمها وتأديبها، ويشهد عليه العدول بذلك. وأن من ضيع أمة أو فرط في تعليمها ورعايتها تقطع رأسه، كما جاء ذلك مفصلا في الظهير الملكي الذي كتبه للسيد الطاهر معنينو وأهل سلا في هذا الشأن بتاريخ رابع النبوي المبارك عام 1137 هـ [21].

وقد كان المولى إسماعيل يتبع طريقة شرعية في جمع المماليك من القبائل المذكورة والذين بلغ عددهم 221320 من ذكور واناث، وكهول وصبيان، وصغير وكبير، بالشراء الصحيح من أصحابهم حتى بلغ المال

---

(21) انظر تفصيل ذلك في الرسالة الملكية الى الطاهر معنينو المنزع اللطيف ص 1552.150 مخطوط الخزانة الحسنية عدد 12155.

المدفوع في شرائهم لاربابهم الف قنطار من الدراهم الفضية، وبعضهم قبض الثمن ذهبا، وبعضهم الآخر قبض القيمة إيلاء وبقرا وغنما .

وقد كان الشراء يتم بعد موافقة أهل العلم والورع وتوقيعاتهم على رسوم الشراء التي تحرر من طرف العدول، واشهاد القاضي عليها [22].

لقد رمى المولى إسماعيل من تأسيس جيش عبيد البخاري، وتنظيمه وشديد العناية به ورعايته أن يستغني به عن العصبية القبلية التي كانت معتمد بعض ملوكنا السابقين، هذه المبادرة الاسماعيلية التي وفرت للمغرب جيشا قويا منظما موحدا يحرس حدوده، ويقوي سلطانه، ويسند عرشه، ويحمي حوزته، وقد بلغ من علاقته وعنايته بجيشه ان اختصه لنفسه فلم يكونوا يعرفون سواه، ولم يكن هو نفسه يترك أمر هذا الجيش لغيره، حتى اعتبر المؤرخون جيش البخاري من أسباب طول حكمه [23] وامتداد امبراطوريته، واتساع أطرافها ونفوذها وقوتها، كما سجل ذلك أحد ضباطه طوماس بيللو بقوله :

لقد حافظ مولاي اسماعيل على امبراطوريته الواسعة، التي تتألف من عدة ممالك ضمت بعضها الى بعض في سلام وهدوء واطمئنان... لقد ضمت امبراطوريته بين جوانحها، جميع ذلك القطر الذي كان يسميه الرومان بموريطانيا الطنجية، مع مقاطعات اخرى الى الجنوب موازية للرأس الابيض، حيث تحد ببلاد العبيد جنوبا، وبالبحر الابيض المتوسط شمالا، وكانت تحدها من الشرق مملكة الجزائر، وجزء من بلاد الجريد، ومن الغرب المحيط الكبير، مشتملة بذلك على ممالك فاس، ومراكش، وتافيلالت، وسجلماسة، ودرعة، وسوس، ثم تلمسان. [24]

المولى إسماعيل معلمة الدولة العلوية ورائدها

لعل تاريخنا المغربي العريق لم يعرف ندا للمولى إسماعيل في شدة بأسه، وعزة ملكه، واستقرار دولته، وانتشار نفوذه وسلطانه، ومدة ملكه، عدا يوسف ابن تاشفين الذي كان تاجا على رأس الدولة المرابطية، وأسدا من أسد الله في

(22) انظر رسوم الاشرية المذكورة في جنى الازهار ص 17-8.
(23) مختصر تاريخ المغرب، كوستافيو كاينت ص 113.
(24) مغامرات ص 136

الجهاد والنضال، مما يجعل المولى اسماعيل مرسي أسس الدولة العلوية وباني امجادها، ورافع بنودها وأعلامها. ومحقق انتصاراتها وإنجازاتها، وصاحب الدولة والسلطان في تاريخها، والذي لو لم يكن له من أمجاد وأعمال الا هذا الجيش العتيد والذي أقامه وبنى أسسه على هدى سنة رسول الله، التي جعل منها عهدا وميثاقا، ورمزا خالدا لتمسك ملوكنا بدينهم، واعتزازهم باسلامهم .

وهكذا كان عهد هذا الملك العظيم عهدا مزدهرا مشرقا، مليئا بجلائل الاعمال وعظيم الاصلاحات تطبعه سيرته الكريمة، وعزمه القوي، وهمته العالية وطموحه العظيم فكان بحق بطلا من أبطال تاريخنا. وقائدا محنكا من أعظم قاداتنا، ومصلحا كبيرا جدد لامتنا ودولتنا شبابها ومجدها، حتى أصبحت على كل لسان. وصار يخشاها الخاص والعام، وتوطدت علاقاتها وصلاتها بالدول والاقطار وسعت للتقرب منها وكسب ودها، حيث بذلت من أجله أقصى الغايات، كل ذلك بفضل هذا القائد العظيم، والملك المصلح الكريم الذي سيظل معلمة خالدة من معالم تاريخنا، ومثلا حيا رائعا لاجيالنا، وقدوة صالحة رائدة لملوكنا وحكامنا .



بعض جوانب السياسة الدولية للسلطان مولاي اسماعيل مؤسس الدولة العلوية

أحمد الازمي

مـدخـل :

عندما تسنم مولاي اسماعيل عرش المغرب سنة 1672 وجد أمامه إرثا ثقيلا من المشاكل الخارجية المتعلقة بالعدو المسيحي المحتل لعدة ثغور في الشواطىء المغربية وبالعدو التركي الذي لا ينتظر سوى الفرصة المواتية للزحف على حدود البلاد الشرقية، ورغم ما كان لمولاي اسماعيل من اهتمام بالمشرق العربي وبالصحراء والسودان الغربي الذي وصلته بيعته من تومبوكتو وتغزة، والتي كانت تلقى خطب الجمعة في ربوعه باسمه باعتبار ان انفتاح الدولة المغربية في عهده تم على محورين، الاول يتعلق باوربا والثاني بالسودان الغربية ومريتانيا، ذلك ان اهمية انفتاح المغرب على الصحراء والسودان من الناحية الاقتصادية لم تكن خافية على مولاي اسماعيل، خصوصا اذا علمنا ان قيام الدولة العلوية ارتبط بسجلماسة وباستيلاء هاته الاسرة على توات منذ سنة 1643، ورغبتها في ربط طرق التجارة الصحراوية بالبحر المتوسط، يدعم هذا الطرح ما اتسم به النفوذ العلوي في موريتانيا من قوة وفعالية في عهد هذا السلطان، رغم كل ما سبق فان سياسة مولاي اسماعيل الدولية انحصرت اساسا في التفكير والعمل على رسم الخطط التي ستمكنه من احباط دسائس الاتراك ومن طرد العدو المسيحي المستولى على جزء من البلاد.

I العلاقة مع اتراك الجزائر

1 ـ تجديد اسباب النزاع بين الطرفين : تميزت العلاقات بين مولاي اسماعيل واتراك الجزائر بالتوتر والتناحر والنزاع المسلح المستمر بين البلدين، اذ من المعلوم ان النزاع بين المغرب وإيالة الجزائر العثمانية على الحدود، ابتدأ بشكل واضح منذ قيام الدولة السعدية [1] ولما كان العثمانيون يعلمون ان الملوك المغاربة عازمون على طردهم من المغرب العربي [2] فإنهم حاولوا منذ قيام الدولة العلوية العمل على استدراج المولى محمد بن الشريف الى ان يوقع معهم اتفاقية للحدود بين البلدين [3]، ليجعلوا بذلك حدا نهائيا لاطماع المغاربة في المطالبة بحقوقهم التاريخية، وأحقيتهم في السيادة على المغرب العربي.

وقد جاءت رغبة اتراك الجزائر، في تحديد الحدود بين البلدين ضمن رسالة والي الجزائر التركي عثمان باشا الى المولى محمد بن الشريف في شهر رجب 1064 (1654) [4] وبعد اخد ورد تم الاتفاق بين هذا الاخير والبعثة التركية، على ان يكون وادي تافنا هو الحد الفاصل بين المغرب الاقصى والاوسط [5]

وفي عهد مولاي رشيد نجح اتراك الجزائر في اقناعه بقبول اتفاق الحدود [6] الذي تم بينهم وبين أخيه المولى محمد بن الشريف، لكن عند ما آل الحكم الى مولاي اسماعيل رفض الالتزام بوادي تافنا كحد بين البلدين، مما ادى الى توتر العلاقات بين المغرب وإيالة الجزائر ودخولهما في حروب طاحنة على امتداد فترة طويلة من حكم مولاي اسماعيل.

---

1) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، البيضاء 1977، ص 13

2) محمد الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي الرباط بدون تاريخ (نشر هوداس، باريس 1888)، ص 42

3) • Henri Terrasse, Histoire du Maroc, Tome II, Casablanca, 1949, p. 243.

4) أبو القاسم الزياني، البستان الطريف في دولة مولانا اسماعيل بن الشريف مخطوط الخزانة العامة الرباط، رقم 242، ص 12.10
احمد بن خالد الناصري، الاستقصاء،، ج 7 ص 25.22

5) نفسه، ص 26
ابو القاسم الزياني، البستان... ص 13

2 ـ دخول الطرفين في نزاعات مسلحة : لكي يقبل السلطان مولاي اسماعيل العمل باتفاقية الحدود المشار إليها آنفا صمم الاتراك العزم لارغامه على قبولها بشتى الوسائل، فعمدوا الى بث الفوضى وعدم الاستقرار داخل المغرب عن طريق ايجاد عملاء لهم [7] كالخضر غيلان [8] وآل النقسيس [9] بتطوان والدلائيين [10] في سلا وتادلا، وأبي حسون السملالي في درعة ثم احمد بن محرز والحران، وابن السلطان محمد العالم في مراكش وتارودانت.

وكان رد مولاي اسماعيل على هذا التدخل التركي في شؤون بلاده شن حملات عسكرية على الايالة الجزائرية اهمها حملة القويعة عند وادي شليف سنة 1678 م [11] (1089) ثم حملة 1692 م [12] (1103) على ضواحي تلمسان التي تلاها اتفاق هدنة بين الجانبين [13]، غير ان هذه الهدنة على ما يبدو لم تعمر طويلا لان المصادر تطلعنا على أن مولاي زيدان شن هجوما على الجزائر سنة 1695 (1106) وهذا الهجوم حسبما يظهر كان فعالا واقلق الاتراك بدليل ان السلطان العثماني بعث سفارة الى مولاي اسماعيل قصد ابرام الصلح بين الطرفين، قبل السلطان المغربي طلبها وأرسلها محملة بالهدايا [14]، وقد أشارت المصادر المغربية الى هذا الصلح الذي لم يكن نهائيا [15]، ذلك أنه في يوم 28 ابريل 1701 (20 ذو القعدة 1112) دارت أهم معركة بين

6) ابو القاسم الزياني البستان... ص33

• August Cour, L'établissement des dynasties des cherifs et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830). Paris, 1904, p. 183.

7) • Charles André Julien, L'histoire de l'Afrique du Nord. T. 2, Paris, 1966, p. 232.

• A. Cour, op. cité, p. 197.

8) • Les sources inédites de l'histoire du Maroc (S.I.H.M.), 2e série, France, Tome 1, p. 190, n° 1.

9) احمد الناصري، الجزء 7، ص 47

10) • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 1, p. 25, n° 1.

11) احمد الناصري، الاستقصا، ج 7، ص 59

12) • A. Cour, op. cité, p. 203.

13) • A. De Voulx, Tachrifat, recueil des notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, 1852, p. 9.

14) • De Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830). Paris, 1887, p. 256.

15) ابو القاسم الزياني، البستان.. ص 37
احمد الناصري، ج 7، ص 87

• A. Cour, op. cité, p. 206.

الطرفين بمكان يسمى جديرة بالجزائر بعد ان وصل المولى اسماعيل على رأس حملة عسكرية الى هذا المكان وهي المواجهة التي اسفتر عن هزيمة الجيش المغربي وجرح السلطان.

اذا ما صدقنا العديد من المصادر الاجنبية، كاوجست كور Auguste Cour [16] وبلاتينــــي أوجيـــن Platinet Eugène [17] ودوكرامـــون DE Grammont [18]، وترى نفس المصادر ان الاتراك استفادوا من هذا النصر الذي اجبر مولاي اسماعيل على قبول السلم والذي اعطاهم الوقت الكافي لتحقيق اهدافهم ضد الاسبان بوهران [19]، بل نجد مولاي اسماعيل يستغل فرصة تحرير هذه المدينة من الاحتلال الاسباني ليبعث بسفارة الى القسطنطينية سنة 1707 من أجل تهنئة السلطان العثماني، الا انه حدث ما عصف بمهمة هذه السفارة التي ارفقها مولاي اسماعيل بمدع في الحكم ومنافس للسلطان التركي [20]، ويتعلق الامر بابن مزعوم لمحمد الرابع، استعمله السلطان المغربي للضغط على مثيله العثماني، فترتب عن ذلك توتر في العلاقات بين البلدين من جديد، وتوصل مولاي اسماعيل من الباب العالي برسالة كلها تأنيب [21]، وهذا ما يفسر عودة العاهل المغربي الى مناوشة الاتراك من جديد بعد سنة 1701 عندما كلف ولده عبد الملك بالقيام بحملة ضد ولاية الجزائر، لكن عوض ان يهجم من جهة الشمال، هجم من جهة الجنوب، وتقدم بغاراته حتى عين ماضي، وتمكن من اخضاع ذلك الاقليم بكامله، وهو الاقليم الذي كان يحكمه حسب (اوجست كور A. Cour) احد اقرباء مولاي اسماعيل ببوسمغون ما بين (1710-1713)/(1122-1125) [22]، غير أن انتفاضات جديدة تسبب فيها أبناء السلطان شلت عمل مولاي اسماعيل في هذا الاتجاه [23].

---

16) • A. Cour, op. cité, p. 206.

17) • Platinet Eugène, Correspondance des deys d'Alger avec la Cour de France (1579-1833), Tome II, Paris, 1889, p. 10.

18) • De Grammont, op. cité, p. 270.

19) • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 6, p. 403, n° 2.

20) • A. Cour, op. cité, p. 207.

21) • Hammer, Histoire des Ottomans, Tome 3, p. 201 et suivantes, cité par A. Cour, p. 207.

22) • A. Cour, op. cité, p. 208.

23) • Ibid, p. 208.

وهكذا بعد استعراض أهم مظاهر مشاكل السلطان مولاي اسماعيل في اطار علاقته مع جيرانه على الحدود الشرقية للبلاد يخلص الدارس الى القول بان الايالة العثمانية بالجزائر، كانت مصدرا لكثير من الفتن والقلاقل التي كان هدفها اضعاف المغرب واستنزاف قدراته الدفاعية حتى يحقق الاتراك هدفهم بالاستيلاء على المغرب، كما يتضح من جهة اخرى ان اعراب السلطان العثماني عن استعداده لتقديم العون للمغرب، وحث مولاي اسماعيل على تطهير الثغور المحتلة من المسيحيين [24] لم يكن سوى مناورة [25]. لكن السلطان مولاي اسماعيل وان لم ينجح في استعادة حق المغرب التاريخي في بسط السيادة المغربية على المغرب العربي، فقد تمكن بفضل دهائه السياسي من ايقاف العدو التركي عند حده، وكان من الممكن ان يفعل اكثر ضد اتراك الجزائر لولا المشاكل الخارجية الاخرى التي كانت تحيط به، وتحديدا علاقاته مع الدول الاوربية.

II علاقات مولاي اسماعيل مع الدول الاوربية باستثناء فرنسا

ارتبط المغرب في عهد مولاي اسماعيل بعلاقات مع أهم دول اوربا اختلفت قوة وضعفا تبعا لطبيعة المشاكل والقضايا التي كانت لكل دولة من هاته الدول مع بلادنا. ونظرا لموقع المغرب الاستراتيجي ولتعدد موارده الاقتصادية، وعمق محاوره التجارية، لم يكن لهذا البلد بد من الاحتكاك بها والدخول معها في علاقات تعددت مظاهرها، غير أن مظاهر التوتر في هذه العلاقات طغت على مظاهر الوفاق والوئام بسبب احتلال عدد من هذه الدول لاجزاء من تراب المغرب كاسبانيا والبرتغال وانجلترا، وبسبب اطماع باقي الدول الاخرى، في الحصول فيه على امتيازات خدمة لمصالحها التجارية، كهولنده، وفرنسا، والدانمارك، ولنبدأ بالدول المسيحية التي تحتل اجزاء من المغرب.

---

24) محمد المنصور، الضغوط العثمانية واثرها على تحرير الثغور المحتلة بالمغرب من خلال حالة طنجة، مجلة دار النيابة السنة الثانية العدد الخامس 1985، ص29ـ30ـ31.
ابراهيم حركات، مظاهر التعاون بين المغرب والدولة العثمانية مجلة دار النيابة، العدد السادس 1985، ص 24ـ25

25) عبد الهادي التازي، فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية، مطبوع يضم محاضرات اعدها الدكتور لطلبة السنة الرابعة قانون عام، الرباط، بدون تاريخ ص 11

1 ـ توتر مستمر في العلاقات مع اسبانيا : عندما اعتلى مولاي اسماعيل عرش المغرب كانت اسبانيا تحتل عددا من الثغور المغربية هي المعمورة، العرائش، أصيلا، سبتة، مليلية وبعض الجزر المتوسطية. وبذلك يمكن القول ان هذا السلطان وجد أمامه إرثا استعماريا مسيحيا ثقيلا صرف له كل عنايته ومواهبه السياسية، فحالفه التوفيق في تحرير الكثير من هذه الثغور، وخانه الحظ في بعضها، وقد ظلت جيوشه تحاصر سبتة ومليلية الى ان وافته المنية سنة 1727.

ومما يفسر الجدية التي خاض بها مولاي اسماعيل هاته الحروب التحريرية وعنف المعارك ضد الاسبان السرعة التي تم بها تحرير ثلاث مدن هي المعمورة 1681 (1092) والعرائش 1689 (1100) وأصيلا 1691 (1102) في مدة زمنية لا تتعدى عشر سنوات، وباسترجاع هذه المدينة الاخيرة لم يبق للاسبان اي وجود على الشاطىء الاطلسي المغربي وبذلك تحول مولاي اسماعيل بجهاده الى تحرير الثغور المتوسطية بدءا من سنة 1694 [26].

وتفيد المصادر في هذا الصدد ان السلطان المغربي القى بكل ثقله السياسي والعسكري، من اجل تحرير سبتة على الخصوص [27]، فبث الحماس في المجاهدين [28] كما اتهم بعض المشرفين على حصار سبتة بالتهاون وعدم الاخلاص في قتال العدو [29].

أما على مستوى العمليات العسكرية التي دارت رحاها من اجل تحرير هذه المدينة فان التقارير المعاصرة تتحدث عن معارك عنيفة بين الطرفين خلال سنة 1695 [30] و1697 [31] و1698 [32]، لكن السنوات ما بين 1701 و1719 اتسم فيها الوضع بثغر سبتة بين المغاربة والاسبان بحالة اللاحرب

26) • Les S.I.H.M., 2e série, France, T. 6, p. 449, n° 1, p. 763, n° 4, T. 7, p. 60, n° 1.
27) • Archives des Affaires Etrangères (Paris), Maroc, correspondance consulaire, volume 2, pp. 240, 241, 248, 249.
28) • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 4, p. 368.
29) احمد الناصري، الاستقصا.. ج 7ز ص 77
30) • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 4, p. 368.
31) • Ibid, pp. 540-541.
32) • Ibid, p. 717.

واللاسلم بسبب انشغال كافة الجيش الاسباني بحرب الوراثة من جهة، وبسبب انكباب مولاي اسماعيل من جهة ثانية على تهدئة الوضع داخل البلاد ليعود الطرفان الى الحرب وبشكل عنيف سنة 1720، وذلك بعد ان عبرت بعض الدول الاوربية عن استعدادها لمساعدة اسبانيا في حروبها ضد المغرب [33].

وبعد هذه الاحداث تطلعنا احدى الوثائق على محاولتين جريئتين قامت بهما جيوش مولاي اسماعيل سنة 1722، من أجل النزول بشواطيء اسبانيا الشرقية لمهاجمة العدو في عقر داره، لكن عاصفة قوية حالت دون ذلك [34].

وقد ظلت المناوشات والهجومات المتبادلة غير الحاسمة بين الطرفين مستمرة الى وفاة مولاي اسماعيل (سنة 1727)، وهي السنة التي رفع فيها المغاربة الحصار عن سبتة [35]، وهو الحصار الذي بدأ يفقد اهميته، مع تقدم السلطان في السن، ومرضه، وتجدد المشاكل داخل البلاد، الى ان انسحب المغاربة من معسكرهم بسبتة وفشل الحصار الذي دام حوالي 32 سنة لاسباب داخلية اهمها :

- خيانة بعض المغاربة في صفوف المجاهدين الذين كانوا يفرون من المعسكر المغربي الى المعسكر الاسباني، وبذلك كانوا يطلعون العدو على كثير من الاسرار [36].
- تعدد جبهات القتال في مليلية وبعض الجزر المحتلة [37] إضافة الى الوضع الداخلي المتردي.
- انعدام الكفاءة عند الجندي المغربي الذي كان يحارب بطرق تقليدية تطبعها الفوضى [38].

(33 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 7, pp. 69-84, n° 8.

(34 • Ibid, p. 130.

(35 • Chantal de Laveronne, Documents inédits sur l'histoire du Maroc, sources françaises, T. 1 (1726-1728). Paris, 1975, p. 15.

(36 • Les S.I.H.M., 2e série, France, T. 4, p. 540.

(37 ابو عبد الله محمد بن العياشي (وزير مولاي اسماعيل)، ازهار البستان، نقلا عن الدكتور عبد الله العمراني؛ مولاي اسماعيل بن الشريف، حياته، سياسته، مآثره، تطوان 1978، ص 100
• Les S.I.H.M., 2e série, France, T. 4, p. 281, n° 2.

(38 • Archives des Affaires Etrangères (Paris), B^1, 225, folio 347, V°.

- عدم توفر المغرب على اسطول بحري
- بعد معسكر سبتة عن مناطق التموين.

كما ساعد على هذا الفشل عوامل خارجية من بينها :
- قرب اسبانيا من سبتة، مما سهل تموين الحامية الاسبانية
- تضامن عدد من الدول الاوربية مع اسبانيا
- تفوق الاسبان عددا وعدة

2 ـ **العلاقات مع البرتغال :** في عهد مولاي اسماعيل كانت البرتغال قد فقدت كل مستعمراتها بالمغرب باستثناء مدينة البريجة (مازاكان) التي لم يتمكن المغاربة من تحريرها الا سنة 1769 على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله [39].

وطبقا لما تمدنا به الوثائق المتوفرة يتبين ان العلاقات المغربية البرتغالية، خلال الربع الاخير من القرن 17 والربع الاول من القرن 18 كانت مطبوعة بالعداء بين البلدين، فلا أثر لوجود تبادل تجاري بينهما، او لتمثيل قنصلي برتغالي بالمغرب وهذا الصراع يمكن تلخيص اسبابه في مشكلتين اساسيتين : مشكلة الاسرى بين البلدين، ومشكلة مدينة البريجة المحتلة.

استعمل مولاي اسماعيل مسألة الاسرى البرتغاليين المسجونين بالمغرب فضغط بها كثيرا على المسؤولين البرتغاليين الذين كانوا يبادرون بإرسال مبعوثيهم الى ملك المغرب محملين بهدايا ثمينة من اجل افتداء الاسرى، ورغم ذلك رفض استقبال بعض البعثات احتجاجا على عدم اخلاء البرتغاليين للبريجة، لكن رغم المجهودات التي بذلها البرتغاليون والهدايا السخية المتجددة باستمرار فانهم لم يتمكنوا، وعلى سبيل المثال [40]، من تحرير اكثر من ثمانية اسرى سنة 1708، من اصل مائتين. أما المسألة الثانية التي عكرت صفو العلاقات بين المغرب والبرتغال على عهد مولاي اسماعيل فهي مدينة البريجة التي يظهر ان هذا السلطان لم تساعده الظروف على تحريرها بفعل انشغاله في محاربة الاسبان في الشمال، غير ان هذا لايعني انه لم يفعل شيئا ضد اعدائه بهذه

(39 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 1, p. 379, n° 3.
(40 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 6, p. 283, n° 4.

المدينة، فعلى المستوى السياسي نجده يغلظ القول لمبعوث برتغالي، عندما خاطبه قائلا : «...لقد كتبت منذ سنتين الى ذلك الكلب ملككم بأن يعطيني مدينتي ولم اتوصل منه بأي جواب...» [41].

ووجه مثل هذا اللوم الى بعثة دينية برتغالية حلت بالمغرب طمعا في افتداء الاسرى [42].

اما على المستوى العسكري فان يومية بحار تحمل تاريخ 13 دجنبر 1683، فاتح فبراير 1684، تخبرنا أن جيوش مولاي اسماعيل هاجمت البرتغاليين بمدينة البريجة، بجيش تعداده ثمانية عشر الف جندي وانتهت المعركة بابرام السلم بين الجانبين [43]، بطلب من المغاربة الذين كانت تنقصهم الاسلحة (حسب نفس المصدر).

ومما يبرهن على عزم مولاي اسماعيل على محاربة خصومه بشتى الوسائل، الحظر الذي فرضه على بيع الحبوب والخيول الى البرتغال [44] التي كانت في أمس الحاجة الى ذلك، خلال حربها ضد فرنسا من سنة 1703 الى 1714، كما كان يعمل على تحريض القبائل المجاورة لتقوم بأعمال تحريرية بالاراضي المحيطة بمازكان وكرد على هذه الاعمال الاستفزازية شكلت البريجة مركزا للجوء السياسي للفارين من المغرب [45].

وهكذا فباستمرارها في احتلال هذه المدينة، زادت البرتغال في عبء المشاكل الخارجية التي واجهت مولاي اسماعيل الذي كان في نفس الوقت يتصدى لمتاعب دولة مسيحية ثالثة محلتة لاحدى مدن التخوم ويتعلق الامر بابريطانيا.

3 ـ **العلاقات مع ابريطانيا** : اصبحت ابريطانيا باحتلالها لطنجة احدى الدول العدوة للمغرب في عهد مولاي اسماعيل، ولذلك فان العلاقات المغربية

(41 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 3, p. 357.

(42 • Ibid, p. 277.

(43 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 2, p. 403.

(44 • Archives Nationales (Paris), Affaires Etrangères, B1 829, folios 9-11 V°, 18-21 V° et 28-29 V°.

(45 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 4, pp. 311-315.

الانجليزية خلال فترة حكم هذا السلطان سوف تتميز بالتوتر والاصطدام المسلح الى حدود سنة 1684 تاريخ جلاء الانجليز عن طنجة.

ومن المعلوم ان تمرير مدينة طنجة من السيطرة البرتغالية الى السيطرة الانجليزية سنة 1661 (46)، تم في احدى فترات ضعف المغرب على اثر سقوط الدولة السعدية وظهور زعامات اقليمية تسابقت الدول الاوربية على ابرام اتفاقيات معها واعدة اياها بتقديم ما تحتاجه من الاسلحة والذخيرة من اجل تحقيق الانتصار، وكانت ابريطانيا احدى هذه الدول.

وفي عهد مولاي اسماعيل تمكن القائد عمر بن حدو الحمامي من الاستيلاء على حصني هنرييتا Henrietta وشارل Charles في شهر مارس 1680 (47) بفضل الخنادق العميقة التي حفرها المجاهدون المغاربة بين القلعتين والمدينة بهدف عزل القوتين المتواجدتين بينهما (48).

وعن استبسال المغاربة في المعارك التي خاضوها ضد الحامية الانجليزية بطنجة في وقت لاحق كتب الكولونيل ساكفيل في رسالة وجهها الى لجنة طنجة بلندن قائلا : «...ومع أني اتحدث عنهم كأعداء فأنا لم أجد أشجع منهم في الميدان.. ولا اعتقد ان هناك بين اجناس البشر شعبا يقظا متحملا للمشاق، صبورا، جادا مثل هذا الشعب..» (49). وكان الكولونيل ساكفيل هذا هو الذي خلف قائد الحامية الانجليزية السابق بطنجة سير بالم فيربورن بعد اصابته بجروح قاتلة (50)في احدى المعارك ضد المغاربة.

---

46) • Chantal de Laveronne, Tanger sous l'occupation anglaise, d'après une description anonyme de 1674, Paris 1972, p. 1.
• Les S.I.H.M. 2e série, France, Tome 1, pp. 4 et 18.

47) • Routh (E.M.G.), Tangier, England's lost atlantic ontpost, 1661-1684, London, 1912, pp. 173-179, cité dans les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 1, p. 491, n° 2.

48) ب ج روجرز، العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام 1900 ترجمة ودراسة وتعليق د. يونان لبيب رزق، الدار البيضاء 1981، ص 89

49) • C.O. 279/25, FF. 183-4.
نقلا عن ب ج روجرز، مرجع سابق، ص 89
• C.O. 279/27, F. 2.
نفس المرجع ص 91

50) ب ج روجرز، العلاقات.. ص 90

ومما تجدر الاشارة اليه انه في نفس الوقت الذي كانت تدور فيه المعارك حول طنجة كانت الالة الدبلوماسية في حركة دائبة بين البلدين اظهر مولاي اسماعيل من خلالها مقدرة كبيرة على المناورة في المفاوضات مع العدو، يشهد على ذلك مثلا استقباله بمكناس سفراء انجليز سنة 1681 [51] وسنة 1683، كما تطلعنا المصادر على خبر ارسال السلطان المغربي لسفير الى انجلترا في شخص القائد محمد بن حدو العطار الذي استقبله الملك الانجليزي شارل II يوم 11 يناير 1682 [52] والذي اسفرت مهمته عن توقيع مشروع معاهدة للسلم والتجارة بين المغرب وانجلترا يوم 23 مارس 1683، لكن مولاي اسماعيل لم يرد التصديق على هذه المعاهدة على ما يبدو مالم تنسحب انجلترا من طنجة.

لذلك كان رفض مولاي اسماعيل التصديق على مشروع المعاهدة، وغضبه من استمرار التجار الانجليز في التعامل مع رعاياه المتمردين في جنوب [53] البلاد وفشل السفارات الانجليزية بالمغرب، وحاجة انجلترا الى تموين حاميتها بجبل طارق انطلاقا من المغرب، بالاضافة الى الخسائر التي كان يلحقها المجاهدون المحاصرون لطنجة بالحامية البريطانية، من اهم الاسباب الخارجية التي حملت انجلترا على اخلاء طنجة، وهو الجلاء الذي ابتدأ يوم 5 نونبر 1683 لينتهي في شهر فبراير 1684 [54]، وقد انشرح مولاي اسماعيل كثيرا لهذا الحدث، ظهر ذلك في رسالة له الى شارل الثاني بعد الجلاء الانجليزي [55]، مما يشهد على منح الاولوية لمصلحة البلاد العليا في سياسة مولاي اسماعيل الدولية، وبعد تحرير طنجة واعراب ابريطانيا عن استعدادها لتقديم دعمها الى المغرب من اجل تحرير سبتة [56]، بدأت العلاقات تتحسن

---

51) • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 1, p. 535 et n° 1.

52) الدكتور عبد الهادي التازي، محمد بن حدو سفير السلطان مولاي اسماعيل لدى الملك شارل الثاني سنة 1682، مجلة اكادمية المملكة المغربية، العدد الثاني فبراير 1985، ص 62
ب ج روجرز، العلاقات.. ص 93

53) • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 2, p. 489.

54) • Archives des Affaires Etrangères (Paris), Angleterre, correspondance politique, volume 75, F. 197.

55) ب ج روجرز، العلاقات.. ص 101

56) • Dominique Meunier, le consulat anglais à tétouan sous Anthony Hatfield (1717-1728), Tunis, 1980, pp. 9-10.

رغم بعض الازمات المتعلقة بمسألة الاسرى الى ان توج التقارب بينهما بابرام معاهدة سلم وتجارة عام 1721، وهي المعاهدة التي لم تكن في صالح فرنسا والتي ساهمت الى حد كبير في افشال مشروع التحالف المغربي الفرنسي كما سيتضح ذلك فيما بعد.

4 ـ **العلاقات مع هولنده** : لم يكن بامكان دولة بحرية ذات قوة في الملاحة التجارية كهولندة ان تستغني عن المغرب لاستعماله كمحطة عبور لسفنها المحملة بالسلع ذهابا وايابا من اوربا الى الشرق الاقصى، ولافتداء اسراها. وقد رحب مولاي اسماعيل بالصداقة معها املا في ان تزوده بكل ما يحتاج إليه من الاسلحة ومواد تجهيز السفن من اجل محق الثورات داخل البلاد وتحرير الثغور، الا انه رغم المصالح المتبادلة بين البلدين فان علاقاتهما عرفت اطوارا تميزت في مجملها بالتأزم، وانعدام الثقة طيلة فترة حكم مولاي اسماعيل، رغم الاتفاقيات والمعاهدات التي كانت تبرم بينهما كمعاهدة سنة 1683 [58] وذلك على اثر سوء التفاهم الذي كان يحدث بين البلدين فيما يخص كمية الاسلحة التي يجب على هولندا تقديمها الى المغرب لتحرير اسراها [59]، ونظرا لكون احد بنود المعاهدة المشار اليها يحرم على السفن الهولندية الوصول الى اكادير.

وقد ظل سوء التفاهم مخيما على العلاقات بين البلدين لتشبث كل طرف بوجهة نظره الخاصة فيما يخص معالجة المشاكل المطروحة بينهما، وهكذا فشلت سفارة حسن بن محمد اسكييردو Esquierdo مبعوث مولاي اسماعيل الى هولندة سنة 1686 [60]، فرد على ذلك العاهل المغربي بإفشال مهمة البعثة الدينية الثالوثية Les trenitaires برئاسة الاب فليكس Felix من أجل اطلاق سراح

(57 • Les S.I.H.M., 2e série, France, Tome 7, pp. 92-93 et n° 6 et p. 103.
• Archives des Affaires Etrangères (Paris), Mémoires et Documents, France, volume 1, folio 278 V°, 292 V°.

(58 • Archives des Affaires Etrangères (Paris), Maroc, correspondance consulaire, volume 1, FF. 220-225.

(59 • Les S.I.H.M. 2e série, France, Tome 2, p. 454.

(60 • Ibid, p. 563, n° 4.

رعاياهم [61]، ونفس المصير لقيته سفارة اخرى لمولاي اسماعيل الى هولندة في شخص اليهودي حاييم طوليدانو Haïm Toledano سنة 1691 [62] من أجل حل المشاكل بين البلدين، فازداد السلطان المغربي تشددا في مسألة الاسرى رغم تدخل شخصيات كبرى لها وزنها في التجارة والسياسة أمثال التاجر الفرنسي البروتستنتي سيميون Simeon واليهودين ميموران وطوليدانو [63].

واستمرت العلاقات بين البلدين على هذا النحو من التردي بسبب انعدام الثقة بين الجانبين، ورغم توصل الطرفين الى توقيع معاهدة سلم بينهما سنة 1712 [64]، فانه ابتداء من سنة 1713 عادت العلاقات المغربية الهولندية الى التوتر الذي لم تنفع معه المفاوضات، اذ نقرأ في وثيقة ما يفيد ان هولندة تفضل الاستمرار في الحرب ضد المغرب، حتى لا تبقى سفنها جامدة [65]، وقد استمرت هذه العلاقات على ما هي عليه من سوء حتى وفاة مولاي اسماعيل سنة 1727.

III فرنسا كرأس الرمح في سياسة مولاي اسماعيل الدولية

نظرا للاوضاع الداخلية والخارجية الصعبة التي واجهت مولاي اسماعيل، خلال فترة حكمه على المستويين السياسي والعسكري فكر السلطان في البحث عن حلفاء له من بين الدول المسيحية للتزود بالاسلحة ولوازم تجهيز السفن واثراء خزينة الدولة وتدعيم قدراته العسكرية برا وبحرا، وذلك من أجل تهدئة الاوضاع الداخلية من جهة، وتحرير الثغور المحتلة والدفاع عن الحدود الشرقية للبلاد من جهة ثانية، وقد ازدادت رغبة مولاي اسماعيل في البحث عن حليف اوربي اكثر من اي وقت مضى، عندما استعصى عليه امر تحرير سبتة، رغم طول الحصار، وكثرة الامدادات التي كانت تصل الى معسكر

(61 • Archives des Affaires Etrangères (Paris), Maroc, correspondance consulaire, volume 1, folio 355.

(62 • Les S.I.H.M. 2e série, Pays-Bas, aux dates du 9 avril et 23 juin 1691, cités dans les S.I.H.M. 2e série, France, Tome 3, p. 350, n° 4.

(63 • Les S.I.H.M. 2e série, France, Tome 4, pp. 344-350.

(64 • Ibid, Tome 6, p. 510 et n° 1.

(65 • Ibid, Tome 7, p. 182.

المجاهدين بضواحي هذه المدينة، وذلك بسبب انعدام تكافؤ قوى الجانبين، من حيث التسليح والتأطير والتنظيم.

ان التقدم الذي كانت احرزته الدول الاوربية في شتى الميادين بعد عصر النهضة والكشوفات الجغرافية، والذي اهلها لكي تصبح اقوى من الدول الاسلامية ومنها المغرب، في مجال الطب وصناعة الاسلحة وعلم الفلك وبناء السفن، والملاحة البحرية عموما هو الذي جعل مولاي اسماعيل ينفتح على اوربا ويحاول البحث عن حليف او حلفاء من بين دولها قصد تحقيق الاهداف المشار اليها، لكن ما هي الدولة الاوربية التي يمكن للسلطان المغربي ان يخاطب ودها ليستدرجها الى التحالف معه؟

جل هذه الدول، كان له معها مشاكل عويصة باعتبار ان اسبانيا والبرتغال وانجلترا، دول تحتل اجزاء من المغرب، كما ان هولندا رغم ما استفاده منها لم تكن علاقاته معها على احسن ما يرام (66)، اضافة الى ان المسافة الطويلة التي تفصل بين البلدين لم تكن تساعد على نجاح اي تحالف محتمل بينهما، الاخير يختار فرنسا من بين باقي الدول المسيحية بأوربا الغربية من اجل التحالف معها. فلماذا فشل مشروع التحالف هذا بين البلدين ؟

ان مناورات الانجليز وغطرسة لويس 14 التي ظهرت في العديد من رسائله، واطماعه في المغرب، وقنبلة سفنه لطنجة على الخصوص مع لجوئه الى استعمال القوة لتخفيف ذلك في كثير من الاحيان، كانت كلها اسباب تقف وراء فشل مشروع التحالف المغربي الفرنسي، وهو المشروع الذي شكل محور سياسة مولاي اسماعيل الدولية.

واذا كان الواجب يفرض على الباحث ان يكون ملما بالوقائع والخلفيات التاريخية ومتوفرا على بعد النظر ليصدر حكمه الخاص على سياسة مولاي اسماعيل ازاء فرنسا، فاننا نرى ان كل تقييم في هذا الصدد يجب ان يأخذ بعين الاعتبار سياسة مولاي اسماعيل الدولية تجاه اوربا والدولة العثمانية في شموليتها، ومن هذا المنطلق نخلص الى ان السلطان الذي اخفق في اقناع لويس

(66 • Henri Terrasse, op. cité, p. 274.

14 بالتحالف معه، نجح الى حد كبير ولعل عامل البعد هذا هو الذي قتل محاولة تحالف مولاي اسماعيل مع الدانمارك في مهدها (67).

ولم يكن بإمكان مولاي اسماعيل التحالف كذلك مع الدولة العثمانية، نظرا لما كان بينهما من صراع ونزاعات مسلحة على الحدود الشرقية للمغرب، ساهمت الى حد كبير في احباط مجهودات السلطان الرامية الى تحرير الثغور (68).

واعتبارا لما سبق فان الدولة المسيحية الوحيدة بأوربا التي كان بامكان مولاي اسماعيل التحالف معها هي فرنسا لعدة اسباب اهمها :

- كون فرنسا لم تكن تحتل اي جزء من تراب المغرب
- وجود تمثيل قنصلي فرنسي مستمر بالمغرب منذ امد بعيد ورغبة البلدين في تنمية التبادل التجاري بينهما وحل مشكلة الاسرى.
- تزامن نشأة الدولة العلوية مع سعي فرنسا للحصول على صداقة المغرب، ورغبتها في اقصاء بريطانيا من طنجة (69).
- العداء المغربي الفرنسي المشترك لاتراك الجزائر (70).
- علاقات الود والوئام التي كانت تربط السلطان العثماني بلويس (71) .14

كانت هذه باختصار هي اهم المشاكل التي تحكمت في توجيه سياسة مولاي اسماعيل الدولية بشكل عام، والتي جعلت هذا في هذه السياسة وعرف كيف يلعب على تناقض مصالح الدول الاوربية في بلاده، مما مكنه من اقتناء بعض ما كان يريد من الاسلحة والبارود والكبريت ومواد تجهيز السفن، وكل ذلك ساعده على اعادة الاستقرار للبلاد وتحرير الكثير من الثغور المغربية

(67 • Archives Nationales (Paris), Marine, B2 184, FF. 251-252, traité entre le Danemark et le Maroc (microfilm).

(68 محمد المصنور، الضغوط العثمانية.. ص 31

(69 • Archives des Affaires Etrangères (Paris), Espagne, correspondance politique, volume 42, folios 409 V°, 410 V°.

(70 • De Grammont, op. cité, pp. 246-247.

(71 • A. Cour, op. cité, p. 204.
• Abdellah Laroui, l'Histoire du Maghreb, Paris, 1970, p. 255.

وحماية التخوم، اضافة الى ما كانت تستفيده البلاد من الاتجار مع هاته الدول وما كانت تدره عليه عمليات افتكاك الاسرى المسيحيين من أموال لتغذية خزينة الدولة.

وعليه فانه يمكن القول ان السلطان مولاي اسماعيل وظف سياسته الدولية بنجاح لخدمة الاستقرار والرخاء الداخليين ولتحرير الثغور والدفاع عن التخوم ضد كل معتد اثيم.

البيان وحكمة التدبير السياسي في أدب المولى محمد الأول

محمد الدناي

قبل أن أتناول في هذا العرض المختصر، بعض رسائل المولى محمد بن الشريف استسمح السادة الحاضرين في وضع بعض المداخل المقتضبة التي تسهل ادراك الخصوصيات التي تتميز بها دراسة آثار هذه الشخصية السياسية الكبيرة سواء كانت هذه الدراسة عرضا مختصرا كالذي اقدمه، أو دراسة مطولة.

1) المدخل الأول : لفت نظر الى ان الاجابة عن التساؤل المتعلق بثقافة المولى محمد الأول، قد تكون تحصيل حاصل، لارتباط الشرف الصريح، في البيئة المغربية بالعلم. وإذا كان المغاربة - وما يزالون - في كل المراحل التاريخية قد أولوا الاشراف الصرحاء، كل الاكبار والاجلال، فإن هذا الاجلال نفسه، كان يصبح مسؤولية تطوق عنق الشريف الذي تنتظر منه الجماعة التي يعيش بينها او قريبا منها، لأن يكون غوثا يفيدها بما يصلح امور دينها ودنياها، ولا يتم ذلك الا بالعلم المكتسب الذي توارثه الاشراف كما يتوارثون النسب الشريف، يقول الناصري[1] نقلا عن صاحب النزهة «كان ابو الاملاك المولى الشريف بن علي وجيها عند أهل سجلماسة، وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمات، ويهرعون إليه فيما جل وقل» - ان اختيار المغاربة لجد الأشراف العلويين المولى حسن الداخل، لم يكن اختيارا عشوائيا،

(1) الاستقصا 13/7.

فالبركة التي نقلها هذا الشريف الى اراضي سجلماسة في أواخر القرن السابع، كانت مصحوبة بعلم ومعرفة مكنا صاحبهما وأسرته من أن يحظوا بتقدير المغاربة إلى أن أراد الله لبعض ذريته أن يكونوا بناة الدولة العلوية الشريفة، في زمن افتقر فيه المغرب إلى من يمتلك أخلاقيات سياسة الأمة وتدبير أمورها. ومما ينقله الناصري عن المولى حسن الداخل أنه كان «رجلا صالحا ناسكا له مشاركة في العلوم خصوصا علم البيان، فإنه كانت له فيه اليد الطولى»[2].

2) المدخل الثاني : فعندما تشير الأخبار إلى أن أميرا ما تتوافر له المؤهلات العلمية التي تؤهله لأن يصوغ رسائله بنفسه، قد أجاب غيره من رجال السياسة برسالة من إنشاء كاتبه،، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن الرسالة من تأليف هذا الكاتب، اذ لا يخرج هذا النوع من الانشاء عن أن يكون مراجعة لما ألف، أو مشاركة نسبية في التأليف، من خلال صياغة محسنة للمعاني المؤلفة قبلا. وإذ كانت الرسائل السياسية تقوم بموضوعاتها ومعانيها، لا بجمال الفاظها، فان نسبة هذه الرسائل التي يشارك في انشائها كتاب متخصصون، تتجه نحو مؤلف معانيها لا محسن ألفاظها.

3) المدخل الثالث يتعلق بتقويم الرسائل السياسية من حيث هي ادب فالناصري يقول بعد ايرادي لمجموعة من المكاتبات تتضمن رسالة للمولى محمد I «واعلن أن هذه الرسائل والأشعار التي اثبتناها هنا نازلة كما ترى عن درجة البلاغة، وعادمة لما تستحقه من فن الوزن ونقد الصناعة، ولكن لما كان الكتاب كتاب تاريخ وأخبار، لا كتاب ادب وأشعار، لم نبال بذلك»[3] وإذا كان هذا الحكم يطمئننا إلى ان انشاء هذه الرسائل لم يكن يسند الى مترسلين متخصصين، فإن نفس الحكم يرد، لا نطلاقه من مقاييس تقاس بها رسائل الكتاب المحترفين لا المراسلات الخاضعة لتوجيه ظروف تاريخية آنية تجعلها تفتقر الى التأنق والمبالغة في استعمال المحسنات اللفظية التي نجدها في الرسائل الصادرة عن المترسلين المتفرغين لفن الترسل. إن المترسل المتخصص يتجاوز واقعه وزمانه للبحث عن النماذج القابلة للتقليد دون اي اعتبار للظرف

(2) الاستقصا 6/7.
(3) نفسه : 106/6.

التاريخي، مادامت الغاية هي محاكاة ابن العميد او الصاحب او الهمذاني او الخوارزمي او القاضي الفاضل، او تجاوز هؤلاء. أما الرسالة السياسية فنوع من الكتابة التي يتحكم في توجيهها السياق التاريخي الاني، وتبليغ المقاصد. لذا لا يجوز تقويمها بوسائل وضعت لتقويم الرسائل الفنية التي يكون الاهتمام فيها موجها الى احكام الصناعة اللفظية.

4) المدخل الرابع ينظر الى علاقة الاطار السياسي الذي ينتظم هذه الرسائل، باتجاه الدراسة الى الكشف عن بعض مظاهر صواب الرأي وحسن التدبير في هذا النوع من الرسائل، فالوقوف عند جانب الرأي والتدبير فيها يكون أولى من دراسة جماليات التعبير وسابقا عليه، لتحكم العنصر الأول في الثاني، وعرضية الثاني بالقياس الى الأول.

5) المدخل الخامس ينظر الى خصوصيات شخصية المولى محمد I، وخصوصيات المرحلة التاريخية التي عاش فيها حياته السياسية. فقد كان هذا الشريف قبل تحمله مسؤولية جمع شتات الأمة المغربية والدفاع عن حدودها ساعد ابيه الايمن، في عصر طمع فيه الاتراك والنصارى في المغرب بعد أن اصبح مسرحا للفتن والحروب الداخلية المفككة، كما شهد بذلك محمد الشيخ بن زيدان نفسه في قوله لأهل زواية الدلاء : «... وهذا المغرب لا يخلو ملآن من نواميس كل كاهن ومدع قرقار، تمسي فيه البومة خاملة وتصبح بالمخلب والمنقار..»[4]. أما شخصيته المهيأة لتدبير شؤون الأمة، فقد رسم لنا صورة مجملة لها، خصومه أنفسهم. فمما ورد في جواب أهل زواية الدلاء لمحمد الشيخ بن زيدان وهم يبررون تأخرهم عن تجديد البيعة له : «... وأجلها هذا الاجدل الذي لا توده سموم الليالي ولا حرارة قيظ المصيف، مولانا محمد بن مولانا الشريف، عقاب اشهب على قنة كل عقبة، لم يقنعه عد المال دون حسم الرقبة، وربما غرتنا غفلة فيشن الغارة على شعوب شعاب ملوية، او ينشر جيوشه على رباط تازا بالرايات والألوية، سيما وجناحاه ذوو النفوس النفيسة»[5].

بعد هذه المداخل، يمكن أن نتعرف ملامح الشخصية السياسية المدبرة

(4) رسالته الى الدلائيين الاستقصا 99/6
(5) الاستقصا : 101/6.

للمولى محمد بن الشريف، كما ترسمها لنا رسائله، من خلال الوقوف عند مستويين : مستوى ما قبل الكتابة، ثم مستوى الكتابة نفسها.

1) المستوى الاول يوقفنا على خصائص الفكر السياسي للمولى محمد الأول هذا الفكر الذي كان يوجه مضامين كل مكاتباته السياسية. واذا كانت المصادر التاريخية قد بخلت[6] علينا بالاخبار الكافية لمعرفة كل خصوصيات الفكر السياسي للمولى محمد I، لأن شهرة هذا الشريف كانت أكبر من أن يخبر عنها، فان في الرسائل التي نقلتها بعض المصادر، ما يسمح بتعرف بعض خصوصيات هذا الفكر. من هذه الخصوصيات :

1) تمثل ما ورد في التصانيف التي الفت في علم السياسة والتدبير واذ كان المغاربة ـ كما يقول الدكتور عباس الجراري ـ بحكم «حنكتهم الطويلة التي عمقتها تجارب الحرب والسلم المتعاقبة على مر العصور، وبحكم وعيهم بالظواهر الاجتماعية والتاريخية، وفهمهم لحقيقة العمران البشري، وادراكهم للعناصر الفاعلة فيه والمؤثرة عليه، وملاحظتهم ما يجري في الواقع ـ اي واقع الحياة والمجتمع وواقع الحكم والسياسة ـ ابدعوا في مجال الفكر السياسي بما يرتبط به من تاريخ واجتماع وفلسفتهما، مما أعطى لأبداعهم مجموعة من الملامح»[7]، فإن في احتجاج المولى محمد I بكتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك، للامير ابي حمو الزياني المتوفى سنة 791 هـ، ما يفيد اطلاعه على ما ألف في هذا المجال من المعرفة، عموما، وعلى ما كان رائجا بين المهتمين بالسياسة من المغاربة. فمما قاله المولى محمد I في جوابه لأهل زواية الدلاء : «وما صرحتم به من أن الصلح بين الملوك مكيدة، فقد سبقكم بها السلطان أبو حمو رحمه الله»[8].

2) ربط الخلافة على المسلمين بالشرعية، فاذا كان الانتساب الى

---

(6) انظر مقالة الدكتور محمد بنشريفة : ملامح من شخصية محمد الاول. م. دعوة الحق. عدد 258 غشت 1986. ص 19.

(7) مدرسة محمد الخامس في سياق الفكز السياسي المغربي، مجلة دعوة الحق. عدد 268 ـ مارس 1988. ص 3

(8) الاستقصا 18/7.

الارومة النبوية مما يخول الشريف حق تولي أمور رعيته، فإن الابتعاد عن هذه الأرومة يصبح مانعا من موانع تولى أمور المسلمين العليا. وقد ورد هذا التصور السياسي لتدبير شؤون المسلمين، لدى المولى محمد بن الشريف في اشارته الى ان الاتراك علوج[9]، وفي طعنه في حق السعديين في الخلافة لعدم صراحة نسبتهم الى البيت النبوي قائلا : «وعتابكم أننا عزوناكم لبني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وناشرون لذلك في الحلل والمدن والقصور، تالله ما فهنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل، ولا بأن نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا أهل، بل اعتمدنا في ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس، من علماء مراكش وتلمسان وفاس، ولقد أمعن الكل التأمل بالذكر والفكر، فما وجدكم الا من بني سعد بن بكر...»[10].

3) الوعي المبكر بالمآل الذي آلت إليه أحوال الأمة المغربية، وبخطورة هذا الوضع على وحدة المغرب وأمن المغاربة، ويظهر هذا الوعي جليا في جوابه لمحمد الشيخ، برسالة نظمها بعض أعوانه[11] شعرا. وفيها يقول :

أمحمد الشيخ بن زيدان الرضا	فخر الخلائف والهمام الأكمل
انـي ابث لكـم وصايـا جمـة	إن انت للنصح المصرح تقبل
فالى متى طول الرقاد أما ترى	أظعان ملكك كل يوم تـرحل
والدهر ينتف في رياش جناحكم	ويدنسن من الصفا ما تـغسل
فاستيقظن من الخمار ومن رعى	في ارض اساد الشرى لا يغفل
ضيعت ملكك في الرخا وتركته	للخزي في دار الهوان يـذلل[12]

وقد وصف السعديون انفسهم هذا الوضع الذي ادرك المولى محمد I خطورته، في رسالة بعث بها محمد الشيخ إلى الدلائيين، قال فيها : «... وتقلدتم بلا حياء السيوف، واعانكم اضطراب القبائل مع وقوع الجوع.. الى ان امكنتم

(9) انظر مقالة الاستاذ العماري : خلفيات الحدود الجيوسياسية للاتراك والفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير. مجلة كلية الاداب فاس. عدد خاص بتاريخ المغرب. عدد خاص 2. سنة 1985 ـ 1406 صفحة 171.

(10) الاستقصا : 103/6.

(11) هو الفقيه ابو عبد الله محمد بن سودة

(12) الاستقصا. 100/6.

من أزمتها الرعايا وكل عنيد من رباط تازا الى وادي العبيد، فاستحليتم سكر الجبايات من الابريز والفضة الى ان جمعتم منه ما لاينحصر في عد.. من غير أن تنفقوه على اقامة جند، ولا انتفع به الا أشياع المومسات وشياطين الفساد... عويتم علينا معشر الثوار كالذئاب من كل عراء وشعبة، لتكون عزيمة نهوضنا إليكم معطلة صعبة..»[13].

4) النظر السياسي البعيد الذي تجاوز الذات الى الدولة، فالمولى محمد I كان يعي أن الله قد حمله مسؤولية بناء الاسس التي ستمكن من استمرار الدولة العلوية الشريفة، ووعيه هذا جعله يعتبر كل مرحلة من مراحل البناء، اقترابا من الهدف السامي، سواء تم ذلك على يده هو أو على يد من سيتحمل المسؤولية بعده من الابناء والاخوان. هذا التشوف الى الافاق المشرقة للدولة الشريفة، يبدو واضحا في قوله لمحمد الحاج وهو يرد على رسالة الدلائيين : «... وأما ما احتوى عليه بساط الغرب.. فقد طمعنا من الله كونه في القبضة، عندما تمكن إليه النهضة، إن لم أكنه أنا بالذات والديوان، فبالأبناء والاخوان، كعوائد الدول يشيد الاخير منها ما أسسه الاول..»[14]. ولعل هذا النظر السياسي البعيد هو الذي جعل المولى الشريف بعد عودته الى سجلماسة، يقر سياسة ابنه ويتخلى له عن الرياسة[15]، مطمئنا الى كفاءته وبعد نظره.

5) التمسك بالحوار مع الخصوم باعتباره، احد اسباب النجاح السياسي والاستقرار. وتمسكه بالحوار تشهد به كثرة الرسائل والمكاتبات التي جرت بينه وبين والي الاتراك على الجزائر، ومحمد الشيخ بن زيدان، وأهل زاوية الدلاء. وكان طبيعيا ان تؤدي هذه العناية بالحوار مع الخصوم الى اعتبار السلم هدفا يعود بالنفع على الأمة، الا أنه كان في نفس الحين الذي يبدي فيه ميله الى السلم، ينبه الخصوم الى ان جنوحه هذا، ليس جنوح ضعف أو جبن. لذا نجده في رسالته الى الدلائيين، ينبه هؤلاء الى انهم لا يملكون من الخبرة العسكرية ما يمكنهم من مواجهته، كما ينبههم الى انه يبرىء ذمته قبل ان يضطر الى الفتك

---

(13) الاستقصا : 99/6.
(14) نفسه : 18/7.
(15) انظر الاستقصا : 28/7.

بهم : «... وبعد السلام فإن نيران هذه الفتن التي اضرمتموها بعد خمودها، لستم لها بأهل اذ لم يعرفكم أهل المغرب الا بإطعام قصاع العصائد، وهجو بعضكم لبعض بما لا يسمع من بشيع القصائد... فشمروا ان شئتم عن ساعد الجد للصلح واغتنموا السلم ما دام يساعدكم النجح فإن الحرب نار.. والله يعلم ان هذه المراودة ليست بجزع ولا وجل منكم، وما نشبهكم عند الهراش الا بما يطيش حول المصابيح من الفراش، بل المراد الأكيد نشر رداء التبري لئلا تجأروا متى انشبنا فيكم مخالب التجري..»[16].

6) الالتزام بالمواثيق السياسية بعد الاقتناع بفائدتها على الامة أو الاقتناع بأن الخصم سيلتزم بها، وقد تجلت صورة التزامه بالمواثيق السياسية، في قوله لرسل عثمان باشا صاحب الجزائر، بعد قدومهم عليه للمرة الثانية : «وإني اعاهد الله لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء، وإني اعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا الى ناحيتكم الا فيما يرضي الله ورسوله»[17]، وشفعه هذا الجواب الشفوي بعهد مكتوب ألزم به نفسه، «ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه اليه بعد ذلك»[18].

7) الايمان بأن الخبرة السياسية تظل قاصرة، اذا لم تنضم اليها الخبرة العسكرية والاحاطة بطرق تسيير أمور الألوية والجيوش، وتقويم قدرات العدو. والاخبار التي تتحدث عن المولى محمد بن الشريف، تؤكد أنه كان نموذجا للفتوة والفروسية[19]. والرسالة المنظومة التي أجاب بها محمد الشيخ، تفيد أنه كان مقتنعا بأن الكفاءة السياسية تظل دائما مفتقرة الى الكفاءة العسكرية. واذ كانت الدول في عصره تفتقر الى الوسائل التقنية التي تمكن من تسيير أمور المعارك من بعيد، فإن القيادة العسكرية المباشرة كانت خير وسيلة لاستثمار الخبرة القتالية من خلال التبليغ المباشر للأوامر، الا أن هذه القيادة المباشرة لا تستطيع ابراز فاعليتها، اذا كان القائد السياسي يفتقر الى المؤهلات القتالية الذاتية التي

---

(16) الاستقصا : 7/17 ـ 18.
(17) نفسه، 7/26.
(18) نفسه، 7/26.
(19) نفسه : 7/31.

تنمو مع المؤهل للرياسة منذ الصبا، عن طريق الممارسة اليومية، لذا نجد المولى محمد I يقول لمحمد الشيخ بن زيدان :

وإذا أردت دوام هيبــة همــة	وتدوم في ستر عليكم يسبل
دع عنك في الحمرا مروق سفر جل	ومدربــلا بالزعفــران يفلــفل
واركب مطايا الصافنات الى الوغى	إمـا تحـوز مزيــة او تقــتل
واقرع طبولا للرعاة وفي الوغى	يجبى الى الحرب العوان الجحفل
وخض القفار وهز رمحا وادرع	واثن العنان وفي يمينك منصل
خاطر بنفسك في الفيافي جائلا	تردي العدو وكل ليل منـزل
واصطد نهارك بالسلاق وبعدها	عقباتهــا وكــذاك صقــر أجل
وقد الجيوش كما الوحوش ولا تدع	من يعصي أمرك وأزجرنه فيفعل[20]

وإذا كانت الخبرة القتالية مظهرا من مظاهر الكفاءة السياسية، فان المحافظة على سرية القدرات العسكرية تظل من السمات التي يجب ان يتميز بها رجل السياسة ـ فالتهديد واظهار القوة قد يدفعان العدو الى المبالغة في الاستعداد، وإظهار الضعف قد يطمع العدو ويعجل بحرب مبكرة ولعل هذا الحذر الامني هو الذي جعل المولى محمدا الاول ـ في رسالته الى الدلائيين ـ يصوغ عبارة مموهة، لا يمكن للخصم حملها على التهيب او على التهديد : «فقد كتبناه اليكم من سجلماسة، كتب الله لها من شركم انفع التمائم، وألبسها من الظفر بكم ارفع العمائم...»[21].

8) الواقعية السياسية المتمثلة في انصاف الخصوم والاقتناع بأن ما لهم، يجب الا يجحد أو يستهان به، وأن ما يدعونه لا يجب السكوت عنه. وقد تجلت هذه الواقعية السياسية في تحديد المولى محمد الاول لموقفه الصريح من نسب السعديين، في رسالة أجاب بها محمدا الشيخ قائلا : «وعتابكم أنا عزوناكمم لبني سعد بن بكر.. تالله ما فهنا بذلك عن معايرة لكم ولا جهل، ولا بأن نضيفكم لمن لا عشيرة له ولا أهل، بل اعتمدنا في ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبرا الناس، من علماء مراكش وتلمسان وفاس، وقد أمعن الكل

(20) الاستقصا 105/6 ـ 106

(21) الاستقصا 17/7.

التأمل بالذكر والفكر فما وجدكم الا من بني سعد بن بكر.. ومع هذا فلم نعتمد دفعكم عن شرف النسب، ولارفعكم على ما وسمكم الله به من زينة الحسب»[22]. كما تجلت نفس الواقعية في قوله للدلائيين : «أما العلوم فقد أقررنا لكم فيها انصافا بالتسليم، لو قصدتم بها العمل وأجر التعليم»[23].

هذه بعض خصوصيات حكمة التدبير أو الفكر السياسي، لدى المولى محمد I كما تكشف عنها بعض رسائله، باعتبار هذا الفكر مستوى سابقا لكتابة الرسائل - اما المستوى الثاني - اي مستوى الكتابة نفسها - فيوقفنا على طريقة بناء الموضوعات وبناء الالفاظ. ولضيق الوقت، اقتصر في التعريف بتناغم الصناعة المعنوية والصناعة اللفظية، على تناول التقسيم والسجع.

إن مما يميز الرسالة السياسية عن غيرها من الرسائل، خضوع بنائها الدلالي للتوجيه المنطقي الذي يراعي المقاصد. فالمكاتبة السياسية ليست رسالة اخوانية تغلب عليها روح المجاملة، أو رسالة فنية خالصة يظهر فيها المترسل حذقه وقدرته على محاكاة النماذج العليا. إن السياق التاريخي السياسي للمكاتبات السياسية، يجعل صاحب الرسالة مسؤولا عن رسالته وملزما بكل ما يرد فيها، سواء كان قاصدا لذلك أو غير قاصد. هذه المسؤولية تفرض على صاحب هذه الرسالة أن يبني معانيها بناء منطقيا خاليا من الحشو ومن كل ما يؤدي الى غموض المقصود.

والتقسيم من الاوجه البلاغية التي اعتنى بها البلاغيون القدامى لكثرتها في القرآن الكريم، وفي الاحاديث النبوية الشريفة. وقد عرف العسكري التقسيم بقوله : «التقسيم الصحيح أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع انواعه، ولا يخرج منها جنس من اجناسه»[24].

ويظهر من خلال الوقوف عند بعض الفقر في رسائل المولى محمد I، أن العناية بتقسيم المعاني قسمة صحيحة، كانت من بعض خصائص الكتابة لدى هذا الشريف، ففي رسالته لابن زيدان - مثلا - نجد العبارة الآتية : «وعتابكم

(22) الاستقصا 103/6 - 104.
(23) الاستقصا 17/7.
(24) كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري. ص 350.

أننا عزوناكم لبني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وناشرون لذلك في الحلل والمدن والقصور..»[25]. فالاشارة الى الحلل والمدن والقصور قد تبدو من باب العطف الذي لا تقسيم وراءه،، الا ان ربط قضية نسب السعديين بأحقيتهم في الخلافة، يجعل منها حجة سياسية، تعني القيادات السياسية العليا في كل البلاطات أي العواصم السياسية الخارجية، وهو ما عبر عنه بالقصور،، وتعني من في المدن المغربية من العلماء وأهل الحل والعقد، لأن المدينة كانت تمثل مركز النشاط الاداري والاقتصادي المتطور[26]، كما تعني أهل الحلل وهم القاطنون في غير المدن من السكان، الذين كانوا يمثلون ـ عند مبايعتهم من يرونه مستحقا للمبايعة ـ مصدرا لتموين الجيوش المتحركة، فضلا عما يمدون به خزينة الدولة في أيام السلم. ولا نعلم بعد أهل الحلل والمدن والقصور طرفا رابعا يمكن ان تعنيه هذه الحجة السياسية، وفي ذلك ما يشهد بصحة هذا التقسيم، نفس الصحة نجدها في قوله ـ رحمه الله ـ مبررا نسبة السعديين الى سعد بن بكر : «بل اعتمدنا في ذلك بحمد الله على ما نقله الثقات المؤرخون لأخبار الناس، من علماء مراكش وتلمسان وفاس»، فالتقسيم في العبارة الاولى يوجه وجهتين في ان واحد : وجهة التفريع ووجهة المقابلة. فعلى مستوى التفريع يلاحظ ان المهتمين باخبار الناس، منهم المتخصصون وهم المؤرخون، ومنهم غير المتخصصين، والمؤرخون المتخصصون منهم الثقات، ومنهم غير الثقات. واعتماد المولى محمد الأول ـ في تعرف نسب السعديين ـ كان على الاخباريين دون غيرهم، المتخصصين دون غيرهم الثقات دون غيرهم، وليس هناك فرع او اصل رابع يمكن ان يضاف الى هذه الاقسام. أما على مستوى المقابلة، فالاهتمام بأخبار الناس يقابله عدم الاهتمام بهذه الاخبار، والمؤرخون المتخصصون يقابلهم غير المتخصصين. والثقات منهم يابلهم الوضاعون. ولا يحتمل هذا التقسيم طرفا ثالثا يتوسط بين الطرف ونقيضه او يضاف اليه، وبغياب هذا الطرف الثالث يكون المولى محمد I قد اعتمد في معرفة نسب السعديين على من يجب ان يعتمد عليهم، وترك من لا يحوز الاعتماد عليهم.

(25) الاستقصا 103/6.
(26) بالقياس الى النشاط الاقتصادي خارج المدن.

ونلاحظ نفس الصحة في تقسيمه العلماء المحتج بهم الى علماء مراكش وتلمسان وفاس.

أما السجع، فانه ـ سواء كانت فقرتاه متساويتين، كالذي ورد في رسائل المولى محمد I، أو كانت الثانية اطول من الأولى ـ يظل في حد ذاته مظهرا من مظاهر الصناعة اللفظية التي لا تعجز الكتاب لكن الذي يمنح السجع قيمته الفنية تناغمه مع بناء المعاني يقول ابن الاثير : «اذا صورت في نفسك معنى من المعاني، ثم أردت أن تصوغه بلفظ مسجوع، ولم يؤاتك ذلك إلا بزيادة في ذلك اللفظ أو نقصان منه، ولا يكون محتاجا الى الزيادة ولا الى النقصان، وإنما ذلك لأن المعنى الذي قصدته يحتاج الى لفظ يدل عليه، وإذا دللت عليه بذلك اللفظ لا يكون مسجوعا، الا ان تضيف اليه شيئا اخر او تنقص منه، فإذا فعلت ذلك فإنه هو الذي يذم من السجع ويستقبح، لما فيه من التكلف والتعسف..»[27]. ولما كان التقسيم الصحيح غاية في البناء المنطقي للمعاني، وكان السجع المتوازي غاية في البناء الصوتي للألفاظ، فإن الجمع بين التقسيم والسجع في نفس البنية اللغوية، يكون صعب التحقيق، فقد يأتي المترسل بالتقسيم الصحيح في عبارة، وبالسجع الحسن في عبارة أخرى دون محاولة الجمع بينهما في عبارة واحدة، لصعوبة التوفيق بينهما في نفس البناء. وقد تقدمت الاشارة الى صحة التقسيم في الفقر التي اوردتها من قبل، وهي فقر تتميز بديعيا بسجعاتها، ويعني هذا أن المولى محمد بن الشريف استطاع في هذه الابنية أن يجمع بين صحة التقسيم وحسن السجع، أي أن يوازن فيها بين الوجه المعنوي للصناعة والوجه اللفظي، مع إدراكه أن جوهر الرسالة السياسية مضمونها لا مبناها. وفي هذه القدرة على اخضاع الألفاظ، مع تصنيعها للمعاني المبنية بناء منطقيا، ما يكشف عن حس بياني، لعل المولى محمدا الأول ورثه عن جده الأول المولى الحسن الداخل، الذي كان مشاركا في العلوم، خصوصا علم البيان الذي كانت له فيه ـ كما يقول الناصري ـ «اليد الطولى»[28].

---

(27) المثل السائر 197/1.
(28) الاستقصا : 6/7.

تحرير الثغور في الشعر المغربي خلال عهد مولاي اسماعيل

عبد الله بنصر العلوي

نواجه في دراسة التراث الادبي بالمغرب إشكاليتين، تتعلق الاولى بوحدة الرؤية في الثقافة المغربية التي تشكل من العلوم الاسلامية المنبع الاساسي للتثقيف والبحث والابداع. وتأمل هذه الرؤية يثير تساؤلات حول التجانس الكبير بين علوم الثقافة الاسلامية والادبية لدى العالم المغربي. وتتعلق الاشكالية الثانية بالحضور الادبي والابداعي ومدى تداوله في سائر التصانيف رغم اختصاصها. وتأمل هذا الحضور يثير ـ بدوره ـ تساؤلات حول ظاهرة التأثر والتأثير بين العلم والعالم والمتلقي(1).

وبمقاربة الاشكاليتين يتمكن الباحث من التعرف الى مكونات الهوية الثقافية للمغرب، وخاصة في مجال التراث الذي لاشك أنه ـ كما يقول احد الباحثين : «يقوي الاحساس بالذات، وأنه يشكل رافدا للابداع ويعطيه مزيدا من القدرة على العطاء المتطور المتجدد»(2).

---

* هناك اشكالية تتعلق بمفهوم المقاومة ومدى تواصله مع دلالتي النضال والجهاد، اذ تبدو العلائق متداخلة، ومنها تنطلق رؤية هذا البحث، بالرغم مما قد يظهر من بعض التمايز بين هذه الكلمات.

(1) راجع حول الموضوع : رسالتنا الجامعية «ابو سالم العياشي شاعرا» ص 140ـ147. مرقونة بكلية الاداب بفاس.

(2) مكونات الهوية الثقافية المغربية لعباس الجراري. مداخلة في الملتقى الاول لندوة علال الفاسي «الهوية الثقافية للمغرب» كتاب العلم 1988. ص 28.

وإذا كان التراث الادبي بالمغرب كذلك، فذلك ما يجعل الجهاد ـ باعتباره ممارسة تستقطب علاقة الذات بالواقع في تفاعلهما الانساني والابداعي ـ ظاهرة مغربية. وتتحقق الاستجابة المتمثلة لأبعاد الوعي في سبيل استكناه الركائز التي تقيم الشخصية المغربية في اطارها الجضاري الشامل. ومن ثم، كانت هذه الاستجابة للواقع والوعي بمتطلباته السمة الكبرى للوجود المغربي، اذ اختار الحرية ودافع عنها بالعقيدة والسلاح والابداع، منطلقا من معاناة الواقع ومعاودة التاريخ،- لذلك كان التراث الادبي بالمغرب يحمل هموم الواقع ويصدر عن طبيعة حساسة واعية بما تؤول اليه البلاد، وهي عرضة لكل أنواع الاخطار المحدقة بها. ومثل هذا النزوع كان نابعا من الرؤية العامة للفكر المغربي، اذ توارت الذاتية ليسود الضمير الجماعي للتعبير عن الأمل الذي يحفظ الدين واللغة والانسان.

إن ظاهرة الجهاد في الادب المغربي ـ عبر عصوره ـ أتاحت لمجالات النضال والبحث والابداع ممارسات اثمرت عن مساهمات فعالة لتحقيق فعالية جدلية بين الفكر والواقع والابداع، حبا في تحرير الارض وتشبثا بالحرية وتحقيقا للجهاد، لان الاجنبي ـ باعتباره صليبيا ومحتلا ـ كان دائما بأبواب الثغور يقرع بالتي هي اشد وأقوى فيجد مقاومة بالسلاح والابداع[3].

ويعد عهد المولى اسماعيل عهد جهاد بحق؛ لانه سعى الى توحيد المغرب بإخماد الفتن الداخلية، وباسترداد العديد من الثغور المحتلة كالمهدية وطنجة والعرائش واصيلة[4]. ولم يتأت له فتح سبتة رغم محاصرته لها سنوات كثيرة.

كما كان عهد المولى اسماعيل عهدا شاع فيه الامن والاستقرار؛ تمكن المغرب ـ خلاله ـ من حركة ثقافية مزدهرة بسبب عدة عوامل. منها :

أن شخصية المولى اسماعيل اهتمت بالعلم والعلماء والأدب والادباء،

---

(3) اصداء المقاومة لتحرير سبتة في الشعر المغربي خلال العصر العلوي؛ مداخلتنا في الجامعة الصيفية بالمحمدية 1988. انظر دعوة الحق عدد 270 ص 267-272.

(4) راجع ـ الاستقصا للناصري ص 7/63-78.
المولى اسماعيل حامي الثغور لجلال يحيى.

وأقامت المجالس والمناظرات، وبنت المدارس والمنشآت، وأوقفت الكتب والمؤلفات، وشجعت العلماء والأدباء، فأتاحت لهم التنافس في التأليف والابداع. إن المولى اسماعيل - بهمته واكرامه - كان سليل العلماء، لأنه - كما قال القادري في التقاط الدرر - «قد جبل على شيم مرضية وهمم عالية كمجالسته للعلماء وإكرامهم ومباسطتهم بين الملأ وإعظامهم»[5]. وبذلك اعاد للمغرب ازدهاره الادبي، اذ وصل بين عهدي احمد المنصور السعدي والدلائيين المشهود لهما باثارهما في الادب المغربي، ليتركز من جديد في عهد المولى اسماعيل مشعا ومبدعا ومجددا، فكثرت الدواوين الشعرية، والمؤلفات الادبية، وتطورت الرؤية الابداعية ان على مستوى الموضوعات او الأنماط أو الاساليب، ويكفي ان نشير الى مؤلف عبد ألرحمان بن زيدان : المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف (مخطوط خ.ح 3982) وخاصة الباب السابع عشر منه حيث نجد اسماء العديد من الشعراء والادباء الذين كانوا يجالسون المولى اسماعيل ويخصونه بأمداحهم تكريما له وللأحداث التي عرفها المغرب على عهده.

ودراسة الحركة الادبية وخاصة الشعرية منها في عهد المولى اسماعيل موضوع جدير بالبحث لعدة دواع :

أولها، ان الحركة الشعرية لم تكن مجرد نهضة واكبت الأحداث وحفلت بالشخص، بل عبرت عن مواقف لها من النضال والابداع ما يجسد رباطا عضويا بين الذات والجماعة حيث افرز ظاهرة الجهاد التي تعبر عن خصوصية مغربية.

وثانيها، ان من معالم هذه النهضة انها لم تتمركز حول البلاط الاسماعيلي فحسب، فلم ينحصر الشعر في ابن زاكور وعبد الواحد البوعناني وعبد السلام جسوس ومحمد بن الطيب العلمي وغيرهم، بل نجد ان اقاليم المغرب الصحراوية عرفت - بدورها - نهضة شعرية اصيلة تزعمها ابن رازكه، وهو أحد الرواد الأوائل، وعلى نهجه سارت مجموعة من الشعراء من مختلف القبائل

---

(5) التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار اعيان المائة الحادية والثانية عشر لمحمد بن الطيب القادري تحقيق هاشم العلوي القاسمي ص 338.

كمحمد بن الطلب والتركزي والمجيدري وغيرهم من الشعراء الذين ساهموا في تأسيس المدرسة الشعرية الصحراوية التي اعتمدت الشعر العربي القديم وعملت على بعثة واحياء نماذجه الاصيلة، وذلك - كما يقول احد الباحثين - سبّق لحركة البعث والاحياء للتي عرفها المشرق العربي وأبى رواد تاريخ الادب العربي الا ان يصموا اذانهم عن هذه النهضة الشعرية المغربية التي عرفها العهد الاسماعيلي[6].

وثالثها، أن هذه النهضة لم تقتصر في مواقفها على الأحداث المغربية فحسب، بل تجاوزت الحدود، فاندفع الشعراء للتعبير عما اصاب اقطار الاسلام من الوهن فدعوا للجهاد، كاستصراخهم المولى اسماعيل لتحرير وهران[7]. ومثل هذا الموقف يدل على قوة الاحساس بضرورة النضال لتحقيق الجهاد تشبثاً بالوحدة المغاربية أمام الاطماع الصليبية.

هذه الدواعي وغيرها يمكن استجلاؤها في العديد من القصائد لابراز الجهاد - كظاهرة ابداعية تمثل القضية والموقف والاداة - وذلك من خلال هذه الانماط : القصيدة المادحة والواصفة والاخوانية وقصيدة التوسل، وكذا الأرجوزة والموشح وقصائد الملحون.. وهي انماط تظافرت لحمتها لتبدع نسيجا متلاحما هو ما يسمى بالنص الجامع الذي يوظف - في اطار واحد - غنائية الذات ونضالية الجماعة للتعبير عن هموم الواقع وطبيعة الفكر قصد تشكيل رؤية واحدة تكشف عن بؤرة التنوير التي تشع من الابداع الاصيل.

ونحاول ان نقف عند أحد هذه الأنماط؛ لنجلي أمرين :

أ - مدى التجاوب بين الحدث والابداع.

ب - مدى تماس التجربة الانسانية والصياغة الجمالية.

---

(6) الملامح العامة للشعر العربي في زاوية الشيخ ماء العينين لمحمد الطريف مجلة الموقف العدد 9 ص 94 و95.

(7) استصرخ الاديب المغاربي عبد الرحمن الجامعي الفاسي المولى اسماعيل في شأن فتح وهران فتكر في شرحه لارجوزة الحلفاوي في فتح مدينة وهران ما نصه : ان الكثير من اهل زمانه يرى ان هذا الفتح انما يكون على يد هذا العاهل المغربي، لما عاينوه من حرصه اول دولته على اخلاء الثغور من الكافرين وتعميرها بالمسلمين..، راجع : مواقف المغرب ضد الحملات الصليبية لمحمد المنوني مجلة دعوة الحق عدد 3 السنة 13 يبراير ومارس 1970 ص 57.

إن القصيدة المادحة اكتست أهم بواعث الشعر؛ اذ اختصت بذكر الفضائل الانسانية التي ترتكز على علاقة أساسها مشاعر يحرص الشاعر على منحها لممدوحه، وما تلك المشاعر الا القيم التي ترغب فيها الجماعة، اذ تقترن بمعاني الفضيلة وذكر للمحاسن وتمجيد للبطولة وتغن بالمآتي العظام(8). ومن ثم فالقصيدة المادحة تثير عاطفة الاعجاب لدى المتلقي بسبب ما تبثه في النفس من انفعالات تبعث على المقاومة. كما تثير القصيدة المادحة فضيلة القدوة لدى الممدوح بسبب ما تلهمه من حرص على قيم الجماعة : وبهذا المفهوم كانت القصائد المادحة مما تداوله الشعراء المغاربة - خاصة - عندما تعظم الأحداث ويتعرض الدين والوطن للمخاطر؛ فيصبح الشعر محققا للتواصل بين الممدوح والجماعة. وقد عبر شعراء المولى اسماعيل عن هذا التواصل؛ لأن المولى اسماعيل يسعى الى تحقيق الوحدة الوطنية وطرد الغزاة الصليبيين من الثغور المغربية. فهو كما يقول أحمد بن عبد العزيز العلوي :

هو المظفر اسماعيل يقهرهم	اذا طغى كفرهم والبغي والعار
افتح قرى للنصارى واسب سبيهم	وأفن طغمتهم فالله قهار
بادر وزاحم عداة الدين في عدد	لهم من الله انداد واظهار
وألق في جيشك المنصور كل فتى	كأنه في غمار الحرب اعصار
هذا هو العز والدين القويم فقد	لاحت به من كتاب الله أنوار
انصر حمى الدين واكفف من يكابده	لقد سما قدركم واعتز مقدار(9)

إن دعوة المولى اسماعيل الى الجهاد في سبيل الله تمثل نظر الجماعة التي لا تبايع الامن يحرص على الجهاد لأنه سبيل لحفظ الدين والوطن، ومنهج قويم للسلوك الاسلامي. ورؤية فكرية تجسد الحضور الفاعل في المعرفة والابداع والواقع. ومن ثم كان حرص الشعراء على هذا التواصل - من خلال تهنئتهم للمولى اسماعيل بانتصاره في الفتوح خاصة - تحقيقا للجهاد، اي للتواصل بين رغبة الجماعة وحرص الممدوح - القدوة على تحقيق وحدة الوطن وسلامة الدين.

(8) فن المديح لابي حافة ص 28.
(9) الانوار الحسنية لاحمد بن عبد العزيز العلوي ص 82-83.

والقصائد المادحة في تهنئة المولى اسماعيل بفتح العرائش - خاصة - تنهج هذا السبيل. منها قصيدة عبد الواحد البوعناني :

ألا ابشر فهذا الفتح نور قد انتظمت بعزمكم الأمور[10]

وقصيدة عبد السلام القادري :

علا عرش دين الله كل العرائش وهد بنصر الله قصر العرائش[11]

وقصيدة محمد بن علي الرافعي :

هنيئا هنيئا وبشرى لنا بنصر سعيد وفتح مبين[12]

ومن قصيدة لعمر الحراق :

ومن عجب تروم الروم حربا بسهل أو حزون أو جبال
وقد شهدوا العرائش يوم جاءت بها الاجناد تزحف للقتال[13]

وقد كان فتح العرائش منار حركة ادبية استجابت لها قرائح الشعراء، مثلما عبرت عنها كتابات التقريظ للاشادة والتهنئة. ونجد في هذا الصدد أرجوزة محمد بن يوسف الشونزري الموسومة بـ «وردة الشهي العاطش وصولة الاسلام بالعرائش» التي سرد فيها ملحمة الفتح لتحرير المدينة، منها قوله يتحدث عن عمل المولى اسماعيل :

فبعث البعوث والاجنادا وللجهاد جيشه قد نادى
وجاء بالعدة من خزائنه والفضل جل من ندى معادنه[14]

كما كان فتح العرائش مثار حركة علمية نشطت فيها النوازل والمناظرات والمصنفات، كفتوى اليوسي في موضوع منح التأمين لأسرى مدينة

(10) نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي للافراني ص 307/ الاستقصا ص 74/7/ الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصى لمحمد بنتاويت ص 839/3. وبالقصيدة اختلافات بين هذه المصادر.
(11) نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني تحقيق محمد حجي واحمد توفيق ص 50/3 / الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام للمراكشي 67/3.
(12) تاريخ تطوان لداود ص 12/2.
(13) أتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس لابن زيدان ص 489/5.
(14) تاريخ تطوان 21.13/2 / الوافي ص 845/3.

العرائش بعد استردادها، وكتاب ابي مدين السوسي المكناسي «السهم الرائش في حكم غنيمة العرائش»[15].

كذلك كانت القصائد المادحة تحث المولى اسماعيل على تحرير مدينة سبتة[16] بعد ان حاصرها حصارا شديدا دام ستة وعشرين عاما، بل اكثر من ذلك. منها قصيدة عبد السلام جسوس :

رفعت منازل سبتة اصواتها   تشكو إليكم بالذي قد هالها[17]

ومن قصيدة البوعناني السابقة قوله يخاطب اهل سبتة مطمئنا اياهم بقرب الفتح على يد المولى اسماعيل :

ألا يا أهل سبتة قد أتاكم   بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة في عشيّ   تناديه اذا كان البكور[18]

ولا تقف دلالة الجهاد عند الحدود الوطنية، بل تتجاوز الى الدفاع عن اقطار الاسلام التي انقض عليها الصليبيون كمدينة وهران التي سجل الشعر المغربي موقفه لتحريرها. يقول البوعناني في قصيدته السابقة :

ووهران تنادي كل يوم   متى يأتي الإمام متى يزور
متى يأتي ويفتحها سريعا   ويلحق أهلها منه ثبور
فيهزمهم ويقتلهم ويسبي   وسيف الحق في يده يثور[19]

وقد ترك هذا الاستصراخ شعورا عميقا بالوحدة المغاربية لدى المولى اسماعيل، فكاد يبادر الى تخليص المدينة من الاحتلال مما حفز الأتراك على تحريرها[20].

---

(15) المصادر العربية لتاريخ المغرب لمحمد المنوني ص 206.
(16) راجع الهامش رقم (3)
(17) تاريخ الضعيف تحقيق أحمد العماري ص 72 / تاريخ سبتة لمحمد بن تاويت ص 195 / الوافي 841/3.
(18) راجع الهامش رقم (10).
(19) ن. م. ص.
(20) التواصل الابداعي لدى شعراء المغرب الغربي،، مداخلتنا في الجامعة الشتوية بيفرن 1988، نشرت اعمالها في ثلاثة مجلدات بعنوان : مجهودات واسهامات الاجيال السالفة عبر التاريخ في بناء المغرب العربي. ص 29/1.

وكي تستكمل دلالة الجهاد مفهومها الصحيح، كان شعراء المولى اسماعيل يحضونه على ضرورة استرجاع الاندلس كقول البوعناني :

أيا مولاي قم وانهض وشمر   لأندلس فأنت لها الأمير[21]

وإذا كان الجهاد في عصر المولى اسماعيل يشكل ظاهرة لها ابعادها الاجتماعية والفكرية والابداعية، فان حرص الشعراء على بعض المعاني المادحة جعل عنصر الشجاعة لونا بارزا في القصيدة، فكانت صفات القوة والشدة وحضور السيف والرمح مما تداوله الشعراء وساد في قصائدهم. يقول الرافعي المتقدم على لسان ممدوحه :

انا الليث اسماعيل راية مجدهم   وسيفي ماض في العداة وقاهر
انا فاتح الامصار للكفر دامغ   فسل عن ثغور الشرك ينبك خابر
لنا ذلت الأعداء بالسيف والقنا   وكل رئيس عند ذكري صاغر[22]

ويقول ابن زاكور :

مولاي اسماعيل من   جند الاله له مؤيد
مولاي سماعيل من   جمع الغداة به مبدّد[23]

ولعل قصيدة عبد الله بن يوسف الوادنوني في تهنئة المولى اسماعيل بعد رجوعه من الصحراء عام 1089 هـ : اطول القصائد المادحة واكثرها وصفا لمعالم الشجاعة لدى المولى اسماعيل. يقول :

تحوم أمانيّ الورى فوق جوه   كطير اذا ما سار سير الحوائم
يبين امير المومنين امامه   كساع بتبشير الاهالي بقادم
يصون طليعات الجيوش ببأسه   كما صين ريش مختف بالقوادم
خميس تضيق الفيح من جنباته   كما امتد دون السيف خضر الخضارم[24]

ولابن رازكه مطولات في مدح محمد العالم ابن المولى اسماعيل؛ تنهج سبيل القصائد المادحة على هذا العهد، مُرسياً فيها دعائم المدرسة الشعرية

(21) راجع الهامش رقم (10).
(22) تاريخ تطوان ص 40/1 / الوافي 846/3.
(23) منتخبات من شعر ابن زاكور عمل عبد الله كنون ص 38.
(24) سوس العالمة لمحمد المختار السوسي ص 72-74.

الصحراوية، وفي قصيدة، وقد اعتزم الرحلة الى سوس للقاء الامير - قوله :

وليث بحق الله لم يبق رعبه   عواء لكلب الترهات ولا نبحا
أمير، ملوك الكفر أضحوا لسيفه   كما تتبغى الذبح في عيدها الاضحى
مواصلة حبل الجهاد جياده   ووقفا على غزو العدا عدوها ضبحا(25)

والقصائد المادحة على عهد المولى اسماعيل كثيرة، كلها تنشد الجهاد وتثني على الفتوحات. وكلها استمدت لغتها من ثقافة اصحابها. فاكتست قصائدهم وضوح الدعوة، والحرص على الاستمرار في المقاومة والانتشاء بالنصر، شعورا منهم بالمسؤولية. لذلك جاءت قصائدهم المادحة واقعية في لغتها وشاعريتها وأفكارها دون غلو ولا مبالغة.

إن علاقة الحدث بالابداع قوية في الادب المغربي، فالحدث حافز للابداع، والابداع شهادة عن واقع الحدث وملابساته وكلاهما يمثل تجربة انسانية، باعتبارها موقفا حاول الشاعر ان ينفذ منه الى عمق الحدث، وذلك من خلال فكرة الجهاد التي تجسد اصول النسق الفكري لدى المغاربة، وباعتبارها اداة حاول الشاعر ان يعبر عنها، وذلك من خلال اللغة الشعرية والعناصر الفنية الاخرى التي سادت في الابداع المغربي.

غير ان عنف الاحداث والوعي بها خلف معاناة ومواجهة اتسمتا بحدة الاستجابة وقوة الانفعال. وهذا ما جعل القرائح تختلف مستوياتها، ان في رؤيتها للجهاد، باعتباره تجربة انسانية، وان في تحقيق صياغة جمالية، باعتبارها جوهر العمل الابداعي. ولعل ذلك ما يجعل الباحث يلمس ضعفا في بعض النصوص (كما عند البوعناني والرافعي) اذ تختل العلاقة بين التجربة الانسانية والصياغة الجمالية، ومن ثم يطغى الموقف الذي يتطلب إثارة الهمم حتى لا تستكين للاستسلام، وكذا الحض على المقاومة. لكن، في نصوص اخرى (كما عند ابن زاكور وابن الطيب العلمي والوادنوني وابن رازكة) نجد صياغة جمالية فيها تشخيص وايحاء. ولعل هذه الرؤية النقدية لا تقف في حدود ما اوردناه من مطالع ونصوص فحسب : بل تتعلق بالشعراء انفسهم ومدى قدرتهم على الابداع موقفا وأداة.

(25) ديوان سيدي عبد الله بن محمد العلوي الشنقيطي. ابن رازكه، شرح وتحقيق ودراسة محمد سعيد بن دهلة. ص 82.

أزمة (1071 ـ 1072) وأثرها على أوضاع المغرب في أثناء قيام المولى رشيد

أحمد عمالك

مقدمة :

تقدم دراسة المجاعات والاوبئة مشروع قراءة جديدة لتحريك عجلة تاريخ د كانت أحد العوامل التي اسهمت بنصيب كبير في افول دول وبزوغ اخرى.

وقد قام الاستاذان حامد التريكي وبرنارد روزنبيرجي بإعداد دراسة قيمة لمختلف المجاعات التي حلت بالمغرب في القرن 17/11، وخصصا حيزا مهما لمجاعة 1072/1071، التي تعد أخطرها[1].. وإذا كانت هذه المجاعة قد استأثرت باهتمامي من جديد، فلانها تعتبر أحد العوامل الحاسمة في التحول السياسي الذي شهده مغرب القرن 17/11. ذلك لانها شلت اقتصاد المغرب وهزت مجتمعه بعمق، وأجهزت على مختلف الامارات القائمة؛ فمهدت السبل لظهور دولة الشرفاء العلويين.

وتنطلق هذه المحاولة المتواضعة من الاعتماد على وثيقة فريدة، هي

(1) B. Rosenverger et M. Bribi Fammins et épidemis au Marocaux 16 et 17, in Mes peris, Falnda vol V. fax Unique 1974 pp 5.103.

عبارة عن رسالة بعث بها محمد بن عبد الجبار العياشي(*) الى شيخه ابي سالم العياشي، الذي كان انذاك في الديار المقدسة(2).

وقد وردت هذه الرسالة ضمن كتاب الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية ايت عياش، لصاحبه عبد الله بن عمر العياشي، المتوفى سنة 1756/1169. والكتاب ما يزال مخطوطا، توجد منه مخطوطة اصلية في خزانة زاوية ايت عياش، ومنها نسخة مصورة بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم 1433 د(3). تمتد الرسالة على سبعة عشر لوحة من صفحات الكتاب؛ وقد سماها مؤلفها «نزهة المشتاق لبعض ما وقع في المغرب عام اثنتين وسبعين من الجوع والشقاق»(4). وقسمها الى بابين وخاتمة وجامعة.

يتضمن الباب الاول مقدمة وثلاثة فصول. المقدمة في ذكر مبدأ الجوع واختلاف احواله، بالنسبة للزمان والمكان، وبعض نتائجه الاقتصادية والاجتماعية(5).

الفصل الاول في ذكر جملة من مات فيه منه أو من غيره.

الفصل الثاني في ذكر مبلغ اسعار الاطعمة

الفصل الثالث في ذكر أعمال اللصوصية والنهب.

الباب الثاني في الشقاق، اي الحروب، وفيه فصلان وخاتمة.

الفصل الاول في الحروب والوقائع.

الفصل الثاني في انقطاع السبل.

خاتمة في الاغارات، وجامعة خصصها لذكر أخبار متفرقة)(6).

---

(2) عبد الله بن عمر العياشي الاحياء والانتعاش في تراجم سادات زاوية ايت عياش. مخطوطة الخزانة العامة، مصورة، الرباط 1433 د. ص 247

(3) محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الاداب، الرباط 1983. الجزء الأول ص 163. 164.

(4) الاحياء : 248.

(5) نفس المصدر والصحيفة.

(6) نفس المصدر والصحيفة

أما صاحب الرسالة فقد ترجم له صاحب الاحياء والانتعاش قائلا : «هو الفقيه النبيه اعجوبة زمانه، البحر الزخار سيدي محمد بن عبد الجبار(7). كان رضي الله عنه هضبة توقير لا ترجف ولا تزلزل، وذروة علم دونها السماك الاعزل.. له قصائد عديدة وتآليف مفيدة...»(8). «... ثم انه.. جد في الاعمال الصالحة وشمر اذياله في اقتناء المكرمات، واجتهد غاية جهده في تعليم العباد. والاسئلة والنوازل ترد اليه من جميع البلاد.. وعظم عند الخاصة والعامة قدره ومقامه.. فقضى نحبه وهو ابن اربع وثلاثين سنة...(9) ومات بالطاعون بعدما قرأو الف، صبيحة يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال عام 1090»(10).

I) ما هو السياق الذي تندرج فيه هذه الوثيقة / الرسالة ؟

اتسمت ظرفية المغرب في اثناء هذه الازمة بضعف الاقتصاد، حيث فقد المغرب دوره نهائيا في ميدان التجارة العالمية.

وانهيار المجتمع الذي استشرت في مختلف الامراض والعلل.

وفقد دوره كقوة سياسية في حوض البحر المتوسط، وأصبح معظم ثغوره محتلا من طرف الاجانب. وتوزعت السلطة فيه امارات وكيانات سياسية متناحرة، بلغت من الوهن مبلغا كبيرا. سنكتفي بعرض موجز لأحوال ابرزها :

1 ـ شهدت الامارة الدلائية بداية تراجعها مند سنة 1653/1063. فقد بدأت الاطراف تنتقض على الدلائيين، حيث استولى الخضر غيلان على مدينة القصر الكبير، واتخذها قاعدة لغاراته على مناطق نفوذهم والمدن التابعة لهم. بل وجه هجوماته ضد مدينة فاس نفسها.(11)

(7) ظن الاستاذان روزنبرجي والتركي ان المؤلف هو حمزة بن عبد الله العياشي، ولعله سبق قلم الاحياء : 230

(8) نفس المصدر والصحيفة.

(9) نفس المصدر 274.

(10) نفس المصدر 275.
كان ذلك الطاعون وباء جارفا، توفي بسببه عدد كبير من سكان المغرب، وخاصة سكان المناطق الجنوبية والشرقية من البلاد.

(11) محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني وتحقيق محمد حجي واحمد التوفيق مكتبة الطالب 198، الجزء الثاني ص 83.

وفي هذا الاطار كبدهم هزيمة منكرة بالقرب من ضريح مولاي بوسلهام، في رمضان 1070 (يونيه 1660). فكانت هذه الهزيمة فاصلة في تاريخ الامارة الدلائية، اذ تساقطت بعدها المناطق والمدن الخاضعة لهم تباعا، وتتوج خنق الدلائيين بسيطرة غيلام على مدينة تطوان سنة 1072، وبذلك فقدوا اخر منفذ بحري، كانوا يتصلون بواسطته بالخارج[12].

بل ان ثورة الخضر غيلان بالشمال، قد اضرت كثيرا بوضعية الدلائيين بفاس، حيث انتفضت هذه المدينة ضدهم، تحت تأثير ثورته. فقام أهلها بزعامة ابي عبد الله الدريدي باغتيال محمد الدلائي، حاكم المدينة في سنة 1659/1060[13]. وعلى الرغم من الحصار الذي ضربه عبد الله الدلائي على مدينة فاس، في رمضان 1072 (ماي 1662). فإن نفوذ الدلائيين بها قد صار، منذئذ، في ادبار[14].

2 ـ وبدأ نجم السملاليين في الافول منذ انحسار نفوذهم عن درعة وما والاها، وانقطعت الطريق التجارية الغربية التي تربط بين تازروالت والسودان. واكتفى ابو حسون بتوطيد نفوذه في منطقة سوس. وحينما توفي سنة 1659/1070 لم يكن نفوذ خلفه (سعد) بتجاوز العاصمة ايليغ[15].

3 ـ لم يكن نفوذ أواخر ملوك السعديين يتجاوز أسوار مدينة مراكش إلا نادرا، الشيء الذي أدى الى ضيق مجال مستفاد الضرائب في وقت كانت الدولة في حاجة ماسة الى الاموال بسبب انقراض صناعة السكر وتدهور التجارة الصحراوية. كل ذلك ساهم في نهاية حكمهم على يد عرب الشبانات، الذين اغتصبوا الملك بعدما قاموا باغتيال احمد العباس السعدي سنة 1659/1070[16].

4 ـ في الوقت الذي توطدت فيه اقدام الشرفاء العلويين بتافيلالت على يد مولاي مَحمد وأصبح نفوذهم يشمل الصحراء بما فيها توات وتغزة، ومعظم

(12) محمد داود : تاريخ تطوان.. المجلد الاول، القسم الثاني ص 236.

(13) محمد حجي : الزاوية الدلائية ودورها.. 1964 ص 211.

(14) نفس المصدر ص 220.

(16) محمد الصغير الوفراني : نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي، نشر ممدوح حقي ص 257، 258.

المناطق فيما وراء الاطلس جنوبا وشرقا، توفي المولى الشريف بن علي سنة 1659/1070.(17)

وفي نفس السنة خرج المولى الرشيد من تافيلالت، لان اخاه قد أصبح مرتابا في أمره، بسبب مصاحبته لبعض الجنود.(18)

فانطلق يطوف ببلاد المغرب، حيث مرتبدغة، وهي من بين المواقع الاستراتيجية، لانها مرحلة اساسية على الطريق الواصلة بين تافيلالت ودرعة ومراكش، ولانها تمكن من الاتصال بقبائل مختلفة كاتحادتي ايت عطا وايت يفلمان..

وتوقف بدمنات، وهي ايضا من المواقع المهمة في المنطقة الجبلية، على الطريق التجارية الرابطة بين درعة ومراكش، وبين هذه الاخيرة وفاس. وكانت طريقها مطروقة بكثافة منذ القديم(19)

ثم التحق بزاوية الدلاء، حيث اقام بضعة ايام، وبعدها مر بأزرو، وهي ايضا مرحلة مهمة على الطريق الواصلة بين تافيلالت وفاس، توجه الى هذة المدينة، فعسكر في الجهة الجنوبية الغربية منها.(20)

ما هي الاهداف التي توخاها المولى الرشيد من هذا الطواف ؟ وبماذا أفاده ؟

لقد استطاع المولى الرشيد، بواسطة هذا الطواف، ان يتعرف على الوضعية المضطربة التي طالت المغرب انذاك. ولمس عن كثب نقط القوة والضعف لدى بعض الامارات القائمة، فاستوقفته مواطن القوة، ولم ينخدع بمظاهر الضعف، الشيء الذي جعله يشرع، بعد ذلك في اعداد العدة لانجاز مشروعه السياسي، مستيقنا من ان البلاد كانت في حاجة الى من يعيد لها الهدوء والاستقرار، ويوحدها تحت سلطة واحدة.

---

(17) النشر : 2 : 88-89.

(18) عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس... 3 : 35.

(19) أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر.. الطبعة الثانية.. ص 83.

(20) النشر 2 : 103.

وفي الوقت الذي كان المولى الرشيد يقوم بهذا الاستطلاع، ليستكشف مختلف الجهات. كانت البلاد تنوء تحت وطأة أزمة من أكبر الأزمات التي عرفها المغرب في القرن الحادي عشر / 17.

II) الأزمة :

شهدت بلاد المغرب مجاعة كبرى بسبب القحط الذي عم البلاد منذ بداية سنة 1660/1071[21]، سرعان ما تحولت إلى أزمة خانقة. يروى لنا مختلف اطوارها مؤلف شاهدها عينة.

لذلك تعتبر شهادته مصدرا أساسيا متميزا يمكننا من استكناه هذه الأزمة.

ـ فمن حيث الزمان ابتدأته الازمة منذ مستهل سنة 1071، اي خريف 1660؛ حيث تميزت بداية الموسم الفلاحي بالجفاف المصحوب بانخفاض كبير في درجة الحرارة. حتى سقط الثلج في مدينة فاس خلال شهر دجنبر، وهو شيء غير مألوف[22]. الشيء الذي جعل المحصول هزيلا، فظهرت المسغبة في نهاية سنة 1071 (يوليوز 1661)، اي في وقت جمع المحاصيل[23] فإذا ظهرت المجاعة وقتذاك، فكيف ستكون بقية السنة ؟ وعلى الرغم من سقوط المطر في بداية 1072 (خريف 1661)، فإن الجوع قد استشرى بين الناس؛ لأن السماء سرعان ما اقلعت، حتى ان شهر مارس كان جافا بدوره[24]

بالاضافة الى قلة البذور نتيجة ضعف محصول السنة المنصرمة؛ الامر الذي جعل الاوضاع تتفاقم رغم حلول فصل الصيف. في نهاية 1662/1072.[24م] لذلك عمت الازمة مختلف أرجاء البلاد، مما مهد لظهور الامراض، لان الناس بلغوا درجة كبيرة من الوهن بسبب فقدان الاقوات[25].

ـ يقول المؤلف في خاتمة قصيدة له في الجوع :

---

(21) الاحياء : 249.

(22) النشر 2 : 119.

(23) هسبيريس 17

(24) ولا تخفي اهمية هذا الشهر على المستوى الفلاحي.

(24م)الموافق لنهاية 1072 وبداية 1073 هـ

وذي فاقة يكاد من طول ضره[26] تخاله من جنس الخيالات لا البشر

ـ ومن حيث المكان، عمت المجاعة منذ اندلاعها، المناطق الممتدة فيما بين الزاوية الدلائية ومراكش وأزمور ـ أي سهول تادلا والشاوية، والسراغنة والرحامنة والحوز[27].

ـ ويقدر المؤلف مدة الازمة هنالك بأربعة أشهر[28].

ـ وفي مستهل سنة 1072 (خريف 1661) جرد الجوع سيفه ـ على حد تعبير المؤلف ـ على بلاد الغرب وفاس[29] : حيث استمرت المجاعة قرابة ثمانية أشهر[30]؛ ثم امتدت إلى جبال الريف لتعم مختلف جهات البلاد من سوس الى تلمسان[31].

ـ في حين تأخر حلولها بالصحراء. ولعل هذا راجع الى ان مناطق الواحات لم تتضرر في نفس الوقت الذي اجتاحت فيه الأزمة معظم جهات البلاد، وذلك لسببين :

1 ـ لان النخيل وهو مصدر حيوي لعيش السكان، يمكن أن يصمد إزاء النقص الظرفي للمياه، ويتحمل الجفاف نسبيا أكثر من المزروعات الاخرى.

2 ـ لأن موسم جني المحصول يصادف فصل الخريف. ومن ثم فإن سكان الواحات ظلوا يعيشون على مذخر السنة المنصرمة، من التمور. هذا المذخر الذي ينبغي أن يكفي الى بداية جني المحصول الجديد.

وهذا ما جعل هذه المناطق مقصدا للسكان المهاجرين الفارين من المجاعة، القادمين من المناطق الداخلية.[32] لذلك لم تتعد مدة الازمة هنالك اربعة اشهر[33].

---

(26) الاحياء : 263.

(27) المصدر السابق 249.

(28) اي خريف 1661.

(29) الاحياء : 250.

(30)،(31)(32) نفس المصدر 250ـ251.

(33) نفس المصدر ص : 252

ـ ولعل منطقة المؤلف القريبة من خط توزيع المياه بين منابع زيز وملوية، كانت من أواخر المناطق التي تضررت بفعل الجفاف، اذ لم تصبها المجاعة الا في اواخر رجب 1072[34]. الا ان مدتها هنالك لم تتجاوز أربعة أشهر[35].

لكن ماذا يقصد المؤلف بهذا التحديد الزمني الذي يتراوح، كما يبدو، ما بين اربعة وثمانية اشهر ؟ يفسر ذلك بالنسبة لبلدته فيقول : «ففكانت مدة شدته فيه نحو من اربعة أشهر، وليس لهم في امد تلك المدة معيشة الا الربيع..»[36]

ـ ويستثني المؤلف بعض الاودية التي لم تتضرر نسبيا من هذه الازمة، مثل تدغة ودادس والدليل على ذلك أن الناس، كانوا يفدون إليها، من مختلف الأفاق ليمتاروا الشعير واللفت. كما كان ذلك شأن بعض جهات وادي درعة، حيث كان الناس يتوجهون اليه لاقتناء التمور[37].

ـ والملاحظ أن الناس كانوا يتوجهون مهاجرين الى الصحراء، التي وفرت واحاتها بعض الاطعمة، ولاسيما التمور[38]. وبذلك صارت هاته المناطق تجتذب السكان، وهذا عكس ما عرف طوال الحقب التاريخية؛ اذ كانت الهجرات تتوجه من الجنوب الى الشمال، حيث اعتبرت الصحراء دوما بمثابة خزان بشري يدفع الناس الى الهجرة نحو الشمال.

III) نتائج الأزمة :

أ. على الصعيد الديمغرافي :

ـ كانت الخسائر البشرية فادحة. وأول المناطق التي تضررت كثيرا هي مدينة فاس وضواحيها، اذ توفي بها اثنا عشر الفا. «وكلهم له وارث هنالك في المدينة يرثه»[39] أي أن كل هؤلاء من أهل المدينة الاصلاء. وهذا رقم مهم

(34) نفس المصدر : 250.
(35) نفس المصدر : 253.
(36) نفس المصدر، نفس الصحيفة.
(37) نفس المصدر :251.
(38) نفس المصدر : 249.
(39) نفس المصدر : 256.

لأنه يشكل حوالي عشر سكان المدينة، من بينهم العلماء والاعيان، اي من الذين يلعبون دورا بارزا في المدينة.

ـ أما الطارئون على المدينة، ممن يلجأون اليها في مثل تلك الأزمة، فقد كانت الوفيات بينهم مرتفعة جدا، على الرغم من أن المؤلف لا يجازف بأي تقدير. الا أنه يلوح الى ان وفياتهم كانت مرتفعة جدا،، لانه يقول : «وأما جملة من مات فيها من غير اهلها ممن كان يريد المدينة فقد تعارضت فيه الاخبار وتخالفت، فمن بين مقل قائل يقول أربعة وعشرين ألفا، ومن بين قائل يزيد على ذلك زيادة كثيرة تكاد في العقل أن تكون من المحال»[40].

ومن بين العوامل التي جعلت عدد الوفيات بفاس مرتفعا حالة الحصار والاضطرابات التي ساءت المدينة انذاك، وما تعرضت له من نهب من طرف القبائل المجاورة، مثل عرب بني حسن[41]. وقبائل الحياينة[42].

ـ وتلفت وفيات اليهود انتباه المؤلف، حيث توفي منهم بمدينة صفرو حوالي سبع مائة شخص[43].

ـ ويلي مدينة فاس وضواحيها، من حيث كثرة الوفيات، زاوية الدلاء، ومنطقة تادلا، وعلى الرغم من انه لم يذكر الاعداد بتفصيل، فإنه يقدم بعض التقديرات الخاصة بعاصمة الدلائيين، فيقول «يصبح فيها كل يوم من أيام مدة شدة الغلاء ما يزيد على مائة جنازة»[44].

ـ ومما يدل على هول الكارثة استحالة انعقاد سوق المدينة، الذي اصبح معطلا، ليقوم الناس بعمليات الدفن. والانكى من ذلك أن عدد الموتى قد ارتفع حتى تعذر على الناس دفن موتاهم، بعد ما صاروا غير قادرين على غسلهم، بل لقد تركوا الصلاة عليهم. مما يدل على ان عدد الوفيات كان مرتفعا جدا[45].

(40) نفس المصدر : 257.
(41) النشر. 2 : 119.
(42) النشر 2 : 134.
(43) الاحياء : 257.
(44) نفس المصدر. نفس الصحيفة.
(45) نفس المصدر، نفس الصحيفة.

ـ أما في البوادي فعلى الرغم من غياب الارقام فإن الخراب، الذي لحق بها بسبب الموت، كان أمرا لايدع مجالا للشك. وفي هذا الاطار يشير المؤلف الى أن كثيرا من القرى والمداشر، في تادلا ونواحي فاس وزاوية الدلاء وملوية، قد تعرضت للخراب، بسبب ارتفاع عدد الوفيات[46].

بالاضافة الى هذه النتائج، يمكن الحديث عن حدوث تغيير في الخريطة الديمغرافية للبلاد. وبهذا الصدد يمكن الادلاء ببعض الملاحظات :

1 ـ ادت تنقلات السكان بين الشمال والجنوب الى اضطراب حالة الاستقرار في القرى والمداشر والمدن، بسبب القلاقل التي يثيرها المتنقلون، مما قد يحدث تراجعا في حياة الاستقرار.

2 ـ لعل الفراغ الذي شهدته بعض المناطق، مثل تادلا، قد فسح المجال أمام قبائل جديدة لتستقر هنالك، مثل ايت يموز وجروان[47]؛ وأيت حديدو الذين قضوا فصل الشتاء كله في ملوية[48].

3 ـ كلما تحركت قبيلة من موطنها، كلما احدثت فراغات قد تحتلها قبائل جديدة، أو تفسح المجال أمام قبائل أخرى لتتحرك بدورها، مما قد يخلق مصاعب بالنسبة للسلطة المركزية.

4 ـ حينما هاجرت قبائل بأكملها الى الواحات الجنوبية في نهاية عام 1071[49]؛ ثم رجع بعضها الى المناطق الشمالية في بداية العام الموالي[50]، فمن الطبيعي ان تحدث القبائل النازحة بعض الاختلال في اقتصاديات القبائل الاخرى، الموجودة في مجال عبورها؛ وأن تزرع البلبلة والاضطراب لدى تلك القبائل؛ بل ربما ادت تلك التنقلات المستمرة، وغير المنتظمة الى عودة انتشار حياة البداوة، وتراجع حياة الاستقرار، بل من الممكن ان يترتب عنها تحول في نمط العيش ايضا.

(46) الاحياء : 256ـ257.
(47) لاحياءء : 251.
(48) الاحياء : 252.
(49) الاحياء : 250.
(50) الاحياء : 251.

5 ـ من النتائج التي قد تترتب عن ارتفاع عدد الوفيات بالمدن، تراجع الحياة الحضرية. يذكر القادري ان احياء بكاملها، في مدينة فاس قد اصبحت خالية من السكان[51]. وكان ذلك شأن زاوية الدلاء ومدن تادلا والحوز وسوس والريف[52]. الامر الذي قد ينتج عنه ارتجاج عميق في المجتمع بكامله..

ب. على الصعيد الاقتصادي :

من المعلوم ان اقتصاد المغرب في القرن 17/11 قد ظل خاضعا للظروف المناخية، وتميز بالقلة على صعيد الانتاج والتراكم، فهو اقتصاد طبيعي، لا يحقق الاكتفاء الذاتي باستمرار. وبمجرد ما ينقطع سقوط المطر، بمجرد ما يظهر شبح المجاعة[53] ويكفي ان يجذب الناس موسما فلاحيا واحدا لتعم المسهبة مختلف ارجاء البلاد. ولعل المتضرر الاول في أثناء الازمة هي الحياة الفلاحية. وهذا شيء مؤكد. فقد يؤدي الجفاف وتنقلات القبائل المستمرة، وانعدام الامن الى تعطيل الاشغال الفلاحية بالمرة.

وبسواد حياة التنقل ينزع الناس الى ممارسة الرعي، واهمال حياة الاستقرار المنبنية على الزراعة بالدرجة الاولى، مما يوذن بالانحطاط، والرجوع الى الحياة البدائية، المعتمدة على الالتقاط والقنص.

يشير صاحب الرسالة الى ان الناس صاروا يعتمدون في غذائهم على البقول والاعشاب؛ فيقول مبينا تفاهة بعض الفواكه البرية، وعواقب تناولها :

لعمرك ما البلوط فيما عرفتـه جهولا بحق الجار أو ضيق الحما
وأما فتـاة الحـي تـق فإنهـا وان حسنت فيما حماها بمحتما
واياك أن تدنـو لـوزر فإنمـا عواقبه ان يترك الجسم أورما[54].

ـ ويذكر من جهة اخرى ان الناس كانوا يقتنصون القطط، حتى انعدمت هذه الحيوانات بالمرة من قريته[55].

(51) النشر. 2 : 134
(52) الاحياء 250ـ255.
(53) الاحياء. 249.
(54) الاحياءء. 263.
(55) الاحياءء : 258

وبما أن الزراعة كانت تعتمد على الطاقة البشرية والحيوانية، فقد عرفت نقصا مهولا في الايدي العاملة، بسبب ارتفاع عدد الوفيات. وتأثرت كذلك من جراء النقص الذي اصاب المواشي والدواب، وهي من بين الوسائل الاساسية للانتاج. فكانت تتعرض احيانا للموت بسبب المجاعة، وطورا للذبح. يذكر المؤلف ان الحمر، وهي من وسائل النقل، كانت تذبح ويباع لحمها جهاراً بفاس وبني يازغة[56].

وقد تؤدي هذه العوامل، بالاضافة الى هجرات السكان، الى تقلص الاراضي الزراعية، وانتشار حياة التنقل، مما قد يسهم في تحول نمط الانتاج، من سيطرة الزراعة الى سيطرة الرعي، وتدهور حياة الاستقرار بصفة عامة؛ هذا من جهة. ومن جهة أخرى، كان لتدهور الزراعة وفقدان المواشي اثر مباشر على الحرف والتجارة.

من المعلوم ان الفلاحة قد كونت المصدر الاساسي الذي يمد الحرف بالمواد الأولية، مثل الصوف والجلود.. ويؤدي انعدام المواشي حتما الى توقف بعض الحرف، الشيء الذي يؤثر مباشرة على النشاط التجاري.

بالاضافة الى الحروب وانقطاع السبل؛ وهي عوامل تؤثر سلبا على التجارة، فإن تدهور الزراعة والحرف ونقصان الدواب، وضعف القدرة الشرائية لدى السكان، بسبب ارتفاع الاسعار[57]، قد يؤدي لا محالة الى تدهور الحركة التجارية؛ وتراجع الاسواق والمواسم[58]، الامر الذي يترتب عنه ضعف الرواج النقدي؛ وبالتالي تدهور التجارة الخارجية بدورها..

وبالاجمال فقد انهكت الازمة مختلف قطاعات البلاد الاقتصادية وزادت في تردي أحوال المجتمع.

ج. على الصعيد الاجتماعي :

لقد تضرر المجتمع كله من جراء فداحة هذه الكارثة. الا ان وقعها قد يختلف من جهة لأخرى ومن فئة اجتماعية لاخرى.

(56) الاحياء : 250.

(57) انظر الجدول المرفق، وهو مستقى من النص

(58) الاحياء : 257.

إذا امعنا النظر مليا في النص يمكن أن نستشف أن المدن فد تضررت أكثر من البوادي. وهذا على عكس ما يتبادر الى الذهن، لأن المدن تتوفر في الغالب على أسواق وأهراء ومخازن تحظى بتنظيم أكثر مما هو معروف في البوادي.

مما يوحي بوجود مدخرات يمكن ان يفيد منها السكان عند الحاجة. وهذا الرأي قد لا يحيد تماما عن الصواب؛ خاصة اذا حلت المجاعة خلال قوة السلطة المركزية.

أما في الحالة التي نحن بصددها، حيث كانت المدن ـ وخاصة فاس ـ تعيش احلك أيام الاضطراب والفتن، وينعدم فيها الامن؛ فحينما تحل الأزمة فإن أوضاع المدن تكون أكثر تفاقما من البوادي. فقد يلجأ سكان البوادي الى الالتقاط والقنص. يذكر مؤلف الاحياء والانتعاش أن سكان البوادي المجاورين لزاوية ايت عياش صاروا يقتاتون بالبقول والاعشاب[59]. بل انهم صاموا شهر رمضان كله وهم لا يأكلون طعاما غير الاعشاب، حتى كانت القوافل تقصد منطقة المؤلف لتمتار منها نوعا من العشب يدعى اوجطم[60]. يقول بهذا الصدد : «فترى القوافل الى الربيع في كل يوم غادية رائحة»[61]. وعلى الرغم من اعتقاد المؤلف ان مختلف الفئات قد تضررت في المدن، بنفس الحدة، كما يتضح من خلال قوله : «وكان من سر قدر الله وصنعه ان سوى فيها بين الغني والفقير»؛ حيث كان الفقراء يموتون بسبب المسغبة، وكان الاغنيا لا يقدرون على ابتلاع الطعام بسبب مرض الحلق والبلعوم[62]؛ فان وقع الازمة قد اختلف من فئة الى اخرى داخل المجتمع الحضري.

وإذا كان المؤلف يسلم بتساوي الاغنياء والفقراء[63]، وكأنه يبدي نوعا من التشفي إزاء الاعيان، فقد يبدو أن هؤلاء كانوا أقل ضررا من العامة؛ لانهم غالبا ما يدخرون او يراكمون بعض الثروات، مما يمكنهم من مواجهة ارتفاع

(59) الاحياء : 253.

(60) يذكر المؤلف أن هذا النبات حلو المذاق، وكان يلاقي امالا كبيرا.. الاحياء : 253.

(61) الاحياء : 253

(62) الاحياء : 256.

(63) الاحياء : 263.

كلفة العيش، على الرغم من أن كل شخص ـ مع حلول الازمة ـ قد يحرص على أن يبدو بمنظر البؤس قبل ان يعيشه ليتجنب خطرا لنهب)[64]. بل لعل بعضهم قد يستفيد من المسغبة، فيوظف أمواله ويقوم ببعض المضاربات؛ فيبيع الأقوات ويقرض الناس. يذكر صاحب هذه الوثيقة ان سكان كثير من القرى المجاورين لقريته قد استدانوا بديون ثقيلة، ولاسيما اهل قريتي المد وتزروفت[65].

مما قد ساعد بعض الاغنياء على جمع الثروات وتوسيع الممتلكات، وتوطيد مكانتهم وسط المجتمع.

كما قد تسهم الازمة، بصفة عامة، في اعادة توزيع الثروة،، اذ تنتقل ثروة من يتوفى الى يد من بقي بقيد الحياة، مما قد يحدث تغييرا في السلم الاجتماعي، فيرقى المستفيدون الجدد الى الفئة العليا.

د. على الصعيد الاخلاقي :

يبدو أن الوازع قد افلس، حيث تجاهر السكان في فاس بأكل لحوم الحمر الانسية، بل منهم من أكل لحوم الادمي[66]، ويؤكد القادري ببعض التفصيل على أن سكان مدينة فاس قد أكلوا الموتى والجيف ونبحوا الاطفال في اثناء مجاعة 1072[67]. ويذكر ضمن حوادث سنة 1073، «أن الناس قد أكلوا الجيفة والادمي بوسط الصفارين»[68]. اي ان الناس لم يعودوا يميزون في هذه الازمة بين الحلال والحرام في طعامهم، مما يؤكد على تفاقم الأحوال بهذه المدينة، وإذا كانت هذه حال فاس فكيف يمكن أن تكون وضعية باقي المدن ؟.

هـ. على الصعيد الثقافي :

ـ نال الحياة الثقافية، خلال الازمة، ما نال المجتمع من دمار، فخلت المجالس والمدارس. وفي هذا الاطار يستشهد صاحبنا على حال البلاد، بأبيات

(64) المجتمع المغربي : 63.
(65) الاحياء : 253ـ254.
(66) الاحياء : 251.
(67) النشر، 2 : 129.
(68) النشر 2 : 134

لشيخه ابي سالم العياشي حيث يقول :

خليلـي هل تأيـمت الــدروس وعـطلت المحابــر والطـــروس
وهل نــادى منــاد العلـم بـوم وفـرخ اذ وهت منـه الاسوس
فأصبـح بعـد عزتـه ذليـــلا وبعـد نضاره يعلـوه بــوس.[69]

ويتحدث عن قريته التي كانت من قبل مقصد الصوفية وحفظة القرآن، ومساجدها تعج بالطلبة يتلون القرآن اثناء الليل واطراف النهار؛ قد اضحت في زمن المجاعة «عمارة مساجدها في النقصان والاضمحلال..» «... حتى لا تكاد تبصر في مسجد من مساجدها طالبا ولا ان تسمع فيها قارئا ولا صاخبا..»[70]؛ بل لقد انهارت اخلاق سكانها فانعدم فيها الأمن وكثرت فيها أعمال العنف نتيجة تراجع الحياة الثقافية : وذهاب سدنة الاخلاق. وانعكس ذلك عل سيكولوجية المجتمع، حيث ساد جو من الاضطراب والخوف.

د. على الصعيد السياسي :

إذا اضفنا الى هذه الوضعية الحالكة ما مارسه الحكام وأدعياء السلطة من ضغوط جبائية على السكان يمكن ان نستنتج ان حالة الارهاق المالي كانت فادحة، الشيء الذي يترتب عنه صعف المداخيل الجبائية للدولة، علما ان مواردها كانت محدودة، بسبب الوضعية العامة التى تجتازها البلاد اندالك. كما يبدو من المؤكد ان تدهور الاقتصاد قد ادى الى تقلص المداخيل الجبائية؛ مما قد يفقد الدولة القدرة على الاضطلاع بمأموريات السلطة؛ في وقت كانت نفقاتها قد ارتفعت لاعادة الامور الى نصابها، بعد نهاية الازمة. وهذا ما عرض مختلف الأمارات كالدلائيين وتزروالت والشبانات الى الافلاس، وجعل الناس يتشوفون الى الزغيم السياسي الذي يستطيع ان بعيد الامن والاستقرار للبلاد والطمأنينة للعباد.

وهذا ما يسر مأمورية المولى الرشيد الذي كان في تلك الاثناء يقوم بطوافه في المغرب بحثا عن الوسائل الضرورية لدعم مشروعه السياسي

---

(69) الاحياء : 254
(70) الاحياء : 260.

الرامي الى توحيد البلاد، لاسيما وأن الأزمة قد استنزفت ما بقي من قوة لدى الامارات القائمة، وكسرت شوكة المناوئين والمعارضين، مما اتاح للسلطات الجديد امكانية تمهيد البلاد، والسيطرة على زمام الأمور.

وقد تجلى عجز الكيانات السياسية عن المقاومة في سقوطها تباعا تحت سيطرة المولى الرشيد في ظرف وجيز لم يتجاوز خمس سنوات.

(انظر الصحيفة الموالية)

خاتمة :

هكذا يتضح أن هذه الازمة قد اسهمت في تمهيد البلاد للدولة العلوية الناشئة، ودون ان اتمادى في الحديث عن حصيلة الأزمة وربطها بالتحول السياسي الذي عرفه المغرب في هذه الفترة، انصرف الى القيام بعملية احصائية اعدد خلالها تواتر بعض الكلمات الاساسية التي تدور حولها هذه الوثيقة فكان تواترها على الشكل التالي.

1 ـ الجوع : 142
2 ـ الموت : 56
3 ـ الخراب : 32
4 ـ الغلاء : 25
5 ـ الحرب : 24
6 ـ قطع الطرق : 11
7 ـ عمليات الفرار : 10
8 ـ السرقة : 9
9 ـ الخوف : 9
10 ـ النهب : 8
11 ـ القحط : 8

نستنتج من تواتر هذه الكلمات ان تلك الازمة كانت عبارة عن مجاعة كبرى، اذ اصبح الجوع لفظة/قطبا، يدور حولها حديث صاحب النص، وتدور في فلك الجوع مختلف الالفاظ. فالموت مرتبط بالجوع وناتج عنه؛ الشيء الذي

ادى الى انتشار الخراب بسبب ارتفاع السعر (الغلاء)، واستشراء الفتن وانقطاع السبل، وتكرار عمليات الفرار الجماعي، وقد ترتب عن ذلك انتشار الخوف بسبب تفشي اعمال السرقة والنهب. وكل ذلك بسبب القحط، وهي اخر لفظة في السلم اللفظي؛ والقحط هو السبب الرئيسي للمجاعة.

إذن فالشبكة اللفظية التي اعتمدها المؤلف كلها تنتظم سياقا واحدا؛ وهو سياق الازمة.

ملحق :

لائحة بأسعار بعض المواد التي وردت في النص
(الفصل الثاني من الباب الاول)

المكان	النوع	السعر	الصحيفة
زاوية ازغار	بيضة	1 درهم	257
- -	ديك ودجاجة	35 موزونة	257
- -	مد القمح	30 موزونة	258
- -	مد الشعير	20 موزونة	258
فـاس	مدد القمح	1 مثقال	
مكناس	مد القمح	14-12 موزونة	
	مد الشعير	8 موزونة	
الصحراء	مد القمح	1،5 مثقال	
مراكش	مد القمح	1،5 مثقال	
سجلماسة	عوينة القمح	10 موزونة	
	عوينة الشعير	7-6 موزونة	
ز. آيت عياش	عوينة القمح	30-20 موزونة	
	عوينة الشعير والبشنة	16-12-10موزونة	
الصحراء	التمر،	8 - 16 متقالا	
درعة	التمر	4 مثاقيل	
ز. آيت عياش	رطل تمر	4 موزونات	
	غرارة تمرة	16-14 مثقالا	
بلاد الغرب وأزغار	تليس تمر	36 مثقالا	29
سجلماسة	صحفة تمر	20 مثقالا	

الرتب	صحفة تمر	10 مثاقيل	
سجلماسة	رطل زيت	1,$^{1}/_{4}$ مثقال	
	رطل سمن	30 موزونة	
ز. ازغار	رطل زيت	6 موزونات	259
	رطل صابون	7 موزونات	
	قنطار شحم	12 مثقالا	
	الدزة الكبيرة من الصوف	5 موزونة	
	الدزة الصغيرة	2 موزونة	
ز. ايت عياش	- -	1 موزونة	
سجلماسة	- -	24 موزونة	
الرتب	- -	14 موزونة	
	تمر العرجار (ابطار)	6 موزونات	
	مد زريعة اللفت	3 مثاقيل	
ز. آيت عياش	مد زريعة اللفت	1،5-1 مثقال	

الشرفاء العلويون في ظل السلطان، المولى اسماعيل

عبد السلام شقور

تمهيد :

«جئت الى هذا الملتقى العلمي الهام الذي يعقد في اطار «جامعة مولاي علي الشريف الخريفية» وتنظمه وزارة الثقافة، ويسهر على انجاحه نخبة من المسؤولين والموظفين بها، والسلطات المحلية المختصة. اقول : جئت الى هذه الارض الطيبة المباركة، ارض الاشراف الكرام البررة، والذرية الطاهرة، مهد الدولة العلوية المجيدة... من اقصى شمال المملكة، من جهة لم تدخل التاريخ الا بفضل ملوك الدولة العلوية، لأزور هذه الارض الطاهرة، وأتبرك بأوليائها وصلحائها، ولأذكر بالصلات التي كانت بين شرفاء جبل العلم، وبين الشرفاء العلويين، ولأشير بما كان للسلطان الاكبر المولى اسماعيل رحمه الله، من أياد بيضاء على شرفاء جبل العلم، ولأنوه اخيرا بما قدمه شرفاء المغرب عامة في تاريخ المغرب.. الامر الذي يوجب العناية بهم في ابحاث مفردة، وحلقات خاصة، ولم يفهم تاريخ المغرب اذا لم تدرك العناصر الفاعلية فيه، والشرائح الاجتماعية التي كان لها قوة تحديد الاحداث...»

فمنذ نحو أربعة قرون اطل في سماء المغرب، من انحاء هذه الأرض الطيبة المباركة نجم الدولة العلوية، فأضاء المغرب من اقصاه الى أقصاه، ظهر الاشراف العلويون على الساحة السياسية المغربية، والمغرب يشكو من تمزق

داخلي مرعب، وأطماع الأروبيين في خيرات المغرب في تزايد مستمر، فارتبطت الدولة العلوية منذ نشأتها بالتحرير والتوحيد.

بتحرير المغرب من أطماع الطامعين في الداخل، ومن نهم الايبيريين وغيرهم من الخارج، وقد قام الأشراف العلويون المهمتين على أحسن وجه وأتمه، فلم يمض الا وقت قليل حتى تمكن السلطان الاكبر، المولى اسماعيل من افتكاك عدد من مدن المغرب الشاطئية من اسر الافرنج، كما تمكن من بسط نفوذ الدولة وارجاع هيبة المغرب.

وقيام الدولة العلوية الشريفة علامة بارزة في تاريخ المغرب، ونقطة تحول كبرى في تاريخه، ونهاية لتطور حركة ظهرت في نهاية السابع وبداية الثامن، هي حركة الشرفاء، ففي القرن السابع والثامن وفد على المغرب عدد هام من الأشراف وانضموا الى اخوانهم الذين كانوا استوطنوا المغرب منذ قرون خلت، فصاروا بذلك قوة يحسب لها حسابها، تستمد قوتها من نسبها الشريف، ومن حب المغاربة الدائم لآل الرسول، ثم من المستوى الرفيع لهؤلاء، فكان هؤلاء دما جديدا في تاريخ المغرب، وقوة اخرى تزداد الى قوته.

وتاريخ الشرفاء بالمغرب حافل بالامجاد على جميع الابعاد، فقد كان منهم المجاهدون والعلماء والصلحاء، فاستحقوا بذلك عناية الكتاب والشعراء فكتبوا فيهم ومدحوهم، وما ألف في الشرفاء والأشراف يستعصى على الحصر لكثرته، ويكفي لبيان أهمية التصانيف الموضوعة في الشرفاء القول بأننا لا نعرف شيئا عن بعض جهات المغرب الا من خلال هذه الأوضاع، وتلك هي حال شرفاء جبل العلم فما وجدنا لاحد عناية بهم في التواريخ القديمة العامة والخاصة، ولهذا فعلى المتتبع لاخبارهم وآثارهم أن يعود الى ما ألف عن الشرف والشرفاء في المغرب لاستطلاع احوالهم.. ويرتبط تاريخ الشرفاء العلميين بضريح المولى عبد السلام ابن مشيش الكائن بجبل العلم، لقد استوطن الشرفاء بهذا الجبل منذ قرون، وهم بطون وعشائر يجتمعون الى الشيخ سيدي ابي بكر، دفين «عين الحديد» وقبره معروف الى الان، وكان الشرفاء انحاشوا الى جبل العلم في تلك الزعازع والملاحم التي كانت لهم في حرب ابن ابي العافية لهم..

وليس لجبل العلم ذكر بهذا الاسم في المصادر السابقة على القرن العاشر،

وورد عند ابن الوزان باسم «جبل بني عروس» وأشار اليه البادسي في المقصد مرتين[1] وذكره باسم «جبل بني عيسى وبنو عيسى معروفون في الجبل الى الان، وعيسى المذكور أحد اجداد الشرفاء العلميين».

ويظهر أن الشرفاء العلميين اثروا الانعزال في ذلك الجبل النائي، فعاشوا فيه بطريقتهم الخاصة، فارضين سلطتهم عن من جاورهم مستقلين بأمورهم لا يخضعون لحاكم كما في وصف افريقيا للحسن، ابن الوزان مقبلين على ما يرضي ربهم، فكان فيهم العلماء والصلحاء، كان من هؤلاءء القطب الرباني المولى عبد السلام بن مشيش، مفخرتهم بل مفخرة المغرب عامة، وأخوه الولي سيدي الحاج موسى بن مشيش، وأخوه الثاني الولي سيدي يملاح، وعن هؤلاء الاخوة الثلاثة تفرع الشرفاء العلميون[2] والى عهد قريب كانت اقدم المصادر المغربية والمعرفة لدينا التي تتحدث عن هذا القطب لا ترقى الى ما قبل التاسع وكاد صمة انتدى البادس من المريب عن ذكره يثير الشكوك في القول الى ان من العليان الوقوف على ذكر صريح له، مع نصيحة له، في سبك المقال لابن الطواح وهو من أعلام السابع، ولا يفصله عن ابن مشيش الا نصف قرن او اقل[3]، والوصية لتلميذه ابي الحسن الشاذلي، ونظرا لكونها اقدم ما ورد لنا عن هذا الشيخ فإننا نثبتها فيما يلي :

«يا علي، الله، الله، والناس الناس، نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثل، من قبلهم وعليك بحفظ الجوارح، وأداء الفرائض وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم الا بواجب حق الله عليك وقل اللهم اغنني بخيرك عن خيرهم، وقني شرهم وتولى بالخصوصية من بينهم، انك على كل شيء قدير».

وقد صار ضريح ابن مشيش مقصوداً للزيارة، يزوره الملوك والعلماء والأولياء، اثر اشتهار امره عقب زيارة الولي : عبد الله القرواني له، وقد وقفنا على وثيقة خطية تؤرخ لحادث بناء الضريح نوردها لاهميتها وهي :

---

1) المقصد الشريف : 58

2) انظر عشائرهم وبطونهم ومواقعهم في «فتح العليم الخبير» لابن ريسول وفي التلذذ بالألم «لابن زاكور..».

3) سبك المقال : 48

«الحمد لله وحده، ومن خط الفقيه البركة الخير، الافضل المقتفي اثار السادات الكرام البررة سيدي الحاج محمد بن سيدي أحمد بن عبد الوهاب، الشريف الخنشي، نفعنا الله به، وبصالح نسبه امين ما نصه».

الحمد لله ليعلم الواقف عليه ان كاتبه حالت افكاره في بناء روضة القطب الكامل مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه فيما سلف عن تاريخه سنين عديدة، شريف عن الخمس سنين، ووقع التراجع بين صلحاء الاشراف حفدة الشيخ، ولاحت اشواق قلوب اهل المحبة من خاصة وعامة ؟ وحفدة الولي الصالح سيدي علي الحاج البقال رضي الله عنه وقامت عزائم الجميع بصناعة البناء بعد الاستخارة، والمشورة مع عالم الامة، سيدي عبد القادر الفاسي، وموافقته على ذلك ووقع الشروع في بنائها صبيحة يوم الاحد، التاسع عشر من جمادى الثانية سنة 1087 هـ وقد كان كاتبه في بعض أعماله قبيل صلاة الفجر، أمام روضة الشيخ المذكور، واذا بغمامة بيضاء لاحت علينا من ناحية الجنوب، وكان نورها، أشرف من ضوء القمر، شاهد ذلك جميع من حضر بتاريخ اليوم المذكور، والسلام. انتهى من خط من نقله من خط السيد الحاج المذكور».

لقد تحصن الشرفاء العلميون بجبلهم على ما قلنا، واستبدوا بناحيتهم وقصدتهم جماعات من المهاجرين الاندلسيين، وساكنوهم مدة، ومايزال بالجبل موضع يعرف باسمهم، وماتزال بعض البيوتات هناك تحتفظ بوثائق البيع والشراء معهم، ولكن الاندلسيين لم يطيقوا فيما يبدو قسوة الطبيعة فهجروا الجبل، تاركين خرائبهم الشاهدة الى اليوم على مرورهم. وقصدت الجبل ايضا قبائل عربية، وتركت فيه بعض اثارها، ولكنهم مثل الاندلسيين نزحوا عن الجبل.

ولم تكن ظروف الجبل الطبيعة القاسيةلتوفر للشرفاء سبيل الحياة لذلك ترى لكل واحد منهم «عزيبا» في السهول البعيدة عن الجبل يقوم عليه اقوام هناك، وقوت الشرفاء من غلال السهول. ويكتفون هم بتربية المواشي وفلاحة بعض القطع الصغيرة امام دورهم، وهذه كانت حالتهم طوال التاريخ وما يزالون الى اليوم يحتفظون بكثير من مظاهرها.

وكان يقصد الجبل كما سنرى كل من يخاف على نفسه او ماله لسبب من الاسباب، وكان الشرفاء العلميون على عادة الاشراف في المغرب يجيرونهم ويؤمنون اماكنهم، ويسعون في خلاصهم وبرهم.. وهكذا فقد استنجد بالحرم المشيشي، ابو عبد الله محمد بن عمر لوقاش، ومحمد بن العروسي الدكالي، ومحمد بن عياد الدغيمي في جماعة اخرين. وقد ظل الاشراف العلميون منعزلين الى جبلهم منغلقين على انفسهم مستعصين على غيرهم قرونا، الى ان ظهرت دعوة الاشراف العلويين فتعلقوا بها فاتاح لهم ذلك ان يدخلوا الى التاريخ من ابوابه العريضة. لقد بادر الشرفاء العلميون الى الاتصال بالشرفاء العلويين في الايام الاولى من ظهور دعوتهم كما يفهم من ظهير انعم به السلطان الاكبر المولى اسماعيل عليهم.

وقد اولى الملوك العلويون عناية خاصة للجهات التي كانت تتاخم المدن التي كانت بيد النصارى، وجبل العلم لا يبعد كثيرا عن سبتة والعرائش وطنجة وكل منهما انداك تحت حكم النصارى.

وقد ثبت ان الشرفاء العلميين شاركوا في حصار سبتة الى جانب السلطان المولى اليزيد وغيره.

ثم إن اقصى شمال المملكة كان قد قام به ثائرون، وذلك على غرار جهات اخرى من المغرب، ومن هؤلاء الخضر غيلان، اما الشرفاء العلميون فلا يذكر عنهم شيء من ذلك، ولذلك استحقوا ظهير التوقير الاتي نصه.

وأخيرا فلا يجب ان ننسى ان الاشراف العلويين والعلميين يلتقون في جدهم المشترك عبد الله الكامل، وقد حرص المهتمون بالتأليف في الاشارف والشرفاء، على هذا العهد، على التأكيد على هذا التواصل، ولكل ما ذكرنا فقد حاز العلميون رضا ملوك الدولة العلوية وكسبوا ثقتهم، فأقروهم على حرمهم المعهود وشرفهم التليد وعلى ما كانوا عليه في سابق عهودهم من التوقير.

وكان من نتائج ذلك ان صارت لهم حظوة في الدولة ومكانة لدى رجالها فالتجأ الناس اليهم للاحتماء بهم، واللياذ بحرمهم.

ولما صدر الامر بتمليك العبيد ايام السلطان المولى اسماعيل في قضية

الحراطين المعروفة لجأ عدد منهم الى جبل العلم، ولاذوا بالاشراف فرارا من القائد سعيد الزيراري، فطلبهم الزيراري من الاشراف العلميين فرفضوا تسليمهم على جري عادتهم في مثل هذه الامور فأصر، فما كان منهم الا ان بعثوا بأعيانهم الى السلطان المولى اسماعيل وقد بلغوه ما اصابهم. ومن مظاهر عناية الملوك والامراء العلويين باشراف جبل العلم تشجيعهم على الكتابة عن هؤلاء الاشراف فظهرت عدة كتب تهتم بالتأريخ لشرفاء الجبل، وهي عمدة الباحث اليوم في تاريخ تلك المنطقة. ومن هذا التأليف، فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي بأمر الامير كتبه سنة 1190 بأمر من السلطان الجليل سيدي محمد بن عبد الله قدس الله روحه والانجم الزاهرة في الذرية الطاهرة لابن رحمون العلمي، وكان صاحبه معاصرا للمولى اسماعيل، وديوان الاشراف لابن الحسن بن عبد السلام العلمي، جمعه بأمر من المولى اسماعيل، وتأليف في نسب الشرفاء العلميين لابي العباس احمد، القادري الحسن، ومؤلفه معاصر للسلطان مولاي اسماعيل ايضا، وهذه الاوضاع تعكس المكانة الكبيرة التي صارت لهؤلاء الشرفاء، وما ذلك الا بفضل تلك العناية التي اولاهم اياها السلطان المولى اسماعيل.

وكثر اقبال العلماء على زيارة الضريح، فكان من زواره علامة زمانه : ابو علي اليوسي، معاصر السلطان الاكبر المولى اسماعيل وابن زاكور اديب زمانه، وخص الجبل وشرفاءه بكتاب : التلذذ بالالم في جوار جبل العلم،، وهو كتاب فريد بأسلوبه في هذا الموضوع.

وأقبل الشيوخ على التأليف في صاحب الجبل وفي شرح صلاته ولوقفنا عند هؤلاء لطال بنا الحديث وخرج عن المراد من هذا الغرض.

هكذا نجد شرفاء الجبل، جبل العلم، يدخلون التاريخ كما قلنا من بابه الواسع، ويصبح جبلهم، وقد ظل لقرون خلت مجهولا لا يكاد يعرفه احد، كنار على علم، فتدب الحياة فيه من جديد، ويحتل مكانة في كتب التاريخ، بل يصير عاصمة من عواصم الدولة العلوية الشريفة كما سنرى،، وذلك اننا سنجد عددا من ملوك الدولة العلوية الشريفة يرحلون اليه ويقيمون فيه بين اهله، ومنهم من

تم تتويجه فيه، وكان الشرفاء العلميون خلال ذلك الخدام الاوفياء، والحاشية المقربة التي رست منها الملوك على الاهل والولد.

وهذا نص ظهير المولى اسماعيل المنعم به على شرفاء الجبل شاهد على ما كان لهؤلاء من مكانة سامية، ايام السلطان الاكبر : المولى اسماعيل، ونص الظهير :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه، يستقر هذا الظهير الكريم، والامر المحتم الصحيح، بيد حملته شرفاء جبل العلم اولاد مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وغيرهم من اخوانهم ابناء عمهم، يتدرف منه وصيفنا سعيد الزيراري وغيره من قوادنا وولاة امرنا المطاع بالله، انهم لما وردوا على مقامنا سامحناهم ورددنا عليهم ما لهم، واقررناهم على حرمهم المعهود واجريناهم على المألوف من عوائدهم توقيرا واحتراما، بحيث لا تقرب لهم ساحة، ولا يطوف احد حولهم او بجانبهم بمكروه، وليس لاحد يد عليهم كائنا من كان، فمنهم الينا ومنا اليهم، في كل شيء، وكذلك فيما انحاش الى حرم جدهم المذكور من المواطنين وغيزهم، ونأمر وصيفنا سعيد الزيراري المذكور ان ينتقل عن عزائبهم ويتجافى عنها بعد رده لهم ما لهم عن اخره، وعليه بالمشي الى مكة حافيا راجلا ان ضيع لهم قلامة ظفر حتى (كسك) رقبتك، وانت اخبر.. والسلام.

والظهير مؤرخ بجمادى الثانية عام 1121 هـ..

وقوله في الظهير «واقررناهم على حرمهم المعهود واجريناهم عن المالوف من عوائدهم» يعني انه كان لهؤلاء الاشراف حرم معهود من زمان، وهكذا فإن الظهير جاء ليؤكد تلك الحرمة وفي قوله : «فمنهم الينا ومنا اليهم..» دل على التقريب والتمكين الذي كان لهؤلاء الشرفاء عند المولى اسماعيل.

كانت عناية السلطان المولى اسماعيل كما ذكرنا بالشرفاء العلميين عظيمة، ومما يذكر له من ذلك رحمه الله حرصه على إحصائهم، وقد ذكر الزياني في كتاب تحفة الحادي المطرب مالفظه :

«امر السلطان المولى اسماعيل اعيان شرفاء العلم وعلماءهم وقضاة

القبائل وأعيانها ان يعنوا شريفا فقيها عالما بأنساب الاشراف وأصولهم ويقفوا معه حتى يميزوا الاشراف من اهل الدعاوي بكل قبيلة وكل قرية، فقاموا بذلك، وكل قرية يحضر اعيانها وذوو امانتها منهم اعرف بمن نسبه صريح ممن هو دخيل، وكل من وجدوه من الدخلاء ازالوا ما بيده من الرسوم، وكتبوه في دفتر، ومن نسبه صريح كتبوه في دفتر، وتركوا له رسومه وظهائر ترده الى ان طافوا عن القبائل كلها، وعزلوا الاشراف من المتشرفة، وكل من هو مدعي دفعوه لشيخه يعطي مع قبيلته وتوجهوا للسلطان فأطلعوه على دفتر اهل الدعاوي الدين ردوهم لقبائلهم، ونبهوهم على بطلان شرفهم. فأحرق السلطان رسومهم، وامرهم ان يكتبوا دفترا اخر يكون عند النقيب الكبير بجبل العلم، ودفترا دفعوه للسلطان»[4].

ومن هذا النص الهام يفهم ان المولى اسماعيل اتيح سياسة خاصة في معاملة هؤلاء الاشراف، والحق ان المولى اسماعيل وقف الى جانب عموم الشرفاء في المغرب، ولعل سياسته تلك كانت بقصد مواجهة اصحاب زاوية الدلاء، وعلى حين كان هؤلاء يعتمرون على زاويتهم وعلى ما لها من اثر في نفوس السكان، فإن الشرفاء كانوا يستمدون قوتهم من نسبهم النبوي، وبسبب هذا النسب كانت القلوب تتعلق بهم والاعناق تشرئب اليهم، وناد شرفاء جبل العلم الحظ الاوفر من سياسة المولى اسماعيل، ففرض لهم اعطيات يأخدها كل شريف، واسقط عنهم كل الفروض، ومنع ايا كان من النيل منهم باي شكل كان، ومنح المستجيرين بهم الامان وسار السلطان سيدي محمد بن عبد الله على هديه في اعفاء الشرفاء من التكاليف المخزنية وغيرها، لما كثر المتشرفون في زمنه أمر باعادة احصاء الشرفاء من جديد، فكان من ذلك «ديوان الشرفاء» وهو نقيبا لكافة شرفاء جبل العلم، ويتبين من كل ما ذكر ان العلميين اصبحو قوة سياسية لها «وزنها» وشريحة اجتماعية متميزة، لايمكن لاي مؤرخ تجاهلها، ولا الاستهانة بدورها التاريخي الكبير، وذلك لاول مرة في تاريخ هؤلاء، والدليل عن ذلك اننا لا نجد هذا لهم في الاحداث التي عاصرت الدولة المرابطية والموحدية والمرينية، نعم تردد في كتب تاريخ هذه الفترات اخبار جبال غمارة،

4) عن دليل مؤرخ المغرب الاقصى : 48/1

وجبال غمارة، او غمارة عن الخصوص قبائل شتى، كانت تشمل قديما كثيرا من القبائل الجبلية ومع القرن العاشر، اصبح للعلميين وجود مستقل، وحضور دائم في المصادر التاريخية.

وقد نزح عن الجبل عدد كبير منهم، وذلك على فترات، ولاسباب متعددة، فاستقروا بسلا وفاس وشفشاون وغيرها من الحواضر، وانتقل كثير منهم في ركاب الملوك العلويين الذين كانوا يقوفون لزيارة الضريح او للاقامة بالجبل، واستقر بعضهم في المدن المجاورة للجبل، ومنها تطوان، ثم طنجة بعد افتتاحها واستردادها والعرائش.

هذا ولعل أول ملك علوي زار الضريح المشيشي هو المولى المستضيء وذلك انه قصد الضريح بعد ان شخب عليه العبيد، كما قال عباس بن ابراهيم المراكشي في الاعلام (260/7).

وستزداد اهمية شرفاء الجبل مع مجيء المولى اليزيد بن سيدي محمد بن عبد الله الى الحرم المشيشي والاقامة فيه لفترة غير قصيرة، ومن المعروف تاريخ ان المولى اليزيد، ولاسباب تاريخية معروفة، قصد الجبل عندما عاد من المشرق، وسكنه، وبنى له فيه قصرا، وظل فيه مدة الى ان وافاه خبر موت والده السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فبايعته شرفاء الجبل، وتلك كانت بيعته الاولى، وتمت هذه في مقر إقامته من الجبل، فكان العلميون بذلك اول من يبايع المولى اليزيد، وبذلك رجحت كفتهم لدى دولة المولى اليزيد، وازدادت المودة بين المولى اليزيد وبين الشرفاء، خصوصا وانه كان هناك منافس للمولى اليزيد يطمع ايضا في الملك، وكان له كذلك نفس مؤهلات المولى اليزيد.

وعن بيعة الشرفاء للمولى اليزيد يقول الناصري :

«لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الله في التاريخ المتقدم، وبلغ خبر موته المولى يزيد، وهو بالحرم المشيشي بايعه الاشراف هنالك وسائر أهل الجبل..».

وكانت تلك البيعة الخطوة الحاسمة في ترجيح كفة المولى اليزيد، وقد اكسبت الشرفاء موقعا متميزا داخل الدولة، اذ اصبحوا حاشية المولى اليزيد

والمستأمنين على أسراره وبنيه، وصاروا يرحلون معه، فيسيرون في ركابه، فكانوا معه في حصار سبتة، وفي جميع حروبه، واخلص الشرفاء ودهم للمولى اليزيد ولبنيه من بعده، وعن الصلات الحميمة بين المولى اليزيد وبين الشرفاء قال المرحوم داود :

«وكان اهل هذه الناحية من شمال المغرب قد عرفوا المولى اليزيد من قبل، وذلك حينما كان متحصنا بالحرم المشيشي في جبل العلم من قبيلة بني عروس الجبلية.. فرأوا فيه من الفتوة والنخوة والشهامة والشجاعة والكرم ما حببه اليهم، فلما تولى وصار امر المغرب اليه، فرح اهل هذه الناحية فرحا عظيما، وكان الشرفاء العلميون اكثر الناس ابتهاجا به لانه كان لديهم، وكانوا اهم انصاره والحامين له، لانه التجأ اليهم و(احترم) بجدهم»

وفي هذا المعنى يقول الضعيف، في سياق حديثه عن المولى اليزيد : هو امير المومنين مولانا اليزيد بن امير المومنين مولانا محمد بن امير المومنين مولانا عبد الله بن امير المومنين مولانا إسماعيل بن الشريف علي، بويع له على الخلافة بعد دفن ابيه السلطان ابن عبد الله سيدي محمد رحمه الله بحضرة رباط الفتح.

واتفق على بيعته العلماء والفقهاء والاشراف ورؤساء الحوز من دائرة اتيه.. وفي العاشر من شعبان بعث مولانا اليزيد لاهل سلا والرباط على ان يخرجوا اباه من القبر، فيحملونه ويمرون به ليدفن بجبل العلم بضريح مولانا عبد السلام بن مشيش...»

ومن هذا يظهر ان المولى اليزيد كان يريد نقل عاصمة الدولة وعلى رموزها الى جبل العلم، واذا كانت رغبته في نقل جثة والده الى الضريح المشيشي لم تتح لكون اهل الرباط رغبوا في ان «يترك بركة في بلادهم» كما قال الضعيف، فان الجبل صار فعلا عاصمة للدولة.

ولقد اختار المولى اليزيد مكاناً لقصره، فبناه فوق ديار اولاد شقور في اسفل الجبل، مجاورا لمدشر الحصن.

وأثناء اقامة المولى اليزيد بالجبل كان يؤذن بنفسه للصلاة ويسهر على

تنظيم شؤون البلاد، وسار في ذلك عبر سنة حسنة زادت من حب الاشراف وغيرهم له.

وتاقت نفس المولى اليزيد الى الجهاد فذهب الى حصار سبتة، ومعه شرفاء الجبل، وكاد المولى اليزيد ان يمكن اسر المدينة لولا عوائق داخلية منعته من اتمام مهمته..

ويظهر ان السلطان سيدي محمد بن عبد الله كان عزم على زيارة الضريح، والالتقاء بولده الامير المولى اليزيد، فاعد العدة لذلك، ولكن المنية ادركته.

واستمر وفاء الشرفاء العلميين للمولى اليزيد حتى بعد وفاته فقد وقفوا الى جانب ولده المولى ابراهيم وكان هذا الامير قد عاش مدة بين الشرفاء هو واخوانه، وذلك أن المولى اليزيد استأمر الاشراف عن اهله وولده.

وهكذا فلما قامت حركة «المولى ابراهيم بين اليزيد لم يكن غريبا ان نجد تلك الحركة من هذه لنواحي - يعني نواحي جبل العلم - ترحيبا ونصرة، فان كثيرا من رجالها وقادتها كانوا ما يزالون يذكرون صديقهم المولى اليزيد وجهاده، وكانوا يحنون الى من يقوم مقامه في الشجاعة والجهاد، فلا عجب اذا هم رحبوا بحركة انصار المولى ابراهيم، ثم المولى سعيد ابن ابراهيم..».

وبعد المولى اليزيد زار جبل العلم عدد من الملوك والامراء العلويين ومن هؤلاء :

- المولى مسلمة : اقام المولى مسلمة مدة في الجبل بين شرفاء جبل العلم، فأحبه الشرفاء واحبهم وصاروا من اصفيائه وخاصته، وذلك في ايام اخيه المولى هشام بن السلطان سيدي محمد محمد بن عبد الله في بيعته الثانية.

وكان المولى مسلمة مقيما في الجبل حين وافاه خبر موت شقيقه السلطان المولى هشام، فدعى الى نفسه وآزره العلميون وحاربوا في صفه، وقد اعلن نفسه سلطانا بجبل العلم «فبايعه الاشراف واهل الجبل عامة واتفقت كلمتهم عليه» وخاضوا حروبا الى جانبه، وللشاعر افيلال قصيدة بدار جوزة في الموضوع منها :

حدثنـــــي نقلـــــة الاخبـــــار ذوو الفضل عن ابي عمـــار
عن ابن زيد ان مولاي مسلمة جمـــع مـــن لانيـــة واحتـــرم
وجمع الاشراف من اهل الجبل.

وقد نال فيها افيلال (سامحه الله) على ذلك من اهل الجبل، وابى المرحوم دوارد الا ان يثبت الارجوزة ببسطها في تاريخه لسبب ما !

وقد عاد المولى مسلمة الى الشرق في نهاية امره، وهناك توفي رحمه الله.

المولى سليمان : بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وكان المولى مسلمة وفد عن الجبل في حياة اخيه المولى اليزيد، ونزل به، وصار من اهله، ولذلك فان الاشراف العلميين قد بادروا الى مبايعته لما تخلى مسلمة على الامر، وانصرف الى الحج. وكانوا «توقفوا مدة يسيرة لانهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مر».

ويتبين ان العلميين تعلقوا بالمولى اليزيد وابنائه تعلقا جعلهم مرتبطين بآل بيته.

وكان هذا السلطان اي المولى سليمان موصوفا بالعدل معروفا بالخير، مرفوع الذكر، عند الخاصة والعامة، قد القى الله عليه من المحبة، فأحبته القلوب، ولهجت به الالسن، لحسن سيرته، وطيب سريرته، واتفق له في اواسط دولته من السعادة والامن والعافية ورخاء الاسعار وابتهاج الزمان وتبلج انوار السعد والاقبال ما جعله الناس تاريخا، وتحدثوا به دهرا طويلا، حتى صارت ايام السلطان المولى سليمان مثلا في السنة العامة، ولقد ادركنا - يقول الناصري - الجمع الغفير ممن ادرك اواسط دولته، فكلهم يثني عليه بملء فيه...

- المولى الرشيد وأخوه المولى جعفر ابنا السلطان المولى سلامة : فان المولى سلامة نازل بالجبل، جبل العلم لما وصله خبر موت السلطان المولى اليزيد، اخيه، فدعا الى نفسه، وبايعه الاشراف، و«نزل الى طنجة في موكب ملوكي» وكان معه في جبل العلم ابناه : الرشيد وجعفر.

ـ ربة الدار العالية : المولاة فاطمة بنت المولى سليمان وكانت مع والدها هذه في جبل العلميين، ولها زيارة الى الضريح المشيشي تحدث عنها الناصري فأسهب، ومما قال في الموضوع :

«قدمت ربة الدار العالية المولاة فاطمة بنت سليمان من مراكش الى فاس بقصد الزيارة، فركبت ذات ليلة الى ضريح المولى ادريس رضي الله عنه، وضريح الشيخ ابي الحسن علي بن حرزهم، وضريح الشيخ ابي عبد الله التاودي، فطافت عليهم، وتبركت بتربتهم وذبحت اكثر من مائة حور، وأخرجت صدقات كثيرة، ثم خرجت بعد ذلك الى مدينة صفرو، وزارت ضريح سيدي ابي سرغين، وضريح سيدي ابي علي، وذبحت وتصدقت وعادت الى فاس، ثم ذهبت الى زيارة الشيخ عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه، فصحبها في ركابها اعيان فاس واشرافها وعلماؤها، ولما كانت باثناء الطريق، اعترضها قواد المغرب بهداياهم وبشاراتهم، وزيهم، ووافاها قواد الثغور بضريح الشيخ عبد السلام في مواكبهم وخيلهم ورجلهم، وذلك امر من السلطان رحمه الله..

قال صاحب البستان : وكنت يومئذ واليا على العرائش فحضرت في جملتهم، ولما قضت ارباب الزيارة، فرقت الأموال على الاشراف من اهل جبل العلم، وغمرت الناس بالعطايا، ثم عادت الى القصر.. وكان فعلها هذا من الاثار العظيمة والمناقب الفخيمة رحمها لله..».

ـ السلطان المولى الحسن الاول، اشتهر السلطان المولى الحسن الاول بكثرة حركاته في ربوع المغرب، وقد وصل الى الضريح المشيشي في حركته الخامسة عشرة، ووصف الناصري هذه الحركة وهو معاصر لها فقال : «.. ثم دخلت سنة 1306 فيها.. فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال.. وزار تربة الشيخ الاكبر والكبريت الاحمر : ابا محمد عبد السلام بن مشيش، رضي الله عنه، تم تقدم الى مدينة تطوان، فدخلها يوم الأربعاء ثاني المحرم، من السنة التي تليها، اعني سنة سبع وتلاثمائة والف، فأقام بها نحو الخمسة عشر يوما، وزار صلحاءها، وتطوف في معالمها».

وذكر الباحث الفرنسي صاحب كتاب : الدرويش السائح او : سيدي هدي وهداوة. ان المولى الحسن زار في جبل العلم ضريح الولي الفيلالي سليل

الشرفاء العلويين سيدي المهدي، المعروف عندهم بسيدي هدي، وأهدى المولى الحسن الاول هدينة للقائمينة على الضريح برسم بناء الضريح، وقد راى المقدمون ان يصرفوا المال في غير ما رصد له.

وقد وقفنا من خلال هذا العرض الوجيز، على ما يلي.

ـ اهتمام الشرفاء العلويين بالشرفاء عامة، وبالشرفاء العلميين خاصة، وكان لهذا الاهتمام أكثر من سبب، منها العمل على خلق توازن في مرحلة تاريخية دقيقة تميزت بالصراع بين عدة مصالح وتيارات.

ـ مكانة جبل العلم في تاريخ المغرب، وقد راينا انه صار العاصمة التانية للدولة، وكاد ان يصبح العاصمة الاولى، وقد رأينا اكثر من ملك تتم بيعته فيه قبل ان ترد عليه بيعة جهات اخرى.

ـ دور الشرفاء العلميين في تاريخ المغرب خلال القرون الثلاثة الاخيرة، لقد صارت لهؤلاء الاشراف مكانة متميزة في الدولة فكانوا كما رأينا يستأمنون على أبناء الاسرة المالكة كما كانوا حاشية المولى اليزيد وغيره، وأصفياء، ومستشاريه.

واخيرا فليس ما قدمنا الا عرضا وجيزا او مقدمة لتاريخ يجب ان يكتب، وحسبنا هنا اثارة الانتباه الى جهة من جهات وطننا العزيز، توهجت شعلتها لفترة تاريخية، فكانت المصدر والمورد، وهاهي الان تنتظر من ينتشلها من هذا النسيان، وليس هناك ما هو أمر من النسيان...

مصادر البحث

ـ سبك المقال لابن الطواح في الخزانة الحسنية
ـ فتح العليم الخبير. لابن ريسول مخطوط خاص (مصورة)
ـ التلذذ بالالم.. لابن زاكور .. ...
ـ المقصد الشريف : للبادس تحقيق الاستاذ الباحث : سعيد احمد اعراب.
ـ مرآة المحاسن مخطوط خاص

- تاريخ الضعيف
- الاستقصا للناصري
- وصف افريقيا لابن الوزان (الترجمة العربية)
- وثائق خطبة ضمن بعض المجاميع بالمكتبة العامة بتطوان
- تاريخ تطوان للمرحوم داود
- بعض شروح الصلاة المشيشية : شرح ابن عجيبة، شرح الخروبي
- المحاضرات لليوسي
- دوحة الناشر لابن عسكر.
- شرفاء جبل العلم : بين الشعر والتاريخ، بحث مخطوط لصاحب هذا الموضوع.
- دليل مؤرخ في المغرب الاقصى للمرحوم ابن سودة.

عناية السلطان المقدس المولى اسماعيل بالقرآن الكريم والسنة النبوية

محمد عز الدين المعيار الادريسي

توطئـــة :

ظل القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة - منذ أن بعث الله محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم، رسولا الى الناس كافة - النبراس الذي ينير السبيل أمام المسلمين، والدستور الذي يضمن لهم السلامة والنجاة من المخاطر والأزمات، والسلاح الذي تتكسر أمامه كل الاطماع والهجمات .

والمغرب الاقصى البلد العربي المسلم العريق، أولى هذا النبع الصافي، الذي لا ينضب معينه، ولا تنفضي عجائبه، المكان الاسنى في سلوكه ووجدانه، في عمله وعمله، وفي سائر أحواله، وظل العرش المغربي في ذلك المثل الأعلى، والقدوة الصالحة للشعب كله، مما سجله التاريخ لملوكنا الأماجد بمداد الفخر والاعتزاز ومما نقرأه بعين الواقع والاحساس في سيرة وسياسة سيدنا المنصور بالله أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله ورعاه .

وفي هذا الاطار، واستجابة لدعوة كريمة من معالي وزير الشؤون الثقافية الأستاذ محمد بنعيسى، ومن جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، باقليم الرشيدية، معهد الدولة العلوية الشريفة، تأتي هذه المساهمة لتلقي بعض الأضواء على ما كان للسلطان المقدس المولى اسماعيل رحمه الله، من عناية واهتمام بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وسنتناول ذلك من خلال ثلاثة محاور هي :

أولا : شخصية المولى اسماعيل :

كان أمير المومنين أبو النصر مولاي اسماعيل بن الشريف بن علي الحسني العلوي السجلماسي، حفيد رسول رب العالمين، مثالا للامام العظيم، الذي يشدك اليه الانسجام الرائع في شخصيته بين عقيدته وسلوكه، بين سيرته وسريرته، بحيث يتعذر على الدارس أن يجد في مسيرة حياته الطويلة أي تناقض أو نشاز .

ولاشك أن هناك عدة عوامل تضافرت كلها لتنجب هذا القائد الهمام، من وراثة طاهرة متصلة برسول الله صلى الله عليه وسلم، الى اسرة شريفة ذات وجاهة ورياسة وسياسة، يرعاها المولى الشريف بن علي بكل جلاله وفضله، الى البيئة السجلماسية، بطبيبهتها الصحراوية، وما تستلزمه من شجاعة وفروسية وبنشاطها العلمي، خاصة في مجال الدراسات القرآنية حتى كانت في ذلك، قبلة حفاظ كتاب الله، ياتونها من كل فج عميق، وفي هذا الصدد يذكر الشيخ أبو علي اليوسي أنه عرف بها، في أيام دراسته زهاء الألفين من حفاظ الروايات العشر والسبع .

في هذه الأجواء ولد المولى اسماعيل ونشأ، شهما شجاعا مستحضرا لآي القرآن، عاملا بتعاليمه، متعلقا بسنة جده المصطفى صلى الله عليه وسلم، متشبثا بها، وقد انعكس كل ذلك على سلوكه وسياسته طيلة حياته .

ظهر اخلاصه وتفانيه في خدمة الدولة والوطن طيلة المدة التي قضاها نائبا عن أخيه السلطان المولى الرشيد بفاس ومكناس (سبع سنوات) وانعكس هذا الاخلاص وذلك التفاني باجلى صوره طيلة مدة حكمه طيب الله ثراه (57 عاما) .

لقد وصل الى الحكم من أوسع أبوابه غداة وفاة سلفه المولى الرشيد عام 1082 هـ/1671 م، اذ بايعه أعيان المغرب وصلحاؤه، ووافق على ذلك أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف كالعالمين الكبيرين عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي وغيرهما، فرأى أن ذلك أمر طوق الله به عنقه وأن عليه أن يخلص له ويدافع عنه.

في ظل هذه الشرعية، تسلم المولى اسماعيل الملك، فقام باعباء الخلافة أحسن قيام، حيث وضع حدا للفتن والأطماع، واعاد للبلاد وحدتها، واسترد الثغور وحمى الحدود، ونشر الأمن والسلام، وغدا أعظم ملوك الاسلام في عصره، حتى كان ملوك اوربا وغيرها، يهابونه، ويطلبون مودته، ويتحاشون غضبه.

وكان قدس الله روحه في كل مواقفه واحواله، صورة صادقة لأمير المؤمنين المتشبث بالذكر الحكيم وسنة النبي الكريم، يصفه سان لوي سفير لويس الرابع فيقول عنه :

«أما أخص أوصافه، فهو الاعتقاد الراسخ في الدين لا تأخذه فيه لومة لائم، مستحضر لآي القرآن، في كثير من أحواله، مضح بنفسه في سبيل نشر الدين واعلاء كلمته، وبالجملة، فإنه لم يظهر ملك ذوة قوة وثبات على أصول الدين مثل مولاي اسماعيل منذ قرون».

ويقول عنه المؤرخ «الضعيف» : «لقد كان صواما قواما دائم الذكر شديد الغيرة في محارم الله، وكان مهابا شجاعا ظاهرا للفدا منصورا مظفرا مؤيدا، يهابه ملوك الأرض ويرون مهادنته عليهم من آكد الفرص، يوهاديه ملوك الأقاليم، يوتحفه بالهدايا ملوك الاعاجم».

وكان في سياسته يشترك فيمن يوليه أمرا من أمور المسلمين أن يكون «خيرا دينا تقياً لا تاخذه في الله لومة لائم» كما عبر رحمه الله في احدى رسائله الى ولده المامون .

ولم يكن هذا الشرط عنده مقتصرا على الأمور الدنيوية بل كان يتلازم مع الأمور الدينية، اذ كان يتولى بنفسه اختيار الأئمة والخطباء والوعاظ مثلما يختار لنفسه .

نقل صاحب الاستقصاء عن أبي القاسم الزياني انه قال : «إن المولى اسماعيل لما نزل بآد حسان، واجتمع عليه الاشراف الذين باركو قال لهم : «دلوني على رجل صاحب فقه ودين يؤمني في الصلاة» فقالوا له : «ليس بهذا

الجبل اتقى من سيدي علي بن ابراهيم» (جد الزياني)، فاتوا به، فكان إمامه في المحلة ولما قفل أخذه معه .

وكان رحمه الله يتفاعل كثيرا بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية الشريفة، ويؤمن بالرؤيا الصادقة، ويعترف بالفضل لذويه، وفي هذا السياق نسوق الخبرين التاليين كلاهما يدور على الوزير الفقيه ابي العباس احمد بن الحسن اليحمدي :

أولهما : ان المولى اسماعيل اصبح ذات يوم، وقد أهمه أمر ابن أخيه مولاي أحمد بن محرز، فقال لوزيره اليحمدي : «اني رأيت في هذه الليلة رؤيا أحزنتني الى الغاية»، فقال : وما هي يامولاي ؟ وعسى أن تكون خيرا، قال : «رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد، ولم يبق الا أنا وأنت مختفيين في غار مظلم»، فسجد اليحمدي شكرا لله تعالى وأطال السجود، ثم رفع رأسه وقال : «أبشر يا مولانا فقد نصرنا الله على هذا الرجل، فقال له السلطان : «ومن اين لك ذلك ؟» قال له : «من قوله تعالى (ثاني اثنين اذهما في الغار إذ يقول لصحابه لا تحزن ان الله معنا)، وقال عليه الصلاة والسلام : «فما ظنك باثنين الله ثالثهما» فسر المولى اسماعيل بذلك غاية السرور وذهب عنه ما كان يجده من الغم، وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى له، وعلى إثر ذلك وقع الصلح بينهما في رمضان».

وثانيهما : أن المولى اسماعيل لما ولى ولده المامون على مراكش أمر برئيس الحضرة، وامام الكتاب الفقيه أبا العباس أحمد اليحمدي أن يعطيه التقليد ويوصيه بما تنبغي الوصاية به، وكان المولى المامون منحرفا عن الوزير المذكور فمشى اليه على كره منه، وحاز منه التقليد، واستمع لوصيته امتثالا لأمر والده، ثم عاد اليه، وقال : «يا مولانا، إن اليحمدي ينقصك ويزعم أنه الذي علمك دينك» في كلام آخر، فقال له السلطان رحمه الله : «والله إن كان قد قال ذلك، إنه لصادق، فإنه الذي علمني ديني، وعرفني ربي».

وأضاف صاحب الاستقصاء معلقا على ذلك : «نقل هذه الحكاية صاحب البستان وصاحب الجيش وكلاهما قال : إنه سمعها من السلطان المرحوم المولى

سليمان بن محمد رحمه الله، وهي منقبة فخيمة للمولى اسماعيل في الخضوع للحق والاعتراف به رحم الله الجميع .

وعلى الرغم مما حققه هذا العاهل العظيم من انتصارات رائعة وانجازات كبيرة، فانه لم يكن ليتسرب اليه الغرور، أو يصاب بجنون العظمة، بل كان على سيرة السلف الصالح، يقتفي أثرهم، ويعض بنواجده على الكتاب والسنة، ويبدي خضوعه لربه، واقتداءه بجده (ص) في كثير من الأحوال والمواقف .

لقد شوهد رحمه الله وهو خارج للاستسقاء يوم 17 مارس سنة 1680م وقد ارتدى كساء قديما وسخا وتعمم بعمامة بالية، ثم خرج من القصر صحبة حاشية بلاطه، حفاة عراة الرؤوس، يتبعهم جمهور المدينة على هيئة مماثلة، فزار في هذا الموكب جميع أضرحة الأولياء، واستمر ذلك من الصباح الى الرابعة عشية .

والى جانب ذلك كثيرا ما كان رحمه الله يترجل عن فرسه ويعفر وجهه بالسجود لله شكرا على ما أعطاه .

هذه باختصار بعض ملامح شخصية المولى اسماعيل وأخلاقه سقناها للمثال لا الاحاطة .

ثانيا : أبرز مظاهر عنايته بالمجال الثقافي .

تعتبر منجزات المولى اسماعيل في المجال الثقافي، امتدادا لاعمال سلفه الأمجد المولى الرشيد وتتويجا لها، مع كثرتها وتنوعها نظرا لطول مدة حكمه، وفيما يلي بعض أهم هذه الأعمال والمنجزات .

ا ـ تأسيس المؤسسات الدينية والعلمية .

في عهد المولى اسماعيل تم بناء مدرسة الصفارين بفاس التي أسسها المولى الرشيد وشرع في بنائها عام 1081 هـ/1670 م، لتكون مأوى للطلبة ومعهدا لتعليمهم، وقد استمر البناء فيها الى عام 1089 هـ/1678م.

وفيها يقول أبو زيد عبد الحمن القاسمي :

انظر بهجة بيت الله يارائـــي وسرح الجفـن بيــن أرجائـــي

تخالعا جنــة تزهــى مزخرفــة بطيب الزهر من أنفاس قراء.

ومن مآثر المولى اسماعيل : مسجد آسفي عام (1105 هـ/1693 م)، ومساجد : للا عودة، وبريمة والصهريج والشهود بمكناس، ومسجد درب الزهراء بالرباط عام (1130هـ/1718م).

كما جد بناء ضريح المولـى ادريس الاكبـر بزرهـون عـام (1132 هـ/1719 م) ضريح المولى ادريس الأزهر بفاس، وبنى عليه القبة وأمر بتوسعة صحن المسجد، وجعل به كرسيا علميا لتفسير القرآن، وآخر لقراء السفا للقاضي عياض، كما يستفاد من الحوالة الاسماعيلية .

بالاضافة الى اعمال أخرى كثيرة، كتزليج مسجد الأندلس، وجلب الماء الى زاوية الشيخ عبد القادر الفاسي وغير ذلك .

ب ـ الاهتمام بالكتابة والكتب :

كما اعتنى رحمه الله بالكتابة والكتب تيسيرا، لشيوع المعرفة بين أفراد شعبه وتقريبها منهم، ومن ابرز المظاهر الدالة على ذلك، إجلاله للغة القرآن، حيث أمر سنة 1098 هـ/1986م بالمناداة في الأسواق بأن لا يضع أحد كتابا على الأرض، قال القادري معقبا على ذلك : «وهذا أحسن ما يكون الأدب .

وازدهرت في هذا العصر النساخة مع ما يلزمها من أقلام ومداد وأوراق واصباغ وذهب محلول، ويذكر المؤرخون أن المولى اسماعيل استدعى عام 1099 هـ/1987 م نحو أربعين ناسخا لأجل نسخ أربعة وعشرين سفرا من كتب سير الشجعان وأخبارهم بالاضافة الى كتب جليلة كفتاوي المعيار للونشريسي ونحوها. فاتموا عملهم في أيام قلائل .

واحترف بعض كبار العلماء النساخة كالشيخ عبد القادر الفاسي الذي كان يعيش من استنساخ الكتب وبيع نسخ من صحيحي البخاري ومسلم .

أما عن عناية المولى اسماعيل بالكتب فيكفي ان نسوق في هذا المجال ما ذكره القادري، ونقله الضعيف من انه رحمه الله اشترط على النصارى الذين جاؤوه يطلبون منه فداء مائة من الذين اسروا من العرائش : خمسمائة اسير

وخمسة آلاف كتاب ومالا كثيرا، ثم بعث معهم بعض كتابه ليختار الكتب والأسرى .

بالاضافة الى أنه جاء في وصف الخزانة العلمية الاسماعيلية أنها كانت تضم مالا يعد من الكتب والدفاتر وأسماء التآليف مما لم يتيسر مثله لخزانة بغداد وكان القيم عليها هو الوزير أحمد بن الحسن اليحمدي .

ج ـ رعاية العلم وتشجيع طلبته :

اسدى المولى اسماعيل للحركة العلمية بالمغرب خدمات جلى فرعى العلم والعلماء وشجع الطلبة وأكرمهم، وبذلك استطاع رحمه الله أن ينشر الى جانب الامن والسلام، العلم والعرفان، فكان عصره من ازهى عصور الحضارة الاسلامية في هذا البلد الامين .

يقول اليفرني في «الظل الوريف» : «... وقد تلقيت من غير واحد أن القبيلة، كانت قبل هذه المدة لا يوجد فيها الا طالب واحد، وربما يحتاج أحد من أهل المدشر او دوار لمن يقرأ له رسالة فلا يوجد من يحسنها، حتى يرحل المسافات البعيدة لطالب يذكر له، أما الآن فكل مدشر، ودوار بل كل خيمة فيها طالب...»

وستأتي جملة من الأمثلة على اكرام المولى اسماعيل للعلماء وطلبة العلم في المحور الآتي بحول الله .

ثالثا : عنايته بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة :

أما عن عناية المولى اسماعيل بالقرآن والسنة ـ خاصة ـ فحدث عن البحر ولا حرج كمايقال، وفيما يلي بعض مظاهر هذه العناية .

ا ـ القرآن الكريم :

اهتم المولى اسماعيل بشؤون طلبة العلم ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك ـ هؤلاء الذين أصبحوا منذ عهد المولى الرشيد رحمه الله، ينظمون اثناء فصل الربيع، نزهة سلطان الطلبة بمدينة فاس. ويذكر الرحالة الانجليزي «ستيورت»

وهو يتحدث عن مشاهداته بمدينة مكناس احتفال الأباء بالأبناء عندما يحفظون القرآن الكريم فيقول :

«توجد بهذه المدينة مدارس عديدة، يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة والحساب ويحفظون القرآن عن ظهر قلب، فاذا ما حفظوه اشترى لهم آباؤهم أفراسا عدية، ويتناولون المصحف بايديهم ويركبون الأفراس يتفسحون عليها، وتأتي اليهم اجواق الطرب وسائر صبيان المكتب، تذهب للتفسح مع المحتفل به حافظ القرآن، وبعد ذلك فمن اراد منهم قراءة الفقه يتوجه للمساجد» .

وكان السلطان نفسه يعقد بقصره حفل ختم تفسير القرآن الكريم، ومما تناقلته كتب التاريخ في هذا الصدد، استدعاء الفقهاء عام : 1101هـ/1689م.

لحضور ختمة التفسير عند قاضيه أبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي، فحضروا، وأكرمهم بكل ما لذ وطاب من المآكل والمشارب ووصلهم جميعا، وفي هذه المناسبة وأثناء تناول الطعام أبصر السلطان الشيخ ابا علي الحسن اليوسي وهو لا ياكل، فغضب لعدم أكله طعامه، فاعتذر له بعض اعيان الحاضرين، بأنه ممن يضربه ذلك الطعام قبل ورضي. وغير خاف ما كان بين المولى اسماعيل والشيخ اليوسي من رسائل متبادلة في مواضع تتعلق بتسيير الدولة وشؤونها العامة والتي مهما قيل عنها فانها لا تخرج عن هدف واحد وهو نصرة الدين واعلاء كلمته وتحقيق العدل والسلام مما يضيق المجال - هنا - عن بسط القول فيه.

وقد عرف هذا العصر الاسماعيلي الزاهر نشاطا كبيرا في مجال الدراسات القرآنية، حفظا وتلاوة وتجويدا وداسة وتأليفا، فكان القرآن الكريم يتلى في المساجد والزوايا بنظام في أوقات معلومة، يسهر على ذلك الحرابة وأهل القرآن من عامة الناس، ومن أجمل الصور الناطقة بما كان للقرآن لا مثيل لها في قلوب الناس ما روي من أن الزاهد المتعبد محمد بن علال الغماري (ت 1107هـ/1695) كان قد جعل ورده ختمة من القرآن كل يوم، وأن الاستاذ المقري، الفقيه محمد بن العربي المدعو «ابن مقلب» الفاسي (ت 1129 هـ/1716م) كان اذا تلا القرآن أسرع اليه البكاء.

وكانت دروس القراءات والتفسير مزدهرة في سائر ارجاء المملكة المغربية، ومن أشهرها دروس الشيخ ابي علي الحسن اليوسي في التفسير بجامع القرويين وما عرفته من اقبال عظيم وما أحدثته من ردود فعل مختلفة، وكذلك دروسه في مراكش، حيث مكث في تفسير سورة الفاتحة وحدها حوالي ثلاثة أشهر ...

ومنها دروس القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي (ت) ودروس الاستاذ المجود العربي بن أحمد بن علي بن أبي المحاسن الفاسي (ت 1096 هـ/1687 م) والاستاذ عبد الرحمن بن محمد المدعو (الرايس) (ت 1109 هـ/1697 م) والذي تولى الاقراء بمدرسة العطارين بفاس ودرس الالفية والشاطبية وغيرهما، والاستاذ المجود أحمد بن المسناوي بن محمد بن ابي بكر الدلائي (ت 1117 ه/1705 م) وغيرهم .

وتوافد على المغرب طلبة العلم من المشرق للاقراء مثل أحمد بن عبد الحي الحلبي (ت 1120 هـ/1708م) الذي ورد على فاس من بلده، ولازم الاقراء على شيوخها كأبي محمد عبد القادر الفاسي وغيره .

أما على مستوى التأليف، فلا يسعنا في هذه العجالة الا ان نسرد اسماء بعض اعلام هذا العصر مرتبة وفق تواريخ وفياتهم دون ان نقف على مؤلفاتهم غالبا :

1 ـ ابن القاضي عبد الرحمن بن ابي القاسم المكناسي (ت 1082 هـ/1671 م) الشيخ الامام أستاذ المغرب في القراءات وله فيها مصنفات مشهورة.

2 ـ محمد بن مبارك المغراوي السجلماسي (ت 1092 هـ/1681 م) الاستاذ المتضلع في القراءات، له فيها الدالية المشهورة التي يقول في مطلعها :

حمدا لمن حفظ القران للابد   مسهلا لذوي التجويد والسند

3 ـ ابو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي سيوطي زمانه (ت 1096 هـ / 1685 م) حفظ القران الكريم وهو في السابعة من عمره وجودة بالقراءات السبع.

4 ـ ابو علي الحسن بن مسعود اليوسي (ت 1102 هـ/ 1692 م) بصري زمانه وأشهر علما وقته ذو التصانيف المختلفة..

5 ـ ابو الفضل مسعود بن محمود جموع السجلماسي (ت 1119 هـ/ 1707 م).

6 ـ محمد بن أحمد المسناوي (ت 1136 هـ/1723 م).

7 ـ ابو العلاء ادريس بن محمد بن أحمد المنجرة الادريسي (ت 1137 هـ/ 1724 م) شيخ المقرئين بفاس والمغرب كله.

8 ـ محمد بن عبد الرحمن ابن زكري الفاسي (ت 1144 هـ/1731 م).

9 ـ عمر بن عبد السلام (لوقش) ابو حفصون (1149 هـ/ 1736 م) وغيرهم من كبار العلماء في تفسير القران وعلومه..

ب ـ السنة النبوية الشريفة :

وكاعتناء المولى اسماعيل رحمه الله بالقران الكريم، كان اعتناؤه بالسنة النبوية الشريفة، ومن أشهر مظاهر احتفائه بها، تسميته جيشه الذي استغنى به عن الانتصار بالقبائل «بعبيد البخاري» قال الناصري في الاستقصاء :

«وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري، فان المولى اسماعيل رحمه الله، لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم، واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وأثنى عليه، وجمع اعيانهم، وأحضر نسخة من صحيح البخاري، وقال لهم : «أنا وانتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما امر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل»، فعاهدوه على ذلك وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم ان يحملوها حال ركوبهم ويقدموها امام حروبهم».

علق قبلنا على هذا النص الدكتور تقي الدين الهلالي رحمه الله ـ بما فيه الكفاية ـ فقال :

«لما قرأت هذا الموقف، اصابتني قشعريرة، ولم ادر كيف اقدر هذا

الامام، وكيف أثني عليه، فان كلمته هذه لها مغزى عظيم يهز القلوب، ويسمو بالارواح المؤمنة الى أعلى مستوى من الايمان واليقين»

ثم يضيف : «هذا الكلام الحيكم البليغ، يشبه كلام اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام التابعين والائمة المجتهدين في دقته واحكامه، فقد دل هذا الكلام على ستة اركان، كل دولة حافظة عليها لابد ان تبلغ اوج السعادة والعزة والنصر المبين، ولا يستغرب بعد الاطلاع على هذا، ما اعطى الله المولى اسماعيل من العزة والنصر والقاء الرعب في قلوب اعدائه، داخل المملكة وخارجها، وكون راياته في حروبه الكثيرة مقرونة بالنصر والظفر».

في ظل هذه الروح العالية المؤمنة المتشبثة بالسنة النبوية الشريفة الخاضعة لشرع الله، ازدهر الحديث وعلومه في العصر الاسماعيلي ازدهارا كبيرا، فاشتغل العلماء بتدريس الحديث وعلومه، ونال علم السند عناية فائقة، وظهر اسهام المرأة المغربية في المجال العلمي، ومن امثلته الرائعة المشاركة الفعالة في ذلك للاميرة العالمة الحاجة خناثة بنت بكار اشهر زوجات المولى اسماعيل وأم الملوك العلويين الاماجد التي حاجت علماء المشرق، وأسهمت في التاليف في علوم الحديث بتعاليقها على الحافظ ابن حجر السعقلاني، وبالجملة - فقد كان الاهتمام كبيرا بالحديث خاصة البخاري وباقي الكتب الستة وموطا الامام مالك والشمائل الترميدي والشفا للقاضي عياض الذي كانت له روايات كثيرة بالصحراء المغربية وكثرت التاليف في الحديث وعلومه مما نقدمه على غرار ما اسلفناه في القران وعلومه.

1 - محمد بن محمد بن احمد ابن ناصر الدرعي (ت 1085 هـ/ 1674 م) شيخ الزاوية الناصرية ومجدد بناء زاويتها.

2 - ابو سالم العياشي عبد الله بن محمد بن ابي بكر (ت 1090 هـ/ 1679 م).

3 - عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي الفهري (ت 1091 هـ/ 1680 م) شيخ الجماعة واحد اعلام المغرب في وقته.

يقول المؤرخ القادري (لولا ثلاثة لا نقطع العلم من المغرب لكثرة الفتن

به وهم : سيدي محمد بن ابي بكر الدلائي، وسيدي محمد ابن ناصر في درعة وعبد القادر الفاسي».

4 ـ محمد بن محمد بن سليمان الروداني (ت 1094 هـ/ 1683 م) حكيم المغرب ومحدثه الكبير.

5 ـ ابو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي الفهري (ت 1096 هـ/ 1685 م) سيوطي زمانه.

6 ـ عبد السلام ابو محمد بن الطيب القادري (ت 1110 هـ/1698 م).

7 ـ محمد الطيب بن محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري (ت 1113 هـ/ 1701 م)

8 ـ محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري (ت 1116 هـ/1704 م).

9 ـ محمد بن ابراهيم بن احمد بن عثمان بن الشيخ (ت 1134 هـ/ 1721 م).

10 ـ محمد بن احمد المسناوي (ت 1136 هـ/1723 م).

11 ـ ابراهيم بن علي بن محمد الدرعي السباعي (ت 1138 هـ/ 1725 م)

12 ـ ابن زكري محمد بن عبد الرحمن بن محمد المغربي الفاسي (1144 هـ/ 1731 م).

وغيرهم من كبار العلماء في هذا العصر.

وبعد، فهذا ما سمح به الوقت، واسعفت المصادر على لم شتاته مما كان للسلطان المولى اسماعيل من اياد بيضاء في خدمة القران والسنة بهذا البلد الامين، نسأل الله ان ينزل عليه شآبيب برحمته وان يحفظ امير المؤمنين جلالة الملك الحسن الثاني بما حفظ به الذكر الحكيم وان يقر عينه بسمو ولي عهده المحبوب الامير الامجد سيدي محمد وصنوه السعيد المولى الرشيد ولسائر افرادا الأسرة الكريمة إنه سميع مجيب.

صورة السلطان مولاي محمد بن الشريف في أهم المصادر التاريخية المغربية

بزوي أحمد الضاوي

إنه لمن دواعي الغبطة والسرور، أن نجتمع اليوم لتدارس تاريخ الدولة العلوية الشريفة، التي قامت على تقوى من الله تعالى، وكان هدفها الاساسي توحيد الامة وجمع شملها والرفع من شأنها وتجديد دينها وإحياء ما اندرس منه. وتحرير الثغور الاسلامية وعمارتها، بل إن أسلاف هذه الأسرة الماجدة لم يظلوا مهتمين بالدفاع عن حوزة المغرب وصون كرامته، والدب عن حيامه فحسب، وإنما جعلتهم همتهم العالية وإحساسهم بالمسؤولية يفكرون في بلاد المسلمين وفي الشعوب الاسلامية أينما كانت، فها هو مولاي علي الشريف جد الملوك العلويين يترك سجلماسة بقصد الجهاد في بلاد الاندلس. يقول الافراني في «النزهة» : «ومولانا علي المعروف بالشريف ومنه تكاثرت فروع المحمديين وكان رجلا صالحا مجاب الدعوة كثير الاوقاف والصدقات حاجا مجاهدا ذاهمة سنية واحوال مرضية... رحل الى عدوة جزيرة الانلس برسم الجهاد مرارا» [1]..

1) نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي : محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي الوجار، صحح عباراته التاريخية السيد هوداس، ص 293، مكتبة الطالب، الرباط ط 2، بدون تاريخ

والسلطان مولاي محمد بن الشريف ومولاي رشيد قضيا حياتهما في حل وارتحال من أجل وحدة المغرب. والسلطان مولاي اسماعيل ومولاي محمد بن عبد الله عملا على تحرير الثغور الاسلامية التي ظلت فترة من الزمن ترزح تحت نير الاستعمار الغاشم، ومولانا محمد الخامس ضحى بعرشه وبأسرته وبحياته وبكل ما يملك من اجل حرية وانعتاق امته، ومولانا الحسن الثاني - ادام الله عزه ونصره - منذ ان ولاه الله تعالى امر المغرب وهو يسعى جاهدا الى استكمال الوحدة الترابية، بحكمة واناة ومن غيرما ملل ولا ضجر.

اننا كلما قرأنا تاريخ السلاطين العويين الاماجد كلما تبين لنا ماكانوا يتمتعون به من فكر ثاقب، ومواقف محمودة وتصرفات مرضية جعلت الامة تلتحم بهم وتتعلق بأهذابهم، وتسير في ركبهم. كما ان البحث في تاريخ هذه الدولة الشريفة يبرز بوضوح ان تاريخ المغرب حافل بالمآثر العظيمة والمواقف الجليلة، وان علماء المغرب قد اثروا الفكر الاسلامي وان سلاطين المغرب قد شاركوا - بل كان لهم القدح المعلى - من اغناء هذا الفكر.

والبحث في تاريخ الشرفاء العلويين يوقفنا على حقيقة هامة وهي ما للاسرة العلوية الشريفة من باع طويل في مجال العلم، مما يجعلنا نقول صادقين انها اسرة عالمة. فجدهم مولانا الحسن الداخل - رحمه الله - كان رجلا عالما، يقول في حقه صاحب «النزهة» : «وكان مولانا الحسن الداخل - رحمه الله - رجلا صالحا ناسكا له مشاركة في العلوم وخصوصا علم البيان فانه كانت له فيه اليد الطولى» (2).

وهذه السيدة خناثة بنت الشيخ بكار (ت 1159 هـ) جدة السلطان سيدي محمد بن عبد الله كانت من النساء العالمات ذكرها شيخنا سيدي عبد الله كنون - رحمه الله - في كتابه «النبوغ» فقال : «كانت فقيهة عالمة بارعة اديبة خيرة دينة لها كتابة على «الاصابة في معرفة الصحابة» لابن حجر» (3).

وسيدي محمد بن عبد الله (ت 1204 هـ) كان من العلماء المشاركين

---

2) نزهة الحادي : ص 295/291.

3) النبوغ المغربي في الادب العربي : د/عبد الله كنون، ج. د 1، ص291، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط 3، 1395 هـ/1975 م.

بل كان محور الحركة العلمية في عصره حتى انه وصل الى درجة الاجتهاد ففتح الله على يديه بابه بعد ان اغلق جهلا؛ وكذلك الشأن بالنسبة للسلطان مولاي سليمان (ت 1238 هـ) والسلطان مولاي الحسن (ت 1311 هـ) والمولى عبد الحفيظ (ت 1330 هـ) وغيرهم من أعلام هذه الاسرة الشريفة العالمة المجاهدة.

أ ـ المصادر التاريخية المغربية التي أرخت لشخصية مولاي محمد بن الشريف : هذه المصادر كثيرة ومتعددة منها ما ألفه بعض من عاصره، ومنها ما ألفه من قاربوا فترته، ومنها ـ بطبيعة الحال ـ ما ألف في فترة متأخرة عن عصره. وبالجملة يمكننا حصر هذه المصادر وترتيبها تاريخيا على الشكل الاتي :

1 ـ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي : محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي الوجار (ت 1140 هـ / 1769 م). وضبط اسمه شيخنا سيدي عبد الله كنون ـ رحمه الله ـ في نبوغه بـ«الإفراني» بالهمز لا بالتسهيل [4]. وكذلك الشأن بالنسبة للمستشرق ليفي بروفانصال في كتابه «مؤرخو الشرفاء». والكتاب أخرجه المستشرق هوداس ونشر بأنجي سنة 1888 م وأعيد طبعه بمكتبة الطالب بالرباط.

2 ـ نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني : محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري الحسني الفاسي (ت 1187 هـ / 1773 م). نشر الكتاب بتحقيق د/محمد حجي وذ/أحمد التوفيق. وقد اختصر محمد بن الطيب القادري «نشر المثاني» في مؤلف صغير بعنوان «التقاط الدرر، ومستفاد المواعظ والعبر، من اخبار اعيان المائة الحادية والثانية عشر» ونشر الكتاب بتحقيق الاستاذ هاشم العلوي القاسمي.

3 ـ تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) : لمحمد الضعيف الرباطي (1165 / 1233 هـ) نشر الكتاب بتحقيق ذ/أحمد العماري.

4 ـ البستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف : أبو القاسم الزياني (ت 1249 هـ) مخطوط بالخزانة العامة بالرباط. د 1577.

---

4) المرجع نفسه : ج 1، ص 298.

5 ـ الجيش العرمرم : محمد بن أحمد أكنسوس (ت 1294 هـ). طبع حجري، فاس (د ـ ت).

6 ـ كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى (الجزء السابع وما بعده) : أبو العباس أحمد ابن خالد الناصري (1315 هـ/1897 م). طبع الكتاب بتحقيق ذ/جعفر الناصري، وذ/محمد الناصري.

7 ـ الدر المنضد الفاخر فيما لابناء علي الشريف من المحاسن والمفاخر : احمد بن أحمد الكردودي (1318 هـ/1900 م). مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، د 1584.

8 ـ الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية : محمد الغريسي المشرفي (ت 1324 هـ/1906 م).

9 ـ اتحاف أعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس (أو عبير الآس من روض تاريخ مكناس) : (أو حسن الاقتباس من مفاخر الدولة العلوية وتاريخ مكناس) : مولاي عبد الرحمن بن زيدان (ت 1365 هـ/1946 م). طبع الكتاب سنة 1349 هـ/1931 م.

وهناك جملة مراجع يمكن الافادة منها في التأريخ لمولاي مَحمد بن الشريف كـ :

1 ـ النبوغ المغربي : ذ/عبد الله كنون

2 ـ المغرب عبر التاريخ (الجزء الثالث) : ذ/ابراهيم حركات

3 ـ تاريخ وجدة وانكاد في دوحة الامجاد : د/إسماعيل مولاي عبد الحميد العلوي

4 ـ الحياة الادبية في المغرب على عهد الدولة العلوية (1075 هـ/1311 هـ ـ 1664 م/1894 م). د/ محمد الاخضر.

ب ـ النسب الشريف : نص الناصري في الاستقصا ان المولى محمد بن الشريف هو اول ملوك الدولة العلوية الشريفة كما اشار الى نسبه الشريف المتصل الى رسول الله ﷺ : «اعلم ان نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من اصرح الانساب وسببها المتصل برسول الله ﷺ من امتن الاسباب واول

ملوكها كما سيأتي هو المولى مَحمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الشريف السجلماسي ابن الحسن بن محمد بن حسن الداخل ابن قاسم... ابن محمد النفس الزكية، ابن عبد الله الكامل ابن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. هكذا ذكر هذا النسب الذي هو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب جماعة من العلماء كالشيخ ابي العباس أحمد ابن ابي القاسم الصومعي والشيخ ابي عبد الله محمد العربي بن يوسف الفاسي، والعلامة الشريف ابي محمد عبد السلام القادري في كتابه «الدر السني فيما بفاس من النسب الحسني» وغيرهم. قال ابو عبد الله الفاسي في المرآة : «ان الشرفاء الذين لا يشك في شرفهم بالمغرب كثيرون... كشرفاء تافيلالت من الحسنيين ايضا المحمديين... وعن شيخ الجماعة الامام ابي محمد عبد القادر الفاسي ـ رحمه الله ـ انه قسم شرفاء المغرب بحسب القوة والضعف الى خمسة اقسام، ومثل للقسم الاول المتفق على صحته بأصناف منهم هؤلاء السادة السجلماسيون. وقال الشيخ ابو علي اليوسي ـ رحمه الله ـ : «شرف السادة السجلماسيين مقطوع بصحته... والجملة فان شرف هؤلاء السادة السجلماسيين مما لانزاع في صراحته ولاخلاف في صحته عند اهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمراث» (5).

والملاحظ ان الناصري ينقل عن الإفراني في «النزهة» من غير ان يشير الى ذلك مع فارق بسيط وهو تعديل ترتيب الفقرات، فما جعله الناصري خلاصة وخاتمة اتخذه الافراني مقدمة (6). وأصل الشرفاء العلويين «من ينبع النخل من ارض الحجاز قالوا : وكان رسول الله ﷺ قد أقطع جدهم علي بن ابي طالب ارض ينبع فاستقرت ذريته وتناسلت الى هذا العهد» (7).

وأول من دخل من الشرفاء العلويين المغرب هو الحسن الداخل، ويقرر الإفراني ان دخوله للمغرب كان «اواخر المائة السابعة وكان حينئذ من ابناء الستين ونحو ذلك وتوفى ـ رحمه الله ـ قبل انقضاء المائة المذكورة وذكر

---

5) كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى : ابو العباس احمد بن خالد الناصري، ج 7، ص 4/3، تحقيق ذ/جعفر الناصري وذ/محمد الناصري، دار الكتاب ـ الدار البيضاء 1956 م.

6) نزهة الحادي، ص 298/287.

7) الاستقصا، ج 7، ص 5/4 ويراجع كذلك نزهة الحادي، ص 287.

بعضهم ان دخوله كان سنة اربع وستين وتسمائة، قال الشيخ الامام ابو اسحاق ابراهيم بن هلال ان دخوله كان في الدولة المرينية، ذكره في «منسكه» وعلى هذا فيكون دخوله في دولة ابي بكر عبد الخالق المريني» ! واتبث الإفراني في «نزهته» روايتين في سبب دخول الحسن الداخل المغرب الاولى ان الاشراف قبل قيام الدولة العلوية كان قد نالهم التقتيل والتعذيب مما جعل الشرف يكاد ينقرض بالمغرب وحتى من بقي من الشرفاء فانه ينكره دفعا لما قد يناله بسببه من مكروه حتى اذا قامت دولة بني مرين ردت الاعتبار للشرف والشرفاء، «ولم يكن ببلاد سجلماسة احد من الاشراف، فاجمع راي اعيانهم وكبرائهم على ان يأتوا بمن يتبركون به من النسب الشريف، فقيل ان الذهب يطلب في معادنه والياقوت يجلب من مواضعه وان بلاد الحجاز هي مقر الاشراف وصدق جوهر ذلك النسب قد هبوا اليه واتوا بمولانا الحسن فأشرقت شمس النبوة على اهل سجلماسة، وضاءت ارجاؤها حتى قيل ان مقبرة اهل سنجلماسة هي بقيع اهل المغرب، وليس لاهل سجلماسة مزية اعظم من هذه المزية» (8).

والرواية الثانية تتمثل في ان اهل «سجلماسة لم تكن تصلح الثمار ببلدهم فذهبوا للحجاز بقصد الاتيان برجل من اهل البيت فأتوا بمولانا الحسن المذكور فحقق الله رجاءهم» (9).

ونخلص مما سبق الى ان المصادر التاريخية التي ارخت لمولانا محمد بن الشريف كلها تقرر شرف نسبه، واتصال ذلك النسب الى الرسول ﷺ.

ج ـ شخصية السلطان مولاي مَحمد بن الشريف : هو السلطان مولاي مَحمد بالفتح (10). أبو البشائر بن أبي الاملاك والسلاطين المولى الشريف بن علي الحسني الينبوعي السجلماسي (11).

ولم تذكر المصادر التي ارخت له تاريخ ولادته، واكتفت بالنص على انه اكبر أبناء مولاي الشريف يقول صاحب «الاستقصا» : «فأما المولى محمد فولد له المولى علي الشريف المراكشي... والمولى علي هو جد الملوك ايضا...

8) النزهة، ص 289/288.
9) المرجع نفسه، ص 290.
10) المرجع نفسه، ص 289.
11) الاستقصا، ج 7، ص 15، وكذلك اتحاف لابن زيدان، ج 3، ص 129.

وولد للمولى علي الشريف تسعة من الولد، المولى الشريف اسما، وكانت ولادته سنة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك... وكان المولى الشريف افضلهم واشرفهم وله - رحمه الله - عدة اولاد كلهم نجوم زاهرة، ذوو همم باهرة. منهم المولى مّحمد - بفتح الميم - وهو اكبرهم، والمولى الرشيد، والمولى اسماعيل، وهؤلاء الثلاثة ولوا الامر بالمغرب على هذا الترتيب» [12].

وصفه صاحب «الدرر البهية» بالعلم والعمل [13]، ومعنى ذلك انه كان يتأول في حياته حديث رسول الله ﷺ : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم). كما وصفه بـ«التوقيعات العجيبة، والمراسلات الغريبة» [14]. لكننا للاسف الشديد لانجد بالمصادر التي ارخت لحياته اشارة الى تربيته والى الكيفية التي حصل بها العلوم ويمكننا معرفة ذلك انطلاقا من كتب التراجم المغربية، فهي تعتبر وثيقة اساسية في هذا المجال، ونحن هنا نعتمد وثيقة هامة اثبتها الشيخ القادري (ت 1187 هـ) في آخر كتابه «التقاط الدرر» وعنونها بـ«المقصد الثالث : مقروءاتنا على أشياخنا بأسانيدها الى مؤلفيها، وائمتهم - رضي الله عنهم -» فهذه الوثيقة تعتبر نمونجا لطريقة التدريس واكتساب العلوم في القرنين الحادي والثاني عشر حيث يبين فيها العلوم التي حلصلها وعلى من تلقاها وكيف كان يتلقاها مع النص على مسيرته العلمية التي يبدأ الحديث عنه انطلاقا من صباه حيث يذكر انه قرأ مقدمة الشيخ ابن اجروم في النحو ثم ألفية ابن مالك ورسالة ابن ابي زيد القيرواني والعروض اعتمادا على نظم ابي عبد الله الخزرجي. وأما البلاغة فعمدته فيها تلخيص المفتاح، ثم عكف على دراسة جمع الجوامع في الاصول، والتفسير، وصحيح البخاري والموطأ والمنطق. وبعد تحصيل هذه العلوم انتقل لدراسة الفقه فبدأ بدراسة مختصر خليل ثم انتقل الى دراسة التصوف. ولم يشر القادري الى حفظ القرآن الكريم باعتبار ذلك امرا بديهيا.

---

12) اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس : مولاي عبد الرحمن ابن زيدان، ج 3، ص129، ط 1، 1931/1349 م.

13) الاستقصا، ج 7، ص 12.

14) الاتحاف، ج 3، ص 130.

وانطلاقا من هذا النموذج الذي قدمنا يمكننا القول : ان طريقة مولانا محمد بن الشريف في تحصيل العلوم لم تخرج عن هذا الاطار.

واثبت الضعيف في تاريخه رسالة جوابية بعث بها مولاي محمد بن الشريف الى الشيخ محمد الحاج الدلائي وفيها يشير مولاي محمد الى تربيته الحربية، مما جعله لا يجزع من الحروب، ولايهاب مواجهة الرجال، ومقارعة الشجعان : «فالله يعلم ان هذه المراودة ليست مناجزعا ولا وجلا ولا لفرط الاهتمام بكم من حياء او خجل، وما نبصركم عند التناوش والهراش الا كما يطير حول المصابيح من التهافت الفراش، واما الحروب الصعبة الصعاب، نشأنا في غمراتها قبل البلوغ، لنا من قديم خلقت، ومنكم ثلاثا طلقت، وبأعناقنا عشقا علقت» [15]. أما أوصافه الخلقية والخلقية فان المصادر التي اعتمدناها تسعفنا بمادة جيدة نستطيع ان نكون بها صورة ضافية عن خلقة مولاي محمد بن الشريف، فقد كان ـ رحمه الله ـ : «قويا ايدا لايقاوم في المصارعة وحكي انه في بعض حصاره لتابو عصامة جعل يده في بعض ثقب القصر وصعد عليها ملا يحصى من الناس كأنها خشبة منصوبة او لبنة مضروبة» [16].

ويأتي على رأس اوصافه الخلقية الايمان والتدين والورع، ويظهر لنا ذلك جليا من خلال محاورته لاعضاء السفارة التركية الذين اتوا للتفاوض معه في شأن الحدود المغربية وقد دعوه الى الاحتكام الى الشريعة الاسلامية يقول ابن زيدان في الاتحاف : «ولما قدموا على المترجم ثانية قالوا له : لم يكن لنا علم بما في الكتاب، ولو اكتفينا به مارجعنا إليك نحن جئناك لتعمل معنا شرع جدك، وتقف عند حدك وبالغوا في وعظه واستعطافه الى ان اخذته قشعريرة وعلاه سلطان الحق، فأذعن له وقال : والله ما اوقعنا في هذا المحظور الا شياطين العرب، انتصروا بنا على اعدائهم واوقعونا في معصية الله، وابلغناهم غرضهم فلاحول ولا قوة الا بالله، واني اعاهد الله تعالى ان لا اتعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء» [17]. ومن الصفات التي كان يتصف بها السلطان

---

15) تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة) : محمد الضعيف الرباطي (1165 هـ/1233 هـ)، ص 17، تحقيق ذ/أحمد العماري، دار المأثورات، الرباط، ط 1، 1406 هـ/1986 م.

16) الاتحاف، ج 3، ص 129، والاستقصا، ج 7، ص 31. ونزهة الحادي، ص 302.

17) الاتحاف، ج 3، ص 134.

مولاي محمد بن الشريف صفة الشجاعة والاقدام يقول الناصري : «وكان المولى محمد شجاعا مقداما لا يبالي بالعظائم ولايخطر بباله خوف الرجال ولايدري ما هي النكبات والاوجال» (18).

وشهد له بذلك خصومه فقد «وصفه اهل الدلاء في بعض رسائلهم بما لفظه : هو الاجدل الذي لا تئوده هموم الليالي، ولاحرارة قيض المصيف، اشهب على قنة كل عقبة، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة» (19).

وشهد له بذلك الاتراك، يقول عثمان باشا في رسالة وجهها الى مولاي محمد بن الشريف : «وأما الشجاعة الغريزية فقد علمنا ان لك منها بالمعين سبحانه اوفى وافر نصيب» (20). ووصف والده مولاي الشريف في قولته الشهيرة التي قالها بعد ان تمكن على بوحسون من القبض عليه عن طريق الحيلة والخديعة : «ولكن تركت لكم الاسد الاخدع محمد، وتركت لكم الاسود» (21).

ويقول في حقه الضعيف : «كان اقوى الناس نجدة وشهامة وشجاعة وزعامة» (22). وأثبت القادري الوصف نفسه في «التقاط الدرر» (23).

ونظفر في تاريخ الضعيف بوصف فريد لمولانا محمد بن الشريف في ساحة الوغى ونستخلص من ذلك الوصف صفتي الشجاعة والوفاء واكرم بهما من خصلتين. يقول الضعيف : «ولم يثبت ابو هلال الى الحرب الطويل، ومولاي محمد قد تسابقت اليه الفرسان وكلهم يقول : هذا فلان بن فلان وحيل بينه وبين الجند وليس معه الا عضده والزند فانضم اليه من قومه رجلان، فرموه بالبندق فعميت عين فرسه وانقطع عذار لجامه مع لسع الغوال، وحملات الكماة الابطال، فصار يقاتل باليمين والشمال ويصول صولة الاسد على الرجال، وفرقوا بينه وبين صاحبيه الاثنين وتسابق في صعيد «القاعة» من جريه متعلقا

---

18) الاستقصا، ج 7، ص 31.
19) الاتحاف، ج 3، ص 130.
20) تاريخ الضعيف، ص 21، والاستقصا، ج 7، ص 24.
21) تاريخ الضعيف، ص 8، والاتحاف، ج 3، ص 129.
22) تاريخ الضعيف، ص 11
23) التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من اخبار واعيان المائة الحادية والثانية عشر : محمد ابن الطيب القادري (1124 هـ/1187 هـ)، ص 163. تح ذ/هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، ط1، 1403 هـ/1983 .

بصاحبيه خوفا ان يقتلا... وقد قتل الشيخ محمد بلقاسم، ونجى ابن رسول الله ﷺ...» [24].

ويصفه الوالي التركي بعلو الهمة والحلم والحماسة والجود [25]. وكان رحمه الله سخيا جوادا حتى انه اعطى الاديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر الملحون اباعثمان سعيد التلمساني نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب، جائزة له على بعض امداحه فيه» [26].

وله صفات قيادية نجملها في الامل والعزيمة والاعتقاد في نصرة الله عز وجل للشرفاء العلويين واظهارهم على غيرهم ولو بعد حين، ونستخلص ذلك من نص رسالة جوابية، بعثها مولاي محمد الى عثمان باشا، ومما جاء فيها : «وقولكم ابذل الجهد في نزع البربر من الامصار ليس ذلك مني قلة اعوان ولا انصار، ولا من صم آذان او عمي بصائر وابصار وإنما العاقل لايتعب فيما لا يفيده، وما فاتنا من الكرامات يدركها الاخ او الابن او الحفيد» [27].

ويؤكد ذلك في رسالة يرد فيها على محمد الحاج الدلائي، وهي الاخرى تفصح عن بعد نظره وعن الامل العريض واليقين في النصرة والظهور : «وأيم الله لئن نظم فينا الديان شمل الديوان، حتى تعاين انت وبنوك وذووك ما تبنيه لنا البنون والاخوان من المجد المخلد مدى الازمان، ولقد حدث السادات اهل السريرة انه ستدور عليكم منا الدوائر المبيدة اتطمعون في النجاة بعد ترويعكم الشرفاء والشريفات والعابدين والعابدات النظيفات» [28].

ومن صفاته القيادية الحزم، وبين ايدينا نصوص كثيرة تثبت هذه الصفة منها هذا النص الذي اورده الضعيف في تاريخه : «وبقيت الدار التي فيها المال، ثم ان بعض اصحابه تسوروا عليها من فوقها ودخلوا عليها فصاروا يأخذون التبر فيملأون به الكنانات والمكاحيل مكان البارود وعزموا على الهروب عنه

---

24) تاريخ الضعيف، ص 13/12. ج 5، الاتحاف ج 3، ص 130، والاستقصا، ج 7، ص 31.
25) الاستقصا، ج 7، ص 23.
26) تاريخ الضعيف، ص 26.
27) المرجع نفسه، ص 16
28) المرجع نفسه، ص 8، ويراجع كذلك الاستقصا، ج 7، ص 28.

فتفطن لهم اخوه مولاي الحفيد ففتش البعض منهم فوجد ما وجد عندهم من التبر ففتك بهم مولاي محمد وقتل منهم نحو الثمانين رجلا اذ خانوه العهد» [29].

ونصرته للمظلومين والمستضعفين تعتبر من اعظم شمائل مولاي محمد بن الشريف يقول في رسالة جوابية بعث بها الى الوالي التركي على الجزائر : «وآل تلمسان ما أثارهم الا جوركم في الاموال والبنين مع مكابدتهم جمرة الصبر على مسير السنين... وانما تعديكم هو الذي شجع الطباع الى ان عادت الضباع سباعا» [30].

ان هذه المقومات الشخصية، والمؤهلات العلمية والقيادية لمولاي محمد جعلته يكون مؤهلا لتأسيس الدولة العلوية من جهة، ومن جهة اخرى مؤهلا لاقرار الوحدة الوطنية.

29) تاريخ الضعيف، ص 25.

اشكالية تأسيس مدينة سجلماسة

ميلود بلقاضي

من خلال العروض التي قدمت، تبين لنا ان هناك تراكما معرفيا وعلميا جد هام حول تاريخ منطقة تافيلالت وخصوصا المتعلق بتاريخ مدينة سجلماسة.

ورغم هذا التراكم المعرفي والعلمي حول هذه المدينة التاريخية الهامة، ورغم هذه الحصيلة من المقالات والبحوث والكتابات في مبناها ومعناها، نلاحظ أنه لم تواكبها في نظري، ـ فيما أعلم ـ قراءات تركيبية تطمح أو تقدر ان تقدم لنا، تصورا مضبوطا وشاملا حول تاريخ هذه المدينة. في مقدمتها قضية التأسيس، والمؤسس. خصوصا اذا عرفنا ان هناك عدة نصوص، وروايات تتحدث عن تاريخ تأسيس ومؤسس هذه المدينة.

وأول ما يلاحظه الباحث او القارىء لهذه النصوص / الروايات هو اختلافها، وتعارضها احيانا. بل ان هذه النصوص / الروايات هي انساق متعددة، قاعدتها المشتركة. هي عدم الانسجام. وهي في عموميتها روايات تسقط من حيث لا تدري في بعض المنزلقات المعرفية. وهذه النصوص هي :

1) نص الشريف الادريسي : وصف افريقيا الشمالية والصحراوية، اعتنى بتصحيحه ونشره : هنري بيريس ص 37 و38 الجزائر 1957.

2) نص الحسن الوزان : وصف افريقيا، ترجمه محمد حجي، ومحمد الاخضر، الرباط ص 127 ج 1982.2.

3) نص أبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 148ـ149.

4) صاحب النص مجهول : الاستبصار في عجائب الامصار. تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد ص 201 الدار البيضاء 1985.

ملاحظة : لم اتمكن من الحصول على كتاب ماك كوك. ترجمة علي المجودي : المعنون بـ «الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانا».

إن هذه النصوص / الروايات كونت لنا مادة البحث اي المتن Corpus. وبعد تكوين هذا المتن، قمت بطرح مجموعة من الافتراضات :

أ) كيف يجب الحسم في هذه الروايات / النصوص ؟ ما هي الاقرب الى الصواب ؟ هل البحث الفردي (اي من زاوية المؤرخ وحده) قادر على ذلك ؟ واين هو مصدر الخطأ : في تلك النصوص ذاتها ؟ ام في الظروف السوسيوثقافية التي كتبت فيها تلك النصوص ؟ الخ : وهل بوسع مقال كهذا ان يرسم صورة منصفة بل موضوعية لاشكالية مدينة كمدينة سجلماسة. أو ان التصور التاريخي في عصرنا محتم عليه ان يعتمد البحث الجماعي، والاعتماد على ادوات تحليلية لحقول معرفية اخرى ؟ وما دور الباحث غير المختص في هذه القضية ؟

هل يكتفي باستهلاك ما وصل الينا من كتابات مفاهيمية ومعرفية وعلمية ؟ ام انه واجب عليه هو ايضا ان يبحث للحصول على الشروط العلمية، والتاريخية اللازمة لاعادة انتاج هذه المعرفة ؟؟

طرحنا هذه الاسئلة، ونحن لا نقول اننا سنعطي اجوبة تامة ونهائية حول كلما طرح. بل ان هذا العرض المتواضع لا يهدف الى اعادة طرح اشكاليات تأسيس مدينة سجلماسة ـ كنموذج ـ ولكن من زاوية اخرى. خصوصا اذا عرفنا قيمة القفزة النوعية التي عرفتها العلوم الانسانية عامة، منهجيا ومفاهيميا وتنظيريا.

بعد طرح كل هذه القضايا، نعود الى النصوص الروايات، لنقدم للقارى محتوى كل نص بطريقة موجزة لضيق الوقت.

انظر الرسم البياني التالي :

ملخص عن روايات التأسيس لمدينة سجلماسة

نص ابي عبيد بن عبد عبد العزيز البكري	نص الحسن الوزان	نص الشريف الادريسي	نص صاحب الاستبصار
ـ اسست مدينة سجلماسة سنة 140 هـ	ـ لم يذكر السنة، بالرغم من ادعائه في الرواية الثانية (رواية جغرافينا البكري) انه اطلع على نص البكري.	لم يذكر سنة التأسيس	بنيت سنة 140 هـ
ـ المؤسس :روايتان : الاولى : عيسى بن يزيد الاسود الثانية، مدرار.	ـ المؤسس : روايتان : الاولى : قائد روماني (لم يذكر اسمه) الثانية : الاسكندر الكبير (حسب البكري) ملاحظات : 1) اثبتت المصادر التاريخية انه لم يكن هناك توغل في بلاد المغرب، فبالاحرى في جبال الاطلس 2) البكري نفسه لم يذكر هذا الاسم اي (الاسكندر الكبير)	ـ المؤسس لم يذكره صاحب النص	ـ المؤسس : الروايةالاولى مدرار بن عبد الله نسبة الى مدرار قوم من الصفرية الرواية II : رجل كان حدادا اسمه مدرار وكان من ربضيه قرطبة
الوصف الحضاري ودورها التاريخي - موقع استراتيجي - دور هام	الوصف الحضاري ودور سجلماسة التاريخي : نفس الشي تقريبا	الوصف الحضاري ودور سجلماسة التاريخي : نفس الشيء تقريبا	الوصف الحضاري ودور سجلماسة التاريخي : نفس الشيء تقريبا

بعد جمع وضبط هذه النصوص، اردنا استنطاقها، وهنا وقفت امامنا كيفية التعامل مع هذه النصوص. وهنا نقول اننا تعاملنا معها على الشكل التالي :

ـ ان هذه النصوص الروايات، ورغم اختلاف شروط انتاجها ـ نظرنا اليها كأنساق / بنيات لغوية تحمل حقولا دلالية.

ـ بعد ذلك ضبطنا تلك الحقول، وصنفناها حسب حقولها الدلالية Ch, Semanty حقول دلالية تاريخية او جغرافية او طبيعية.. الخ..

ـ وفي المرحلة الاخيرة قمنا بمقارنة هذه الروايات النصوص اخدين بعين الاعتبار خصوصية كل نص من هذه النصوص. وركزنا على المحور التاريخي : اي سنة التأسيس واسم المؤسس ثم الوصف. باختصار كيف تعاملت هذه النصوص مع هذا الحدث. واخيرا نظرنا اليها كأنساق لها جوانب عملية ومعرفية. مؤمنين بفكرة هامة تخص المنهجية / او تحليل النصوص وهي ان النص لكي يكون فاعليا يجب على الباحث ان يتمكن اولا من ادواته، وثانيا ان يتمكن من معرفة خصوصية النص المحلل كبنية.

ما هي النتائج التي توصلنا اليها، نقول ان هذه النتائج ما هي الا لبنة يجب ان تطرح هي ايضا للنقاش، ولكن رغم كل ذلك سنحاول ان نصرح على ما وقفنا عليه.

اننا حينما قارنا هذه النصوص تبين ما يلي :

1) ان نص الشريف الادريسي، لم يذكر تاريخ تأسيس المدينة ولا اسم مؤسسها بل اكتفى بالحديث عن سجلماسة كمدينة هامة.. وو.. الا ان اهم ما يسجل هنا انه لم يذكر اسماء القبائل المحيطة بالمدينة بالرغم من حديثه عن المدينة. وهو في وصفه للجوانب الطبيعية والجغرافية والحضارية قريب من الروايات الاخرى.

2) ان نص الحسن الوزان يمكن ان نسجل عليه عدة ملاحظات :

ـ عدم الامانة العلمية او التوثيق المضبوط، ودليلنا في ذلك يمكن لمسه في :

- جانب سنة التأسيس، اذ انه لم يذكر سنة التأسيس بالرغم من ادعاءه على اطلاعه على رواية او نص البكرى.

- جانب ذكر المؤسس : اذ يرى صاحب النص ان المؤسس هو الاسكندر الكبير (حسب البكرى كما جاء في نصه)، والبكري في نصه لم يذكر هذا الاسم، نضيف الى ذلك ان المصادر التاريخية لم تثبت توغل الرومان في المغرب وبالاحرى جبال الاطلس[1].

أما النص الاول والرابع اي نص البكري ونص صاحب الاستبصار فهنا نقف لحظة تأمل :

اولا هناك اتفاق بين النص الاول والرابع حول سنة التأسيس 140 هـ.

ثانيا : هناك ايضا شبه اتفاق حول المؤسس.

ثالثا : على المستوى اللغوي هناك تقارب كبير بين النصين وهنا اطرح سؤالا - هل البكري هو الذي اخذ عن صاحب الاستبصار او العكس ؟ وما هي ابعاد جهل صاحب الاستبصار ؟؟ لنترك هذا لذوي الاختصاص.

الخلاصة : ان الاعتماد على النصوص كمصادر اولية تبقى لها اهميتها القصوى، الا ان ذلك لا يبدو من الامور السهلة، فلا بد من شروط معرفية، ومنهجية حتى يكون البحث اكثر دقة. ثم ان النص يبقى وثيقة ومادة خامة، وان التمكن من لغته والاعتماد على الحقول الدلالية يبقى له اهميته خصوصا اذا عرفنا ان التحكم في النص يساهم وبطريقة هامة في عملية انتاج النص.

اذا يمكن ان نقول بان مثل هذه القضايا تدعو الى خلق بحث جماعي، لان ذلك له أهميته في النهوض بالبحث العلمي والجامعي ببلادنا.

ويمكن القول بان نص البكري هو اقرب النصوص الى «الواقع»، لا من حيث سنة التأسيس 140 هـ لان هذه الفترة عاصرت الفتوحات الاسلامية لشمال افريقيا او حول الاسرة المؤسسة لها والتي تتفق اهم المصادر حولها.

---

(1) انظر تعليق محمد حجي ص 127 كتاب وصف افريقيا ج I 1982 الرباط

بعض مظاهر الحضارة المغربية في عهد مولاي اسماعيل

محيي الدين عبد الحميد

يستدعي الحديث عن العهد الاسماعيلي الممتد سنوات طوالا (من 1082 الى 1139 هـ) الالمام بجوانب الحياة في المغرب خلال سبعة وخمسين عاما بالتاريخ الهجري، أو خمس وخمسين سنة بالتقويم الميلادي (1672-1727)، وهي فترة نادرة في تاريخ الخلفاء والملوك من حيث استمرارها أكثر من نصف قرن، بالرغم مما تخللها من ثورات، وفتن، وحروب، ودسائس، داخلا وخارجا، وبالرغم من حداثة سن المضطلع بمسؤولياتها، السلطان المولى اسماعيل، ابن الشريف، الدي لم يتعد حينذاك السادسة والعشرين من عمره، «لان ولادته كانت سنة 1056» حسبما نقله أبو العباس أحمد بن خالد الناصري [1] اعتمادا على خط من يوثق به، إلا أن حداثته في العمر لم تحل دون قيامه بأمور مملكته منذ توليه إثر وفاة أخيه مولاي الرشيد، فقد نهض بأعباء الخلافة، وضبط الامور، وأحسن السيرة [1م]، ولا شك أن المهام التي كان يتولاها خليفة للمولى الرشيد، ولاسيما في مكناس [2]، قد أهلته لهذا الدور، وهيأته لقيادة المغرب في ظروف لم تكن لتسلس القياد لغيره.

---

1) الاستقصاء ج 7/45-46

2) وعينه خليفة عنه بفاس عام 1070 هـ. أنظر مذكرات من التراث المغربي / ج 43/4 عندما قصد الرشيد اقليم سوس لتمهيده.

وإذا قلت : الالمام بجوانب الحياة في المغرب خلال هذه الفترة، وهي المعبر عنها في العنوان «ببعض مظاهر الحضارة المغربية في عهد مولاي اسماعيل»، فلا أعني ما يفهم خطأ من لفظة الالمام بمعنى الاحاطة والاستقصاء، وإنما أقصد الى معناها الصحيح وهو مقاربة الشيء دون تعمق، ذلك لان الموضوع بالنظر الى عنوانه يومىء الى الاستيعاب، وهو أمر لا يتسع له المجال، ولا ينسجم مع مقتضيات التنظيم كما تحرص عليه الدوائر المشرفة المشكورة على تنظيم جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، فلا يسعني إذن إلا الوفاء للتنظيمات الموضوعة في إطار ندوتنا الثانية خاصة، وهي المتعلقة بالمؤسسين الاوائل للدولة العلوية، ومن ضمنهم السلطان المولى اسماعيل بن الشريف، وهو الذي استغل رصيد أخويه السابقين، ووظفه لفائدة الدولة العلوية فترة مديدة، بسبب أنه كان يتحلي بنفس الخصال السياسية لاخويه، وزاد عليها ما تفرد به من حنكة وتدبير، لقد كان من طبيعة الاحداث والظروف التي يعيشها المغرب وقتذاك، أن يكون السلطان مولاي اسماعيل، أجدر، بعد أخيه مولاي رشيد، لقيادة المغرب بما أوتي من هذه الخصال وغيرها، سواء على صعيد المشكلات الداخلية أم على صعيد العلاقات الخارجية، وهي كلها جوانب ينوء بحملها المغرب كله، ولا يمكن مواجهتها، والقضاء على أسبابها الداخلية والخارجية، إلا بحزم وقوة الخليفة الثالث مولاي اسماعيل.

وعلى هذا لابد من الوقوف، ونحن نتحدث عن أحد المؤسسين للدولة العلوية، على الاسباب التي أدت الى قيامها بعد السعديين، لان قيام دولة أثر سقوط أخرى، ينطوي على كثير من الاسباب والدواعي، بالنسبة للباحث الذي ينشد الحقيقة، ويرغب في معرفة المسار الذي نهجته الدولة الجديدة، والعوامل التي جعلتها ترتضي هذه السياسة أو تلك.

ولعل الاشارة الى دولة المنصور الذهبي، آخر ملك قوي من السعديين يجلو لنا كثيرا من الاسباب، ويفتح لنا الطريق لتلمس الكيفية، التي اعتلت بها الدولة العلوية كرسي الحكم في المغرب :

1) وأبرز تلك الاسباب [3] ـ أن المنصور الذهبي جاء الى الحكم بعد

[3]) ابن تاويت، دعوة الحق، مارس 55/1973

انتصار السعديين في معركة وادي المخازن (986 هـ) وذلك في ظروف ينعدم فيها الاستقرار، ولولا حنكته وتجربته، وقوة شخصيته، واستغلاله لنتيجة الانتصار على البرتغال في وادي المخازن، لما استطاع الصمود في وجه الرياح العاتية التي واجهته، ولاسيما من قبل الجيش الذي طالب أفراده بأرزاقهم، بعد انتهائهم من المعركة.

2) وثاني الاسباب الممهدة لقيام العلويين، ولو بصفة غير مباشرة، الوباء الدي ساد المغرب، وتمثل في الطاعون الجارف، الذي أهلك أعدادا كثيرة، ولم ينج منه المنصور الذهبي نفسه، رغم محاولات الحد من انتشاره، وجعله بعيدا عن الخليفة وحاشيته.

3) وثالث الاسباب، ما قام به ولي عهده المأمون ضد أبيه الخليفة، لدرجة أنه حاول أن يستعدي عليه ويستنصر بأعدائه، ثم كان تنازع أبناء المنصور النهاية المؤلمة لدولته.

ودون أن نسترسل في هذا النطاق، نخلص الى أن ممهدات قيام الدولة العلوية، تتجلى في مثل هذه الاسباب العامة، القاضية على السعديين، والداعية الى قيام العلويين، وفي عوامل تجلت في إحدى مناطق المغرب، وهي سوس لاهميته في هذه الفترة، ولدوره في نظام السعديين حتى أن العلامة المبجل السوسي [4] يذكر «أن الفقهاء الجزوليين أول من أقام عماد الدولة السعدية حوال سنة 918 هـ فنجحوا في عملهم نجاحا باهرا، ثم جنوا من وراء ذلك ثمرة يانعة، فمدت عليهم الدولة السعدية ظلا وريفا، واتخذت منهم لحاشيتها كتابا وشعراء وقوادا وسفراء»، يهمني من هذه الفقرة أن أعقب عليها بما سجله العلامة القاضي أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التمانرتي (ت 1060 هـ) (في كتابه الفوائد الجمه) وهو يتحدث عما شاهده بعد اختلال أمر المغرب على اثر وفاة المنصور، يقول : «.. فزلزلت الارض زلزالها، ونالها من الفتن والفساد مانالها، فطاش الوقور، وعاش المحقور، ووضع النفيس، ورفع الخسيس، وفشا العار، وخان الجار [5]... الخ.

4) ايليغ قديما وحديثا / 29

5) نقلا عن (ايليغ) ص 31

ثم كان اختلاف أولاده كما أشرنا الضربة القاسية، في التعجيل بالنهاية الحتمية، فاستغلها المناوئون في سوس لكي يعيدوا التاريخ نفسه، مع غير السعديين فأقاموا دولة جديدة ليجمعوا بها كلمتهم التي آلت الى التفرق بسبب أولاد المنصور الذهبي، وكان من الطبيعي أن تأتي البادرة من آل علي بن الشيخ أحمد بن موسى الذين لا ينسون مالا قوه من الاهانة في عهد المنصور، ولاسيما ما لقيه علي بن الشيخ نفسه من اعتقال أفضى به الى الموت في السجن سنة 1006.

هذه إطلالة على الارهاصات المؤدية الى قيام الدولة العلوية، التي يخصني من بين مؤسسيها الثلاثة المولى اسماعيل، الذي استوعب هذه العوامل، وعمل للقضاء عليها في أثناء حكمه فنهض بالاعباء منذ الوهلة الاولى، وهو لايزال في مقتبل العمر، كما سبقت الاشارة. ومن ثم اعتبره كثير من مترجميه المؤسس الحقيقي للدولة العلوية، إذ «هو من ملوك الاسلام القليلين المعروفين بقوة الشخصية، وشدة البأس، والاخذ في الامور بالحزم، وعهده من العهود التي حولت سير التاريخ في المغرب الاسلامي، فقد أعاد الهيبة للمغرب خاصة، بعدما تصدعت وانهارت اثر المنصور السعدي، وقمع الفتن، وقضى على الثوار، واستعاد للمغرب حريته ووحدته، وافتك من الغزاة الاجانب مجموعة من المراسي المهمة، وقضى على المطامع الاجنبية، الهادفة الى محو كيانه والقضاء على عقيدته ولغته..» [6].

فلا غرو اذن أن يكون عهده (السلطان مولاي اسماعيل) أول صفحة تنفتح أمامنا ونحن نبحث في العهود الاولى لتأسيس الدولة الشريفة، حتى كادت تطغى على غيرها من صفحات المجد الاثيل لهذه الدولة العلوية.

وكانت بيعته متوفرة على كل الشروط المطلوبة، إذ وقع الاجماع من أهل الحل والعقد على جدارته وأهليته، وكانت بيعة شرعية «حضرها رؤوس القبائل المغربية، وأعيان المدن الاسلامية (كما يقول الصغير الافراني في روضة التعريف) [7] من أهل الحل والعقد، شرفاء وعلماء وصلحاء، كالشيخ

6) ابن منصور في مقدمة روضة التعريف للافراني ص / الاولى

7) روضة التعريف / 47

أبي محمد عبد القادر الفاسي، والشيخ أبي علي اليوسي»، وغيرهما من العلماء المشاهير ذوي النفوذ المعنوي في المجتمع المغربي وقتذاك.

ومما يلفت النظر في أمر توليته أنه لم يكن ساعيا الى الحكم، وإنما طلب منه ذلك، من أهل الحل والعقد، كما يؤكد ذلك مترجمه محمد الصغير الافراني [8]، يقول بعد كلام :

«وبالجملة فانه نصره الله (وهو يتحدث عنه في سنة 1133 تاريخ كتابة روضة التعريف) [9] لم تكن أمارته عن طلب وحرص، ولذلك رزقه الله النصر على الاعداء في كل موطن، قال عليه الصلاة والسلام من سأل الامارة وكل إليها، ومن لم يسألها أعين عليها» [10].

ويقول الافراني في كتابه (نزهة الحادي) عن الموضوع نفسه : «...وحضر بيعته أعيان المغرب وصلحاؤه، بحيث لم ينازع في أنه أحق بها وأهلها أحد ممن يشار إليه».

وهذا الذي سجله الافراني في عصر المولى اسماعيل، هو الذي اطمأن إليه المؤرخ العلامة الناصري (في الاستقصاء 45/7) وهو ينقل عن البستان الظريف للزياني «أن الناس اجتمعوا عليه وبايعوه، واتفقت كلمتهم عليه، ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادي كذلك بهداياهم وبيعاتهم، إلا مراكش وأعمالها فانه لم يأت منها أحد.. ورتب أموره بمكناسة، وعزم على السكنى بها، إذ كان لا يبغي بها بدلا..» الخ.

لكن بمجرد أن باشر أمور الدولة من عاصمته مكناس، بدأت الثورات المناوئة للدولة الفتية، وكانت البادرة، هي نكث البيعة من قبل أهل فاس، حين قتلوا خليفته زيدان بن عبيد العامري التلمساني، ليلة الجمعة 2 جمادى الاول

---

8) روضة التعريف / 49

9) مجلة المناهل ع 46 مقال لمحمد مزين

10) لفظ الحديث في البخاري في كتاب الاحكام من صحيحه عن عبد الرحمن بن سمرة قال، قال النبي (ص) يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة اعنت عليها. مج 124/13.

1083 أي بعد توليه بستة شهور تقريبا (حدد الافراني في روضة التعريف [11] بيعته في الساعة الثانية من يوم الاربعاء 16 ذي الحجة 1082) ولم يكتف الثوار بقتل خليفته وقائده التلمساني، بل «عملوا على الخلافة، وملأوا الابراج، وأسوار المدينة بالرماة»، ويصور الصغير الافراني في كتابه المذكور غضب السلطان على ثوار فاس، بعبارات تدل على مبلغ الحنق الذي أصابه من جراء فعلتهم الشنيعة»، اذ لم يزل محاصرا لهم، ومضيقا عليهم أشد التضييق، حتى انقطعت الرفاق، ولم تصل إليهم المبرة، فوقعوا في غلاء عظيم، وجوع أليم، وجهد جهيد من قلة الاقوات، والروع المفزع في كل الاوقات».

وظل الحصار على أهل فاس دون قتال، حتى أقلعوا وأعلنوا الطاعة، وقد دامت هذه الثورة «أربعة عشر شهرا، وثمانية عشر يوما ذاقوا فيها وبال أمرهم «كما جاء في الاستقصاء [12].

هكذا استطاع السلطان مولاي اسماعيل أن يخرج من هذه المحنة التي واجهته في بداية عهده منتصرا، ليعطي الدليل على أنه جدير حقا بالبيعة التي عقدها له العلماء والاعيان وأهل الحل والعقد، ومن أجل إرساء قواعد الحكم على أسس متينة، حاول الاستفادة من النتائج التي حصل عليها أخوه مولاي الرشيد، ليبني عليها بعد ذلك ما يراه كفيلا بالقضاء على الاختلال في البيئة الاجتماعية داخل المغرب، ومن ثم الانطلاق لتحقيق خطته في الحكم، وأول ما شغله من أمور الدولة، قضية الجيش الذي يمكنه الدفاع عن المغرب، وقمع الثورات التي تنشب هنا وهناك داخل المغرب، ومن ثم برزت فكرة السلطان العظيمة، المقتبسة بصورة غير مباشرة، عن العثمانيين ـ كما يرى أحد المؤرخين المغاربة المعاصرين ـ [13] وهي أن يكون له جيش منظم لا يرتبط بأية مجموعة اجتماعية، بل يرتبط فقط بشخص العاهل، بيمين الاخلاص، وعليه ضمنها أن يكون الضمانة الحية لاستمرار الاسرة الحاكمة، والاسلوب الوحيد لتحقيق المشروع في ذلك العصر، هو ان يستخدم عبيدا يؤدون يمين الولاء للعاهل، ومن هنا اسم عبيد البخاري».

---

11) ص 52
12) ج 48/7
13) العروي : تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، ص 274

ونظرته الى السلطة. يمكن تركيزها حسب الكاتب في : تشكيل جيش جديد، وهدم نفوذ الجمعيات، وفرض ضرائب باهظة.

وكلما توغل في الحكم، ازداد تشبثه بالسلطة، وأحكم شؤونها بكل ما يستلزمه الموقف، فالبرغم من عزوفه عن البيعة إثر وفاة أخيه مولاي الرشيد، كما تفيد مختلف الروايات التاريخية، فانه بعد التولي والبيعة «أصبح من المستحيل على أي كان أن يعزله عنه، لاقتناعه بأن إرادة الله عز وجل هي التي طوقت عنقه بمسؤولية الخلافة بعد أخيه» [14] وكان ينظر الى الحكم على أنه واجب أناطه الله به، فلابد من القيام بواجباته، تجاه الرعية، وتجاه الذين أحسنوا به الظن فبايعوه على المنشط والمكره، والواقع أنه «لم يسبق للدولة المغربية في أشكالها التقليدية، ان كانت أزمتها في قبضة خليفة كالمولى اسماعيل» في ثباته وصرامته، وهذا هو الذي عبر عنه أحد الاجانب [15] حين قال «إنه لا يستشير الا مع نفسه، وإن كان محفوفا على سبيل العادة ببعض القواد ويرافقه باستمرار «طالبه» لمهمات الامور، لكنه لا ينطلق بما يختلج في صدره الا بصيغة الاحكام المقررة، وعندئذ ينحصر رأي الحاشية في كلمتين «نعم سيدي».

إن اقتناع السلطان مولاي اسماعيل بهذا الاسلوب الصارم في الحكم، جعله يحبذ الاخذ به، حتى من لدن الدول الاجنبية، أو يرى في هذا الاسلوب، وقد شاركته فيه دول أخرى، ما يدل على أفضليته ونجاعته في الامساك بتقاليد الامور، وربما زاده اقتناعا به، أنه كان يتولى الحكم في القرن 17 الذي ساد فيه هذا النمط من الحكم المطلق، مما جعله يكتب الى الملك لويس الرابع عشر سنة 1682، لينوه بما يتمتع به من النفوذ المطلق في مملكته، بحيث لا يشاركه فيه، وفي اتخاذ القرارات برلمان أو غيره من الهيآت، التي قد تنازعه السلطة، وتملي عليه غير ما يراه هو وحده، وقال له : «وأنت بذلك ملك كمثل ملوك المغرب»، ونقل أحد سفراء الدول الاجنبية [16] عن السلطان قوله : «في علمي أن امبراطور فرنسا أعظم وأقوى ابمراطور في أوربا، وأنه منفرد بالحكم في

14) مذكرات من التراث المغربي / مج 4 ص 45
15) الكاهن النصراني الاب (بوسنو) مذكرات من التراث ص 48
16) السفير (دي سانتامان)، انظر مذكرات من التراث المغربي 48/4

مملكته وأنه يقود جنوده بنفسه، لمحاربة اعدائه، وانه يكون هو السباق الى القتال، وفي علمي ان ملك انجلترا على غير هذه السيرة، وأنه يترك البرلمان يقوده كأنه امرأة عجوز، وأن امرأة اسبانيا هي التي تتولى الحكم» ويلفتنا في أسلوب الحكم عند السلطان مولاي اسماعيل، وما عبر عنه في هذه الفقرات، أنه يعتز بصفات الحاكم القوي، الذي يأخذ المبادرة، ولا ينتظر جهة تملي عليه، أو تعارضه، والصفات التي يركز عليها فيما نقل عنه السفير الاجنبي، لا تركز على الجانب السلطوي وحده، وإنما تضيف إليه مايجب أن يتحلى به الحاكم من قوة، وشجاعة، وبأس فهو معجب بملك فرنسا لتوافر تلك الصفات فيه، وغير معجب بامبراطور انجلترا لانه تخلى، في نظره عن واجباته، حين شاركه البرلمان في الحكم، حتى كان يقوده، وصفة الرجولة ملحوظة عند السلطان مولاي اسماعيل، فقد وصف ملك انجلترا بالضعف، حين ترك البرلمان يقوده كأنه امرأة عجوز، والعبارة لها دلالتها، لاسيما أن الصورة المستهجنة في الحكم أكثر في نظر السلطان هي تولى امرأة حكم اسبانيا، فأين الرجال إذن، وأين الرجولة ؟ إنها الطامة حين يقبع الرجال، وتسير أمورهم امرأة، ويبدو أن السلطان ينطلق من مبادىء دينية خاصة بالأنظمة الاسلامية، وكأنه يشير الى الحديث [17] الذي يقول «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وذلك أن النبي ﷺ حين بلغه أن فرس كسرى ولوا بعد موت ملكهم إحدى بناته، أسف لذلك وأخبر أصحابه أن دولة كسرى مآلها الاضمحلال، بسبب ولاية امرأة، لكن لابد من الاشارة دفعا للبس، الى ان الشريعة الاسلامية تفرق بين الولاية الكبرى والصغرى، والخلاف بين المذاهب معروف لدى المهتمين.

ويمكن تفسير نظرة السلطان العلوي الى الحكم وأساليبه، «من خلال البيئة الاجتماعية في المغرب حينذاك (ق 17 م)»[18] فقد كان المجتمع المغربي متمسكا بأوضاعه الطبيعية الموروثة، وكانت القبيلة هي الخلية الاساسية للفرد والمجتمع، وهي التي تحميه وتدافع عنه، لكن السلطان، وهو يدرك هذا الوضع، لا يرى أن الصرامة وان كانت ضرورية تكفي لتسوية الأوضاع، لأنه ينطلق كما سبقت الاشارة آنفا من «القواعد الشرعية» بالنظر الى أن الشريعة الاسلامية

17) الحديث رواه النجاري عن أبي بكر، انظر كشف الخفا 197/2 .

18) مذكرات من التراث المغربي، بتصرف، انظر مج 49-48/4

هي غايته» وغاية دولته، «وان واجب السلطان هو صيانتها»، وحماية رعاياه من الاحتكام الى غيرها، وهذا يقتضي إشاعة أسباب العدل بين أفراد المجتمع المسلم، وإزالة كل ذرائع الاستبداد والظلم، ويتوازى هذا المنظور للمشكلات الداخلية مع مفهومه للسياسة الواجب اتباعها بالنسبة للمشكلات الخارجية من حيث المقاومة والدفاع عن شواطىء المغرب المحتلة، وحمايتها من الدخيل الاجنبي الجاثم عليها، والحق اننا اذا تتبعنا حياة هذا السلطان وسياسته ازاء هذا المشكل المهيمن على فكره منذ توليه وهو العمل على طرد الاجنبي، وتحرير الموانىء المغربية من هيمنته نجد أنه عالجها بنفس الحزم الذي تصرف به إزاء المشكلات الداخلية، وهذا هو السر في الانتصارات التي حققها في كل المعارك ضد المحتلين، «غزا طنجة سنة 1095 هـ وأخرج منها الانجليز، وفتح العرائش سنة 1101 (ثم فتح أصيلا في 1102) ثم تطلع الى تحرير سبتة، فسار إليها جيشه»[19] وحاصرها حصارا طويلا، فهو ينتصر على أعدائه كلما خاض معركة، وكأن الفوز والظفر سمتان لا تكادان تنفكان عنه في حله وترحاله، وفي سياسته الخارجية والداخلية، فما السبب في أن السلطان مولاي اسماعيل يخمد ثورات البلاد، ويقضي على أسبابها وخلفياتها ؟ ويعلن الحرب على أعدائه وهم أقدم حضارة، وأقوى عددا وعدة ؟ ويكون النصر حليفه باستمرار ؟ إن السر يرجع الى نفسية هذا السلطان الحازم الذي كان يصبو الى إحلال المغرب المكان الارفع، ويرجع كذلك الى جيشه المنظم المطواع، الذي يشرف على كل صغيرة وكبيرة من شؤونه، فلا غرو اذن ان يصبح المغرب ما بين القرنين (11، 12) الهجريين وحدة متماسكة لا تنفصم ولا تتجزأ، ويصبح الأجانب أمام قوة السلطان العلوي لا يقدرون على إعادة الكرة ضده، بل إنهم كانوا يسعون الى التزلف والدنو منه، بالهدايا الثمينة، وحتى الاسلحة.

ولقوته وشدة شكيمته، نسج الخيال الشعبي حوله بعض الاساطير التي لا نستبعدها، ولكنها صحت أم لم تصح، ذات مغزى عميق، ذلك أن التاريخ ينقل أن الاجانب في عهد السلطان القوى كانوا يرهبون أبناءهم منه، فإذا نزعوا الى العصيان، وحاولوا اثارة الفوضى، ذكروا لهم مولاي اسماعيل فيعودون الى

---

19) دعوة الحق، ع 1 س 15 محرم 1392 / ص 148-149

رشدهم، وكأنه البلسم الشافي لجموحهم، فهذه الاسطورة تكمن دلالتها في أن الاجانب هالهم ما يتمتع به السلطان من صرامة ونفوذ، لدرجة أن الخوف انتقل منهم الى أفراد أسرهم، الذين لا يخامرهم الشك في أن السلطان لا يترك الفعل المنكر دون عتاب، وقد يكون منشأ هذه الاسطورة، ما أثبته المؤرخون من أن الرسائل التي كان يبعثها الى الدول الاجنبية، كانت تكتب بلهجة قوية ترهب المبعوثة إليهم، وكانت بيده ورقة رابحة، تجعله في موقف القوي المرهوب، وتجعل أعداءه صاغرين أمام لهجته، هذه الورقة هي احتفاظه بمجموعة كبيرة من أساراهم في مكناس.

على أن المنصفين من الاوربيين لم يغمطوه حقه، بالرغم من مواقفه الصارمة ضدهم، فقد كتب أحدهم[20] «في القرن السابع عشر حول سفارته بالمغرب قائلا : ان المولى اسماعيل كان ملكا عظيما لا يعرف للاخلاد والسكينة سبيلا، ولا يعرف له من بين الملوك المغاربة مثيل، لا من ناحية طول تاريخ تربعه على العرش المغربي، ولا من ناحية حروبه وحصاراته وانتصاراته، كان يقدم أمامه كلما خرج للنزهة في بستانه على صهوة جواده المصحف الكريم، دليله المقدس في سياسته، وسلوكه، ومذهبه، ومن حين لآخر كان ينزل من فوق جواده، ويقبل الارض شكرا لله الواحد القهار»[21] هذا عن شخصية هذا السلطان، وربما أطلت فيها، ولكنها في نظري، أساس كل ما أحرزه المغرب في عهده داخليا وخارجيا، ومن ثم تعتبر شخصيته مبعث كل مظاهر الحضارة المغربية في عهده المديد، فما هي مظاهر الحضارة المغربية في عهده ؟

إذا كانت «الحضارة على العموم تطلق على كل عمل أو انتاج، تتمثل فيه الخصائص الانسانية، فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، بحيث يمكن اعتبار العلوم في شتى ألوان المعرفة، والفنون بمختلف أنواعها، والاخلاق الانسانية، مندرجة تحت مفهوم الحضارة، فإن الفترة التاريخية موضوع البحث تتوافر فيها كل هذه الخصائص[22].

(20) Bidou - de ST - Olon
(21) نقلا عن : دعوة الحق، ع 1 س 15 محرم 1392 هـ/ص 160
(22) انظر مثلا مجلة البحث العلمي، ع 18 أكتوبر 1971 / ص 113

ومع أن الجانب العقدي لا يدخل ضمن مشمولات هذا التعريف للحضارة، فإنه في نظري يجب ان يكون في المقدمة، لاسيما ونحن نبحث في تاريخ دولة أسست على دعائم العقيدة الاسلامية، لان التعريف المذكور، إذا كان ينطبق على الحضارة الانسانية عموما، فإنه يخل بمظهر أساسي في الحضارة الاسلامية المبنية على العقيدة، فهل كان هذا المظهر متوفرا ؟ يحدثنا التاريخ أن مولاي اسماعيل، بالرغم من كل ما قيل عنه، من اتصافه بالصرامة، واحكام قبضته على زمام الامور، فإنه لا يخرج عن دائرة الشرع، وإلا سنقع في تناقض إذا سلمنا، وهذا هو الواقع، أنه كان داعية الى الاسلام بين المسيحيين في المغرب وفي الخارج، وكان يحرص على عقد المجالس مع علماء مملكته، يحاور ويناظر، وكان يدعو الرهبان الموجودين في المملكة للمثول بين يديه، قصد المناظرة معهم في القضايا الدينية، بتسامح كبير، ولمطالبتهم بالحجج التي يستندون إليها في آرائهم، وكان يحضر الى مجلسه العلماء، والمصادر المعتمدة للاسترشاد بها، والرجوع إليها للحسم في المشكلات العارضة، بل تجاوز هذا النطاق الى خارج مملكته، فكتب الى ملوك أوربا المسيحيين في كثير من الموضوعات الدينية، وتحتفظ الوثائق المغربية برسالتين في هذا الموضوع، إحداها موجهة الى ملك انكلترا جيمس الثاني بعد خلعه والتجائه الى فرنسا في عام 1109 هـ، والثانية موجهة الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، أما الرسالة الاولى فنجدها عند المؤرخ ابن زيدان[23]، وقد جاء فيها بعد الحمدلة والحوقلة ونفي العبودية عن غير الله، الطابع السلطاني وبداخله اسماعيل بن الشريف الحسني، وبدائرته الآية الكريمة : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرا» وبعد دعاء لنفسه، جاء قوله : «الى طاغية الانجليز القاطن ببلاد الفرانصيص يعقوب، المسمى بلسانهم جيمس، سلام على من اتبع الهدى، وتجنب سبيل الغي والردى، وامن بالله ورسوله ثم اهتدى، أما بعد، فانا كتبناه إليك، وأوردناه عليك، وأوصلناك بهذا الكتاب، واعتنينا لك بهذا الخطاب، لمسألتين اثنتين، إحداهما دينية، والاخرى سياسية دنيوية وموجب ايرادهما عليك، التنبيه لك، والايقاظ، والنصح، والارشاد» الى أن يقول : «فأما الدينية منها، ففيها خير الدنيا والآخرة، لما فيها من ارشادك ونصحك ان وفقك الله

23) في كتابه اتحاف اعلام الناس، ص 50

تعالى، وذلك ان تعلم ان الله سبحانه جل جلاله، وتقدست صفاته وأسماؤه، انما خلق هذا الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ولا يشركوا به شيئا، قال الله سبحانه : «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون، ما اريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين».

وبعد الحديث عن رسالة الرسل، ورسالة محمد (ص) باعتبارها خاتمة، ودينه الذي هو أفضل الاديان، يقول مولاي اسماعيل : «ومما يجب اعتقاده، ان الانبياء كلهم يجب الايمان بهم، فلا تفرق بين أحد منهم، وان المسيح بن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، هو أحد الرسل الذين جاءوا عن الله، من غير ادعاء مما تدعون، ولا إطراء مما تطرون، قال الله تعالى في حق امه الصديقية : «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها، فنفخنا فيه من روحنا، وصدقت بكلمات ربها، وكتابه، وكانت من القانتين».

وقال تعالى في حقه : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون» وقال تعالى : «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته، ألقاها الى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسوله، ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيرا لكم، انما الله اله واحد، سبحانه ان يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الارض، وكفى بالله وكيلا، لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم إليه جميعا».

ويسترسل في هذا الجانب العقدي، مشيرا الى أهداف الرسالات كلها، ومركزا على عيسى وعلى خاتم النبيئين محمد عليهما السلام.

وهذه الرسالة نموذج كاف عن المنحى الذي ينحوه مولاي اسماعيل في هذا المظهر، ومن خلال الرسالة تظهر الروح الدينية التي تغلب على الخليفة العلوي، ومدى البعد العقدي، الذي شبع به، والعمق المعرفي الدقيق فيما يخص الديانات، ولاسيما المسيحية، والاسلام، كما تشهد بذلك الرسالة النموذج، وهذا العمق في معرفة الديانتين كان يركز عليه في رسائله، ليصل الى ان الاسلام هو الدين الخالص وعقيدته هي العقيدة الصحيحة، أما المسيحية فقد حرفها الاحبار والنصارى، كما يؤكد ذلك القرآن الكريم نفسه.

وتشبث مولاي اسماعيل بهذا المظهر الديني أو العقدي، أكسبه ورعا، تمثل بصفة خاصة في أنه توفق في قضية الخليفة من بعده، بحيث لم يعهد بالملك لاحد من أبنائه، فعندما أصيب بمرض موته في شهر جمادى 1139 هـ استدعى وزيره الكاتب أحمد اليحمدي، وقال له ما يدل على مبلغ خشيته من أن يعهد لاحد بالخلافة من بعده، دون أن يكون أهلا، وقال.. بعد عبارة : «فأحببت أن تشير علي بمن أقلده هذا الامر من ولدي، لانك أعرف بأحوالهم مني».

فقال له الوزير : يا مولانا لقد كلفتني أمرا عظيما، وأنا أقول الحق : انه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين، كان لك ثلاثة : مولاي محرز، ومولاي المامون، ومولاي محمد فقبضهم الله إليه».

فقال له السلطان مولاي اسماعيل : جزاك الله خيرا، ولم يعين للخلافة من بعده أحدا من أولاده، خشية وتورعا، ولكن المغاربة اختاروا السلالة الشريفة دون إلزام، وارتضوا استمرار الخلفاء العلويين من أبناء وأحفاد مولاي اسماعيل.

المظهر الفكري : (الادبي خاصة)

وهذا الجانب من حياة المغرب في عهد مولاي اسماعيل، طافح بالامثلة والشواهد، ولكني اثرت الوقوف على مظهر الابداع بصفة خاصة، لخلو كثير من مصادر مترجميه من الاهتمام بهذا المظهر، مع أنه كان متميزا، لاسيما في سوس والجنوب، حيث برزت مكانة ولده وخليفته هناك الامير محمد العالم، الذي كان يعقد مجالس العلم والادب في تارودانت، واذا تجاوزت أعلام العصر المبرزين في محتلف فنون المعرفة، أمثال أبي علي اليوسي موسوعة العصر، والروداني محمد بن سليمان مؤلف كتاب (صلة الخلف بموصول السلف) والوزير اليحمدي المشار اليه، فانني استعيض عنهم شهرتهم عند المهتمين خاصة، بذكر النهضة الادبية والعلمية التي شهدتها تارودانت أيام خليفته على سوس محمد العالم، ومعتمدين في ذلك كتابا ألفه احد أدباء القرن الثاني عشر الهجري، وأسماه (نزهة الالباب في ذكريات الاحباب) ومألفه روداني مجهول للأسف، وهذا الكتاب مجهول كذلك، لولا الاستاذ محمد المختار السوسي الذي

سجل ما عثر عليه من هذا الكتاب، في كتابه (المعسول، في الجزء 18 من ص 286 الى 328).

وهذا الكتاب الذي لا نعرف عنه الا ما ورد في المعسول، وثيقة أدبية ونقدية، تدل على مدى ما يتمتع به خليفة مولاي اسماعيل في تارودانت، وايليغ، من اطلاع واسع في مختلف الفنون والمعارف، وتتلخص فكرة الكتاب، أو الرسالة، في ان خليفة السلطان هناك كان يستقدم العلماء الى قصره في تارودانت لقراءة وسرد صحيح البخاري في شهور رمضان، وفي سنة 1112 جاء ثلاثة من علماء سوس للحضور مع الخليفة، فتصادق معهم كاتب الرسالة، وأخذ يتعهدهم طيلة وجودهم بتارودانت، ضيوفا على خليفة وولد مولاي اسماعيل وكان استقبالهم من طرف محمد العالم، مناسبة اكتشف فيها المؤلف الضلاعة التي يتمتع بها هؤلاء العلماء في الادب ولاسيما الشعر، كما اكتشفها خليفة السلطان نفسه، فجرت محاورات ومساجلات، أعادت الى الاذهان في هذه الفترة، مستوى المطارحات الادبية، التي شهدتها قصور بني العباس، وقصور الامويين في الاندلس.

وهذا مثال مما جرى من المساجلات بين هؤلاء العلماء وبين الخليفة على سوس وتارودانت، يقول المؤلف الروداني، بعد أن ذكر أنه امتحنهم، فوجدهم يحفظون الدواوين المعتمدة للشعراء المشاهير كالمتنبي، والبحتري، وأبي تمام، وأبي فراس، ومسلم بن الوليد، وكذا المقامات، فضلا عن المعلقات، «وكان أول ما سألهم عنه، أن قال لهم : من قائل هذا البيت ؟

إن الاسود أسود الغاب همتها ... يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

فقالوا متبادرين : إن قائله أبو تامام (حبيب بن أوس) الطائي، ومطلع القصيدة :

السيف أصدق انباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

وقال أحدهم (الايلاني) : إن شاء مولانا سردتها عليه كلها، مع ذكر حكايتها، وتاريخ المعتصم الذي قيلت فيه.. ثم قال لهم، من القائل ؟

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

فقال أحدهم (الزدوتي) مبادرا : انه لبشار بن برد..

ثم قال : من الذي يقول ؟ :

ونموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثـعل

فسكتوا ولم يجيبوا.

فقال أحدهم (السكتاني الاديب) يا مولانا لنا الفضل في أن يكون هذا أول ما نستفيده في حضرتك العالية،.. فقال لله دركم، فإنني عمدت الى ما ليس للشعراء المشاهير، لانظر هل تقولون لا ندري فيما لا تدرون.. ثم قال ان البيت لابن سلول، وهو شاعر مقل من التابعين، وقبل البيت :

اذا انتصبوا للقول قالوا فأحسنوا ولكن حسن القول خالفه الفعل
ونموا لنا الدنيا وهم يرضعونها أفاويق حتى ما يدر لها ثـعل

وبعد ابداء اعجابه بهم، والثناء منه عليهم، انتقل الى نوع آخر من المساجلات، وقال :

اجيزوا هذا البيت متتابعين، يبني كل واحد على ما قبله.

خلياني سبق السيف العذل حشو أذني صمم عمن عذل

ففكروا كلهم، فاذا بالسكتاني وكان ابرز الجماعة - قال :

قضى الامر فأصبحت لقى بلحاظ لا ببيض وأسل

فكاد خليفة السلطان يهتك وقاره، استحسانا للبيت، كما يقول الروداني مؤلف الرسالة، وبعد لحظة قال (الزدوتي) :

من يكن يشكو جراحات الظبا فأنا أشكو جراحات المقل

فانتفض الخليفة، فلم يملك أن يمد إليه يده بالمصافحة، فأهوى إليها الزدوتي مقبلا، فقال له، ما أعجب من تكنهم جبال سوس من بلغاء عظام، ثم قال ثالثهم الهلالي :

فليزرني ليرى كيف الهوى من يرى أن الهوى أمر جلل

فقال الخليفة، لافظ فوك أيها الاخير، فقد كنت أحسبك تتأخر عن حلبتك، فإذا بك فيها بلا تقدم ولا تأخر.

الندوة الثالثة :

آثار وتراث منطقة تافيلالت

الاساتذة المشاركون

- **لحسن تاوشيخت**
مدير مركز الدراسات والبحوث العلوية - الريصاني

- **محمد عبد الجليل الهجراوي**
محافظ المتحف الأثري - الرباط

- **عبد السلام مقداد**
أستاذ بالمعهد و.ع.آ.ث - الرباط

- **البيضاوية بلكامل**
أستاذ بكلية الآداب - الرباط

- **عبد العزيز بلفايدة**
أستاذ بكلية الآداب - فاس

- **محمد مقدون**
أستاذ بكلية الآداب - فاس

- **علي واحيدي**
أستاذ بكلية الآداب - فاس

- **العربي الرباطي**
أستاذ بالمعهد و.ع.آ.ث. - الرباط

- **رحمة الحريقي**
أستاذة بالمعهد و.ع.آ.ث. - الرباط

- **يوسف بوكبوط**
أستاذ، باحث

- **عبد العاطي لحلو**
مكلف بالأبحاث بمديرية التراث

- **مصطفى الادريسي**
مكلف بالأبحاث بمديرية التراث

حول خزف سجلماسة (تافيلالت)

لحسن تاوشيخت

مقدمة :

الخزف، أو الفخار هو آنية يتم صنعها من طين صلصالية لينة إمّا بواسطة اليد فقط واما بواسطة المخرطة، والدوار، واللولب، وبعد تشكيل هذه الآنية وتنقيتها، تطرح في الشمس، أو الظل لتجف قبل ان تكون في فرن خاص لتخرج فخارا عاديا «Poterie commune». ولكي نحصل على خزف مملط ومزخرف، فالصانع يغلف الآنية بأشكال فنية مغطاة غالبا بدهان شفاف Glaçure، ثم يعيدها الى الفرن مرة ثانية وفي نار متوسطة لكي يصبح الطلاء اكثر لمعانا والتصاقا بالقطعة الخزفية.

والخزف يعتبر مادة أساسية في الكشف عن خبايا حضارة أو تاريخ منطقة معينة وذلك للاعتبارات* التالي :

أولا فالخزف هو من أهم المؤشرات التاريخية التي يعتمد عليها الباحثون في تحقيب معالم أثرية معينة سواء اكانت منزلا او مقبرة او معملا للفخار او غيرهم..

ثانيا فالخزف يعتبر كذلك كشاهد عيان عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لحضارة ما، ذلك اننا بدراسة التقنيات المستعملة في الفخار

يمكن التعرف على نوعية المعيشة التي تميز كل تجمع سكني، وكذا حركاته اليومية داخل المنزل خاصة وداخل المجال الحضري عامة، ايضا يمكن التعرف على الوضعية الاقتصادية لمجتمع ما وبالتالي على الفقر، أو الترف الدي كان يعيش فيه. كما ان الخزف يمكننا من ضبط الحركة التجارية بين مختلف المدن والمناطق.

ثالثا بدراسة الفخار ومعامله يمكن الكشف عن التقنيات الصناعية العتيقة ومدى تطورها في مكان وزمان معينين.

رابعا والخزف في اخر المطاف يمكننا من اغناء معرفتنا حول الجوانب الفكرية - التراثية وخاصة الاثنولوجية لسكان منطقة ما وذلك من خلال دراسة مختلف الاستعمالات الثقافية للفخار.

لماذا احجبت المصادر المغربية «القروسطوية» عن ذكر وجود او انعدام وجود صناعة خزفية بمنطقة سجلماسة ؟؟

اذا كانت المصادر التاريخية والجغرافية خلال مايسمى «بالعصر الوسيط» قد اهتمت بالاحداث السياسية والعسكرية واحيانا ببعض المبادلات التجارية التي عرفتها سجلماسة، فان هذه المصادر قد التزمت الصمت الكامل حول الخزف السجلماسي ودوره في الاقتصاد المحلي وفي التجارة الصحراوية. هذا السكوت حتى من طرف بعض الرحالة الدين زاروا مدينة القوافل كابن حوقل وابن بطوطة والحسن الوزان المعروف بليون الافريقي، يمكن تفسيره بواسطة الاطروحات التالية :

أ - سمة الحدثية التي تميزت بها معظم المصادر المغربية «القروسطوية» ذلك انها اهتمت خاصة بالاحداث السياسية والعسكرية اكثر مما تطرقت للمجالات الاقتصادية والاجتماعية.

ب - بعض هذه المصادر وان قدمت جردا للمبادلات التجارية بين سجلماسة وبلاد السودان، فإنها ركزت وصفها للبضائع دات القيمة التجارية الكبرى مثل الدهب والملح والعبيد.

ج - طبيعة صناعة الفخار نفسها والتي غالبا ما تنعت بأنها وسخة وبأن محترفيها ما هم الا أناس بسطاء وبؤساء.

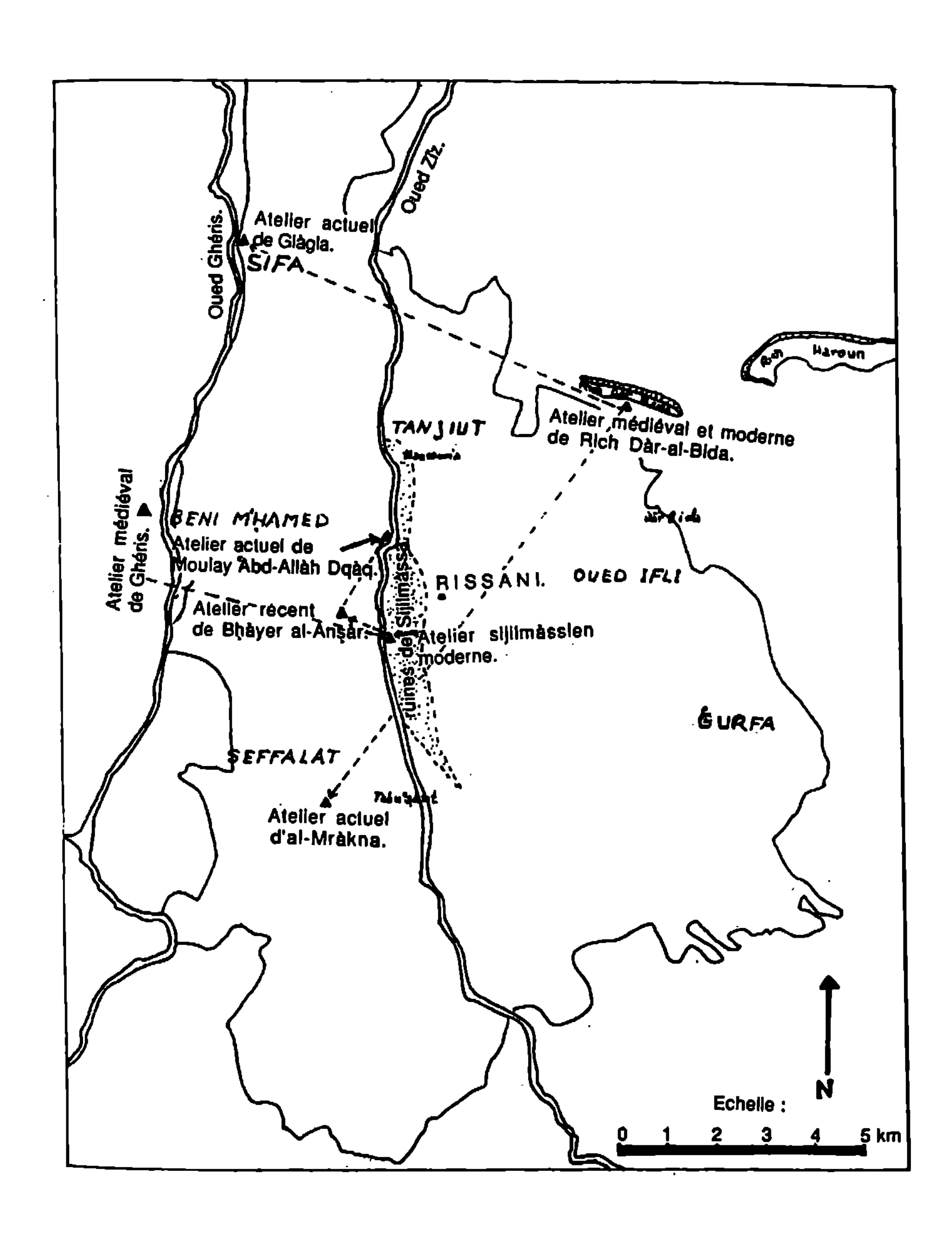
د - صعوبة استقراء تجارة الفخار من طرف مؤرخي «العصر الوسيط» وذلك اعتبارا اما ان القطع الخزفية كانت مغلفة بألياف من الحلفاء والتبن حتى لا تنكسر واما لضعف حجمها المصدر. وقد نتج عن صعوبة نقل وسرعة انكسار هذه البضاعة، ارتفاع اثمانها في الاسواق السودانية وبالتالي لايستهلكها الا بعض الافراد والعائلات الثرية وخاصة اغنياء الجالية المغربية المقيمة بالديار السودانية. إضافة الى هذا فان بعض المدن الاخرى قد نافست سجلماسة في تصدير المنتوجات الفخارية الى السودان مثل القيروان، تاهرت، تلمسان، وقلعة بني حماد. كما ان افريقيا جنوب الصحراء قد حاولت هي الاخرى ان تصنع وتكفي حاجتها بنفسها من هذه الانية الضرورية للمعيشة.

من خلال احدى او كل هذه الاطروحات يمكن اذن ان نستنتج لماذا لانجد في المصادر المغربية ولو اشارة واحدة عن تمركز الصناعة الخزفية بمدينة القوافل او على الاقل عن بضاعة فخارية في تجارة القوافل الرابطة بين تافيلالت والضفة الجنوبية للصحراء الكبرى. يقول الباحث الموريتاني عدنان لوحيشي في أطروحته حول الخزف المصدر من الغرب الاسلامي الى أودغشت بشرق موريتانيا : «ان المصادر العربية لا تذكر بتاتا الخزف كبضاعة تمثل جزءا من التجارة الصحراوية وان هذه البضاعة لم تسترع انتباه الرحالة كما استرعتهم بالمقابل بعض المنتوجات الاخرى مثل الاقمشة والاواني النحاسية» (1).

امام هذا السكوت المطبق لايجد الباحث في هذا الميدان بدا من الاطلاع على مصادر بديلة كالرواية الشفوية وخاصة الابحاث الاثرية التي اجريت سواء بسجلماسة نفسها او بمدن جنوب المعجبة الكبرى. ففيما يخص هذه الاخيرة يجب الاشارة باختصار كبير الى الابحاث التالية :

---

(1) LOUHICHI (Adnène) : **La céramique musulmane d'époque médiévale importée à Tegdaoust (Mauritanie Orientale) : étude archéologique et étude de laboratoire.** Paris I, Thèse de 3ème cycle : Art et Archéologie, 1984, 30 cm - 309 feilles (dacty), 32 pl. fig. et illust. ds. t. (p. 75).



Le Tàfilàlet sensu-stricto:
carte de localisation des ateliers de potiers filàliens depuis le Moyen-Age jusqu'à nos jours.

- - - ➔ Déplacement de l'activité céramique

1 ـ ابحاث غيمون موني (1950-1960)، وقد تركزت هذه الابحاث في عدة مراكز سودانية مثل كاو، تادمكة، كامبي صالح، تاكدة واودغشت. وقد تم العثور خلال هذه الابحاث على كثير من القطع الخزفية التي يرجع مصدرها الى المراكز الفخارية المغربية ومن بينها بدون شك عاصمة تافيلالت [2].

2 ـ ابحاث سانتيو بارا (بوادي السنيغال 1978) : وقد عثر خلال هذه الابحاث التي قام بها كل من تيلمان، رافيز وروبير، على عدة قطع خزفية خاصة منها تلك المملطة بدهان أخضر لامع والتي ارجع الباحثون اصلها اما الى الاندلس او قلعة بني حماد او سجلماسة [3].

3 ـ ابحاث اودغشت (1960-1965) : هذه الابحاث التي قام بها المركز الموريتاني للابحاث الاثرية بتنسيق مع المعهد الفرنسي للابحاث الصحراوية والساحلية برئاسة جون دوفيس، قد كشفت ولاول مرة عن وجود صناعة خزفية سجلماسية. هذه الصناعة التي لم تكتف بسد حاجيات سكان المدينة الفيلالية بل وبتصدير فائض انتاجها الى اودغشت وباقي المدن السودانية. وحسب جون دوفيس فان 50 % من القطع الخزفية التي عثر عليها بالمدينة الموريتانية يرجع مصدرها الى مدينة القوافل. من اهم القطع المكتشفة تأتي في المقدمة القارورات، القناديل الجرات الصغيرة وكلها ذات طلاء أخضر لامع [4].

بالاضافة الى هذه الابحاث يجب ذكر تلك التي اقيمت ببعض المدن المغربية وخاصة تلك الواقعة الى اقصى الشمال المغربي كالقصر الصغير وبليونيش : فأما حفريات القصر الصغير فإنها بدأت منذ 1975 والى غاية 1978 (اربعة مواسم). وقد قام بها المعهد الاثري المغربي بتعاون مع بعثة

---

(2) MAUNY (Raymond) : **Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen-Age d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie.** Dakar, mémoire de l'I.F.A.N., 1961, n° 61, 28 cm, 587 p. fig. cartes, index (pp. 367-75).

(3) THILMANS (G), RAVISE (A) et ROBERT (D) : «Découverte d'un fragment de poterie à Sintion-Bara (fleuve Sénégal)», in **Notes Africaines,** 1978, n° 159, pp. 59-61, 2 fig. ds. t.

(4) DEVISSE (Jean) et ROBERT (Denise et Sierge) : **Tagdaoust I : Recherche sur Awdaghost.** Paris, édit. Art et Métiers Graphiques, 1970. T. 1, 27 cm. 159 p.. illus. et fig. ds t. T. III : **Campagne 1960-65 : Enquêtes générales.** mémoire n° 25, Paris, édit. recherches sur les civilisations, 1983, 27 cm, 569 p. 119 illust. ds. t. CLIV plans et cartes (Publications de l'Institut Mauritanien de la Recherche Scientifique).

امريكية من جامعة نيويورك ببينغهامتن وتحت اشراف الباحث شارل ريدمان، وقد تم حفر ما يقارب 18 % من المساحة الكلية للموقع. والخزف المستخرج من هذه الابحاث ينتمي الى فترتين زمنيتين مختلفتين : الاولى اسلامية وتمتد من 1190 الى 1458 م والثانية برتغالية (1458-1550 م) (5).

اما حفريات بليونيش والتي قامت بها بعثة فرنسية برئاسة ميشيل تيراس وتحت اشراف المعهد الاثري المغربي، فقد بدأت مع بداية السبعينات والى غاية 1981، وكانت اهداف هذه الابحاث تتلخص خصوصا في معرفة العلاقة الرابطة بين المدينة المغربية وباديتها خلال القرون الوسطى وذلك من خلال دراسة نموذج مدينة سبتة وضواحيها اما الخزف فانه درس من طرف الباحثة ميشيلين كرونيي دكاردينال والتي قسمته من النحاية الشكلية الى صنفين : مفتوح ومغلوق ومن الناحية التقنية الى خزف عادي وخزف مزخرف (6).

أما فيما يخص الابحاث الاثرية التي عرفتها سجلماسة فيمكن الاشارة وباختصار كبير الى التالية حسب تسلسلها الزمني :

أ - الابحاث الايطالية : وقد قامت بها مؤسسة لودويك كريمر برئاسة الاستاذ بوريس دي راشويلدس وبتنسيق مع وزارة الشؤون الثقافية. هذه الابحاث أجريت خلال موسمين : الاول يمتد ما بين 29 مايو و3 يوليوز 1971. والموسم الثاني ما بين 28 مارس و7 يونيو 1972. وقد استعملت في هذه الابحاث تقنيات جد متطورة في المسح الارضي كتقنية الكشف الكهربائي او الجيوفيزيائي والتصوير بتقنية الاشعة تحت الحمراء. كما اجريت عدة اسبار تجريبية وخاصة في الجزء الشمالي لسجلماسة قرب قصر المنصورية حيث توجد بعض البقايا الاثرية : قلعة وثلاثة ابواب كبيرة. وقد عثر خلال هذه الاسبار على قنوات للسقي تحت ارضية على بساتين نموذجية من الطراز

---

(5) REDMAN (Charles L.) : «La céramique du Moyen-Age tardif à Qsar es-Sghir» in **Bulletin d'Archéologie Marocaine**. Rabat, 1979-80. T. XII; pp. 291-305. III pl. h. t.

(6) GRENIER de CARDINAL (Micheline) : «Recherches sur la céramique médiévale marocaine», in **Colloques Internationaux du C.N.R.S. n° 584 : La céramique médiévale en Méditerranée Occidentale (X-XVe s.). Valbonne du 11 au 14 sept. 1978.** Paris, édit. du C.N.R.S. 1980. 485 p. (pp. 227-249, XI pl. 12 fig. ds. t.).

الاندلسي، على بقايا نباتية وعظام انسانية، على حلي وعلى قطع زجاجية وخزفية، اضافة الى هذه الحفريات قامت البعثة الايطالية بأبحاث مكملة اثنوغرافية، تاريخية، ديمغرافية وانتربولوجية، الا انه مع كامل الاسف كل نتائج هذه الابحاث المهمة لم تجد طريقها للنشر وكل ما نشر لحد الان عبارة عن مقال صغير بالايطالية لا يشفي غليل الباحث (7).

ب ـ أبحاث المهندس محمد بنشمسي (يوليوز ـ غشت 1974) : وقد تركزت هذه الابحاث في القلب النابض للقصبة السجلماسية التي شيدها السلطان العلوي مولاي اسماعيل خلال زيارته لتافيلالت في نهاية القرن 17 م. وقد كشفت الحفريات عن بقايا منزل كبير الواقع على بعد 10 أمتار غرب المسجد. أما الخزف الذي عثر عليه فانه يرجع في معظمه الى معمل قصر بحاير الانصار الواقع على مسافة 1000 م الى الغرب من «المدينة العامرة». وهذا الفخار باعتبار تموضعه الطبقي وكذا مصدره يمكن تأريخه ما بين نهاية القرن 17 وبداية القرن 19 م. وخاصة بالقرن 18 م. ونتمنى ان تقدم لنا هذه الابحاث مزيدا من التفاصيل وذلك بنشر نتائجها.

ج ـ ابحاث البعثة الامريكية (18 يونيو ـ 25 يوليوز 1988) : تتكون هذه البعثة والتي شاركتُ وتعاونتُ معها من 12 باحثا امريكيا من جامعة ميدل تينيسي برئاسة الاستاذ غونالد ميسيي، بالاضافة الى ستة طلبة مغاربة من المعهد الوطني لعلوم الاثار والتراث، وقد تم حفر خمسة اسبار تجريبية في اهم النقط التي اثارت اهتمام المشرف، ورغم الوقت الضيق والظروف الجوية الغير مناسبة (حرارة مفرطة ورياح رملية) ورغم اختلال تموضع الطبقات الاثرية تم الكشف عن البقايا التالية :

* قناة مائية، حوض، بئر وقطع خزفية جميلة بالسبر الاول.
* عمود مبلط بالسبر الثاني.

---

(7) RACHEWILTZ (Boris de) : «Missione etno-archeologico nel Sah'ara Maghrebino : Rapporti preliminairi», in **Quadarni della Rivista «Africa»**, n° 2, Rome, Edit. A.BE.T.E., s. date, 24 cm, pp. 519-568, illust. et fig. ds. t. (Publ. de l'Inst. Italien pour l'Afrique).

* بقايا أسوار منزل أو مصنع الفخار، جهاز عظمي لطفل رضيع وخزف بالسبر الثالث.

* بقايا لناعورة أو حمام عمومي بالسبر الرابع.

* ركامات من الحجر والرمل والرماد بالسبر الخامس.

* قطع خزفية كثيرة حوالي 12080 قطعة مختلفة الاحجام والتركيب الصلصالي والمصدر والاشكال الزخرفية.

* لعل اهم عمل قامت به البعثة الامريكية هو انجاز عدة خرائط طبوغرافية - معمارية للقصبة السجلماسية في مركزها الاوسط.

د - ابحاثي الخاصة : لقد بدأ اهتمامي بخزف سجلماسة منذ سنة 1986. ومن غرائب الصدف ان يشهد صيف هذه السنة حفر قناة لمد مدينة الريصاني بالماء الشروب وذلك في الجهة الغربية لموقع مدينة القوافل ما بين وادي زيز وخزان الماء. وقد تم العثور في التراب المستخرج من هذه القناة على مجموعة مهمة من القطع الفخارية تنتمي في معظمها الى المركز الخزفي الذي شيد بهذا المكان بعد تخريب المدينة خلال نهاية القرن 14 اوبداية القرن 15 م. وقد اظهر حفر قناتين اخرتين بجوار الاولى وكذا السبر الثالث للبعثة الامريكة على نفس القناعة، انطلاقا من هذه الاطروحة قمت في الفترة الممتدة ما بين شهر مارس ويونيو 1988 بأمساح ارضية متعددة الاغراض منها خاصة تحديد موقع المعامل الخزفية الفيلالية وخصائص فخار المنطقة.

كيف تم اختيار المسح الارضي ؟

إن المسح الارضي أو ما يسمى بالفرنسية Prospection de Surface أو Survey بالانجليزية، يختلف في وسائله حسب الاهداف المتوخاة منه وحسب المناطق. ولهذا فقد حاولت جهد الامكان الاعتماد على التقنية التي تتناسب مع الدراسة الخزفية ومع موقع سجلماسة وتعتمد هذه التقنية على تخطيط ترابيع (مربعات من 25 م^2 أو 6,25 م^2) على طريقة لومبير من الشمال الى الجنوب ومن الغرب الى الشرق، بعد هذه العملية «Carroyage» يتم تسجيل جميع المعلومات الخاصة بكل مربع وهي كما يلي - الموقع - موضع التربيعة - مساحتها - تكوينها الجيولوجي - طابعها الطبوغارفي - اليوم والساعة - عدد

الباحثين ـ نوعية المسح ـ معلومات اضافية ـ عدد القطع الخزفية ـ انواع هذه القطع ـ كثافة هذه القطع ـ عدد الاشكال المستخرجة من هذه القطع ـ الملاحظات الاولية ـ القطع الغير خزفية ـ الصور والرسم.

بعد تسجيل هذه المعلومات يبدأ اذن المسح الارضي تربيعة بعد تربيعة وخلال هذه العملية يتم جمع ومحاسبة كل القطع الخزفية لكل مربع ووضعها بالتالي في حقيبة خاصة من البلاستيك تتضمن رقم المربع، تاريخ المسح وعدد القطع المتواجدة. في اخر المطاف يتم اختيار اهم القطع التي تمثل شكلا معينا. ويتم وضع هذه القطع في نفس الحقيبة بينما يتم ارجاع باقي القطع الى مكانها الاصلي بالمربع او مكان مجاور، وفي المساء تتم مباشرة عمليات غسل وتلصيق وترقيم القطع المختارة، كما يتم وضع تقييم عام لعملية المسح وتخطيط جرد لكل مجموعة من الترابيع واخر لكل مكان للمسح من نفس المعلومات السالفة الذكر، ما هي اهم النتائج التي تم تحقيقها ؟

1) انطلاقا من الفكرة القائلة بأن ما يوجد على سطح موقع اثري يعطي صورة نسبية لما يقع تحت التراب، يمكن تخطيط خرائط توزيع مختلفة حسب نوعية الخزف (عادي أو مطلي) أو حسب اشكال الخزف المتنوعة او حسب نوعية الاستعمال اليومي للفخار. هذه الخرائط يمكن ان تكون على شكل جداول تمثل مجموعة من الترابيع أو على شكل بيان حسابي لكل مربع على حدة أو على شكل منحنيات تعبر عن مختلف الكثافات او اخيرا على شكل خريطة تبين مختلف الكثافات حسب النسبة المئوية من القطع الخزفية لكل مربع. وقد حاولت اتباع هذا النموذج الاخير لما يبرزه من توزيع منظم وواقعي يتناسب مع التكوين الطبوغرافي للمكان. وقد تم تطبيق هذا النموذج على مختلف الامكنة حسب : أولا كثافة القطع الخزفية لكل مربع بالنسبة لمجموع القطع، ثانيا حسب كثافة كل نوع من القطع الفخارية (عادي او مملط) داخل كل مربع بالنسبة للمجموع العام او بالنسبة لمجموع نفس المربع او لكل مكان المسح. وأخيرا حسب كثافة كل شكل خزفي بالنسبة لمجموع الاشكال المختارة او بالنسبة لمجموع القطع.

2) لقد انطلقت من الفكرة القائلة بأن ما يوجد على السطح غالبا ما يعبر

عن ما يقع في جوف الارض، من هنا ركزت اهتمامي على كل تجمع للقطع الخزفية. ثلاث تجمعات رئيسية اثارت انتباهي : الأولى توجد الى الغرب من وادي غريس على مسافة 6 كلومترات غرب سجلماسة، وتمثل بدون شك المركز الأول لصناعة الخزف السجلماسية. وتوجد بهذا المكان كل الدلائل المميزة لهذه الصناعة من بقايا بنايات، الرماد، قطع خزفية كثيرة على امتداد عدة هكتارات، كما ان هذا المكان ربما كان غنيا خلال «العصر الوسيط» بالخصائص الاساسية الثلاثة لكل صناعة خزفية : الماء، الصلصال والحطب. التجمع الثاني يهم المكان الواقع ما بين خزان الماء ووادي زيز حيث تم العثور على عدد كبير من الادلة تعبر عن وجود صناعة فخارية مهمة كالرماد والأواني الضائعة، فواصل الاواني Les pernettes، بقايا مواد الطلاء Oxydes de glaçure، الأجر المحترق وكمية هائلة من الاشكال الخزفية المتنوعة، ويمثل هذا المكان الموقع الذي خلف المركز الاول في صناعة الفخار الفيلالي بعد تخريب سجلماسة في نهاية القرن 14 م واستمر نشاطه الى تاريخ تأسيس القصبة البسجلماسية حيث انتقل الفخاريون الى مركز اخر بقصر بحاير الانصار (التجمع الثالث) ويقع هذا المركز على حوالي كيلومتر واحد الى الغرب من الموقع السالف. ويحتفظ على بقايا الباب الرئيسي والسور الخارجي وعلى ثلاث، أفرنة، اثنان في الخارج والثالث داخل السور. وقد عثر في هذا المكان على حوالي 115.293 قطعة خزفية منها 46.167 عادية و69126 مملطة. وقد استمر هذا المركز في تزويد المجتمع المحلي بالانية الفخارية منذ أواخر القرن 17 والى غاية اواسط القرن 19 حيث تهدم وانتقل حرفيوه الى مركز مولاي عبد الله الدقاق الحالي والواقع على مسافة حوالي 1500 م الى الشمال الشرقي.

ويمكن اضافة الى هذه المراكز الثلاث مركزين اخرين لم يتم تحديد موقعهما بالضبط حتى الان الاول يختص في صناعة الفخار المزخرف والبديع والذي واصل نشاطه منذ «العصر الوسيط» وحتى القرن 19 م. والمركز الثاني يهم صناعة الانية المستعملة في الطبخ كالقدور والمجامير وانية حفظ الماء كالجرات الكبيرة، ويمكن ارجاع هذه الحرفة الى حقبة قديمة جدا والتي استمرت

حتى القرن 18 م ومن بعدها انتقلت الى مركزي كلاكلا والمراكنة الحاليين.

خلاصة القول ان المسح الارضي قد مكن من تحديد معظم المواقع التي تمركزت فيها معامل الفخار من خلال تطور الصناعة الخزفية الفيلالية منذ القرون الوسطى وحتى اليوم. الا ان هذا المسح يبقى بدون جدوى ان لم نربطه من جهة بالابحاث الاثرية التي يرجع لها الفضل أخيرا في تحقيق ما توصل إليه المسح من أطروحات وبالتالي اعطاء معلومات اكثر واقعية وعلمية لصناعة الخزف السجلماسية ومن جهة أخرى لايمكن ان نتجاهل الدراسة الاثنوغرافية للخزف الفيلالي الحالي لما يمثله من امتداد واستمرارية للفخار السجلماسي، وذلك ان هذه الدراسة، توضح معظم النقط التي لا يمكن للحفريات ولا المسح الارضي ان يعالجها وكمثال على ذلك الدور الاقتصادي والثقافي للفخار داخل الوسط الاجتماعي بصفة خاصة «ان مزج المعلومات الاثرية والتاريخية والاثنوغرافية من شأنه ان مدنا بصورة حية حول ماضي وحاضر المنطقة..»(8).

خصائص الخزف السجلماسي «القروسطوي»

تعتبر صناعة الفخار من الصناعات الوسخة والمزعجة بدخانها والتي قررت القاعدة الاسلامية العامة لتخطيط المدن بضرورة انشائها بعيدا عن المباني السكنية والمرافق العمومية وفي مكان موازي لاتجاه الرياح. يقول الباحث محمد عبد الستار عثمان بان الدخان والتلوث والصداع من الاسباب الرئيسية التي تقلق راحة سكان المدينة مما جعل الشريعة الاسلامية تؤكد في مبادئها التخطيط المدن، وجوب تشييد اقرنة الجير والخزف في مكان بعيد عن المساكن ومتلاءم مع اتجاه الريح (9). يجب ادن الانطلاق من هذه القاعدة في محاولة لتحديد تموضع الصناعة الخزفية السجلماسية. وبالفعل فإن ابحاثي

---

(8) GOULETQUER (P.L.), MORIS (J) et STOURN (J.C.) : «Prospection archéologique au pays Bigoudin : Méthodes, résultats et perspectives», in **PENN - AR BED** (U.S.A.), 1974, n° 73, T. IX, pp. 468-83, 7 fig. ds. t. (p. 482).

(9) محمد عبد الستار عثمان : المدينة الاسلامية، الكويت. سلسلة عالم المعرفة، غشت 1988، رقم 128 (ص125).

وملاحظاتي قد توصلت الى نفس النتيجة وهي ان هذه الصناعة كانت تتركز بدون شك خلال العصر الوسيط بعيدا عن الوسط الحضري لسجلماسة اي على بعد حوالي 6 كيلومترات الى الشمال الغربي وفي مكان يأخد بعين الاعتبار اتجاه الرياح الشمالية الشرقية، الجنوب غربية وكذا الرياح الشرقية - الغربية.

مع الاسف لا نعرف بالضبط متى بدأت صناعة الفخار السجلماسية إنتاجها. هل عاصرت مرحلة بناء مدينة القوافل ام جدت قبلها او انشئت بعد أن حس السجلماسيون ضرورة توفر انية تسهل عليهم وسائل العيش، ومن الملاحظ ان هذه الصناعة كما راينا من قبل - وباعتبار التطور التاريخي والعمراني خاصة للمنطقة - قد تنقلت من موقع الى اخر حفاظا على استمراريتها.

ما هي مميزات الخزف السجلماسي من حيث التقنية والشكل والزخرفة ؟

I - التركيب الصلصالي :

يمكن القول بان الطين المستعملة في صناعة الخزف السجلماسي - من حيث نظرة العين المجردة - يتكون من مادة صلصالية متماسكة ومختلطة بشوائب بيضاء من الكوارتز الرملي. وسمك الطين جد رقيق (ما بين 3 و10 ملم في المتوسط) وكذا الوزن فهو جد خفيف، بينما اللون فانه يتغير بين الاحمر والابيض والاصفر وذلك لعدة عوامل منها وضع الفخار ودرجة الحرارة داخل الفرن، نوعية الطبخة Type de cuisson وكذلك كمية الملح في الماء وسمك الطين. وللتذكير فان صناعة الخزف السجلماسية استعملت نوعين من الصلصال متقاربين من ناحية التكوين ويتشابهان كثيرا مع تركيب الخزف المكتشف بأودغشت.. الفرق الذي يمكن ملاحظته من خلال تطور هذه الصناعة يكمن في سمك ووزن الطين اللذان يتزايدان مع مرور الزمن وتدهور الانتاج، هذا عن الطين المستخدم في صناعة الاواني المنزلية الصغيرة الحجم كالأوعية والصحون والجرات الصغيرة والقناديل.. أما صناعة الانية الكبيرة مثل القلل والصواع وكذا القدور، فان طينها يتميز باختلاطه مع حصى صغير اسود اللون، بثقل الوزن، بسمك غليظ (ما بين 10 و24 ملم في المتوسط) وبلون أحمر.

أما من ناحية التحليل الفيزيائي والكيميائي فان الخزف السجلماسي يتكون من 17 عنصر : 10 أساسية : ـ 1) البوطاسيوم ـ 2) الروبيديوم ـ 3) المغنيزيوم ـ 4) الكالسيوم ـ 5) السترومیتوم ـ 6) الباريوم ـ 7) المنغنيز ـ 8) النيكل ـ 9) الزنك ـ 10) الألومنيوم

7 ثانوية : ـ 1) الكروم ـ 2) الحديد ـ 3) السليس ـ 4) التيتان ـ 5) الزير كونيوم ـ 6) السريوم ـ 7) الفناديوم.

II ـ الاشكال الخزفية :

هناك عدة طرق لدراسة هذه الاشكال : منها من يأخد بعين الاعتبار الفرق بين الاشكال العادية والاشكال دات الطلاء. ومنها من يميز بين الاشكال المفتوحة وأخرى مغلوقة ومنها من يصنف كل شكل على حدة. الا ان اهم الطرق تبقى بدون شكل تلك التي تدرس الاشكال الفخارية المختلفة حسب نوعية استعمالها. وهذه الوسيلة ـ التي اعتمدت عليها هنا ـ لا تهم فقط الوظيفة اليومية لكل شكل خزفي وانما تساعد كذلك على تفهم الثقافة المادية والحياة المعيشية لسكان سجلماسة. هذه الثقافة التي حجمت كل المصادر المغربية عن ذكرها ووصفها. فما هي اهم الاصناف الخزفية وما هو استعمالها اليومي ؟

1) أواني المائدة : تتميز هذه الأواني بكونها مخرطة بواسطة اللولب، وكذا بكثرتها وبانقسامها إلى مجموعتين رئيسيتين حسب وظيفتها وحجمها :

أ ـ آنية الاستعمال الفردي : مثل الاوعية والأقداح والصحون. وهي دات احجام مختلفة ولكنها صغيرة، ومتوسطة في الغالب. وتتميز بقاعدة مستديرة مسطحة او مفرغة من الوسط وهي دائما مغلفة سواء بطبقة طينية رقيقة emgobe او بطلاء اخضر، وغالبا خالية من كل فن زخرفي. المقاييس : الارتفاع المتوسط : 4 سم، القطر المتوسط للقاعدة : 5 سم، القطر المتوسط للجانب، 10 سم.

ب ـ الاطباق : وتستعمل عادة في الوجبات الجماعية، وهي نوعان : أطباق كبيرة الحجم «كسعة» وتستعمل بدون شكل في تهييىء الخبز أو الطعام. وتتميز هذه الاطباق بقاعدة كبيرة، مستديرة ومنبسطة وبجانب مفتوح مرفوقا

في بعض الاحيان بيدين صغيرتين (مثل : SM88/FI/1) أما سمك الطين فهو غليظ في الغالب (من 11 الى 19 ملم في المتوسط). هذه الاطباق اما انها مغلفة بغلاف طيني فقط على الواجهتين واما انها مطلية بدهان اخظر في الداخل كما هو الشأن في الطبق رقم SM88/FII/1. المقاييس، الارتفاع المتوسط : 9 سم، القطر المتوسط للقاعدة : 25 سم. / .م للجانب : 30 سم.

النوع الثاني من الاطباق تتميز بحجم متوسط وتستعمل في الوجبات اليومية. وهي دات قاعدة مستديرة مجوفة ودات جانب مفتوح ودائري، اما سمك الطين يتراوح ما بين 6 و7 ملم.. ونظرا لأهمية هذه الاطباق الوظيفية، فانها غالبا ما تكون مملطة بل ومزخرفة بدقة خاصة في الداخل. المقاييس، الارتفاع المتوسط : 7 سم. / م. للقاعدة : 8 سم. / .م للجانب : 15 سم.

2) انية حفظ الماء : وتتميز بانعدام اي طلاء زخرفي أو غلاف طيني، ويمكن تقسيم هذه الاواني الى نوعين اساسيين.

أ ـ القارورات والجرات الصغيرة، والتي تستعمل في سكب الماء وحفظه لمدة وجيزة، فأما القارورات فنظرا لاهميتها في الحياة اليومية باعتبارها مخصصة لاحتواء عنصر طبيعي حيوي الا وهو الماء الشروب، فانها تتميز بكثرتها ودقة صنعها. فهي في شكلها العام تتكون من قاعدة صغيرة ومنبسطة، من جانب مستدير شبه عمودي، من عنق طويل وضيق ومن يد او يدين تشدان بالعنق وبالجانب، اما التكوين الصلصالي فهو غالبا ذا سمك رقيق (من 5 الى 15 ملم) ووزن خفيف. وتتميز القارورات ايضا بكونها مخرطة مما يفسر وجود أثار اللولب على الجهة الداخلية وكذا الخارجية في بعض الاحيان. كما ان معظم القارورات تتميز بوجود سداد يقيها من الشوائب، المقاييس، الارتفاع. م : 12 سم. / .م للقاعدة : 6 سم، / .م للعنق : 4،6 سم.

أما الجرات الصغيرة فإن اهميتها لا تقل من القارورات. وتتميز بشكلها الجداب المتكون من قاعدة مستديرة ومجوفة، من جانب نصف كروي، من عنق متوسط الاتساع والارتفاع ومن يد او يدين طويلتين تشدان بالعنق وبالجانب. كما ان الجرات المائية غالبا ما تتوفر على مصفاة في بداية العنق. وقد تم العثور على مثل هذه الجرات في معظم المراكز الفخارية الشرق اوسطية، التونسية

(نيكرين وقرطاج)، الجزائرية (تاهرت وقلعة بني حماد) والمغربية (كمراكش) وكذا في اودغشت. ويدل هذا على كونها انية كثيرة الاستعمال والانتشار. والجرات السجلماسية تتميز بخفة وزنها ورقة سمكها (12.6 ملم) وبوجود اثار الدوار خاصة على الواجهة الداخلية، المقاييس : الارتفاع. م : 15 سم. / .م. للقاعدة : 8 سم. / للعنق : 9،4 سم.

ب : القلل والصواع : وتستعمل لخزن الماء لمدة اطول. فأما القلل فإنها تعتبر من الاشكال الفخارية الرئيسية في تافيلالت منذ «القرون الوسطى» على الاقل وحتى الوقت الراهن. ذلك انها لعبت وتلعب دائما دورا مهما في الحياة المعيشية للسكان باعتبارها الوسيلة الرئيسية في نقل الماء، في خزنه وخاصة في تبريده. فهي ثلاجة المنطقة بامتياز. والقلل لها شكل شبه كروي يتكون من قاعدة نصف دائرية، من جانب شبه عمودي ودائري، من عنق طويل ومتسع ومن يد أو يدين طويلتين تلتصقان بالعنق وبالجزء الاعلى من الجانب. أما التركيب الطيني فانه ينتمي الى صنف معامل الضاحية السجلماسية المجهولة الموقع. ويبلغ سمك الطين ما بين 12 و25 ملم. والقلل غالبا ما تصنع عبر ثلاثة مراحل : الاولى تخص صنع الجزء الاسفل بواسطة قالب من الطين الجافة، الثانية تهم تركيب الجانب او النصف الاوسط بواسطة الدوار. والمرحلة الاخيرة تخص تركيب العنق واليدين وذلك بعد عملية التجفيف الاولى. المقاييس : الارتفاع. م : 40 سم. / .م. للعنق : 12 سم.

أما الصواع فهو لا يختلف كثيرا عن القلل لا من حيث اهميته الوظيفية و تقنية الصنع او من حيث التركيب الصلصالي وايضا من حيث الشكل العام باستثناء العنق الذي يتسم باتساع اكبر وبقلة طوله، المقاييس : الارتفاع. م : 20 سم. / .م. للعنق : 15 سم.

3 ـ اواني حفظ المواد الغدائية السائلة وخاصة الزيت : لقد عرفت سجلماسة كما تذكر المصادر «القروسطوية» زراعة شجرية مزدهرة ومن بين هذه الاخيرة نجد اشجار الزيتون والتي خصص منتوجها عامة لاستخراج الزيت. ولحفظ هذه المادة المعيشية المهمة عمل الخزفيون على توفير نوع من الفخار يتكون خاصة من القارورات والجرات الصغيرة المطلية بدهان زخرفي

سواء على الواجهة الداخلية او على كلتا الواجهتين، وهذه الانية لا تختلف كثيرا عن تلك المخصصة لحفظ الماء لا من حيث الشكل او السمك او الحجم او التكوين الصلصالي. ولعل الدهان الاخظر سواء المفتوح او المغلوق هو الاكثر استعمالا. نفس مقاييس القارورات والجرات المائية.

4 ـ اواني حفظ المواد الغذائية الصلبة وخاصة القطانيات : وتضم خاصة القلل الكبيرة والصواع والتي تتشابه في شكلها العام واحجامها وتركيبها الطيني مع تلك المخصصة لخزن الماء ولعل الاختلاف الرئيسي الذي يمكن تسجيله هنا هو كون هذا النوع من الانية يكون دائما مغلفا بطبقة طينية رقيقة angode لوقاية المواد المحفوظة من الرطوبة (مثال SM88/FII,25). نفس المقاييس.

5 ـ اواني الطبخ : وتضم نوعين اساسيين من الاشكال الخزفية وكلاهما من صنع معامل الضاحية السجلماسية والمجهولة الموقع لحد الان :

أ ـ القدور : وتختص في طبخ الوجبات الغذائية المختلفة. وهذه القدور تتميز بأحجام متنوعة ولكن مع شكل وحيد يتكون من قاعدة شبه دائرية، من جانب نصف كروي، من عنق قصير ومتسع ومن يدين صغيرتين. اما سمك الطين فيبلغ ما بين 7 و12 ملم في المتوسط. والقدور والتي تم صنعها بدون شك بواسطة اللولب، غالبا ما تكون مغلفة بطلاء طيني لمنع السيولة اثناء الطبخ، المقاييس : الارتفاع المتوسط : 12 سم. القطر المتوسط للعمق : 9 سم.

ب ـ المغلاة : وتستعمل للطبخ وربما للوضوء. وقد تم العثور على قطع كثيرة تمثل هذا النوع من الخزف بل وتم اكتشاف صنف كامل (SM88/R8) بالسبر الاول، الطبقة 26 من حفريات البعثة الامريكية، وتتميز هذه المغلاة بشكلها الشبه كروي وبيد صغيرة ودائرية وكذا ببلبل مستدير. ويبلغ سمك الطين ما بين 5 و13 ملم. والمغلاة بكونها انية للطبخ فانها مغلفة بطلاء طيني على الواجهتين، المقاييس، الارتفاع. م : 17،3 سم. / .م للعنق : 20،7 سم. طول البلبل : 7 سم. قطره : 4 سم.

6 ـ القناديل الزيتية : وتعتبر المصدر الرئيسي للانارة خلال «العصر الوسيط» وحتى اواسط هذا القرن. وكانت تحظى باهتمام كبير من لدن السكان

نظرا لدورها في الحياة اليومية. وتتميز القناديل السجلماسية بحجم وشكل شبه متقاربين. فالقاعدة منبسطة ومستديرة، المستودع. خزان الزيت ـ اما نصف دائري او محزز، العنق قصير وضيق جدا، البلبل طويل، نصف كروي ومجوف من الوسط (موضع الفتيلة) اما اليد فهي مستديرة وقصيرة وتلتصق بالعنق والمستودع. والقناديل السجلماسية تتميز ايضا بخفة وزنها ورقة سمكها (من 3 الى 8 ملم) وبطلائها الاخضر اللامع. كما انها قد تم صنعها بواسطة المخرطة خلال مرحلتين بدون شك على الاقل : الاولى تخص صنع العنق والمستودع والثانية تهم تركيب البلبل واليد. والمقاييس، الارتفاع. م : 4،8 سم. / .م للقاعدة : 6،6 سن. / .م للعنق : 5 سم.

7 ـ المجامير : وتستخدم عادة لاشعال الجمر من اجل الطبخ، وقد تم العثور في موقع سجلماسة على ثلاثة اشكال مختلفة الحجم (SM88/R19. FII/12 et 13) وهذه المجامير اما انها دات قاعدة مستديرة ومنبسطة واما انها دات ارجل عمودية ثلاث مثل SM88/FII/12 ـ اما الجانب فهو نصف كروي مستقيم وغالبا ما يكون مرفوقا بيدين صغيرتين وبفتحات لتكييف الهواء (اخراج اوكسيد الكاربون وادخال الاوكسجين). والمجامير من صنع معامل ضواحي سجلماسية مثل اواني الطهي ويبلغ سمك طينها ما بين 10 و20 ملم. كما أنها مغلفة بطلاء طيني خارجيا على الاقل، وهذه المجامر قد تكون صنعت باليد فقط او بواسطة الدوار. المقاييس : الارتفاع. م : 12 سم. / .م للقاعدة : 30 سم. / .م للجانب : 28 سم.

8 ـ الاغطية : ومهمتها منع تسرب الشوائب والحشرات الى داخل الانية، وهي نوعان :

أ ـ أغطية الطبق : وتتميز بشكلها المحدب والنصف كروي والذي يتوسطه زر او شداد دائري ويبلغ سمك هذه الاغطية ما بين 4 و10 ملم، وهي من صنع معامل سجلماسة وغالبا ما تكون مملطة بدهان اخضر لامع على الواجهتين وخاصة على الخارج، المقاييس : الارتفاعا م : 5 سم. / .م للجانب : 10 سم.

ب ـ اغطية الجرات : وتتوفر على شكل مقعر يتكون من جانب نصف

دائري وقاعدة مستديرة ومسطحة يتوسطها شداد كروي. ويبلغ سمك طينها ما بين 5 و15 ملم. وهذه الاغطية ـ المصنوعة من طرف مصانع سجلماسة ـ تكون مغلفة فقط بطلاء طيني على الواجهتين. المقاييس : الارتفاع. م : 4 سم. / .م، للقاعدة : 6،2 سم. / .م للجانب : 10،6 سم.

اضافة الى هذه الاشكال الخزفية الرئيسية يجب التذكير بوجود اصناف اخرى اقل عددا وانتشارا مثل خزانة النقود : La tirelire وأدوات البناء (قرمود، أجور وزليج). كما يمكن ذكر ثوابت الصناعة الخزفية وهي الاواني الضائعة (rebuts) والفواصل (Pernettes).

خلاصة القول، يبدو من خلال هذه الدراسة الموجزة لاصناف الخزف السجلماسي ان هذا الاخير كان اشد ارتباطا بالحركة التجارية لسكان المدينة من جهة ومن جهة اخرى بالاهمية التي اعطيت للماء بتافيلالت. ويظهر هذا جليا من سيطرة الاشكال الفخارية المرتبطة بخزن الماء او نقله او تبريده. هذه الانية التي كانت بدون شك تلعب دورا اساسيا في حفظ الماء اثناء مراحل تجارة القوافل الشاقة والطويلة عبر متاهات وفيافي جافة. وباعتبار هذا الدور المتميز فان القارورات والجرات غالبا ما كانت صناعتها جد دقيقة وتقنيتها الفنية جد انيقة. والى جانب هذا الصنف تأتي اواني المائدة بكل اشكالها وايضا القناديل الزيتية التي لعبت كذلك دورا هاما في التجارة الصحراوية حيث تم العثور على عدد منها في مركزا ودغشت خصوصا. وترجع اهمية انية الانارة الى دورها الاستعمالي، الى اناقة صنعها والى خفة وزنها وسهولة نقلها.

III ـ الاشكال الزخرفية : يتميز الخزف «القروسطوي» الذي تم العثور عليه بموقع سجلماسة بتنوع التقنية الفنية وذلك حسب انتمائه الى احد المراكز المنتجة. ويمكن ان نصنف في هذا الصدد ثلاثة مراكز مختلفة وهي :

1 ـ المركز السجلماسي والذي كان اول الامر متمركزا غرب وادي غريس على بعد 6 كيلومترات شمال غرب سجلماسة ثم انتقل بعد تخريب المدينة الى المكان الواقع بين خزان الماء ووادي زيز ويتميز النمط الزخرفي لهذا المركز بالبساطة واعتماده خاصة على الاشكال الهندسية الخطية. والتي يمكن تقسيمها الى الانواع التالية :

أ ـ النتوء motifs en relief : وهي غالبا ما تكون عبارة عن خطوط مستقيمة وعمودية، فردية كانت أو متوازية وتستعمل خاصة في زخرفة أعناق وجوانب القارورات والجرات الصغيرة والاغطية مثال SM88/FIII/8, FII/20 et 27, FI/11.

ب ـ الاشكال المحززة motifs en creux : وهي الاكثر استعمالا وتكون اما منعزلة او متوازية أو عمودية او افقية، وهذه الاشكال يتم رسمها اثناء الدوران بواسطة قطعة حديدية او خشبية او مشط. ويمكن تصنيف هذه الاشكال كما يلي :

*الحزوز petites incisions، وتهم القارورة رقم FII/9، الاغطية : FIII/12 و2I/C7 القنديلين : FII,38 وR6 والطبقين 2I/C2 et E2.

* الخطوط المحززة المستقيمة، وتخص الاوعية 2I/C3. ZII/A1, B4, B5, C11 الاطباق 2I/C2, E2، القدح 2I/C9، القارورات FII/9, ZI/B14, ZII/Ay والجرات الصغيرة FII/17, FI/23، ZI/Ag B5, C6, C12, E12, E14, E16, ZII/A1, A4, B2,D16, E13, FIV/9, FII/27

* التعرجات : méandres، وهي قليلة الاستعمال وتوجد خاصة على الجرة الصغيرة SM88/FII,17 وعلى الغطاء SM88/ZI/C7.

* الافاريز الصغيرة : monlures : ويمكن تقسيمها الى نوعين : الأول يتميز بطابعه الوظيفي ويهم الجزء الاعلى من عنق القارورات خاصة حيث تستعمل هذه الافرايز من أجل احكام السدادة الجلدية بواسطة خيط متين. ومن القرورات التي تحمل مثل هذا النوع الزخرفي نذكر FI/5-6/ FIII/10 FII/8 وZI/A2 et B14. أما النوع الثاني والاكثر استعمالا فهو دو سمة زخرفية محضة. ويزين جوانب أو اعناق الاواني التالية :

ZI/A6, C2, C6, C10, C14 // FII/9, 9, 16, 51 // FI/2, 4, 8, 9, 29, 39, // FIII/2, 3, 12, 17, 24, 35 et 48 // FIV/1 et 9 // FS, E16, E12, D14, D12 // ZII/A1, A4, B2, D16, E2 et E13.

2) مركز صناعة الخزف العادي : والذي يجهل موقعه بدقة ومن

المحتمل أنه يتركز قرب الصخرة المعروفة بريش الدار البيضاء الواقعة على مسافة 6 كيلومترات الى الشرق من سجلماسة. وتتميز الاشكال الفنية لهذه الصناعة مثل النمط السالف بالبساطة وباعتماده خاصة على الزخرفة الهندسية الخطية والتي يمكن تصنيفها الى خمسة انواع مختلفة تهم كلها سواء العنق او الجزء الأعلى للجانب :

الافاريز المقطعة الى نتوء وحزوز متوالية : وهي تقنية جد قديمة في شمال افريقيا وتعتمد في تشكيلها على قطعة خشبية او حديدية او فقط على ضعوط متوالية بواسطة الابهام. وذلك اثناء الدوران. وتخص هذه الزخرفة القلل (SM88/FII/35 et ZII/C5) والصواع FII, 44, 45 et ZI/B15 et D12 واستثناء الوعاء رقم SM88/ZII/C5. وللتذكير فهذه التقنية استعملت كذلك خلال «العصر الوسيط» في خزف كل من سلا، قلعة بني حماد، نيكرين وElvira بإسبانيا.

ب ـ الحزوز الصغيرة : وترسم بواسطة قطعة خشبية أو حديدية اثناء الدورات. وتهم هذه التقنية اعناق الجرات خاصة مثل SM88/FIII, 28 et SM74/23. يقول محمد عطف الله، بأن «هذه التقنية استعملت في شمال افريقيا منذ ما قبل التاريخ وكذلك اثناء الاحتلال الروماني، الا ان استعمالها ازداد منذ الفتح الاسلامي، والخزف المزين بهذه الزخرفة غالبا ما يكون مؤرخا ما بين القرنين 11 و13 م»[10].

ج ـ الخطوط المستقيمة المتوازية المحززة : ويتم تشكيلها اثناء الدوران بواسطة مشط ونجدها خاصة على القدور مثل SM88/FII, 40 et ZI/E16.

د ـ التعرجات المحززة المنعزلة او المتوازية : وتتخد نفس الطريقة مثل الخطوط في تشكيلها، ونلاحظ هذا الشكل على الطبق رقم SM88/FI/3 وعلى القدور رقم SM88/FI, 34 et ZI/D8. وهذه التقنة وكذا السالفة تم استعمالها في

---

(10) ATA-ALLAH (Mohamed) : «La céramique musulmane à paroi fine incisée ou peinte de Lixus», in **Bull. d'Archéologie Marocaine**, 1967, Y. VII (pp. 627-28).

عدة مراكز خزفية غرب اسلامية ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر قلعة بني حماد(11).

هـ ـ الافاريز المملطة بدهان اسود : وهي افاريز منعزلة وافقية، تطبق مباشرة على الانية بعد تجفيفها وذلك بواسطة ملون نباتي (ربما القطران)، وتهم هذه التقنية الجزء الأعلى او الأسفل لعنق الجرات مثل SM88/FI/26 // FII, 31, 33 et 36/TIII/29/ZII/D9 وكذا الصواع. SM88/FIII/45 et ZI/B15.

3 ـ مركز الخزف البديع : وهو مركز مجهول الموقع لحد الان الا انه يبقى من صنع الضاحية السجلماسية وربما من نفس انتاج مركز غريس السالف الذكر والذي انتقل بعد تخريب سجلماسة ليستقر قرب قصر كرينفود الحالي حسب بعض الاثار المتبقية في هذا الموقع، والمهم ان صناعة هذا الخزف قد اعتمدت اشكالا زخرفية بديعة ومتنوعة يرق اليها القلب وتنشرح بها النفس. وقد صنفنا هذه الاشكال الى اربعة اساسية وهي :

أ ـ الاشكال الهندسية، ويمثل هذا الصنف ثلاثة اطباق :

الاول (SM88/FII, 41) وقد تم تزيين داخله بواسطة أوكسيد المنغنيز فوق ارضية بيضاء وتحث دهان اخضر شفاف. أما الاشكال المستعملة فهي عبارة عن نجمة ثمانية الاضلاع والمزينة في الوسط بواسطة ثلاث دوائر متوازية تفصل بين اولاها نقط كبيرة، وتعتبر النجمة من الاشكال الاكثر استعمالا في زخرفة الخزف الاسلامي، وفي شمال افريقيا «النجمة الثمانية اضلاع هي الشكل الوسط الذي يزين الانية الفخارية سواء في قلعة بني حماد او يكرين خلال لقرنين 10 و12 م»(12). كما استعمل هذا الشكل في الصناعات الخزفية المغربية خاصة في سلا ومراكش.

---

(11) MARÇACS (Georges) : **Les poteries et faïences de la Qal'a des Bani-Hammâd (XIe s.) : Contribution à l'étude de la céramique musulmane.** Constantine, édit; D. Braham, 1913; 28 cm (pl. VII).

(12) FERRON (J) et PINARD (M) : «La céramique musulmane à Carthage», in **Cahier de Byrsa**, Paris, 1954, T. IV (p. 59).

الثاني : الطبق رقم (SM88/FII/45) : وقد تم تزيينه بدائرتين متوازيتين مملوؤتين في الوسط بشبكة من المربعات الصغيرة (Cadrillager). وهذه الاشكال تم رسمها بواسطة اوكسيد المنغنيز فوق ارضية بيضاء وبدون تمليط. هذا النوع من الزخرفة غالبا ما يستعمل بعد تجفيف او طبخ الانية مباشرة. وللاشارة فان عدم تغليف هذه الزخرفة بدهان شفاف (glaçure)، يجعلها عرضة الزوال بسرعة. وهذه التقنية تم ملاحظتها في كثير من المراكز الخزفية الشمال افريقية مثل نيكرين والعباسية (تونس - القرنين 9 و10 م)، قلعة بني حماد وسلا (القرن 11م) ومراكش (القرن 11 و12 م).

الثالث ويمثله الطبق رقم SM88/FIII, 40 وقد تم تشكيل وسطه بافريز من الاشكال الحلزونية اضافة الى أفاريز افقية متوازية على شكل اغصان شجرية. وقد رسمت هذه الوخرفة على ارضية بيضاء بواسطة اوكسيد المنغنيز وبدون استعمال اي دهان مثل الطبق السالف.

ب - الاشكال النباتية : ويمثلها طبقين اثنين :

الطبق الاول (SM88/FIII, 38) وقد تم زخرفته داخليا بواسطة اوكسيد المنغنيز فوق ارضية بيضاء وتحت دهان شفاف. اما الاشكال المستعملة فهي عبارة عن نخيلة ذات اغصان متشابكة واتي تلتف حول ساق رقيق دي اطراف غليظة. والى يمين ويسار هذه النخيلة رسمت وردتان دات اربعة وريقات. وتعتبر النخيلة من الاشكال الزخرفية المستعملة بكثرة في تزيين الفخار الاسلامي حيث نجدها منتشرة في جميع انحاء العالم الاسلامي كالأندلس (ما بين القرنين 10 و15 م)، قلعة بني حماد (القرن 11 م)، رقادة (ما بين القرنين 9 و14 م)، سلا ومراكش (القرنين 11 - 12 م)، قرطاج (ما بين القرنين 10 و12 م) وغيرها.

الطبق الثان (SM88/ZII/D14) : وقد استعملت في زخرفته نفس التقنية السالفة الا ان اشكاله تعتمد على مزج ما بين اشكال زهرية رئيسية (غير واضحة المعالم) وأخرى هندسية ثانوية (حلزونيات).

ج - الاشكال البشرية والحيوانية : ويمثلها الطبق رقم SM88/FIII, 37، وقد شكل داخل هذا الطبق بواسطة اسد كبير والذي يضع رجله اليمنى فوق رأس رجل ملتحي. وقد تم ملء الامكنة الفارغة باشكال زهرية ذات اربعة وريقات وأغصان رقيقة، وهذه الاشكال تم رسمها اعتمادا على تقنية ما يسمى بالاسبانية «Cuerda seca»، اي فصل ما بين الالوان المختلفة بواسة فواصل من أوكسيد المنغنيز، فبعد تجفيف الانية او بعد ان اكتوت للمّرة الاولى يتم تخطيط الاشكال الزخرفية بأكسيد المنغنيز على ارضية بيضاء، ثم تغطى الانية داخليا وخارجيا بدهات اخظر شفاف. وقد استعملت مثل هذه التقنية في زخرفة فخار سلا، قلعة بني حماد والاندلس. ففي سلا (القرنين 11 و12 م) نلاحظ استعمال تقنية La cuerda seca في رسم أشكال حيوانية مثل الاسد، الارنب والغزالة.. وتحت دهان اخظر، ويمكن ادراج نفس الملاحظة على خزف قلعة بني حماد خلال القرن 11 م (13)، الا ان المصدر الرئيسي لهذه التقنية - كما يدل على ذلك اسمها - يبقى هو الديار الاندلسية حيث نلاحظ استعمالها في معظم المراكز الفخارية منذ القرن 9 م بمدينة الزهراء والى غاية القرن 15 م ببلانسية Vallence. ولعل من الاطباق التي يمكن مقارنتها بهذا الطبق السجلماسي يمكن ذكر الطبق الذي عثر عليه في Paternd. وقد تم تزيين داخل هذا الطبق بواسطة اسد كبير والذي يرفع رجله اليمنى ومخرجا اظافره، ويحاط هذا الاسد بأشكال زهرية ونباتية (ورود واغصان) وقد تم رسم هذه الاشكال بواسطة أوكسيد المنغنيز بينما تم تغليفها بطلاء اخظر شفاف(14).

د - الاشكال المزينة بواسطة كتابات عربية : وتهم اربعة جرات صغيرة جد بديعة (SM88/R15 // ZI/A9 // FII/20 // FIV/9)، وتتميز هذه الجرات بكونها مطلية بدهان اخظر على الواجهتين. كما تتميز بوجود افريز منتوء افقي

---

(13) GOLVIN (Lucien) : **Recherches archéologiques à la Qal'a des Bani-Hammâd.** Paris, édit. G.P. Maisonneuve et Larose, 1965, 25,5 cm, 312 p. 111 fig. 110 pl. (p. 221).

(14) ARECHEGA (Carmen de) : «Antecedentes de la losa de cuerda seca en Toledo en el siglo XVe; in **2e Coloquo Internacional de Ceramica Medieval en el Mediterraneo Ocidental, Toledo 1981**, Madrid 1986, pp. 409-413 (fig. 3 d. Paterna).

يفصل بين الجانب والقاعدة. ويعلو هذا الافريز، افريزان صغيران محززان افقيان ومتوازيان. وتختص الجرة رقم SM88/R15 والشبه الكاملة بكونها تضم أولا افريز من الخطوط المحززة المتوازية والافقية والمائلة والتي تم رسمها على العنق، ثانيا والاهم بتوفرها فوق الجزء الفاصل بين اليدين. على افريزين كبيرين منقوش عليهما بالخط الكوفي القديم العبارات التالية : «البركة، البركة، ثم «اليمن، اليمن». ومما يزيد في رونق هذه الزخرفة كونها مزينة بأشكال زهرية وهندسية والتي تملأ الفراغ المتواجد بين مختلف الاحرف. كما ان هاته الكتابات محاطة من الاسفل والاعلى بافريزين محززين افقيين ومتوازيين. ويمكن ملاحظة ان هذه العبارات تنتمي الى الخط الكوفي القديم والخالي من النقط وعلامات الشكل (ربما القرن 11 م)، كما ان كلمتي البركة واليمن وكذا الملك هي من العبارات الاكثر استعمالا في زخرفة الخزف الاسلامي حيث نجدها مثلا في بلاد الفرس، في مصر وكذا في الغرب الاسلامي. ففي المغرب تم ملاحظتها خاصة على فخار مدينتي سلا ومراكش والمؤرخ بالقرنين 11 12 م.

IV - التحقيب التاريخي : تعتبر مسألة تأريخ الخزف «القروسطوى» بالمغرب عموما من المشاكل العويصة التي تواجه الباحثين الاثريين وذلك راجع الى قلة الحفريات الدقيقة والدراسات الجيدة للطبقات الاثرية. كما يمكن ارجاع اسباب هذا المشكل اولا الى تشابه التركيب الصلصالي بين مختلف المراكز الفخارية والى تشابه الاشكال الفنية المعتمدة والى غياب التجاريب المخبرية. ولهذا يجب توفر عدة معطيات (المقارنة التركيبية والشكلية والتقنية وكذا الظروف التاريخية) من أجل الوصول الى تسلسل زمني مقنع لاية انية فخارية او صناعة خزفية :

فبالنسبة للاشكال يمكن القول ان لكل مصنع خزفي طابعه الخاص الذي يميزه عن باقي المراكز. حقيقة ان هذا الطابع يتغير مع مرور الوقت الا انه مع ذلك يحتفظ ببعض السمات الصامدة امام كل تطور. ونلاحظ هذا مثلا في صناعة الخزف الفيلالية الحالية والتي بالرغم من تدهورها التقني لازالت تحافظ ببعض خصائص الفخار السجلماسي في شكله العام. ولعل اهم الاشكال الثابتة

التي تميز كل صناعة فخارية تبقى هي القناديل الزيتية والتي تعتبر بحق اهم عنصر للتأريخ يمكن الاعتماد عليه.

أما بالنسبة للتركيب الصلصالي فانه يصعب التركيز عليه بمفرده ذلك أن العين المجردة لا تستطيع ان تعمل الفرق بين مختلف التكوينات الطينية، كما ان التجاريب المخبرية لازالت غير كافية وغير قادرة على اعطاء تأريخ محدد رغم استطاعتها التمييز بين مختلف العناصر الكميائية المكونة لكل قطعة خزفية هذا بالاضافة الى التشابه الكبير بين مختلف العينات الصلصالية للاشكال الفخارية المغربية خاصة والشمال افريقية عامة.

بالنسبة للزخرفة، يمكن القول بأنه اذا تعذر التحقيب الزمني اعتمادا على العناصر التأريخية الدقيقة مثل النفود او المصادر المكتوبة او الدراسة استراتيغرافية (الطبقات الاثرية) فان الاشكال الفنية تبقى المخرج الضروري الذي يمكن التركيز عليه اضافة طبعا الى العناصر السالفة الذكر وذلك من اجل جل هذه المعضلة باعتبار ان لكل مركز خزفي قاموسه الزخرفي الخاص والمميز.

هذا ويبقى الامل الوحيد والاخير هو دراسة كل هاته العناصر بشكل شامل وبنظرة حذرة مع وظعها في الاطار التاريخي العام للموقع الاثري عموما ولصناعة الفخار خصوصا.

من هذه القاعدة اذن يمكن تحقيب الخزف السجلماسي «القروسطوي» اعتمادا خاصة على المعطيات التالية :

1) الاطار التاريخي : كما هو معلوم وكما اتفق على ذلك معظم المؤرخين فان سجلماسة قد اسست على يد خوارج مكناسة الصفرية حوالي سنة 140 هـ/ 78-757 م. وحسب الجغرافي المغربي الكبير الحسن الوزان المعروف بليون الافريقي، فان هذهالمدينة قد دمرت عن اخرها وهجرها سكانها خلال نهاية القرن 14 م اي مباشرة بعد مقتل السلطان المريني ابي العباس احمد حوالي 1393 م. ونذكر الحسن الوزان الذي قضى ما يقرب من سبعة اشهر بأحد قصور تافيلالت (قصر المامون) خلال بداية القرن 16 (ربما 1517)

ينكر ان مدينة القوافل لم يعد لها اي وجود وان السجلماسيين قد تفرقوا الى مجموعات، كل مجموعة شيدت لها قصرا بضواحي العاصمة الفيلالية(15). ومن الملاحظ أن الخزفيين قد استغلوا فرصة اندثار المدينة ليبنوا مراكزهم الجديدة وسط هذه الخرائب وليتقربوا اكثر من السوق الاستهلاكية والاماكن المؤمنة. وهذه ظاهرة عامة عرفتها معظم المدن القديمة وكمثال على ذلك مدينة الفوسطاط بمصر. وقد استقرت صناعة الخزف الفيلالية في مركزين اساسيين الاول يقع مت بين خزان الماء الحالي ووادي زيز ويخص صناعة الفخار العادي والفخار المملط بدهان اخضر والذي كان سابقا متركزا الى الغرب من وادي غريس على بعد حوالي 6 كيلومترات الى الشمال الغربي من سجلماسة. والثاني يخص ربما صناعة الفخار البديع Poterie de lux وقد تركز على بعد حوالي 2 كيلومتر جنوب المركز الاول. وقد استمر المركزان في نشاطهما الى حدود بناء القصبة السجلماسية من طرف المولى اسماعلي خلال نهاية القرن 17 م حيث انتقل خزفيو المركز الاول خاصة الى قصر بحاير الانصار الواقع علي بعد 1000 متر الى الغرب حيث استأنفوا نشاطهم الى غاية اواسط القرن 19 م. اما المركز الثاني فمن المتوقع انه اندثر خلال هاته الفترة مما جعل اهل تافيلالت يضطرون الى جلب الانية الفخارية الانيقة من مدينة فاس مثل الاطباق الصنونة والبطة. وكلها اشكال جميلة كانت تصنع من طرف خزفيي فاس خصيصا لتصديرها الى تافيلالت، اما النوع الثالث من الخزف الفيلالي والخاص بانية الطبخ وانية حفظ الماء (القدور والقلل خاصة) فمن الملاحظ أنه لم يغير موقعه بل استمر في الانتاج بنفس المكان (ربما ريش الدار البيضاء) الى غاية القرن 18 م او بداية 19 م حيث انتقل الى مركزي كلاكلا بالسيفة والمراكنة بالسفالات قرب ثابو عصامت، وهما المركزين الرئيسيين الحاليين.

2 - الطبقات الاثرية : لعل ما يميز هذه الطبقات هو اختلاطها الكبير وعدم وضوحها جيدا وذلك راجع الى العوامل التالية : أولا ان سجلماسة

---

(15) L'AFRICAIN (Jean-Léon) : **Description de l'Afrique**. Paris, nouvelle édition traduite de l'italien par A. Epaulard, annotée par A. Epaulard, Th. Monod, H. Lhote et R. Mauny. Librairie de l'Amérique et d'Orient Adrien, Maisonneuve, 1981, (23 cm), 2 vol. XVI + 629 p. cartes ds. t. (publ. de l'Inst. des hautes Etudes Marocaines, n° LXI); p. 430.

باعتبارها مركزا تجاريا، صناعيا وفلاحيا مهما، قد تعرضت طيلة تاريخها الى عمليات المداهمة والسيطرة من طرف تقريبا جميع القوى والدول التي تعاقبت على حكم المغرب منذ التأسيس سنة 140 هـ وحتى نهاية الدولة المرينية. وقد ادت هذه الوضعية الى عمليات التخريب والبناء المستمرين للمدينة. العامل الثاني يتمثل في تقنية البناء نفسها ذلك ان سجلماسة كما ذكرت المصادر التاريخية وكما بينت الحفريات الاثرية، قد تم بناؤها باستعمال الثابوت (اللوح). وهذه التقنية والتي تلائم جيد الظروف الجيومناخية المحلية، تصبح بتخريبها عبارة عن ركامات من الاتربة المختلطة والتي يصعب التمييز بين مختلف البنايات التي تمثلها ولا الطبقات الاثرية التي تنتمي اليها. العامل الثالث مناخي : ذلك ان العاصمة الفيلالية رغم بنائها فوق مكان مرتفع الى حد ما، فانها تعرضت اكثر من مرة لفيضان وادي زيز ووادي غريس مما ادى الى تخريب واندثار عدد من المعالم الاثرية بالمدينة. العامل الاخير يتمثل في انعدام اية دراسة استراتيغرافية جدية لموقع سجلماسة. ذلك أن كل الحفريات التي عرفها الموقع كانت جد سريعة وظرفية مما يجعل من الصعب الاعتماد عليها في اية دراسة للطبقات الأثرية عموما في دراسة الخزف السجلماسي بشكل خاص.

3) النقود : تعتبر مدينة القوافل من المراكز المغربية المهمة في سك العملة خلال «العصر الوسيط» وكانت عملتها ذات سمعة طيبة في جميع حواضر الغرب الاسلامي اثناء هذه الفترة. وقد اطلعتنا الكتب المخصصة في ميدان النقد - مثلا كتاب جوزيف دومنيك بغيتس - على هذه الاهمية[16]. ومع حسن الحظ فقد عثرت على عدة قطع نقدية بموقع المدينة ومنها خاصة ثلاثة دراهم مغراوية وذلك خلال عملية المسح الارضي للمربع SM88/ZI/A6. وهذه الدراهم تنتسب الى اخر ملوك بني مغراوة واخر حاكم في عهد الاستقلال السجلماسي : الا وهو مسعود بن وانودين الذي لانعرف مع الاسف تاريخ بداية حكمه بينما كانت نهايته على يد المرابطين حوالي سنة 445 هـ/1054 م. حقيقة انه يصعب الاعتماد على هذه النقود بوحدها من اجل تقديم تحقيب زمني للخزف المتواجد

(16) BRETHES (Joseph-Dominique) : **Contribution à l'histoire du Maroc par les recherches numismatiques.** Casablanca, édit. Banque du Maroc, 1939, 275 p. 43 pl. ds. t.

معها ـ باعتبار مكان العثور عليها ـ الا انه بمراعاة الظروف التاريخية وكذا المقارنة بين أشكال الخزف السجلماسي واخرى مؤرخة ـ كما سنرى ـ يمكن الاخد بعين الاعتبار النصف الاول للقرن 11 م كأقدم تأريخ لهذا الخزف الى حدود اليوم والى اشعار اخر.

4) المقارنة : من بين الاصناف الفخارية التي يمكن الاعتماد عليها في التحقيب الزمني للفخار السجلماسي نورد الشكلين الاتيين.

أ ـ الجرة الصغيرة SM88/R15 : هذه الجرة التي تم العثور عليها بالسبر الاول من حفريات 1988 وعلى عمق خمسة امتار (الطبقة 26) تحمل كتابة كوفية قديمة تتكون من «البركة، البركة»، و«اليمن، اليمن»، وكلمة البركة كما يقول جورج مارسي*. هي من العبارات المستعملة بكثرة في تزيين الفخار الاسلامي. وقد استعملت بالغرب الاسلامي في مركزين رئيسيين : الاول قلعة بني حماد والذي عثر فيه على قطعة خزفية تحمل نفس العبارة والمؤرخة بالقرن 11 م. المركز الثاني هو سلا والذي يعتبره مارسي بأنه هو الذي اثر على المركز الاول ابان توحيد الغرب الاسلامي على يد المرابطين[17].

فالمدينتان وكذا مراكش وسجلماسة وتلمسان وغيرها كانت خلال عهد الامبراطورية المرابطية ثم الموحدية فيما يعد مترابطة فيما بينها بواسطة الطرق التجارية مما سمح بالتالي في تبادل البضائع وكذا التأثيرات الفنية يقول مارسي «ففي قلعة بني حماد كما في سلا نجد كلمة البركة مكتوبة بالخط الكوفي ومكونة من نفس الأحرف والزخرفة»[18] أما في سلا ومراكش فان العبارات الاكثر استعمالا هي البركة، الملك واليمن وهذه الكلمات غالبا ما ترافقها اشكالا نباتية وزهرية. وقد تم العثور بسلا خلال ابحاث بروسبير ريكار واليكسندر

(17) MARÇAIS (G) : Op. cité, planche X, fig. 4.

(18) MARÇAIS (G) : «Sur les poteries estampées du Moyen-Age en Berbérie», in 4e Congrès de la Fédération des Sociétés Savantes de l'Afrique du Nord : Rabat : 18-20 avril, Alger 1939, T. II, p. 612.

ديلبي سنة 1929 ـ 1930[19] على عدة قطع من نفس النوع بل والشكل من تلك التي عثر عليها بسجلماسة مما يجعلنا في بعض الاحيان نرجح استيراد هذه الجرات من سلا. كما تم اكتشاف في مراكش خلال ابحاث هنري تيراس، كاستون دوفي يغدان وجاك مونيي سنة 1952 على عدة قطع خزفية تحمل نفس كلمة البركة مرتين ومن بينها خاصة القطعة رقم 49، الرسم 68[20]. الا ان هذه القطعة تبقى خالية من اي دهان وكذا الشكل التام.

ب ـ القناديل : تعتبر القناديل الزيتية من العناصر الاساسية للمقارنة وبالتالي لتأريخ صناعة فخارية ما ذلك ان لكل صناعة تقنيتها الخاصة في انتاج مثل هذه الاشكال والتي تختلف الى حد ما عن باقي المراكز الاخرى. ولعل أهم مقاربة يمكن القيام بها هنا هي بين القناديل التي عثر عليها بسجلماسة وتلك التي تم اكتشافها بموقع اودغشت، ففي هذا الموقع الاخير وجد كثير من الباحثين صعوبة كبرى في تحديد اصل عدة قناديل نظرا لانتمائها الى المركز الخزفي السجلماسي الذي بقي مجهولا في خصائص انتاجه قبل القيام بهذا البحث. فكما تقول الباحثة دونيز روبير شاليكس «ان سجلماسة يجب ان تحظى بكل عناية، فالموقع معروف منذ مدة طويلة الا انه لم يحفر او على الاقل فان نتائج الابحاث التي جرت به لم تنشر»[21]. فالقناديل التي اكتشفت بأودغشت والمطلية في معظمها بدهان اخضر والمؤرخة ما بين نهاية القرن 8 او بداية 9 م ونهاية القرن 12 م يرجع مصدرها سواء الى القيروان او تاهرت او قلعة بني حماد الا ان غالبية هذه القناديل (اكثر من 50 %) بقيت مجهولة الاصل. ولحل هذه المعضلة اقترح الاستاذان موريس بيكون ودونيز روبير نظريتين : الاولى تقول بأن هذه القناديل ترجع الى ثلاثة مراكز فخارية «مغاربية» لها نفس النمط التقني وهذا ما يصعب قبوله. أما النظرية الثانية فتقول بان هذه القناديل قد اتت من

(19) TERRASSE (H), MEUNIE (J) et DEVERDUN (G) : **Recherches archéologiques à Marrakech.** Paris, édit. Art et métiers Graphiques, 1952, 28 cm, 96 p. 72 pl. h. t., 3 plans h. t., 12 fig. ds. t. (publ. de l'Inst. des Htes Edes Marocaines. T. : LIV) (pl. 68, n° 49).

(21) ROBERT-CHALEIX (Denise) : «Lampes à huile, découvertes à Tegdaoust : essai de classification», in **Journal des Africanistes,** 1983, n° 53, fasc. 1 et 2, pp. 61-91 (p. 84).

منطقة واحدة تتوفر على عدة مراكز فخارية. ولم يستبعد الباحثان ان تحظى سجلماسة بهذا الاقتراح[22] خاصة خلال القرن 11 م اي بعد توحيد الغرب الاسلامي على يد المرابطين وسيطرتهم على طرق ومراكز تجارة القوافل. وقد زكى هذا الطرح قول دونيز روبير شاليكس «بأن تعدد معامل صنع القناديل بسجلماسة امر غير مستبعد باعتبار قرب المسافة بين مدينة القوافل وبلاد السودان»[23]. وفعلا فان كثيرا من القناديل التي عثرنا عليها مثل SM88/FI, 27 et 30/FIII, 30 et 31 // ZI//C14 et C15، تتشابه الى حد كبير من حيث شكلها وتركيبها الصلصالي وطلائها مع مثيلاتها المكتشفة، بأوذغشت، ولعل أهم القناديل التي يمكن مقارنتها بدقة هي تلك التي تحمل عنصرا زخرفيا محززا على المستودع والتي تم العثور عليها بأودغشت وكذا بسجلماسة (رقم SM88/R6 واخر موجود بالمتحف الاثري بالرباط).

يمكن استنتاج ادن ان سجلماسة قد لعبت دورا هاما في تزويد سكان مدينة اودغشت بمجموعة من القناديل الزيتية خاصة خلال عهود الازدهار التجاري بين المدينتين، وبما ان معظم القناديل التي تم اكتشافها بالمدينة الموريتانية قد ارخت ما بين القرنين 11 و13 م وخاصة بالقرن 11 م فإنه يبقى من الطبيعي انتماء القناديل التي عثر عليها بسجلماسة الى نفس الحقبة الزمنية.

خلاصة القول ان استقراء كل العناصر التأريخية السالفة الذكر يجعلنا نقترح بأن معظم القطع والاشكال الخزفية السجلماسية «القروسطوية» يمكن تحقيبها زمنيا ما بين القرنين 11 و14 م عموما وبالقرن 11 م خصوصا، الا ان هذا التأريخ يبقى مؤقتا ونسبيا في انتظار اجراء المزيد من الابحاث والحفريات خاصة في الموقع الحقيقي لصناعة الخزف السجلماسي.

---

(22) ROBERT (D) et PICON (M) : «Classification des lampes à huile importées sur le site de Tegdaoust (Mauritanie)», in **Revue d'Archéométrie**, 1983, n° 7, p. 63.

(23) ROBERT-CHALEIX (D) : Op. cité, p. 91.

خاتمة عامة :

ان سجلماسة باعتبارها مركزا حضاريا راقيا وخاصة من حيث نشاطها الصناعي والتجاري، قد عملت على تلبية رغبات سكانها وكذا سكان العديد من المدن الاخرى كأودغشت مثلا، من الاواني الفخارية ذات الاستعمال اليومي، وقد تجلى هذا من خلال هذه الدراسة المتواضعة والتي اتمنى ان تتبعها دراسات اخرى اكثر عمقا وذلك لايضاح بعض الجوانب التي لازالت غامضة ومنها نذكر بالخصوص :

أولا لقد استخدمت الصناعة الخزفية السجلماسية طينا صلصالية متماسكة ومختلطة بشوائب بيضاء من الكوارتز الرملي الطبيعي الا اننا نجهل مصدر هذه الطين، فاين تقع ادن مقالع التربة Les Carrieres d'argile ؟ ما هي التقنيات المستعملة في اقتلاع هذه التربة ؟ ما هي مختلف عمليات تحضير الطين (من عجن، تثقية وتخمير) ؟ وهل تشبه كل هذه التقنيات تلك التي ورثها خزفيو اليوم ؟

ثانيا ان صناعة الخزف السجلماسية قد استعملت ما يستمى بالمخرطة او الدوار. ويتجلى هذا من اثاره المتبقية على واجهتي بعض الانية خاصة القارورات والجرات الصغيرة. وعلى الدراسات المقبلة ان تحاول حل هذه المعضلة من خلال وصف المخرطة المستعملة وكذا مختلف مراحل تصنيع الاشكال الفخارية وايضا معرفة مدى تشابه هذه المراحل مع تلك المستعملة في الصناعة الحالية ؟

ثالثا ان الفخار السجلماسي يتميز بخصوصية طلائه الاخضر اللامع المتكون من أوكسيد الرصاص وأوكسيد النحاس بالاظافة الى الرمل البيضاء (Silice). وهذا الطلاء اما انه كان يوضع على الانية بعد التجفيف النهائي وربما بعد الطبخة الاولى (1e Cuisson) بان كانت هناك طبعا طبختين. وهذه مشكلة أخرى يجب حلها مستقبلا وكذا كل ما يتعلق بالفرن : اقسامه، حطبه، مدة الطبخ، درجة الحرارة اثناء الطبخ، عمليات ملء وافراغ الفرن، تقنية زخرفة الخزف البديع الصنعة ؟..

رابعا ان الفخار السجلماسي كان اولا وقبل كل شي موجها للاستهلاك المحلي الا ان هذا لم يمنع من تصدير بعض منتوجاته الى مناطق اخرى بعيدة استجابة لمختلف الطلبات والسؤال يبقى هو ضرورة دراسة مختلف عمليات نقل، بيع، شراء الانية الفخارية ودورها في الحياة التجارية والاجتماعية والثقافية لسكان سجلماسة. كما يجب دراسة وضعية الفخارين الحرفية والاجتماعية والاقتصادية.

حقيقة ان الحفريات الجادة والطويلة المدى بمختلف مواضع تمركز صناعة الخزف السجلماسية هي وحدها الكفيلة بتقديم الاجوبة الشافية والمقنعة لمعظم هذه التساؤلات وغيرها. الا اننا لا يمكن ان نغفل ايجابيات الدراسة الاتنوغرافية للفخار الفيلالي الحالي. ذلك ان صناعة هذا الخزف لازالت تحتفظ بكثير من الخصائص التقنية الموروثة من «العصر الوسيط» والتي من اللازم ابرازها ومقارنتها مع نتائج الحفريات الاثرية.

منطقة تافيلالت خلال فترة ما قبل التاريخ

محمد عبد الجليل الهجراوي

إن الحديث عن منطقة تافيلالت الغنية بمعطياتها الطبيعية والتاريخية لا يكفي في هذه العجالة، لذا سأحاول من خلال تدخلي هذا أن أسلط الأضواء على بعض المظاهر التي تعود لفترة ما قبل التاريخ فقط.

فعندما نحاول أن نبحث في الكتب والمجلات والدوريات التي تهم الميدان الاركيولوجي يتبين لنا بأن الابحاث التي عرفتها المنطقة هي جد قديمة وخاصة فيما يخص فترة ما قبل التاريخ بحيث ان هذه الابحاث يعود تاريخها الى الاربعينات أو الخمسينات. وهذا لا يعني بأن انسان ما قبل التاريخ لم يعرف المنطقة بل على العكس من ذلك فان جميع الباحثين الذين توافدوا عليها يشيرون الى تعدد المواقع بها، وهذا ما دفع المعهد الوطني لعلوم الاثار والتراث التابع لوزارة الشؤون الثقافية أن يهتم بالمنطقة وينظم تحريات ميدانية وحفريات خلال السنوات الاخيرة، غير أن هذه الابحاث لازالت في طورها الأول، ومما لا شك فيه أنها ستغني تاريخنا بمعطيات جديدة.

وفي هذا العرض سألخص نتائج الباحثين الذين اهتموا بالمنطقة، وأركز تدخلي على المدافن التلية نظرا لاهميتها ولكثرتها، ذلك رغم أن الباحثين الذين درسوها يرجعونها الى الفترة التاريخية، ومع ذلك سأتحدث عنها لثلاثة أسباب :

أولا : أن الفترة الزمنية التي ظهرت فيها هذه المدافن غير معروفة بصفة دقيقة.

ثانيا : لانها تحتفظ ببعض التقاليد والطقوس الماقبل تاريخية.

ثالثا : جرت العادة أن يدرسها علماء متخصصين في فترة ما قبل التاريخ.

وللحديث عن فترة ما قبل التاريخ سنستدرج مختلف الحضارات حسب تسلسلها الزمني. فأقدم حضارة عرفها المغرب هي حضارة الحصى المتميزة بالحجر القاطعChopper والحجر المعدلChopping-tool، وتشير النصوص الى وجود بعض المواقع تعود اليها قرب مدينة الراشيدية.

أما الحضارة الاشولية والمتميزة بالمحفر الحجريbiface والفأس الحجريHachereau نذكر على سبيل المثال موقع السبخة الموجود جنوب تافيلالت قرب الطاوس بحيث تم اكتشاف تسعة محافر حجرية مثلثة أو قلبية الشكل مع توفرها على جانب حاد ودقيق مما يدفع الى الاعتراف بمهارة ودقة صانعيها كما وجدت عدة أدوات على الشظايا.

أما فيما يخص الحضارة الموستيرية والعتيرية والايبيروموروزية لم يعتر على أية بقايا تعود اليها، وهذا لا يعني بأن الانسان لم يعرف المنطقة خلال هذه الفترة الزمنية ولكن ربما أن التحريات المستقبلية ستكشف عن مواقع جديدة تعود الى هذه الحقب.

وقبل أن أتطرق الى المدافن التلية أود بادىء ذي بدء أن اعرض لمحة تاريخية عن الاعتقادات الجنائزية القديمة المعروفة بالمغرب.

فأقدم تقاليد الدفن المعروفة والمدروسة بالمغرب يعود تاريخها الى الحضارة الايبيروموروزية (احتفظ بهذا الاسم رغم الاشكالية التي يخلقها وعدم مصداقيته). ولعل أهم موقع يعرفنا بها هو موقع تافوغالت الموجود قرب مدينة وجدة. فمن خلال دراسة فيرمباك يتضح بأن الايبيروموروزيين كانوا يدفنون أمواتهم على الطريقة الجنينية أي أن الجثة تدفن على شكل جنين، وقبل دفنها كانت تطلى بطلاء أحمر كما كانت تدفن معهم عدة أدوات جنائزية عبارة عن

أحجار وقرون لبعض الحيوانات. وبقيت هذه التقاليد متداولة الى حين العصر الحجري الحديث. فبمقبرة الصخيرات الموجودة بضواحي الرباط والتي يعود تاريخعا الى حوالي 4500 سنة قبل الميلاد تم جمع ما يناهز 100 هيكل عظمي كلها على الطريقة الجنينية. وكما يتضح من خلال الدراسة الاولية للدكتور لاكومب فان بعضها كان يدفن على جنبه والبعض الاخر جالسا، كما كانت تدفن معهم انواع متعددة من الادوات الجنائزية كالأدوات الفخارية والعظمية والحجر المصقول.

أما المدافن التلية فهي معروفة بجميع جهات المغرب، غير أنها كثيرة ومتنوعة بمنطقة تافيلالت، وهكذا تم جرد ما يناهز 1200 كركور ومدفن تلي خلال سنة 1958 ـ 1959 (كامو وماركات) كما سبق لغولمان أن أشار الى انتشارها بالمنطقة على ضفاف وادي زيز، ومونيي وألان اللذان درسا مقبرة الطاوس والبرابير.

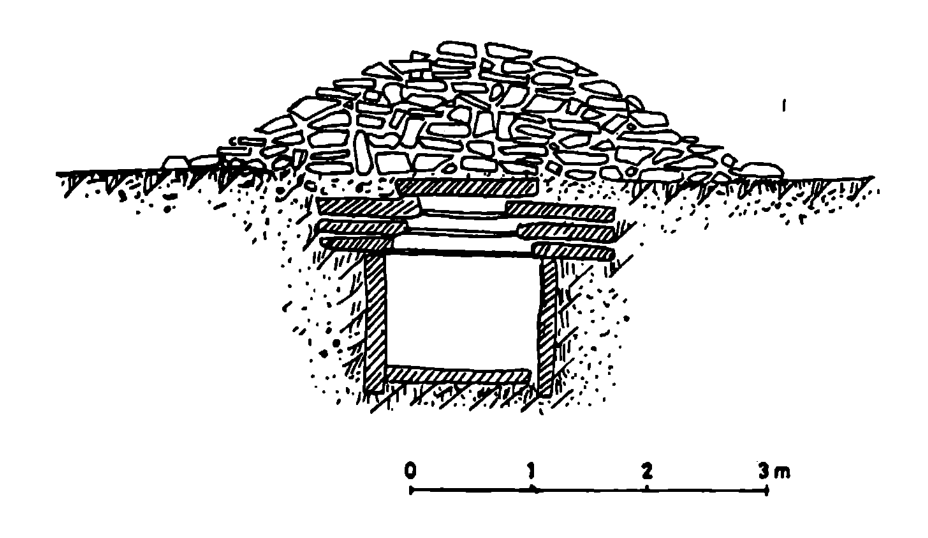
وتوجد عدة أشكال وأنواع لهذه المدافن صنفها كامبس (1961) في دراسته للمعتقدات الجنائزية الى 22 صنفا.

ولعل أهم الاصناف المعروفة بمنطقة تافيلالت هي الكراكير والمدافن ذات البنايات المعبدية.

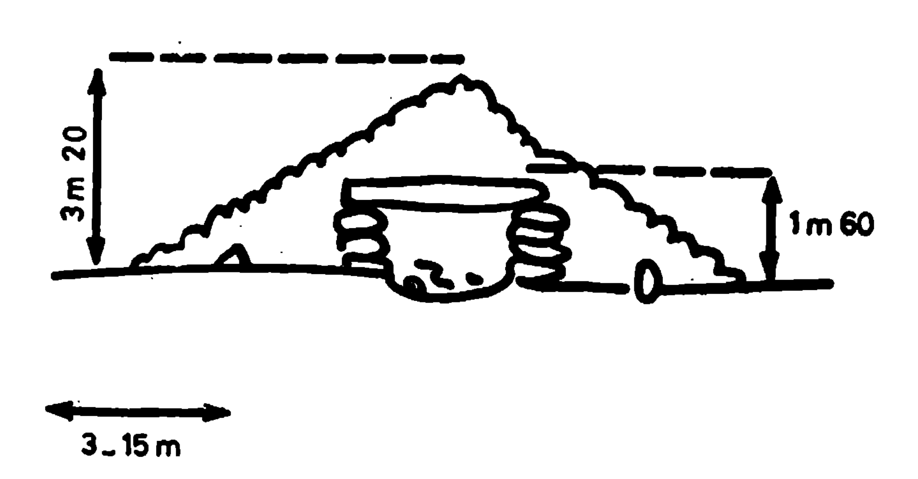
فالكراكير مدافن بسيطة وعادية (انظر الرسم رقم 1) وهي عبارة عن مجموعة من الاحجار الصلبة توضع فوق الجثة لاخفائها ووقايتها وحفظها. وقد يختلف الحجم، الا ان الشكل يبقى في غالب الاحيان على حالته. وقد نجد حفرة توضع الجثة بداخلها (الرسم رقم 1 : أ)، وقد توضع مباشرة فوق الارض (الرسم رقم 1 : ب) ففي الحالة الاولى توضع عدة لوحات بجيمع جوانب الحفرة وعلى ارضها وفوقها.

أما فيما يخص المدافن ذات البنايات المعبدية فعلى العكس من الكراكير تكون بناياتها جد معقدة (أنظر الرسمين رقم 2 و3) ولازال الكثير من أسرارها غير معروف. ولعل أشهرها هي المعروفة بمنطقة الطاوس.

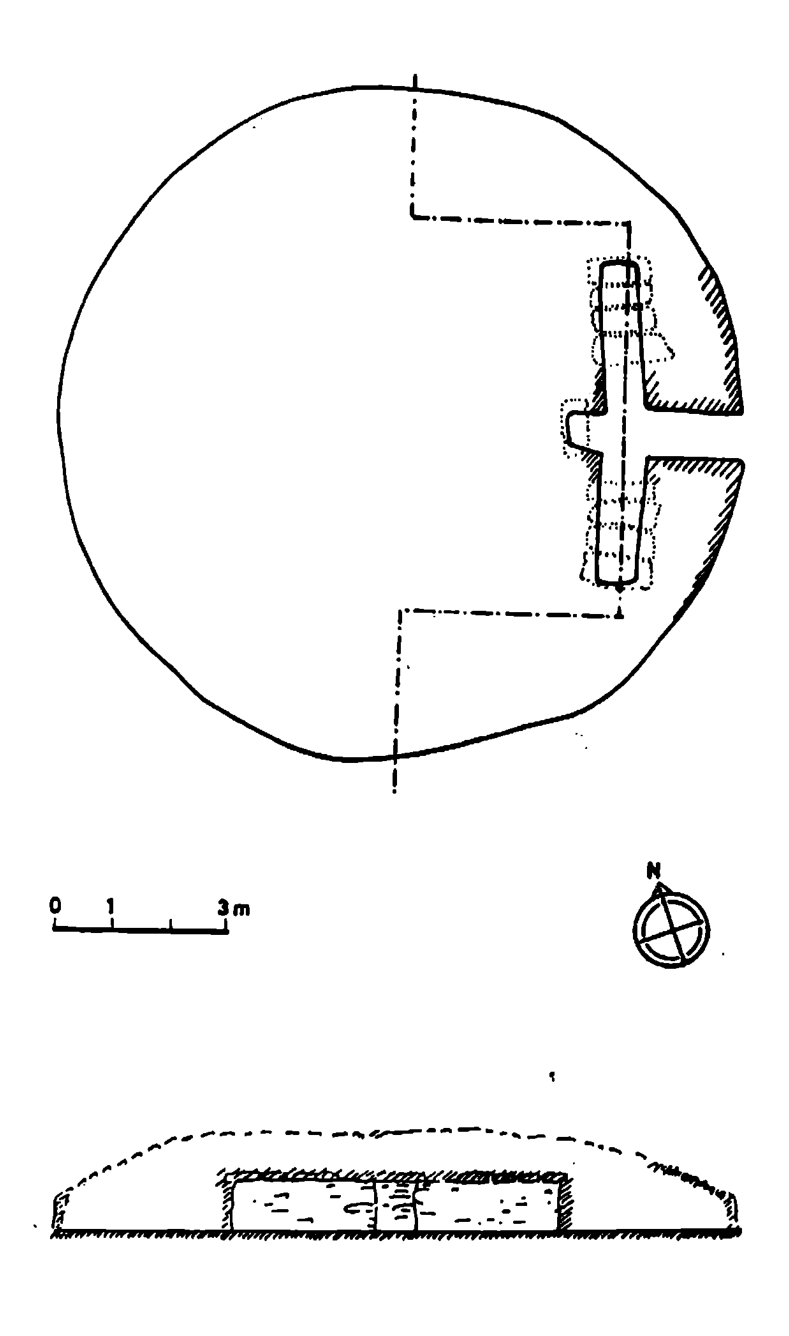
يشيد هذا النوع بمجموعة من اللوحات توضع الواحدة فوق الاخرى



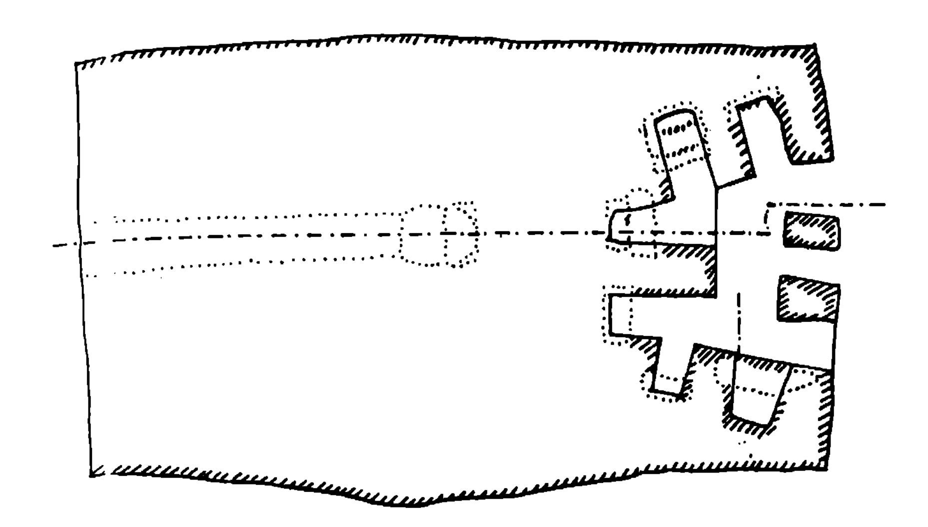
رسم رقم 1 : أ : كركور به حفرة (رولمان 1939)



رسم رقم 1 : ب : كركور عادي (ماركات وكامو 59 ـ 1958)



رسم رقم 2 : مدفن ذا بناية معبدية به مدخل واحد وبيتين (جاك موني وشارل الان 1956)







0 1 2 3 m.

رسم رقم 3 : مدفن ذا بناية معبدية به عدة مداخل وعدة بيوت (جاك مونيي وشارل الان 1956)

متشابكة فيما بينها حتى تعطي حائطا جد متماسك. ويكون المبنى عموما مستطيل الشكل أو دائري مخروط أو مسطح القمة، يتراوح قطره ما بين 4 و15 مترا وعلوه الى ما يناهز 3 أمتار، ويوجد بالجانب الشرقي غالبا مدخل أو عدة مداخل، ومن ورائها بهو أو عدة ممرات قد يصل طولها أحيانا الى ثلاثة أمتار. ولقد بينت جميع الحفريات على عدم وجود اي منفذ بين هذه الممرات والبيت الجنائزي. وفي بعض الحالات توجد مشكاة شعائرية في قاع الممر والتي هي عبارة عن حفرة صغيرة في الحائط غير نافذة.

وتتمثل الادوات الجنائزية التي تم الكشف عنها قرب الهياكل العظمية في أدوات برونزية (حلقات على شكل خواتم، أنابيب، أوراق..) وحجرية (حلي وشظايا..) عظمية أو حديدية أو زجاجية. كما تم الكشف عن عدة قطع من قشرة بيض النعام وأخرى ترابية صفراء أو حمراء اللون ربما كانت تستعمل لاغراض الصباغة.

والسؤال أو الاسئلة التي يمكن طرحها بعد هذا الوصف الوجيز لهذا النوع من المدافن، يمكن تلخيصها كالتالي : متى بنيت هذه المدافن ؟ ماذا يعني اختلاف أحجامها بحيث يتراوح قطرها كما سبق الذكر من 4 الى 15 مترا ؟ وكذا لماذا هذا الاختلاف الحاصل في عدد البيوت التي تتفرع عن الممر او الممرات وما هي وظيفتها ؟ كما هو الشأن بالنسبة للمشكاة الشعائرية. وأمام غياب حفريات دقيقة معتمدة على مبادىء وأساليب التنقيب الحديثة يبقى الجواب عنها كلها مجرد احتمالات وتساؤلات وفرضيات.

ففيما يخص التاريخ الذي بنيت فيه هذه المدافن وكذا أصلها، فبالمعطيات الحالية لا يمكننا أن نجيب عن هذين التساؤلين بصفة دقيقة، بحيث يجب الاعتماد في هذه الحالة على دراسة معمقة لمختلف المدافن ومقارنتها وكذا الاعتماد على وسائل التأريخ الحالية. أما الممرات والبيوت التي تميز هذه المدافن فنعتقد أنها ليست سوى تطورا تدريجيا للمشكاة. فبحكم الاعتقادات السائدة أنذاك كانت المشكاة تلعب دور القربان بحيث كانت توضع بها انواع مختلفة من المأكولات والمشروبات لتلبية حاجيات الميت. وهذا ما أكدته التنقيبات بوجود عدة بقايا عظمية محروقة لبعض الطيور بها، ومع مرور الزمن انتقلت هذه المشكاة من

حفرة صغيرة الحجم الى ممرات يتفرع عنها بيت أو عدة بيوت لا لتلعب دور القربان فحسب، وانما لتصبح أماكن للعبادة يتم من خلالها الاتصال بالعالم الروحاني والخارجي للميت. أما اختلاف الاحجام وعدد البيوت فربما ذلك راجع الى الفوارق الاجتماعية آنذاك.

المراجع

الهجراوي م.ع : الحضارة الايبيروموروزية : مجلة معلمة المغرب «تحت الطبع».

الهجراوي م.ع : اقتراح أسماء جديدة لادوات ما قبل التاريخ : النشرة الاثرية المغربية «تحت الطبع».

Camps. G : 1974. Les civilisations préhistoriques de l'Afrique du Nord et du Sahara. cd doin. pp 366.

Ferembach. D et all : 1962. La nécropole épipaléolithique de Taforalt (Maroc oriental). C.N.R.S. Paris.

Margat. J et Camus. A : La nécropole de Bouia au Tafilalet. B.A.M, t III, 1958-59 pp 325-370.

Meunier. J et Allain. Ch : Quelques gravures et monuments funéraires de l'extrême Sud marocain. Hesperis, t,XL III, 1956, pp 51-87.

Rhulmann. A : Recherches de préhistoire dans l'extrême Sud marocain. P.S.A.M, t V 1939, pp 42-51.

الهراوي1 ـ د4

تاريخ ومصدر البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت

عبد السلام مقداد

بعد استماعكم إلى العروض والتدخلات القيمة التي ألقوها عليكم السادة الاساتذة الكرام، والتي أطلعوكم من خلالها على مختلف أنواع وأصناف البنايات المدفنية التي تزخر بها منطقة تافيلالت، أود من خلال عرضي هذا إعطاء نظرة ولو بصفة غير شاملة، عن الجذور التاريخية الأولى لتلك البنايات المدفنية، وكذا عن الحقبة أو الفترة الزمنية التي تواجدت فيها.

فمن مميزات المآثر المدفنية، وخاصة منها تلك التي يرجع عهدها إلى فترة قبيل التاريخ أو الفترة الممهدة للتاريخ، أنها تتضمن معطيات ومعلومات وافرة، تمكن الباحثين من إعادة تأسيس وبناء تاريخ الشعوب القديمة، خاصة بنياتها الاجتماعية، اعتقاداتها الدينية، والميتولوجية. وعلى أساس التحليل العلمي لمختلف أصناف المآثر المدفنية، وكذا الدراسة المعمقة لخصوصيات الدلائل الشعائرية والادوات الجنائزية، يبدو ممكنا فرز أو فصل مجموعات متميزة وذات طابع خاص، وبالتالي الوصول إلى معرفة تلك الجماعة أو الجماعات الاثنولوجية المنتسبة إليها.

وللاشارة فإن هذا الموضوع بالذات، أي البحث عن أصل ومصدر البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت أو بالمناطق المجاورة لها، لم ينل القسط الوافر من اهتمام الباحثين في علم الآثار. ففي نظري أن المعطيات المادية التاريخية

وأعني بذلك المعطيات الاركيولوجية والتي لاتقل أهمية عن الشهادات الغير المتجانسة لمختلف المؤرخين القدماء، تكتسي صبغة خاصة تمكننا من الوصول إلى الجدور التاريخية الاولى للبنايات المدفنية بالمنطقة.

فقبل الحديث عن أصل ومصدر البنايات المدفنية بجنوب المغرب، أود في بادىء الامر إعطاء فكرة وجيزة عن الزمن الذي ظهرت فيه. فالحديث عن هذا الموضوع، أو طرحه حتى على بساط البحث في الوقت الراهن يعد بالامر الصعب والمعقد. وهذا راجع في الاساس إلى أسباب وعوامل متعددة نذكر منها على سبيل المثال، عمليات النهب والسرقة التي تعرضت لها البنايات المدفنية منذ وقت طويل من طرف جماعات من المغامرين، المعتقدون بأنها تخبىء كنوزا وأشياء ثمينة. ومن العواقب المتوخمة عن هذا الاعتقاد، إتلاف وتدمير عدد كبير من الادوات الجنائزية يعتمد عليها الباحث بالدرجة الاولى في عملية التأريخ. ومن العوامل كذلك التي تحيل دون الوصول إلى تحديد الزمن الذي ظهرت فيه البنايات المدفنية بجنوب المغرب، هناك عامل أساسي يتمثل في استعمالها وإعادة إستعمالها للدفن منذ ظهورها وحتى مجيىء الاسلام، الشيء الذي أدى بالطبع إلى تعدد واختلاف أنواع الادوات الجنائزية المتواجدة بها، وبالتالي عدم التمكن من انتسابها إلى فترات زمنية محددة.

ففيما يخص أصناف المدافن بمنطقة تافيلالت وأعني بذلك المدافن ذات مشكاة أو ذات بنايات معبدية أو بيت، لم تمدنا إلا بالقليل من المعلومات سنحاول من خلالها تحديد الزمن الذي ظهرت فيه.

المجموعة الاولى من هذه المعلومات تتمثل في الادوات الجنائزية التي تم العثور عليها إثر عمليات الحفريات التي قام بها كل من شارل الن وجاك منيي سنة 1955 بمقبرة الطاوس، وكذا ماركات وكامي سنة 1957 بمقبرة البوييا .فأغلب الادوات الجنائزية تتكون من حلي مصنوعة من البرونز، وتتمثل في أساور وخواتم صغيرة الحجم ومفتوحة، ومن أنابيب مكسرة إلى عدة قطع، متكونة من أوراق برونزية ملففة لا يتعدى قطرها 7 مم، ربما كانت عبارة عن عقود. إلا أنه من بين الادوات الجنائزية التي يمكن الاعتماد عليها بالاساس في عملية تأريخ البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت، هنالك الاسلاك البرونزية

الملففة على الشكل الحلوزوني، حيث تم العثور على مثلها بالمدافن الحجرية على شكل الطاولة (الدلمن) بمقابر بني مسوس، الركنية، وكاساتيل بالجزائر والتي يرجع عهدها إلى العصر البرونزي. كما تم العثور على لآلىء حمراء اللون مصنوعة من قرون الحيوانات يعتبرها الباحث الفرنسي ريكاس مستوردة ومن أصل بونيقي. فباستثناء الادوات الجنائزية التي ذكرناها تم الكشف كذلك على أدوات جد قليلة من ظران تنتمي إلى العصر الحجري الحديث، وعلى أودات حديدية.

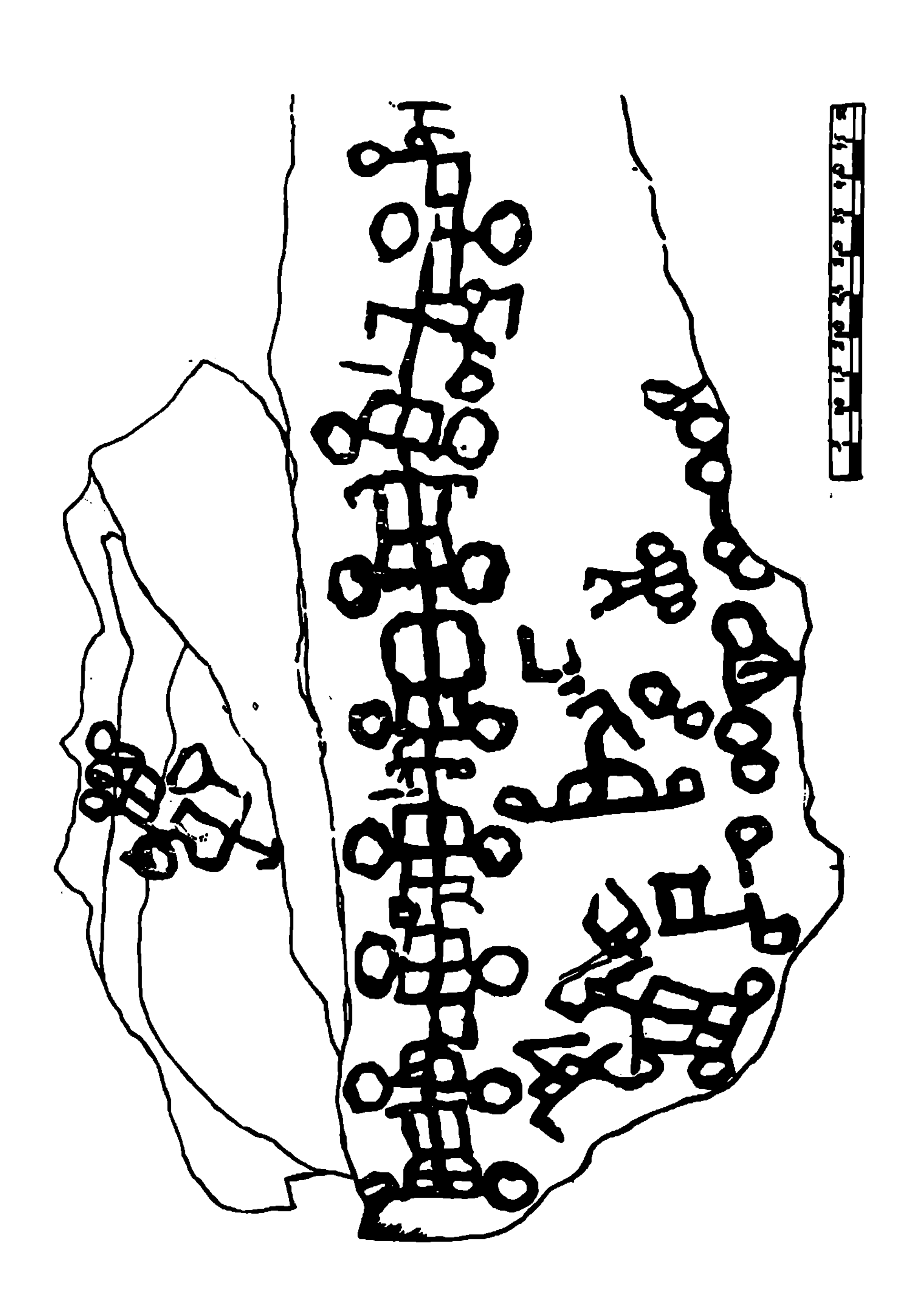
أما المجموعة الثانية من المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها في تأريخ البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت، فتتمثل في مجموعة من النقوش على الصخور، تم الكشف عليها بالقرب من مقبرة الطاوس من طرف جاك مونيي وشارل آلن سنة 1954، وقد سبق أن أشار إليها أرموند رولمان سنة 1938 عند قيامه بزيارة للمنطقة. هذه المجموعة من النقوش على الصخور يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات :

- المجموعة الاولى، وتتضمن بقريات وظباء مصطحبين في أغلب الأحيان بأشخاص ذات طابع تخطيطي.

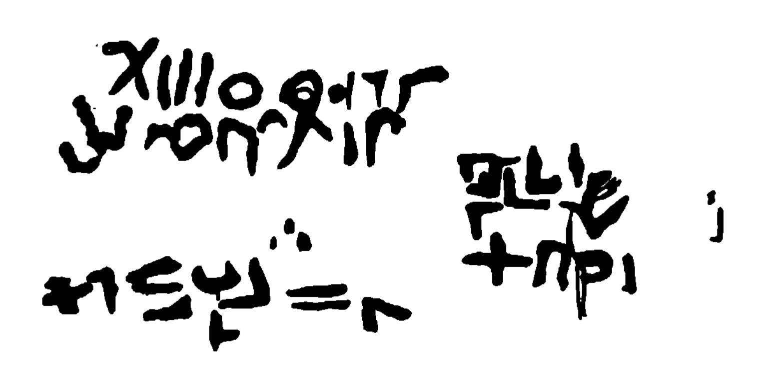
- المجموعة الثانية، تتكون من العربات الخفيفة التي بدورها تنقسم إلى مجموعتين مختلفتين : الاولى، وتشمل العربات ذات عجلتين مرتبطتين بموردة، وعريش متوسط خصص لقرن أو ربط بهيمتين، والثانية، ذات عريشين وخصصت لقرن أربعة بهائم.

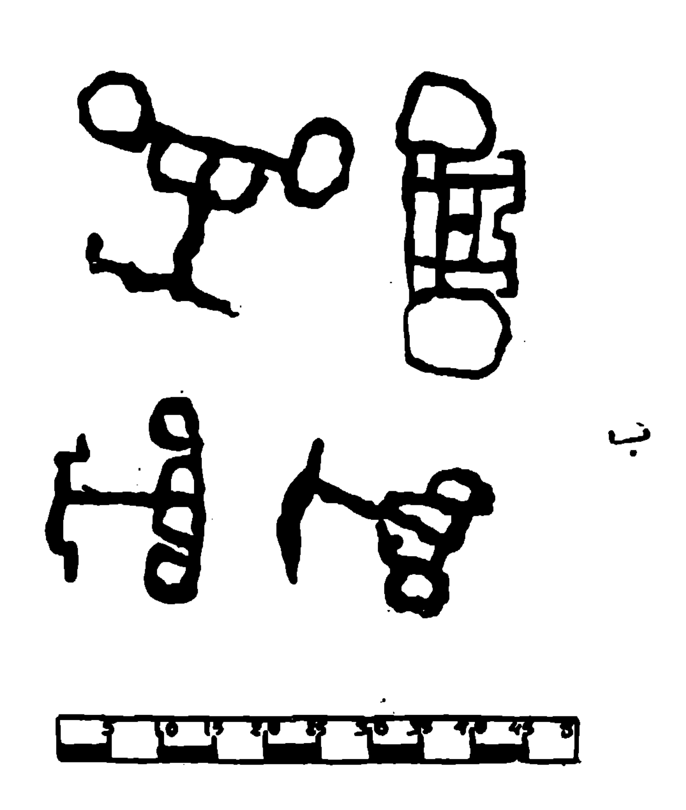
- المجموعة الثالثة، وتتمثل في الكتابات الليبية - البربرية.

وسأركز حديثي هنا عن المجموعة الثانية من النقوش على الصخور. فمن المعلوم أن الفرس الذي لم يستعمل بعد للركوب، قد أدخل إلى المناطق الصحراوية والشبه صحراوية في نفس الوقت الذي أدخلت فيه العربات الخفيفة. فالباحثون بإجماع يرجعون تاريخ إدخالها إلى المناطق السالفة الذكر في فترة زمنية تتراوح ما بين 2000 إلى 1200 سنة ق.م. حيث أطلقوا على هذه الفترة التاريخية إسم فترة «عربات الحرب»، فمن المحتمل إذن إرجاع البنايات المدفنية بمنطقة تافيلالت إلى نفس التاريخ.



● عربات خفيفة (عن شارل ألن وجاك مونيي).



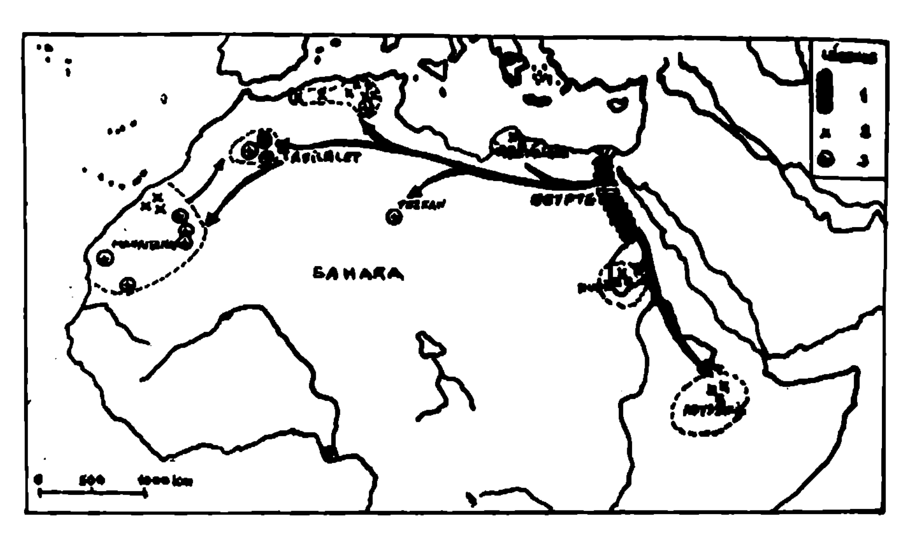


● أ : كتابة ليبية ـ بربرية؛
ب : مجموعة من العربات الخفيفة المنقوشة على الصخور. (عن شارل ألن وجاك موني)

كل هذه المعطيات سواء منها الادوات الجنائزية أو النقوش على الصخور، تدفع إلى الاحتمال بأن البنايات المدفنية بجنوب المغرب يرجع تاريخها في الاساس إلى فترة قبيل التاريخ، أو بتعبير أدق إلى المرحلة النهائية من العصر البرونزي، وبداية العصر الحديدي المبكر. غير أنه لابد من الإشارة هنا، وكما سبق لي أن ذكرت في البداية، أن هذه البنايات المدفنية بأصنافها وأنواعها المختلفة، قد استمر في استعمالها وبدون انقطاع منذ ظهورها حتى إلى مجيىء الاسلام.

أما الحديث عن مصدرها وأصلها، وهذا ما خصصت له الشطر الثاني من عرض هذا، فالاجابة في الوقت الحاضر عن هذا السؤال لايقل صعوبة وتعقيدا من السؤال المتعلق بتأريخها.

فعندما نتطرق عامة إلى موضوع أصل ومصدر المآثر المدفنية، لابد من مراعاة مبدأ أساس يتمثل في تحديد المنطقة أو المناطق التي تنتشر فيها. ففيما يخص أصناف البنايات المدفنية بجنوب المغرب، فانتشارها ينحصر بالضبط على المناطق الصحراوية والشبه الصحراوية، إذ ثم العثور عليها كذلك بموريتانيا، بصحراء الجزائر، بمصر، بالسودان وأخيرا بإيتيوبيا. إلا أنه لابد من الاشارة أن جنوب المغرب وخاصة منه منطقة تافيلالت وواد الذهب وكذلك موريتانيا، يعدان من المناطق الاكثر غنا وانتشارا لهذا الصنف من المدافن القبل الاسلامية، وعلى سبيل المثال نذكر الاعداد الهائلة من البنايات المدفنية بالضفة الغربية لواد زيز وكذا بالناحية الشمالية لسهل تافيلالت حيث تم العثور هنا على مقابر تشتمل على مئات إذ لم نقل آلاف المدافن بكل من الطاوس والبرابر والبوييا. ومن الملاحظ، أنه لايوجد أي أثر لهذا الصنف من البنايات المدفنية بالمناطق الجبلية أو الشمالية، بإستثناء وحدات متفرقة ومنعزلة. ونستنتج من هذا، أن مصدر هذه البنايات المدفنية يرجع في الاساس إلى الجنوب، وبالاجماع ينتسبها جل الباحثين إلى القبائل الليبية - البربرية التي كانت تقطن بالمناطق الجنوبية في القدم. ومن العوامل التي تدعم هذا الانتساب الكتابات الليبية - البربرية المنقوشة على الصخور، بجانب العربات الخفيفة والحيوانات التي تطرقنا إليها من قبل.



● مدافن ذات مشكاة وبنايات معبدية بشمال افريقيا
1 : المصدر المحتمل للمشكاة او البنايات المعبدية؛
2 : مدافن ذات مشكاة؛
3 : مدافن ذات بنايات معبدية. (عن كابريل كامبس).

ولكن السؤال الذي يططرحه الباحثون، والذي لم نتمكن إلى حد الآن الاجابة عليه بصفة قاطعة، هو الجدر التاريخي أو المصدر الاولي لهذا الصنف من البنايات المدفنية. فبعض الباحثين وعلى رأسهم كابريال كامبس يرون أنه من المحتمل إرجاع أصل المدافن ذات مشكاة وبنايات معبدية أو بيت إلى مصر، ويعتمدون في ذلك على وجود المشكاة الشعائرية التي تحولت فيما بعد إلى بنايات معبدية عند المصريون القدماء قبل انتشارها في المناططق الاخرى. إلا أن هذا الاحتمال في نظري الذي يعتمد فقط على إحدى خصوصيات الشكل الهندسي للبنايات المدفنية ليس بالرزين. فالارجح في اعتقادنا إرجاع الاصل أو المصدر الاولي لهذا الصنف من المدافن إلى جنوب المغرب وموريتانيا، وهذا راجع بالاساس إلى عامل تكاثفها وتعددها بهذه المنطقة بالذات، بحيث لو أدخل هذا الصنف من البنايات المدفنية إلى هذه المنطقة، فمن المنطقي أن نعثر هنا على أصناف محلية مختلطة بتلك التي أدخلت عليها، غير هذا كله لا يوجد أي أثر لادوات أو أشياء من بين تلك التي عثر عليها، قادمة من مصر.

وأخيرا، أريد أن أختم كلمتي هذه، لاقول بأن كل توصلنا إليه، وكلما توصل إليه الباحثون الآخرون، لا يعتبر بحقائق تاريخية مطلقة، بقدرما هو احتمالات وفرضيات علمية فقط، لايمكن لنا أن نتبثها إلا بالقيام بحفريات وأبحاث علمية مستمرة، وهذا يعد من بين الاهداف الاساسية للمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، الذي يسهر جاهدا من أجل إغناء تاريخ بلادنا العريق.

الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الاغريقية - الرومانية

بلكامل البيضاوية / عبد العزيز بلفايدة

ارتأينا أن نقسم الموضوع الى قسمين.

قسم أول نتتبع فيه مصادر ما قبل القرن الاول الميلادي وقسم ثان نستعرض فيه المعطيات المتعلقة بالجنوب المغربي من خلال مصادر القرن الاول الميلادي وما بعده.

وهذا التقسيم منهجي لا اقل ولا أكثر والفصل بين القسمين غير تام فمعطيات تهم ما قبل القرن الاول سنتتبع تبلورها خلال القرن الأول الميلادي. ومعطيات من القرن الاول الميلادي سنبحث عن جذورها السابقة.

والملاحظات التي تترتب عن نوعية المصادر المعتمدة هي كما يلي :

1 - بأننا نعرف هذه المصادر الاغريقية - الرومانية عن طريق لغة ثانية هي الفرنسية ولذا لسنا مهيئين لخوض غمار المناقشات التي تدور بين المترجمين حول مصطلح من المصطلحات الاغريقية او الرومانية. فعلى سبيل المثال قراءة الباحثين المعاصرين للمصطلح المرافق لمصطلح الاثيوبيين من خلال رحلة سيلاكس قراءة متباينة. فمجموعة اولى تقترح مصطلح «مقدسون» ومجموعة ثانية تقرأ «غربيون» ولا يمكن ان نفصل فصلا تاما في النقاش ولكن من خلال متابعة المصطلح بمصادر اخرى نرى بأن مصطلح «غربيون» هو الانسب فهو الاكثر ترددا واستعمالا.

2 ـ المصادر الاغريقية ـ الرومانية مصادر اجنبية ومعظم مؤلفيها ليست لهم معرفة مباشرة بالمغرب باستثناء اصحاب الرحلات التي تهم كتاباتهم مجالا دون اخر ولا نتوفر على مصادر محلية نتبت من خلالها او ندخض المظاهر والظواهر الموصوفة.

3 ـ المصادر الاغريقية ـ الرومانية تنقل الينا شذرات او فقرات من مؤلفات أو تقارير رحلات ضاعت والتقارير ليست بالضرورة اغريقية أو رومانية فرحلة حانون هي تقرير لرحلة قرطاجية فقدنا النسخة الاصلية ولا نعرف الرحلة الا من خلال الوثيقة الاغريقية بالفاتكان واشارات المؤلفين الاغريق والرومان. ونفس الامر ينطبق على كتابات العاهل النوميدي يوبا ـ فقد فقدنا مؤلفاته ولا نتوفر الا على شذرات من خلال كتابات بلين القديم.

4 ـ حكم المؤلفين القدماء أنفسهم على بعض المصادر القديمة قاس. فهم يعتبرون بعض الكتابات ضربا من الاساطير او تعج بالمبالغات والاخطاء. وهذا لا يمنع من كون اكثر المؤلفين حرصا على كتابته ما يرى بالعين وتصدقه الاذن يقع في كبوة فخ الغرائب (مثلا هيرودوت، سطرابون وبلين وانتقاداتهم التي لم تحمهم من الوقوع في المحذورات).

5 ـ لنذكر بأننا عندما عنونا مداخلتنا تحت اسم الجنوب المغربي من خلال المصادر الكلاسيكية لا ندعي بأننا سنكتب تاريخ الجنوب المغربي ولا نعتبر بأننا سنعرف بحيثياته فالعنوان بدوره يحمل تساؤلات لذا فالخطوة الاولى من خلال هذا العمل هي جمع المعافر وقد تكون غير كافية تنتابها الثغرات ونأمل ان نتمم الثغرات من خلال المصادر الاثرية.

نود ـ في هذه المرحلة ـ أن نتحدث عن الجنوب المغربي من خلال المصادر المتوفرة لدينا وننطلق ايضا ولدينا رصيد معرفي مجمله ان الاستعمار الفنيقي ـ القرطاجي اهتم بالسواحل فترتب عن ذلك : ساحل معروف وداخل مجهول وكانت اقصى نقطة داخلية وصلها المد الحضاري البوني هي مدينة وليلي ونعرف هذا بالاعتماد على الاثار.

والاستعمار الروماني تركز بداخل المنطقة المحصورة ضمن المثلث

طنجة ـ سلا ـ مكناس مع اضافة نقط على الساحل مثل الصويرة ولكن المناطق الاخرى افلتت من قبضته وبذلك اصبحت الثنائية تتكون من شمال معروف وجنوب مجهول ولكن الجنوب بالنسبة للاستعمار الروماني يبتدىء وراء شالة وبالضبط وراء آدمركوريوس (ADMERCURIOS) القريبة من قصبة المنصورية (Mansauria).

وهكذا لا نعرف الجنوب الخارج عن مدار الاستعمار الروماني إلا من خلال مصادر اجنبية محدودة على رأسها اخبار الحملات التي شنها القواد الرومان ضد الثوار المحتمين بالصحراء (حملة سيوطونيوس بولينوس مثلا وهي موضوع الاستاذ مقدون والاستاذ واحدي.

فماهو الجنوب الذي تستهدفه دراستنا ؟

سنحتفظ بالمعطيات الجغرافية التي تجعل الاطلس الكبير حدا فاصلا بين الشمال والجنوب ولكن سنقف بدراستنا عند وادي درعة وعليه فالمنطقة المدروسة يحدها شمالا الاطلس الكبير، غربا المحيط الاطلسي، شرقا وادي غير (GIR) وجنوبا وادي درعة عند المصب وحمادات غير وكم كم.

«وتتضمن المنطقة المستهدفة الاقاليم التالية : سوس ـ ماسة تيزنيت، تارودانت، تافيلالت وغيرها..».

سيوطونيوس بولينوس (SUETONIVS PAULINUS) بالجنوب الشرقي للمغرب.

1 ـ من خلال (F. DELACHAPELLE).

تقديم : سيوطونيوس قائد روماني من القرن I م، قاد حملته خلال 42 م نعرفها من خلال ديون كاسيوس، صولان، وبلين القديم ومن هذا الاخير هو الذي يعطينا تفاصيل اكثر.

والطريق التي قطعها سيوطونيوس بولينوس من خلال باحتين توافق الطريق السلطانية التي تصل فاس بتافيلالت. ولا شك أن سجلماسة هي المكان الذي وصل اليه القائد وسماها (Sigillummassae) فهي آخر نقطة بماسة وتسجل

لانتصاره، ولا شك ان التقاليد ومنها ليون الافريقي عندما يربط سجلماسة بالقائد الروماني فالمقصود هو سيوطونيوس وبعده جيطا (GETA) وتوافق حسب La chapelle طريق تلمسان - سجلماسة عبر (Sebdeu)، (Tendrara)، سهل تامليلت (Tamlelt) وعين الشعير (Chair) ووصل الى الاطلس بعد قطع 10 مراحل الى غير عبر بوعنان Bou Anan واصطدم بدون ريب بالكارات (Garas).

وعندما يستعرض الباحثون المعاصرون خاصة اقدم المصادر المكتوبة التي اشارت او قدمت معلومات ضافية حول المغرب يبتدئون عادة بنصوص هيرودوت او يختارون تقرير رحلة حانون. بدورنا سنحتفظ بهذه المصادر ونضيف لهما مقاطع من أشعار الشاعر الاغريقي بندر (PINDARE). ودواعي هذا الاختيار اننا باستعراض ما جاء في هذه الكتابات الثلاثية نريد ان نترصد معارف الاقدمين حول الجنوب المغربي من خلال الشاعر والمؤرخ والرحالةثم لا ننسى أننا أمام كتابات تعود جميعها للقرن V ق.م وعليه نريد ان نفهم هل معارف القرن V ق.م حول الجنوب المغربي على نفس المستوى.

اذا وقفنا عند الشاعر بندر (PINDARE) نقرأ في مقطع ما يلي :

- لا يمكن للعاقل او الاحمق ان يتجاوز اعمدة هرقل التي تشكل الحد الاقصى للعالم المأهول.

وقال في مقطع اخر.

- ليس بالامر السهل عبور البحر الذي لا يمكن ان يعبر والذي يمتد بعيدا وراء اعمدة هرقل.

وفي مقطع ثالث قال

- ما وراء كادير (Gadir) لا توجد اية طريق.

إذن، بالنسبة للشاعر بندر عبور البحر الخارجي يعدضربا من المغامرة فأقصى نقطة بالنسبة للعالم المأهول هي أعمدة هرقل، بالتالي فهو على جهل تام بالمغرب الاطلسي وما وراءه ونعرف بأنه لا يلزمنا ان نأخذ اقوال الشاعر على علاتها فهو لا تهمه الحقيقة العلمية في شيء، واحتفظنا به في هذا المقام

لانه قد تترسب من خلال أقواله معلومات قديمة وقد يسوق ايضا معلومات عصره وستتأكد لنا هذه الفكرة من خلال أشعار اخرى لشعراء لاحقين.

هل رؤى المؤرخ أوضح حول الجنوب المغربي ؟

المؤرخ الاغريقي هيردوث لم يتعد قورينة بليبيا، اذن فمعرفته بالعالم القرطاجي محدودة وقد اعتمد بالاساس على الرواية الشفوية اكثر من اعتماده على المشاهدة المباشرة وهكذا لم يشر الى ما وراء أعمدة هرقل الا في ثلاث فقرات من كتابة الرابع وهي على التوالي : ـ الفقرة 43، الفقرة 184 ثم الفقرة 196.

1 ـ الفقرة 43.

ويتحدث هيرودوت في هذه الفقرة عن رحلة سطاسبيس (SATASPES) حفيد داريوس وراء اعمدة هرقل وهذه الرحلة اضطرارية وليست اختيارية. فالملك الفارسي XERXES ليعاقب سطاسبيس فرض عليه الطواف حول ليبيا (بالمفهوم الواسع).

ـ ولذا يحدد الباحث دوزانج تاريخ الرحلة قبل 478 التاريخ الذي اصبحت فيه صاموس خارجة عن حكم الفرس هذا التاريخ لم يكن بإمكان عبد سطاسبيس أن يفر اليها، ويحددها ايضا قبل 465 ق.م التاريخ الذي يوافق وفاة (XEXES).

لقد خرج سطاسبيس بسفينة واحدة وبحارة مصريين لم يتعودوا ركوب مخاطر المحيط الاطلسي لذا فكل الحيثيات تفسر لماذا لم يبحر سطاسبيس طويلا وراء الاعمدة ومن المعلومات التي ذكرها والتي تستحق ان نقف عندها انه بعد عبوره رأس سولوييس الذي يعرفه بعض الباحثين على أنه رأس سبارطيل رأى على الشاطىء رجالا قصيرى القامة لابسين لاوراق الجريد وقد هربوا من مدنهم ليحتموا بالجبال ولم يتعرض سطاسبيس بسوء لمساكنهم اكتفى بأخذ الزاد. وحسب الباحث دوزانج فالاهالي من قامة قصيرة يستوطنون بلا ريب برأس غيرحيث الجبال لا تبعد كثيرا عن البحر وعليه فالامر يتعلق بالاثيوبيين الغربيين الذين سيتردد ذكرهم بالمصادر اللاحقة، وباستمرار.

تجمع الدراسات المعاصرة على الوقوف بهذه الرحلة عند الجنوب المغربي. وتجعل طول المسافة والوحدة بل الخوف كما صرح بذلك هيرودوت نفسه من الاسباب التي جعلت سطاسبيس لا يتوغل بعيدا وراء الجنوب المغربي.

2 ـ الفقرة 184.

وخلال هذه الفقرة يتحدث هيرودوت عن ربوة من الملح (Tertre de Sel) التي يوجد بالقرب منها جبل اطلس الجبل الشاهق الذي تغطيه السحب على الدوام والمعروف بين الاهالي تحت اسم عمود السماء ويعيش حوله السكان المعروفون تحت اسم اطلنط (ATLANTE) نسبة له (للمزيد المقال بالمعلمة حول الاطلس).

فهذا النص يعتبر أول نص ترد ضمنه معلومات حول الاطلس والساكنين على سفوحة وبهذا الخبر ينقلنا هيرودوت وبدون ريب نحو الجنوب لأنه وكما نعلم فالمؤلف استقى خبره من القرطاجيين وهؤلاء وكما اسلفنا الذكر ـ في التقديم ـ معرفتهم تقتصر على السواحل فقط والسلسلة التي ستظهر لهم من خلال الساحل الاطلسي هي سلسلة الأطلس الكبير عند رأس غير.

اذن نقف من خلال الفقرتين 43 و184 عند سلسلة الاطلس الكبير وبالاساس عند رأس غير وتتوج الحفريات الاثرية تحديدنا لان الاثريين كشفوا به على شظايا فخار بوني يعود للقرن III ق.م فهذه المادة تؤكد لنا بأن هذه المنطقة معروفة لذا البونيين.

وفي الفقرة 196 يتحدث هيرودوث عن التجارة القرطاجية وراء الاعمدة. ومصطلح أعمدة جر الى الكثير من الافتراضات لأن القدماء لم يحددوا موقعها تحديدا مضبوطا، فلم تقل اراء الباحثين المعاصرين في تناقضاتها عن تناقض اراء القدماء وان كان المعظم يتفق على جعل أحد الأعمدة وهو ابيلا (Abila) بسبتة والثاني كالبي (Calpè) بجبل طارق بالضفة الاخرى للبحر المتوسط.

وسواء انطلقنا من سبتة المكان المتفق عليه كإحدى أعمدة هرقل أو

انطلقنا من قادش كموقع لوجود أعمدة حقيقية لهرقل فإن بعيدا وراء الاعمدة سيصل بنا الى البحر الخارجي، الى المحيط الاطلسي وعدم ذكر نقطة التبادل يشكل صعوبة في ضبط الموقع الذي تم فيه التبادل على ساحل المحيط الاطلسي.

هل نوعية البضائع ستحدد لنا المدى الذي وصل اليه القرطاجيون في تجارتهم وراء الاعمدة، والملاحظ أنهم تعودوا التردد على المنطقة واكتسبوا مجموعة اليات تفاهموا بواسطتها مع الاهالي، والمادة التي استوردها القرطاجيون مقابل بضائعهم هي الذهب. وهذا اقدم نص يتحدث عن هذا المعدن النفيس.

الامبراطور الروماني كلود (CLAUDE) عندما احتفل بانتصاره على البريطانيين سنة 43 م اعتز بالذهب الوفير الذي حصل عليه من غاليا واسبانيا ولم يشر البتة لذهب موريطانيا رغم أنها ضمت العديد من المستعمرات الخاضعة للرومان، وأكد ليكان (LUCAIN) خلال حكم نيرون (NERON) بأن موروزيا لا تحمل نحاسا ولا ذهبا وثروثها تتمثل في الغابات وبالاساس العفص* (THUYA). ولصمت المصادر الكلاسيكية دلالته، وهكذا فإن العديد من الباحثين ومنهم موني (MAUNY) يكذبون المقولات التي تصل بالبحارة القدماء الى خليج غينيا بل يخالفون كاركوبينو (Carcopino) الرأي عندما يتحدث عن المغرب كسوق لذهب السودان.

واذا كنا نفتقد مصطلح ذهب خلال المصادر الكلاسيكية فإننا نجد تفاحات حدائق الهسبريد مقرونة بالذهب وهذه الحدائق وطنت بموقع ليكسوس وجرت تفاحاتها الذهبية الى العديد من الافتراضات فهناك من اعتبرها فواكه وهناك من اعتبرها تورية لما يزخر به المغرب من معادن نفيسة ومنها الذهب، فهل نستبدل مصطلح «ذهب» بمعدن. اخر : فضة، الرصاص هذه الخيرات التي تحدثت عنها المصادر الكلاسيكية ومنها ارسطو الذي يتحدث عن جبل الفضه الذي ينبع منه نهر يصب بالمحيط، مزدان بالتماسيح، وجبل الفضة يتفق الباحثون المعاصرون على موافقتة للاطلس الكبير المغربي ولكن سنصطدم بكثافة المصادر الاسلامية التي تحدثت عن الذهب، فعندما نستعرض هذه المصادر الاسلامية فهي على

نقيض المصادر الكلاسيكية تتضمن بدءا من القرن V هـ/11م معطيات مهمة حول هذا المعدن النفيس (البكرى 11 م ـ ياقوت الحموي 12، الادريسي 13، المسعودي، ابن خلدون..) بل انها تتحدث عن الذهب على انه المنتوج الاساسي لبلاد السودان ثم ان المسعودي يتحدث عن القوافل التي كانت تنطلق من تافيلالت في اتجاه مكامن الذهب وراء الصحراء وأهمها بامبوك التي تقع بداخل المثلث الذي يتكون من نهر السنغال ورافده الفالمي (La falémé).

ويستوقفنا أيضا نص ياقوت الحموي (1178ـ1229 م) الذي يتحدث عن التجار المغاربة وبالضبط تجار سوس الذين يتوجهون الى السنغال ويعلنون عن وصولهم عند السود أصحاب مناجم الذهب بالدق على الطبول ويظل الطرفان على مسافة من بعضهما ويستبدل التجار المغاربة بضائعهم مقابل حصولهم على التبر (La poudre d'or) ويعلنون أيضا انسحابهم بالدق على الطبول.

واذا كان هيرودوت حسب (GAUTIER) قد أغفل ذكر نقطة التبادل فإن ياقوت الحموي حددها قرونا بعده بالسنغال، وبالفعل فالمفارقات بين العمليتين التجاريتين بسيطة ومن المفارقات أيضا أن طريق القرطاجيين بحرية وطريق التجار المغاربة برية.

واذا احتفظنا برأي (GAUTIER) واعتبرنا نقطة التبادل بين القرطاجيين والاهالي توافق السنغال سنصطدم بالتقارير البحرية حول خطورة الملاحة وراء نهر درعة كما سنصطدم بنتائج التحريات الاثرية التي قامت بها مجموعة من البعثات الاثرية ومنها بعثة اندري لوكي (A. LUQUET) وبعثة أوزينا (M. EUZENNAT) ثم بعثة أيمريش (GRAN AYMERICH) التي قامت بمسح أثري للمنطقة الممتدة من وادي سوس الى منطقة وادي الذهب ولم تقف بهذا الخط على أي موقع بوني أو روماني، ومعظم هذه النقط التي شملها المسح يتضمن بعضها لقى أثرية من العهد الحجري القديم (Le paleolitique) (عرض الاستاذ الهجراوي) مما يدل على قدم التعمير بالمنطقة سابق التواجد الفنيقي بالساحل الاطلسي، وأقصى نقطة توجد بها مواد أثرية فنيقية ـ قرطاجية ثم رومانية

وبكثافة هي موكادور (=الصويرة) وبالتالي فأمر التواجد الفنيقي ـ القرطاجي وراء هذا الموقع أصبح أمرا مشكوكا في صحته.

هل نوطن نقطة التبادل بموكادور نفسها ؟ وهل نعتبر بأن ذهب سوس وجبل باني ثم ذهب سجلماسة وما وراء هذه المناطق من مواقع كان يصل الى موكادور لينتقل بعد ذلك في اتجاه قرطاج ؟ والمفروض أن يحصل الاهالي على البضائع القرطاجية المتمثلة في الفخاريات والزجاجيات والحلي. ولكن لاشيء وراء رأس غير يتبت هذه الفرضية فالجرد الذي قام به الباحث روبيفا (REBUFFAT) للقى الاثرية المكتشفة على ساحل المحيط الاطلسي بدءا من سلا تبين وفرة المواد الاثرية في المنطقة الواقعة شمال الاطلس الكبير باستثناء النقيشة الصخرية التي تم الكشف عنها سنة 1949 بوادي درعة وعليها رسم سفينة اشار لها (JODIN) وأغفل ذكرها روبيفا الذي انتقل من المنطقة الواقعة شمال الاطلس الكبير ليعرض اللقى الاثرية الموجودة بالتراب الموريتاني وبالتالي فمنطقتنا مسكوت عنها في هذا الجرد.

إذن هل نميل الى الابحاث المعاصرة التي توطن التبادل بليكسوس أم نحتفظ برأي المجموعة التي تحدد التبادل بموكادور ؟.. على كل فلكلا الموقعين أهميتهما على صعيد الاقتصاد المغربي في المرحلة السابقة للاسلام [ما وراء موكادور من مراكز مهمة ساهمت مباشرة أو عن طريق موكادور في التجارة المغربية ـ القرطاجية نعلق البث فيها لحين يصبح المسح أوسع وأشمل للجنوب المغربي].

ويبقى التساؤل الجديد هل ستضيف الرحلات وعلى رأسها رحلة حانون المزيد من المعلومات حول الجنوب المغربي ؟

رحلة حانون

نشير الى ان التقرير الاصلي للرحلة والذي علقه حانون بمعبد كرونوس بقرطاج ضاع. فلا نعرف هذه الرحلة الا من خلال المصادر الاغريقية - الرومانية ومنها نسخة هدلبرغ (Codex Heidebergensis 398) التي توجد بمكتبة الفاتكان وترجع الترجمة الاغريقية المفصلة لما قبل القرن I ق.م.

وتعد هذه الرحلة من الرحلات التي أثارت العديد من النقاشات فتولد عنها 3 أصناف من الآراء :

- مجموعة أولى تشك في مصداقية هذه الرحلة شكا مبرما أو جزئيا (S. GERMAIN).

- مجموعة ثانية تعتبرها بمثابة شهادة ميلاد المغرب (CARCOPINO)، بل تصل بالرحالة الى خليج غينيا.

- مجموعة ثالثة وتحدد معظم مراحل الرحلة بالمغرب ونجد ضمن هذه المجموعة نفسها فريقان. أول يوطن مستعمرات حانون بين طنجة والعرائش، وفريق ثان يوطن المواقع المذكورة في الرحلة بين رأس كانتان ووادي درعة وعليه فرقعة ضيقة من المغرب الاطلسي وهي منطقة سهل سوس توجد بها حسب هذا الفريق الثاني (MARCY, TISSOT) المستعمرات التالية :

كاريكون تيكوس

* من خلال اتيان البيرنطي القرن VI م (Ephore) نهاية القرن IV ق.م و(Alex Polyhistor) القرن I ق.م الاول تحدث عن كاريكون والتاني عن (Lixa) ونهر (Lixus) و(Xilia) (Arzila).

وتطابق كاريكون تيكوس من خلال باحثين آسفي وآخرين من الصويرة ومجموعة ثالثة تعتبر أكادير هي المكان المناسب لوجود هذه المستعمرة ولكن التحليل اللغوي يرجح موكادور. (كاريكون تيكوس = سورميتين، الصويرة، امكدول)

مليتا (MELITA).

يستبدل الباحث Melita (Marcy) بمصطلح (Mesita) ويحدد الموقع بوادي ماسة.

أكرا (AKRA)

توافق أكلو Aglou بالسوس، ميناء معروف.

أرمبيز (ARAMBEZ)

وتوافق أساكا (ASÀKA) عند مصب واد نون.

كيط (GYTTE)

وتوافق موقع فونتي (Funti) القريب من مدينة أكادير

ومن متزعمي هذا التحديد Tissot ولايرى غرابة في تركز هذه المواقع ضمن هذا المجال الضيق بل على العكس من ذلك يعتبر السوس من أغنى المناطق المغربية بمناجمها العديدة والمختلفة واهلها ايضا موقعها القريب من الصحراء للتزود بمعادن المناطق الواقعة الى الجنوب من الصحراء. بل ان تيسو Tissot يذكر بأن هذه المواقع الليبي - فنيقية لن تفهم اذا وطناها شمال سوس كما فعل Vivien de St Martin. بل ان Tissot يذهب ابعد فيعتبر جل الاودية المذكورة عند بوليب وبطوليمي توجد بالسوس.

وعليه فوادي اللوكوس المذكور في رحلة حانون يوافق بالنسبة لتيسو ولمعظم الباحثني المعاصرين واد درعة ولكن باحتي الثمانينات من هذا القرن أصبحو يميلون الى رأي روسو Rousseaux صاحب مقال «حانون بالمغرب» الذي يعرف اللوكوس على انه ليكسوس ويدعم تيسو رأيه بقوله ان نهر ليكسوس المذكور في رحلة حانون هو الحد الفاصل بين الليبيين الرحل والليبيين المستقرين، وكذلك وادي درعة في عصرنا الذي يفصل اليوم بين السكان المستقرين والفلاحين من سوس والقبائل الرحل التي تنتقل الى الجنوب من الوادي واختلاف نمط العيش بين السكان المستوطنين على ضفتي النهر ناجم عن اختلاف المنطقتين التي يفصل بينهما الوادي. ضفته الشمالية تنتمي لمقدمة الاطلس وضفته الجنوبية توافق بداية الصحراء التي تعيش به عناصر بيضاء تم تتلوهم العناصر السوداء.

والرحلة تذكر وبتدقيق الاختلاف في طبيعة المنطقتين والاختلاف في التنوع البشري، فضمن اللكستيين وجد حانون تراجمة للتحاور مع العناصر السوداء واخيرا فالرحلة البونية تجعل مقدمة الصحراء انطلاقا من درعة.

تيسو، ومجموع الباحثين الذين يتبنون رأي تحديد ليكسوس على انه درعة واللكسيون سكان الجنوب يسايرون بوزيناص (Pausanias) الذي يقول

بأن اللكستيين يشبهون في معيشتهم الاطلنط والناسامون يقطنون على حدود الاطلس (رأس غير) ويقتاتون بثماره البرية وقوله يشجع على اعتبار اللكستيين من سكان الجنوب المغربي.

هل ستحل الرحلات الموالية اشكالية التوطين ؟.

اذا اخذنا رحلة سيلاكس (Scylax) سنصطدم بتضارب آراء الباحثين المعاصرين حول صاحبها. ولا مجال للخوض في حياة الرحالة [هل هو قائد دار يوس الاول ام هل هو الهاليكرناسي].

والجديد من خلال رحلته التي نقلتها لنا مصادر اغريقية رومانية لاحقة * أننا نجد تفصيلات اكثر بالنسبة لجزيرة سرني وللعلاقة التي ربطت سكانها الاثيوبيين بالفنيقيين.

وسرني بمثابة الجنة المفقودة تم تحديدها في أمكان مختلفة : ـ حانون جعلها مقابل قرطاج، ـ أما سيلاكس فجعلها على بعد 7 أيام من الاعمدة، ـ بوليب جعلها مقابل الاطلس.

وتضاربت اراء الباحثين المعاصرين فكل باحث حددها في مكان ما على الارض وتوفنو ذكر بأنه لا توجد بالصحراء المغربية جزيرة توافق المواصفات المذكورة عن سرني دوزانج من جهته اعتبر بأن سكان سرني من العناصر البيضاء الذين تعاملو بلاشك مع فنيقيي قادس او ليكسوس. وحدد الجزيرة بموكادور وجعل نهر XION الوارد في رحلة سلاكس موافقا لنهر القصوب (O.KSOB) الذي يجري وراء مركادور وتطعم الحفريات الاثرية رأيه لأنه وجدت بالجزيرة شظايا من الفخار الاغريقي المذكورة ضمن المواد التي يحضرها الفنيقيون ويتآجرون بها وراء الاعمدة.

وبعد هذه الجزيرة يجعل سيلاكس الابحار صعبا والتقارير البحرية ايضا تأكد على صعوبة الابحار في الجنوب.

اذن، اذا قبلنا توطين سرني سيلاكس بالصويرة لايمكن ان نعرف سرني المصادر الاخرى. وننتهي الى ما انتهى اليه جاك رامان في كتابه حول رحلة حانون عندما قال بأنه ليست هناك سرني واحدة. بل هناك اولى وثانية وثالثة...

- رحلة أوتيمين

واذا كانت رحلة سيلاكس تؤرخ ضمن رحلات القرن IV ق م فإن رحلة المارسيلي أوتيمين يحددها (CLERC) أيضا بهذا القرن ويذكر بأنه لن يسهل تفسير محاولة أوتيمين اذ اوضعت رحلته قبل رحلة حانون بل ويضيف بأنه بذون ريب كان أوتيمين على بينة بالرحلة وأنه اقتفى خطوات سابقيه ليصل الى حدود خط الاستواء وافتقاده للمواد الغذائية هي التي جعلته يتراجع نحو نقطة الانطلاق.

(HUGOBERGER) لا يشاطر (CLERC) الرأي ويعتبر بأن رحلة أوتيمين لم تتعد السواحل الغربية للمغرب وبالاساس ساحل الدار البيضاء الذي تنطبق طبوغرافيته على المعلومات الواردة في الرحلة ولكن (CLERC) يذكر بأن وحيشه النيل لا تنطبق على اي نهر مغربي بما في ذلك درعة ودعا (CLERC) الى البث في مصداقية شبه وحيشته بالنيل، وقال بأن كل الانهار التي تنبع من الغرب لتصب في الشرق يمكن ان تعتبر مزودة للنيل ولكن وحيشة النيل لا توجد الا في نهر واحد هو السنغال بل خصوصية مياهه تطابق خصوصية النيل (مياه عذبة (DOUCE) صالحة للملاحة).

وكان أوتيمين حسب CLERC وأيضا CHOVIN أول واخر مارسيلي زارو ترك وصفا لساحل السنغال - غامبيا بمعنى انه تجاوز اخر واد مغربي بحوالي 3000 كلم واذا لم يلق نفس نجاح حانون فلان القرطاجيين ضيقوا الخناق على المارسيلين وما زاد من تقليل اكتشافته تراجع المعارف الجغرافية عند القدماء بعد عصر اوتيمين. هل لهذا القول مصداقيته ؟

سنجيب عنه من خلال الحديث عن رحلتين اولها هي رحلة بوليب (POLYBE) ترجع للقرن II. ق.م والتانية وهي رحلتا اودكس السزيكي EUDOXE DE CYZIQUE وتعود الى اواخر القرن II ق.م وبداية القرن I ق.م (ولكن تؤرخ بعد رحلة بويلب (حوالي 110 ق.م).

1 - رحلة بوليب (POLYBE)

بوليب مؤرخ اغريقي من القرن II ق.م (و205 ق.م/ت 82 ق.م)

مكنته مكانته الاجتماعية ورجاحة عقله لان يكون مستشارا بجانب القادة الرومان فكان الى جانب سبيون الافريقي (Scipion l'Africain) في محاصرته قرطاج وتدميرها بين سنة 146-147 ق.م وانطلاقا منها فوضه سبيون بمأمورية استكشاف حدود العالم المأهول. اذن فرحلته تدخل في اطار الرحلات الرسمية ولاشك انه استعان ببحارة اسيويين معروفين بحبهم للمغامرة ومعرفتهم بالبحرية ولاريب انه رغب من وراء هذه الحملة مراجعة ما جاء من معلومات حول رحلات القرطاجيين وراء الاعمدة ومنها رحلة حانون التي كانت معلقة بمعبد كرونوس والتي تبين الرومان بلا ريب بامرها قبل ان يهدموا المبنى.

ويختلف الباحثون المعاصرون في تحديد المدى الذي وصل اليه بوليب فبديش (PEDECH) يشك في امكانية تجاوزه لرأس بوجدور لأنه وحسب دائما نفس الباحث معلوماته بسيطة حول الداخل وحول اقصى الجنوب وحديثه يهم بالاساس الاطلس الكبير الغربي الذي يظهر بين رأس سيم (SIM) ورأس غير (GHIR) اي بين مدينتي موكادور وأكادير، توفنو وسميث SCHMITT يصلان ببوليب الى نهر السنغال بل ان سميث يعتبر بأن بوليب اقتفى اثار حانون. وعليه اينما حددنا محطة حانون الاخيرة سيترتب عن هذا التحديد معرفة محطة الرحالة اللاحقين.

ما هي المعطيات الواردة عند بوليب والمتعلقة بالجنوب المغربي ؟

يتحدث بوليب عن جزيرة سرني يوطنها عند حدود موريطالنيا (المغرب القديم او في مقابل الاطلس ويذكر انها تبعد عن القارة بثماني سطادات توجد وراءها سلسلة من الجبال اخرها (THEON OCHEMA) وسرني بوليب من خلال الباحثين المعاصرين توافق موكدور وبعدها تحدث بوليب عن السكان وعن مجموعة من الأودية عن QUOSENUS وهو حسب سميث نهر سوس وحسب توفنو تانسيفت ويوافق عند بطوليمي نهر (UNA) - وبعده MASATATO الذي يوافق ماسة أو AGNA بطوليمي، ودوما ومن خلال بوليب نتعرف على واد درعة وعلى ما يعج به من تماسيح، ولكن توفنو - وكما سبق وذكرنا - يعتبر بأن التماسيح وأفراس النهر هي من خصوصيات نهر BAMBOTUS اي نهر السنغال وGAUTIER بدوره يعرف النهر على أنه

السنغال الذي توجد به وبرافده الفالمي منطقة بامبوك (BAMBOUK) المعروفة بمناجمها الذهبية والتي كانت معروفة عند التجار المسلمين في القرون الوسطى.

واذا كانت بعض الرحلات لم تتجاوز منطقة سوس (ورحلة سيلاكس)، واذا كان العاهل يوبا الثاني لم يملك محطات جنوب جزيرة موكادور، واذا كنا لا نعرف ما قاله (STACIUS SEBOS) عن ما وراء أعمدة هرقل فطبيعي - وحسب سميث - ان يتحدث بلين عن رحلة بوليب ويعده أول من تعدى الخط الذي وصل اليه سابقوه أي تجاوز الاطلس. وحدود موريطانيا بالنسبة له تصل الى رأس سرنتيوم (SURRENTIUM) الذي يوافق الرأس الابيض، بل سميث وكما سبق وذكرنا - وصل ابعد، بلغ الى (BAMBOTUS) الذي يطابق عند سميث السنغال.

2 - رحلة أودكس السزيكى (EUDOXE DE CYZIQUE)

نعرف رحلات أودكس عن طريق مجموعة من الكتاب الاغريق والرومان نذكر منهم سطرابون (STRABON) الذي هو بدوره اعتمد على سابق له هو بوزدينوس الايامي - (POSIDONIUS) ولا شك أن المؤلف استقى معلوماته حول رحلات أودوكس خلال مقامه بقادس ورحلتان فقط تهمان ما وراء الاعمدة وهما الرحلة 3 و الرحلة 4 واراد ان يتجه نحو الهند ولكن بطريق معكوس. هذه المرة عن طريق المحيط الاطلسي وحول الاتجاه ليحتفظ بالغنائم لحسابه الخاص، وكان طاقمه يتكون من سفينة كبيرة (grand Vaisseau) وزورقين (DEUX Chaloupes) أحدهما ليبحر في اعالي البحر والزورقين ليقترب بواسطتهما من الساحل وحمل على ظهر السفينة مهندسين وفنانين وعبيد موسيقيين وابحر وراء الاعمدة وتحطمت سفينته - هل بسبب الرياح الشمالية / الغربية فلها وجهان - وصنع بها زورقا وتابع رحلته الى ان وصل لارض الاثيوبيين فشبههم بأولئك الذين عرفهم بشرق افريقيا واعتبر بأنه وصل الى حدود مملكة بوخوس (BOGUS). ويذكر دوزانج ان اعتقاده بأن السكان الذين قابلهم وراء الاعمدة هم الذين تعرف عليهم بالساحل الافريقي الشرقي فتهيأ له بانه وصل الى رأس (GUARDAFUI) ولذلك قفل راجعا ويضيف دوزانج ما ملخصه انه يمكن ان نقبل بوجود رصيد لغوي مشترك بين اللغة

المستعملة بالسوس وتلك المنتشرة بالصومال ولكن ليس الى درجة الشبه التام وحتى المقابلة لايمكن ان يقيمها الا مختص لغوي.

والمهم من هذه الرحلة هو حديثه عن الاثيوبيين جيران بوخوس. ولاشك انه بوخوس الاول صهر يوغرطة الذي كان يحكم بلاد المو خلال سنة 110 ق.م وما يؤكد ذلك ما جاء به ابيان من اخبار عن تجنيد بخوس الاول كجنود من الاثيوبيين كانوا يقطنون الى الشرق من اطلس موروزيا وبعمله هذا اراد ان يبدد شكوك صهره.

وعند رجوع أودوكس من الجنوب عرف بجزيرة مقفرة مروية وبها أشجار وصفه هذا يشبه وصف اريان ARRIEN الذي ذكر بأن سرني (CERNE) توجد في منطقة مقفرة من افريقيا وبأن هذه الجزيرة خضراء، خصبة ومروية. ولاشك أن أودكس لم يصطدم بهذه الجزيرة عند ذهابه لانه كان يبحر في اعالي البحار ولم تكن جزيرة كبيرة ولا مرتفعة وهي قريبة من الساحل. ولا تنطبق المواصفات على جزر الكناري كما ان الباحث LAFFRANQUE يرفض ان تكون قريبة من ساحل موروزيا لان قربها سيضر بأودكس ولكن دوزانج يخالفه الرأي وينكر بأن سيطرة بوخوس الاول ليس لها مفعول على المناطق الواقعة وراء واد ابي رقراق وكان من اللازم انتظار قرن لتكتشف اهمية الجزر الارجوانية على يد يوبا الثاني (Les iles purpuraires) لذا فالجزيرة التي توقف عندها اودكس هي موكادور. ويضيف دوزانج بأن اودكس لم يكن له لان يخاف من سطوة بوخوس لان هذا الاخير كان في حيرة من الموقف الذي يتبناه من الصراع الذي جمع بين صهره يوغرطة وبين الرومان.

وذكرَ بوزدينوس (POSEIDONIOS) بأن اودكس باع زوارقه وذهب راجلا عند الملك ولهذه الاشارة اهميتها بالنسبة لتاريخ مملكة موروزيا فهي تبين بأن المقر الملكي ليس بطنجيس ولا بأية مدينة ساحلية. وبناصة بدورها نخرجها من القائمة لاننا نعلم من خلال بلين ان الوصول اليها كان ممكنا عن طريق وادسبو ولذا فالراجح ان يكون أودكس قد التقى ببوخوس الاول بوليلي وبذلك يكون لرأي كاركوبينو مصداقيته عندما اعتبر بأن وليلي هي عاصمة موروزيا من بداية الملكية وفي اتجاهها تنطلق الطرق ومنها ايضا تخرج نحو الجنوب.

وقد انضوى بوخوس الاول لصف اودوكس ليرمي به بعد ذلك بجزيرة مقفرة ولكن استغرب سطرابون من تبين أودوكس من الحيلة وهربه فهل أبلغه الخبر أحد اعضاء مجلس الشورى ؟

ويذكر دوزانج ان البلدة التي ابحر منها اودكس نحو ايبيريا هي طنجة التي بدأت تميل لكفة الرومان منذ 110 ق.م

وفي رحلة أودكس 4 وهي ثاني رحلة وراء الاعمدة جمع حرفيين وقادهم وراء الاعمدة وكانت رغبته ان يبقى موسما (الخريف) بالجزيرة التي عرفها خلال رحلته السابقة يبذر ويحصد ويقيم بالمنازل التي سيشيدها البناؤون ولا يقدم بوزدونيوس مزيدا من التفاصيل حول هذه الرحلة هل لأن اودوكس لم يعد عندما غادر الفيلسوف قادس ؟ هل لان سفن اودكس تحطمت ؟.

ويعتبر دوزانج هذه الرحلة من أهم الرحلات لانها تتضمن العديد من الحقائق. فقد تمت في اطار تاريخي محدد ورافقها النجاح وتعرضت للفشل ولم تتعد المناطق الجغرافية المعروفة لم تتجاوز اثيوبيا التي تحدثت عنها (COELIUS ANTIPATER) انطلاقا من تقرير رحالة مجهول وتوافق اثيوبيا عند هذا المؤلف وعند أودكس الجنوب المغربي الذي كان مسكونا وحسب دوزانج - انطلاقا من رأس غير من طرف مختلف القبائل الاثيوبية الغربية الذي سبق لبوليب ان التقى بهم.

وننهي مصادر ما قبل القرن الاول الميلادي بالمنظور الشعري لنرى هل وقف شاعر القرن I ق.م عند أعمدة هرقل ام هل ساير المعارف الجغرافية لعصره فطار بدوره بعيدا وراء الاعمدة.

لنتذكر بأن الشاعر بندر خلال القرن v ق.م جعل الابحار وراء الاعمدة ضربا من المخاطرة. ولكن هوراس (HORACE) الشاعر اللاثيني من القرن I ق.م تطابق افاقه معارف عصره. ففى احدى المقاطع الشعرية دعى الرومان لرحلة بالمحيط وقال :

«انتم ايها الشجعان اتركوا الشكوى الغير مجدية، وابحروا بعيدا من سواحل اتروريا، المحيط الذي يلف العالم اصبح مفتوحا أمامنا. لنبحث عن قراه

الغنية وعن جزره السعيدة. فالارض بذون ان تنحت تزهر، والعنب لا يخيب الظن والتين الناضج يزين دوما الشجر» وذكر في مقطع اخر ما مفاده : أن الفنيقيين لم يحولوا اشرهتم المنتفخة بهذا الشاطىء الذي احتفظ به جوبتر للرجال الفضلاء (Hommes vertueux).

II ـ الجنوب المغربي من خلال مصادر القرن الاول الميلادي وما بعده

نجد ضمن مصادر القرن الاول الميلادي وما بعده لائحة طويلة يأتي على رأسها مصدر بلين القديم (الكتاب V فقرات، التاريخ الطبيعي). ويختم جغرافي رافينا هذه القائمة.

وتتضمن كتابات هذه المرحلة معلومات ضافية تساعدنا على توطين القبائل. والملاحظ ان بعض القبائل يشترك كل المؤلفين القدماء في الاشارة او التعريف بمواطن استقرارها بما في ذلك مؤلفو ما قبل القرن الاول الميلادي. بينما قبائل اخرى ينقطع ذكرها خلال القرون اللاحقة للقرن الاول المسيحي. وهناك من القبائل التي لا نتتبع اخبارها الا من خلال مصدر او مصدرين فيكون من الصعب توطينها.

سنخص في هذا العرض حديثنا عن القبائل الجنوبية الاساسية التي يشترك اكثر من مصدر في الحديث عنها او التي يسوق اخبارها كل من بلين اوبطوليمى او جغرافي رافينا. ونقسمها الى قسمين الى قبائل موجودة على الساحل الاطلسي من رأس غير الى درعة والى قبائل داخلية الى الشرق من مواطن القبائل الساحلية.

1 ـ القبائل المتاخمة للمحيط :

ونجد ضمنها القبائل التالية :

— LEUCOEATHIOPES

— PERORSI

— APHRIKERONES

— DARATITES

— KLIMATIDES / MALTITES

— MASATI

LEUCOEATHIOPES - 1

ويعني المصطلح (وهو مصطلح اغريقي) الاثيوبيون البيض. واذا كان بومبونيوس ميلا قد تحدث عنهم فإنه لم يحدد مواطنهم تحديدا مضبوطا. فقد جعل اراضيهم تمتد فوق اراضي السكان المجاورين للبحر اللبيي (اي البحر المتوسط)، وشمال المنطقة الغير مأهولة وجاء بلين بمعلومات ادق حولهم عندما ذكر بأن الصحاري تفصل بين اراضيهم وأراضي الجيتول ووراءهم ويعني بورائهم - الى الجنوب منهم النكريت (Nigrites) ثم الفاروسين ويحدد موطن الفاروسيين بحدود موريطانيا وبالقرب من المحيط.

وتتوضح معلوماتنا اكثر عن «الاثيوبيين البيض» مع الجغرافي الاسكندري بطوليمي (PTOLEMEE) الذي اعتبرهم من الشعوب الصغرى (Peuples Mineurs) بليبيا الداخلية يقع موطنهم اسفل جبل (RHUSADION) او سهل مراكش PURRON Pedion أي الى الجنوب منهما.

وجغرافي رافينا الذي استقى معلوماته من بطوليمي اعتبرهم من القبائل الكبرى بليبيا الداخلية.

يوجدون بعد (Nigrites) و(APHRIKE RONES).

وهذه المعطيات هي التي شجعت الباحثين المعاصرين - ومنهم دوزانيج الذي اهتم بموضوع توطين القبائل - بأن يعتبرهم من قبائل الجنوب المغربي ودوزانج يعتبرهم من العناصر الملونة، خليط من الليبيين والاثيوبيين يستوطنون حسب باحثين سهل مراكش وسفوح الاطلس الكبير ويفضل دوزانج توطينهم بالمنطقة الداخلية من سهل سوس.

جزيل (GSELL) لا يعتبر الاثيوبيين البيض عناصر ملونة بل عناصر سوداء تلون اجسامها بطلاء ابيض ودوزانج لا يشاطره الرأي. ويؤكد هذا الباحث الاخير بأنهم يشكلون الجدار الغربي للمنطقة التي توجد شمال اثيوبيا

ويقابلهم في الجهة الشرقية الليبيون المصريون (Les libyes Aegyptii) ومنطقة استقرارهم - كما سبق وذكرنا - توافق سهل سوس.

2 - البرورسيون (PERORSI)

البروسيون من العناصر الاثيوبية وطنهم بلين استنادا على بوليب وراء نهر (SALSUM) وقبل الفاروسيين الداخليين وشمال الدراتي (DARATITE).

ومن خلال فقرة اخرى لبلين (15,V) يوطنهم قريبا من كير (وادغير ؟) الوادي الدي وصل اليه القائد الروماني سيوطونيوس بولينوس في حملته ضد الثوار، بل ان الباحث دوزانج يجعل نبات الاوفورب (Euphorbe) - دا الخصوصيات الطبيبة العديدة والمكتشف من طرف يوبا II وطبيبه - موجودا بمنطقة سكناهم ولاشك ان بلين أخلط في اعطاء هذه المعلومات بين البرورسيين (Perorsi) والفاروسيين (PHARUSII).

من جهته، بطوليمي يعتبر البرورسيين (Perorsi) من القبائل الكبرى لليبيا الداخلية يوجدون الى الشرق من درداي (L'embouchure de DARAS) ويضيف قائلا بان ألسهل الاحمر يفصل بينهم وبين الاثيوبيين البيض.

جغرافي رفينا هو الاخر يوطن البرورسيين بين اراضي DARADAE وODRANGIDAE، وستفان البيزنطي (STEPHANE DE BYZANCE) يعتبرهم من القبائل الكبرى بليبيا، ويعود جغرافي رافينا ليذكر بروزا (Perora) بعد Getulidare وموريطانيا البروسية (Mauretania Perosis) جنوب الطنجية...

وهكذا فأغلب المصادر القديمة تشجع على تحديد موطن البروسيين بالجنوب المغربي بين وادنون وواد سوس بل وهناك من يصل بهم الى الاطلس الصغير، ولكن ذكر المصادر للبحيرة الحمراء تدفع للتفكير ايضا في سهل مراكش في حالة اذا احتفظنا بالتعاريف السابقة PURRON PEDION فهل وقع الكتاب القدماء فى خلط بين هذا السهل وسهل سوس فترتب عن ذلك خطأ الباحثين المعاصرين ؟

على كل فالنكريت يستوطنون اسفل RHUSADION الذي يوافق حسب دوزانج سهل سوس.

3 ـ الافريكرونيس Aphrike Rones

يوطن بطوليمي (6,6,IV) الافريكرونيس بين مجموعة من المحطات والقبائل التي تحتاج هي بدورها لان تعرف، أما جغرافي رافينا فنذكر بأن الافريكرونيس من الشعوب الكبرى لليبيا الداخلية وحدد مقر سكناهم بين النكريت (Nigritae) والاثيوبيين البيض (Leukoea Thiopes) أينما وطنا هذه العناصر الاخيرة سيتبع ذلك ضبط موطن الافريكرونيس، على كل لن نجدهم ابعد من وادي درعة.

وتساؤل (DESANGES) هل مصطلح (Aphrikerones) لا يوجد ضمنه مصطلح (KERAS) الذي يعني رأس أو جبل ويقربهم من (Iberk AKENE) بين يغرم وتافروت بالاطلس الصغير.

4 ـ دراتيت (DARATITES)

تجمع المصادر القديمة على اعتبارها عناصر اثيوبية / اي سوداء. وحدد بلين موطن سكناها بالقرب من البحر، وذكرها بطوليمي ضمن قبائل ليبيا الداخلية يستوطنون مصب النهر الذي يحمل نفس الاسم. ووطنه في فقرة اخرى غرب اثيوبيا (L'ETHIOPIE SUBEGYPTIENNE) وتوافق هذه المعلومات ضفاف وادي درعة عند المحيط الاطلسي.

5 ـ المالتيت (Maltites) أو الكليماتيد (KLIMATIDES)

يوطنهم بطوليمي الى الجنوب من المناطق التي ينبع منها نهر درعة ونهر ماسة، يقترح فيفيان (VIVIEN DE STMARTIN) تقريب اسمهم من لمطة التي اشار اليها ابن حوقل منذ القرن 10 م بمنطقة ودانون وكانت عاصمتهم نول لمطة، أما البكري فقد وطنهم بين سوس ونول (نون).

هل يلزم قراءة كليماتيد (KLIMATIDES) اللمطة (ELLEMTATA) اذا قبلنا بهذه القراءة يلزم البحث عنهم بالسفح الغربي للاطلس الصغير ودوزانج لا يوافق على هذه المقاربة..

6 ـ مساتيون (MASATI)

ذكرهم بلين القديم اعتمادا على بوليب (9،V) ووطنهم قبل نهر مساسات اي واد ماسة ودرعات (DARAT) الذي يوافق درعة فهم اذن الساكنون على ضفاف وادي ماسة.

2 ـ القبائل الداخلية

ونجد ضمنها مجموعة من القبائل نخص بالذكر منها القبائل التالية :

1 - PHAROUSII
2 - GIRREI
3 - ODRANGIDAI
4 - NIGRITAE
5 - DARADAI

1 ـ الفارسيون (PHAROUSII)*

تحدث عنهم سطرابون خلال القرن I ق.م ووطنهم بين الجيتول والاثيوبيين، ومن خلال اعتماده على رحلة أوفلاس التي تمت خلال القرن IV ق.م ذكر بأن موطنهم وموطن نيكريت (NIGRITAE) يوجد على بعد 30 يوما مشيا من لينكس اي 900 الى 1050 كلم من ليكسوس، ويضيف بأنهم عملوا على تخريب 300 مؤسسة صورية جنوب الخليج الامبوري (Le golfe Emporique) بل انه يعطينا معلومات اكثر تفصيلا عندما يعتبرهم نبالة (ARCHER) مثل النكريت وبأنهم يسكنون فوق الموروزيين في اتجاه موطن الاثيوبيين الغربيين وأنهم مثل النكريت يركبون عربات مسلحون آلة تشبه المنجل الكبير ويلتقون مع الموريزيين ولكن نادرا عندما يعبرون الصحراء ويعلقون قربا مملوءة ماءا بيطون خيولهم بل انهم يصلون الى سيرتا (قسنطينة) عبر الشطوط الجزائرية يعيش بعضهم في الكهوف ارضهم ممطرة صيفا وجافة في الشتاء.

وتوافق هذه المعلومات ـ حسب دوزانج ـ دوبان الثلوج صيفا من قمم الاطلس وتشكيلها للمرجات عند سافلة الجبل.

ووطن بومبنيوس ميلا الفاروسيين بين المور (MAURI) الذين يقيمون

بشواطىء البحرين المتوسط والاطلسي وبين الاثيوبيين. ووطنهم في فقرة اخرى بين الاطلس والهسبريد.

أما بلين فنعتهم ب (Gymnetes) اي مستعملو السلاح الخفيف وايضا ذكر بأنهم سريعي العدو، وهو في هذا يلتقي مع ما ورد من معلومات عند حانون حول سكان الكهوف (Troglodytes) المستوطنون بمنابع نهر اللوكوس.. واعتبرهم كذلك عناصر اثيوبية تقيم في المنطقة الممتدة بين سكنى النكريت (Nigrites) والبروسيين (PERORSI).

وبطوليمي يوطنهم في فقرة شمال جبل (SAGAPOLA) وفي فقرة اخرى على ضفاف الاناتيس (ANATIS) واذا اعتمدنا على معطيات بطوليمي ستدفعنا الى توطين بعض الفاروسيين غرب الاطلس عند وادي ام الربيع او تانسيفت وبعضهم الاخر يستقرون بأعالي ملوية وربما ايضا بتافيلالت. ومعطيات سطرابون تشجع ايضا على تحديد مجالهم جنوب الاطلس بين درعة وغير.

هل مدينة (Pèrosium) و(Perorsis) تنتمي للبرورسيين أم للفاروسيين ؟ من الصعب البث في هذه النقطة خصوصا والخلط بين العنصرين كبير لدرجة دفعت بعض الباحثين لاعتبارهما عنصرا واحدا يعرف باسمين (GSELL).

2 - GIRREI

يعتبرهم بطوليمي (IV،6،5) من بين القبائل الكبرى لليبيا الداخلية يوطنهم جنوب غير النهر الذي وصل اليه سيوطونيوس بولينوس في حملته ضد الجنوب.

يذكرهم ايضا جغرافي رافيا تحت اسم GIGGI ويقترح دوزانج قراءة المصطلح GIRRI ويوطنهم قبل (Nigritale) وبعد الجيتول الملونون (Mèlano gétules).

3 - (ODRANGIDAE)

من العناصر الاثيوبية ذكرهم بطوليمي (IV،6،5) ضمن القبائل الكبرى

لليبيا الداخلية حصرهم بين مجموعة من النقط التي تحتاج لضبط ولكن المعروف من بينها DARAS الذي يوافق نهر درعة [جغرافي رافينا وطنهم بين (DARADAE) و(Perorsi) من جهة وقبيلة (MIMAKES) من جهة ثانية ؟!]

فيفيان (VIVIEN DE STMARITIN) اقترح تقريب اسمهم من OUTRIGA أو OUNZIGA وهي قبيلة صحراوية وطنها ابن خلدون بين درعة وواحة التوات اما حسب الوزان فقد وطن (OUENZIGA) بالصحراء جنوب سجلماسة، والمقاربة تحتاج لمزيد من التحري أما المؤكد فهو استيطان ODRANGIDAE الى الجنوب من النكريت. (Nigritae).

4 ـ النكريت (Nigrites)

هل سموا كذلك نسبة الى واد Nigris أو واد Djedi (الجدي ؟) واذ ملنا الى هذه المطابقة سنصطدم بتوطين سطرابون الذي باعتماده على رحلة أوفلاس (OPHELAS) ذكر بأن النيكريت والفراوسييس يستقرون على بعد 30 يوما من المشي وراء لينكس (Lynx) (1050-900 كلم) وبالتالي فهم في مدار اخر غير مدار (Djedi). وهم من العناصر التي تسببت في تحطيم 300 مؤسسة صورية يستعملون النبال كالفاروسيين، يعيشون فوق الموروزيين وفي اتجاه موطن الاثيوبيين الغربيين.

ميلا (MELA) وطن النكريت والفاروزيين الذين ميزهما عن الاثيوبيين بعيدا عن موطن الموريين المجاورين للبحرين المتوسط والاطلسي، وفي فقرة اخرى ذكر ان شواطئهم غنية بصباغة الارجوان ولكن بلين يجعل النكريت مثل الفاروسيين من العناصر الاثيوبية وقد سموا كذلك نسبة الى نهر Nigris.

بطوليمي اعتبر (Nigritae) من القبائل الكبرى بليبيا الداخلية وطنهم شمال (NIGEIR) بين GIRREI وDARADAE.

جغرافي رافينا وطنهم بين الجيتول الملونين (Mélanogetules) والكريي (GIRRI) من جهة وبين الافريكرونيس والاثيوبيين البيض من جهة ثانية ويظهر ان النكريت والفاروسيين كانوا على صلة وثيقة ببعضهم ولعلهم كانوا

يستوطنون السفح الجنوبي ـ الشرقي للاطلس بين درعة العليا وواد غير او بحدود الاغواط (Laghouat) ؟

ومن الانهار التي تحددها معظم المصادر القديمة بالقرب من مقرسكنى النكريت نهر النيل بل ان سطرابون وأيضا فتروف (VITRUVE) يحددان منابع النيل بموروزيا ويضيف فتروف بان النيل في انحداره من الاطلس يسمى Agger (ger أو Niger) ؟ ويذكر بطوليمي بأن نهر نكريس (Fons Nigris) ينبع من الاطلس المغربي وشماله يوطن الاثيوبيون (Nigritae).

بلين بدوره يتحدث عن Nigris باعتباره الحد الفاصل بين افريقيا وأثيوبيا بل يشكل بالنسبة للاثيوبيين الغربيين ما يشكله النيل عند الاثيوبيين الشرقيين. ولكن بلين لا يذكر هل (Nigris) هو جزء من النيل او شبيه له فقط : وفي فقرة اخرى يتحدث بلين عن نهر (Le Fons Nigris) الذي يجري من الطنجية والقيصرية ويختفي ليظهر نيلا ويسمى بومبونيوس ميلا النهر الذي يجري بأرض الاثيوبيين الغربيين (NUNC) وهي تسمية كما يقول همجية (Barbare) وقد يتعلق الامر بنهول (NUHUL) النهر الذي يطابقه اوروز (OROSE) بدرعة والذي توجد به كل وحيشة (La faune) النيل ودوزانج يعتبر بأن نون أو نول هو المقصود والذي يحمل وعلى مسافة 150 كلم غرينا بين واد ماسة وواد درعة بمنطقة كوليمين.

5 ـ درداي (DARADAI) او الدراي (DARAE) الدرعيون من العناصر الجيتولية، وطنهم بلين (V،10) بجوار الفاروسيين بداخل الاراضي، جغرافي رفينا بدوره اشار للجيتول الدرعيين (DARE) يوطنهم الباحثون المعاصرون بأعلى الوادي درعة وأسفله وهناك من يعتبرهم من سكان الجبال التي ينبع منها درعة.

خاتمة :

ـ بالنسبة لمصادر ما بعد القرن I م ـ اذا انتخبنا منها المعلومات المتعلقة بالعناصر المستوطنة للجنوب المغربي سنلاحظ ما يلي :

- هذه العناصر او معظمها اثيوبية وبعضها يصعب توطين سكناه بشيء من التأكيد.

والمعطيات الواردة ضمن هذه المصادر لا تقتصر على توطين بعض القبائل بل هناك معطيات تتعلق ببعض المحالح الجغرافية والمحطات المهمة بعضها يصعب تحديد مكانها وبعضها الاخر هناك محاولات من الباحثين المعاصرين لتوطينها.

- من المحطات التي اشارت اليها هذه المصادر هناك Perora التي اشار اليها Geographe de Ravenne فهل ننسبها للبرورسين ام للفاروسين ؟.

- تحدث بطليموس ايضا عن Vala (8°10'-28°15') وعلى بعد 427 كلم من وليلي.

فحسب توفنو فان Boballica وايضا Bovalica التي ذكرها جغرافيرافينا تشكلان محطة واحدة توافق Vala التي تحدث عنها بطليموس.

وبما ان بطلموس تحدث عن الساحل فلا شك انه تحدث عن الطريق التي تمر عبر ازرو بمريرت. وادي ام الربيع - نحور الحنين، تارودانت ثم السوس،، وهذه الطريق رغم طولها وتعرجاتها تبعد عن موطن الاطولول وتؤمن المسار نحو مكان الذهب والعاج والعبيد الذين ينقلون حسب توفنو عن طريق القوافل من السنغال نحو السوس.

- وتوفنو يذهب ابعد في تعريف اخر محطة وضعها بطلموس (Vala) فيذكر بناءا على المعطيات التي تقدمت بانها توافق تارودانت.

سويتونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت

محمد مقدون / علي واحيدي

مقدمة عامة :

ترتبط هذه الحملة بالمرحلة الثانية لحركة ايدمون التي جرت احداثها في موريطانيا الغربية ما بين سنة 40 وسنة 44 م وفي وقت قرر فيه الامبراطور الروماني كليكولا فجأة اغتيال ابن خالته بطولومايوس ابن يوبا الثاني ملك هذه البلاد وتحويلها الى ولاية رومانية.

من المعلوم انه لم يتأكد لدينا لحد الان قتل ايدمون في احدى المعارك التي دارت في تمودة وطنجة ولكسوس ووليلي. فمن المحتمل اذن أنه التجأ، بعد فشل حركته في النواحي الشمالية من المملكة الموريطانية، الى المناطق شبه الصحراوية حيث عمل بمساعدة القبائل الرحل على مواصلة الحرب ضد الفيالق الرومانية، والدليل على هذا هو ان الحرب الموريطانية الاولى (41-40 م) أعقبتها مباشرة الحرب الموريطانية الثالثة (43-42 م)، غير ان هذا الدليل يبقى وهناً مادام لم تدعمه نصوص او معطيات اثرية. ومن الغريب في هذا الباب أن جل المؤرخين المحدثين ينظرون الى الحرب الموريطانية الاولى والحرب الموريطانية الثانية كحدثين مختلفين تمام الاختلاف، والاغرب من ذلك هو انهم اعتبروا ما افترضه «ف. دولا شابيل» كحقيقة تاريخية.

وقد اهمت الحرب الموريطانية الثانية او حملة «سويتونيوس باولينوس»

القبائل الرحل وشملت الجهات شبه الصحراوية والصحراوية، ذلك ان نصين قديمين الاول لبلينيوس الشيخ والثاني لديون كاسيوس يشتملان على معلومات تتعلق بظواهر طبيعية وبشرية لا يمكن ان تقع الا في هذا النوع من الاقاليم المناخية، وعلاوة على ذلك، فقد ورد في هذين المصدرين الادبيين ان اهم المعارك التي عرفتها هذه الحرب دارت في سنة 42-43 م.

I - المصادر المعتمدة.

في الغيبة الكلية للمعطيات النقوشية والاثرية، لا نستطيع دراسة حملة «سويتونيوس باولينوس» الا بالاعتماد على نصوص اغريقية ولا تينية وردت عند ديون كاسيوس وصولينوس وبلينيوس الشيخ.

ونقدم فيما يلي الترجمة الكاملة لرواياتهم :

رواية بلينيوس الشيخ : «يعتبر القنصل السابق سويتونيوس باولينوس اول قائد روماني اخترق الاطلس وتعداه ببضعة اميال. على الاقل فيما يخص هذا الجبل، فان تقريره مطابق لغيره من التقارير؛ الا أنه يقول ان سفوحه الاولى تغطيها غابات كثيفة وعالية تكونها انواع غريبة من الاشجار ذات اوراق لا تختلف عن اوراق السرو الا برائحتها القوية وجذع طويل أملس تكسوه قشرة رقيقة من الزغب تستعمل لصنع ثياب تشبه في جودتها الملابس الحريرية. أما قمة الاطلس، فالمعروف عنها ان طبقة سميكة من الثلج تغطيها حتى خلال الصيف. ويذكر انه وصل الى هنا بعد قطع عشرة مراحل، وفيما وراء [الاطلس] الى نهر «كير» Ger بعد اختراق صحار من الغبار الاسود تتخللها صخور عالية وحادة وكأنها محروقة، تحول شدة الحرارة دون الاقامة بهذه الاماكن، وقد تأكدنا من ذلك حتى خلال فصل الشتاء. يطلق على الاقوام التي تسكن الادغال المجاورة مأوى ومرتع الفيلة والحيوانات المتوحشة والثعابين المختلفة اسم الكناريني Canarii، ذلك ان نمط عيشهم لا يتميز عن نمط عيش الكلاب ويقاسمون هذه الحيوانات أكل احشاء الحيوانات المتوحشة. وتاتي بعدهم قبيلة الاثيوبيين المشهورة باسم البيرورسيين Perorsii كما هو مثبت في المصادر». PL. H.N., V, 14-16

رواية صولينوس : «وقد عمل سويتونيوس هو كذلك على اكتشاف هذه المنطقة؛ وقد تمكن بثبات ووحده تقريبا ان يصل الى ما وراء الاطلس ويتقدم الى هناك بالشارات الرومانية» Sol. Polyhist, 24

نشير بالمناسبة الى اننا سنعتمد بالاساس رواية بلينيوس الشيخ وندع جانبا رواية صولينوس لان هذا الاخير، بنسخه لبلينيوس الشيخ لم يأت باي عنصر جديد.

رواية ديون كاسيوس : لم يفرد ديون كاسيوس لحملة سويتونيوس باولينوس الا جملة واحدة :

«لقد شن القاضي السابق سويتونيوس باولينوس هو كذلك غارات على بلادهم حتى وصل الى الاطلس». DC, LX. 9

II ـ معطيات تاريخية تشهد على حدوث الحرب الموريطانية الثانية وحملة سويتونيوس باولينوس في منطقة تافيلالت

تحدثنا النصوص الثلاثة المشار اليها آنفا عن سويتونيوس باولينوس ومعطيات جغرافية تتعلق بالاطلس وبعض المناطق المجاورة له.

1) شخصية سويتونيوس باولينوس

اكتفى صولينوس بذكر اسمه « سويتونيوس باولينوس» وأضاف بلينيوس الشيخ وديون كاسيوس أنه تقلد من قبل منصبي القاضي والقنصل، وبالفعل فقد جرى تعيينه هو و«لوكيوس تيليسينوس» Luccius Telesinus قنصلين عاديين لسنة 66. وحسب تاكيتوس فانه كان حاكما لولاية بريطانيا ما بين سنة 59 وسنة 61 وتوصل في سنة 61 الى محق تمرد العديد من شعوبها. ويقول في حقه نفس المؤرخ أنه كان قائدا نزيها ومتزنا. تدل عبارة : quem consulem» «vidimus (الذي رايناه قنصلا) على ان بلينيوس الشيخ تحادث بلا شك مع سويتونيوس باولينوس عندما تقلد هذا الاخير منصب القنصلية خلال سنة 66 واطلع على التقرير الذي وضعه عن حربه ضد الموريين الرحل.

2) بعض المعطيات الجغرافية المتعلقة بالاطلس والمناطق المجاورة له.

- **علو الاطلس** : لم يتحدث بلينيوس الشيخ بتفصيل عن علو الاطلس؛ الا انه يبدو مرتفعا اذا ما نحن اخذنا بعين الاعتبار مضمون العبارتين التاليتين :

العبارة الاولى : «Prodidit de excelsitate quidem eius quae Cetri»

«على الاقل فيما يخص علو هذا الحبل، فان تقريره مطابق لغيره من التقارير» وهذه التقارير هي المصادر الاخرى التي اعتمدها بلينيوس الشيخ لدراسة حملة سويتونيوس باولينوس وتجمع على أن للاطلس ارتفاعا كبيرا.

العبارة الثانية : «Verticem altis etiam aestate operiri niuibus»

«أما قمة الاطلس فالمعروف عنها ان طبقة سميكة من الثلج تغطيها حتى خلال الصيف». ومن المحتمل ان سويتونيوس باولينوس لم يخترق هذه الاراضي المرتفعة التي يتحدث عنها بلنيوس الشيخ، بل كان يبصرها من بعيد خلال مسيرته.

- **نباتات الاطلس** : الملاحظ ان معلومات بلينيوس الشيخ حول نباتات الاطلس تتسم بالمبالغة وعدم الدقة.

فكثافة الغابات وعلو الاشجار ذات الجذع الطويل والاملس يذكرنا بنباتات تنمو في اراض منخفضة نسبيا وتربة سليكية وحامضة ومناخ معتدل بارد. والغريب في الامر ان بلينيوس الشيخ الذي اعطانا وصفا دقيقا لبعض الاشجار مثل العفصية Citri وتحادث بلا شك مع سويتونيوس باولينوس لم يستطع ان يتعرف على أنواع اشجار الاطلس الواردة في تقرير هذا القائد الروماني؛ ومازال الباحثون يختلفون حولها لحد الان.

ويبدو ان المعلومات المتعلقة بقضية الزغب الذي يكسو جذع الاشجار ويستعمل لصنع ثياب تشبه في جودتها الملابس الحريرية تفتقر الى الدقة والموضوعية الى حد ان «ب. فورنيي» P. Fournier يعتبرها خاطئة.

ولا ندري ماهي المصادر التي اعتمدها بلينيوس الشيخ للقول إن الواجهة الشرقية من سلسلة جبال الاطلس هي اكثر رطوبة ونباتا من الواجهة المحيطية الغربية.

يدعونا هذا الوصف الخاطىء لاشجار الاطلس الى ابداء الملاحظتين التاليتين :

الملاحظة الاولى : من المحتمل ان سويتونيوس باولينوس لم يخترق المناطق الغابوية التي يتحدث عنها ولم يتعرف عليها الا عن طريق الرواية الشفوية، فجاء تقريره المشار اليه سابقا مليئا بالاخطاء والتعابير الغامضة والغريبة.

الملاحظة الثانية : استقى بلينيوس الشيخ معلوماته من سويتونيوس باولينوس دون تحليلها واخضاعها للنقد.

ـ **الحيوانات والسكان.** يتحدث عن الحيوانات والسكان بنفس النظرة ونفس الاسلوب اللذين تحدث بهما عن النباتات، فيخبرنا بان الادغال المجاورة التي ليست سوى السهوب الممتدة شرق الاطلس الكبير وفي ملوية العليا والهضاب العليا المغربية ـ الجزائرية مليئة بالفيلة ويستوطنها الكناريون Canarii.

نلمس في هذه الرواية صدى ما أورده سالوست في كتابة «حرب يوغرطة» عن الافارقة :

«وهم قوم غلاظ متوحشون يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة او بنبات المراعي كما تفعل القطعان».

ـ **قضية نهر «كير»** Ger.

بحكم التشابه الواضح الموجود بين اسميهما، فان نهر Ger الوارد عند بلينيوس هو نهر كير الحالي الذي ينبع من الأطلس الكبير الشرقي ويخترق حمادة كير قبل ان تتوارى مياهه في رمال الصحراء.

ـ **الصحاري المجاورة للاطلس.** كل ما ذكره عنها بلينيوس الشيخ قريب من الصواب والواقع، ذلك أن الكارات والحمادات هي الاشكال التضاريسية الصحراوية التي يغطيها الغبار الاسود وتتخللها صخور عالية وحادة وتحول شدة الحرارة السائدة فيها دون استقرار الانسان فيها حتى في فصل الشتاء. وتعني عبارة «quamquam hiberno tempore experto».

«وقد تأكدنا من ذلك حتى خلال فصل الشتاء» إن سويتونيوس باولينوس قد عسكر بقواته في هذه الصحاري خلال فصل الشتاء أو على الاقل خلال جزء منه؛ ومن الراجح أن الامر يتعلق بشتاء سنة 41ـ42.

ـ قمة الاطلس المشار اليها في رواية بلينيوس الشيخ

يقول في شأنها هذا المؤرخ : «Verticem altis etiam acstate operiri niuibus»

«أما قمة الاطلس، فالمعروف عنها ان طبقة سميكة من الثلج تغطيها حتى خلال الصيف».

وهذه القمة هي إما جبل «بوناصر» (3340 م) أو جبل «بو إيلان» (3190 م) المشرفان على واد ملوية في الجهة الشمالية من الاطلس المتوسط، وإما جبل العياشي (3760 م) الواقع في جنوب غرب ميدلت. وتشكل هذه الجبال الثلاثة القمم الاطلسية الوحيدة التي لا يمكن ان تتراءى للمرء الا وهو آتٍ من الشمال أو من الشمال الشرقي.

وهذه العبارة لا تعني بتاتا ان سويتونيوس باولينوس وصل الى قمة الاطلس حيث رأى بالعين المجردة أنها مغطاة بطبقة كثيفة من الثلج. والواضح من خلال عبارة «ان طبقة سميكة من الثلج تغطيها حتى خلال الصيف» انه لم يقم بحملته اثناء هذا الفصل الذي تتوقف فيه عادة العمليات العسكرية، وبالتالي فإن السكان الاصليين هم الذين افادوه بهذا النوع من المعلومات. وباختصار فان هذا القائد الروماني، وان لم يقض كل الخريف والشتاء والربيع (شتمبر 41 - يونيه 42) في المناطق شبه الصحراوية، فالاكيد ان قواته عسكرت بها خلال شتاء 41ـ42.

3) خط مسيرة سويتونيوس باولينوس

يقول بلينيوس الشيخ حول هذا الموضوع : «Decumis se eo peruenisse castris et ultra ad fluvium, qui Ger vocatur, per solitudines nigri pulueris»

«ويذكر أنه وصل الى هنا بعد قطع عشر مراحل وفيما وراء [الاطلس]

الى نهر Ger بعد اختراق صحاري من الغبار الاسود، ليس بامكاننا تحديد هذا الخط اعتمادا على هذه الجملة وعلى ما تتوفر عليه من نصوص ووثائق نقوشية وأثرية.

ـ **نظرية «دولا شابيل».** في تصور «دولا شابيل» أن سويتونيوس باولينوس اتبع الخط الذي يوصل تلمسان بسجلماسة، عبر دبدو وتندرارة وسهل تملالت وعين الشعير وينتهي في مكان يقع جنوب بوعنان بالقرب من واد كير.

نعم، من الممكن قطع المسافة الفاصلة بين تلمسان والاطلس الكبير الشرقي على عشر مراحل خاصة اذا ما علمنا انها تقدر ب 300 كلم وان المرحلة اليومية الرومانية هي 30 كلم؛ الا ان هذا الرأي ل «دولا شابيل» يصعب قبوله وذلك للسببين التاليين :

السبب الاول : يستحيل لحد الان ان نثبت أن منطقة وهران الحالية وعلى الخصوص تلمسان قد شكلت القاعدة التي انطلقت منها قوات سويتونيوس باولينوس لشن حملتها على الموريين الرحل.

السبب الثاني : تدل عبارة «وفيما وراء [الاطلس] الى نهر Ger» على أن سويتونيوس باولينوس حل في مرحلة أولى من جهة الشمال بمكان ما في الاطلس الكبير الشرقي وفي مرحلة ثانية وصل الى نهر Ger بعد اختراقه لاراض صحراوية.. فمن المحتمل اذن أنه مر باقليم «الظهرة» أو واد ملوية وفج تيزي ـ نتلغمت، ومن هناك اتجه نحو الجنوب الشرقي وانتهى به المطاف الى الاستقرار مؤقتا على مقربة من نهر كير.

وفي حالة العكس اي انه وصل الى الاطلس من جهة الجنوب أو الجنوب الشرقي، فان تغيير تركيب عبارة «وفيما وراء [الاطلس] الى نهر Ger» يصبح ضروريا فتكون صيغتها الحقيقية هي :

«وفيما وراء [الاطلس] الى نهر ملوكة Mulucha».

ـ **نظرية «شاتولان»** L. Chatelain

يرى هذا الباحث ان خط مسيرة سويتونيوس باولينوس يمر ببلدة «العنوص» الواقعة في الاطلس المتوسط على بعد 60 كلم تقريبا من مدينة فاس،

ومن المحتمل انه يناسب الطريق من فاس الى سجلماسة التي تحدث عنها البكري فيما بعد.

الواقع أن هذا الرأي يتعارض مع المعطيين التاليين :

المعطى الاول : تأكد علميا الان ان بلدة «العنوصر» ليست بمركز أثري روماني.

المعطى الثاني : تعترض السير على هذه الطريق صعوبات واخطار عديدة ومتنوعة.

- نظرية «ديزنج» J. Desanges.

تشبه الى حد كبير نظرية «شاتولان» ومفادها أن سويتونيوس باولينوس اتبع في مسيرته خطاً يوصل وليلي بواد كير عبر الجهات العليا من وادي سبو ووادي ملوية وفج تيزي - نتلغمت.

علاوة على الصعوبات والاخطار التي تعترض السير على هذا الخط، فانه، خلافا لما يعتقده «ديزنج» «لايمتاز.. بكونه ينطبق مع الرقم الوحيد الوارد في النص».

ونضيف ان انحياز العديد من الوليليين للجانب الروماني اثناء الحرب ضد ايدمون لا يعني ان سويتونيوس باولينوس اتخذ وليلي قاعدة لانطلاق حملته في اتجاه الجنوب.

- نظرية «ماركوريت راشي» M. Rachet

في اعتقادها، لا يمكن لسويتونيوس باولينوس ان يصل الى وادكير الا بعد مروره بمنطقة وجدة وسهل كرسيف ووادي ملوية وفج تيزي - نتلغمت، ذلك أن اتباع هذا الخط يضمن التزود بالمياه الضرورية ويبرر وجوده هذه التوضيحات الثلاثة في النص :

التوضيح الاول : «أما قمة الاطلس، فالمعروف عنها أن طبقة سميكة من الثلج تغطيها حتى خلال الصيف».

التوضيح الثاني : «تغطيها غابات كثيفة وعالية»

التوضيح الثالث : «بعد اختراق صحار من الغبار الاسود تتخللها صخور عالية وحادة وكانها محروقة»

ونقترح بدورنا نفس الخط، لكن لاعتبارات مختلفة شيئا ما :

الاعتبار الاول : الواقع ان اخطارا وصعوبات قليلة تعترض السير على هذا الخط.

الاعتبار الثاني : تبرر اتباع هذا الخط التوضيحات الاربعة التالية الواردة في النص :

«يعتبر القنصل السابق سويتونيوس باولينوس أول قائد روماني اخترق الاطلس وتعداه ببضعة اميال».

«ويروي انه وصل الى هنا بعد قطع عشر مراحل».

تقدر المسافة الفاصلة بين فج تيزي - نتلغمت وتلمسان او بين تيزي - نتلغمت وبعض المدن الساحلية مثل روسادير Rhysaddir أو سيكة Siga بـ 300 كلم يمكن قطعها خلال عشر مراحل.

«وفيما وراء [الاطلس] الى نهر Ger».
«بعد اختراق صحار من الغبار الاسود».

الاعتبار الثالث : وقع اختيار سويتونيوس باولينوس على هذا الخط لانه هو الخط الذي يتبعه الكثير من الموريين الرحل خلال تنقلاتهم الموسمية.

خاتمة عامة : نستنتج من تحليل هذا النص لبلينيوس الشيخ ما يلي :

← وردت عنده معلومات كثيرة نسبيا، الا ان غالبيتها خاطئة وغير دقيقة خاصة تلك التي تتعلق بنباتات المناطق التي مر بها سويتونيوس باولينوس وحيواناتها وسكانها.

← يعرفنا بقائد الحملة والمناطق التي حل بها (الواجهة الشرقية للاطلس المتوسط، الاطلس الكبير الشرقي، وادي كير والحمادات المجاورة له) وبعض القبائل المورية مثل «الكناريين» و«البيرورسيين» ويمدنا بمعطيات مهمة مكنتنا من محاولة رسم الخط الذي اتبعه سويتونيوس باولينوس خلال حملته.

— نجهل كل شيء عن المكان الذي انطلقت منه حملة سويتونيوس باولينوس والجيوش التي قادها والقوات المورية وقائدها والمعارك التي خاضها ضد اعدائه الرحل والمدة التي استغرقتها حملته وحتى النهاية التي كتبت لها. فيما يخص هذا الجانب الاخير، يبدو أن سويتونيوس باولينوس فشل في مهمته، ذلك اننا لا نتوفر على أي مصدر يتحدث عن شارات الانتصار «Ornamenta triomphalia» التي من الممكن ان يكون الامبراطور الروماني «كلاوديوس» قد منحها لسويتونيوس باولينوس بعد عودته من موريطانيا الغربية وأن خلف هذا القائد الروماني واجه مثله نفس الخصوم وفي نفس المناطق.

الواضح ان حملة سويتونيوس باولينوس لم تشمل الجهات الممتدة في اقصى جنوب وادي كير، بل اقتصرت على الاطلس الكبير الشرقي والنواحي المجاورة له.

آثار سجلماسة من خلال النصوص القديمة وكتب الرحلات

العربي الرباطي

الموضوع الذي سأتناوله هو التطرق الى بعض آثار سجلماسة وذكر بعض معالمها المعمارية من خلال النصوص القديمة والرحلات وذلك منذ تأسيسها الى اخلائها وخرابها في القرن الخامس عشر الميلادي.

لن أركز على الروايات المختلفة حول تأسيس سجلماسة فربما الاساتذة الذين سبقونا في المحور الأول الخاص بالتاريخ قد أجابوا على هذا التساؤل بما فيه الكفاية.

ومع ذلك نذكر أن سجلماسة تأسست أو أعيد بناؤها في عهد بني مدرار سنة 140 هـ/757 م وهم من الخوارج الصفرية. والذي حصنها وبنى اسوارها هو اليسع ابو منصور بن ابي القاسم سنة (814-15 م/199هـ كما بنى بها المسجد الجامع والحمامات والدور فاصبحت بذلك سجلماسة عاصمة سياسية للامارة المستقلة بالمنطقة وعاصمة تجارية وروحية (دينية) ونقطة تجمع مهم للحجاج والتجار القادمين من افريقيا الغربية والمغرب.

- ونظرا لاهمية المدينة واستراتيجيتها الاقتصادية فقد عرفت صراعا طوال القرن التاسع والعاشر الميلاديين لفرض النفوذ والاعتراف بالتبعية للخلافة العباسية والأموية (قرطبة) قبل أن يصبح هذا الاعتراف تدخلا وصراعا

عسكريا على المنطقة في عهد الفاطميين الذين فرضوا على سجلماسة المغارم الثقيلة ثم فرض نفوذ أموي الاندلس بالمنطقة في القرن العاشر.

فسجلماسة كانت موقعا استراتجيا واقتصاديا احتدم حوله الصراع لكسب النفوذ والسيطرة وذلك الى حدود مجيء المرابطين في القرن الحادي عشر الميلادي حيث انتهى الاستقلال الذاتي الذي كانت تعرفه المدينة كلما قويت شوكة أمرائها.

ـ وقد ركزت النصوص القديمة وكتب الرحلات على هذا الصراع وعلى الازدهار الاقتصادي والسياسي الذي عرفته المدينة ثم المنطقة ككل مع إهمال ذكر معالمها من مباني دينية وعمومية أو مدنية، فكل ما نجده في هذه الروايات عبارة عن إشارات عابرة لمعالم المدينة وهذا ما سنحاول جرده من خلال هذا التدخل.

من الآوائل الذين ذكروا سجلماسة في القرن العاشر الميلادي ابن حوقل البغدادي الذي نوه بمركزها التجاري وأما مبانيها فتشبه أبنية الكوفة وتتميز قصورها بالأبواب العالية كما ذكر ذلك.

أما المقدسي (القرن 10 م) فيذكر سجلماسة وأهميتها دون الاشارة الى معالمها، مع العلم بأن هذه المدينة كانت في هذه الفترة عاصمة تجارية وسياسية ودينية.

ـ يبقى البكري الذي جاء بعدهما من الآوائل الذين أعطوا تفاصيل موجزة عن معالم المدينة. فسجلماسة مدينة محصنة بالأسوار فتحت فيها اثنا عشرة بابا (12) كما بني بها مسجد الخطبة ومدارس وحمامات بالاضافة الى الدور السكنية ومخازن السلع التجارية. وهذا الوصف يقترن مع ما ذكر في مدن أخرى مثل فاس وغيرها. وتعتبر هذه الفترة (القرن الحادي عشر الميلادي) فترة ازدهار المدينة وتوسعها الحضاري حيث كانت منذ القرن الثامن الى حدود القرن الحادي عشر عبارة عن إمارة مستقلة او معترفة بنفوذ الخلفاء العباسيين والامويين بالاندلس مع الاحتفاظ بالاستقلال الذاتي. وكانت سجلماسة عاصمة هذه الامارة التي شملت منطقة تافيلالت وأحيانا توسعت لتشمل منطقة درعة وهو ما عرف بمملكة سجلماسة.

هذا الاستقلال سينهي بوصول المرابطين في منتصف القرن الحادي عشر لسجلماسة ودخولها تحت نفوذهم المباشر.

ـ وأكثر من تحدث عن سجلماسة أو ذكرها، اخذ عن البكري السابق الذكر. فابن سعيد الغرناطي (القرن الثالث عشر الميلادي) يذكر بأن محيطها حوالي 20 فرسخا وانه اذا خرج من أحد أبوابها فارسان في اتجاه معاكس في الصباح لا يرجعان الى نقطة إنطلاقهما الا عند غروب الشمس مما يدل على طول الاسوار التي كانت تحيط بالمدينة والبساتين.

ـ اما ابن بطوطة فيذكر أنها اشبه البلدان بمدينة البصرة وستعرف المدينة والمنطقة معا صراعا قويا في العهد المريني (نهاية القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي) حيث حاصرها يعقوب بن عبد الحق المريني مستعملا آلات الحصار من «المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد».

ومن الذين ذكروا سجلماسة في هذه الفترة محمد بن يحي الانصاري وابن خلدون. الاول ذكر بأن المدينة تعتبر باب الصحراء ومخزنا كبيرا لبضائع التجار حيث توجد بها مختلف السلع الاتية من السودان والمغرب والمشرق كما ان المدينة تحيط بها الاسوار.

ـ أما ابن خلدون فيذكر الحصار المتكرر الذي تعرضت له المدينة وقصفها الى ان سقطت اجزاء كبيرة من سورها بالاضافة الى دور الأعراب في حدة الصراع.

ـ أما ابن الخطيب في كتاب الاعلام (القرن 14 م) فيذكر بأن سجلماسة هي «أم القرى وأعظم مدائن الصحراء بنى سورها الدائر على بساتينها أبو القاسم الملقب بمدرار وجعل لها 8 أبواب. وفي وسطها حصن» ربما يعني به القصبة.

والمصادر التاريخية والروايات التي ستأتي بعد هذه الفترة تتحدث عن سجلماسة إما مخربة وإما لمنطقة واسعة تتخللها عدة قصور.

فابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الابصار» يصف سجلماسة بأنها

مدينة كبيرة يتوافد عليها التجار ولم تبق لها قصبة وهي عبارة عن مجموعة من القصور.

ومن القرن الخامس عشر حتى السابع عشر لم يعد نكر لمدينة سجلماسة الا كمدينة قد خربت واخليت من سكانها الذين انتشروا في القصور بالمنطقة وخراب سجلماسة يرجع الى أسباب متعددة منها :

ـ الحصار المتكرر الذي تعرضت له المدينة خاصة في العهد المريني والوطاسي وقد زاد الاعراب بالمنطقة من حدة هذا الصراع في العهد الوطاسي وبعد موت أحمد المنصور الذهبي.

ربما كان لوادي زيز كذلك دور في اخلاء المدينة فالترسبات والفيضانات ادت الى غمر أجزاء من المدينة وهذا ما اكدته الابحاث الأركيولوجية والجيوليوجية (البعثة الامريكية ـ المغربية) بعض الاسبار تبين ان أسرار المنازل تصل احيانا الى عمق خمسة أمتار تحت الارض (السطح الحالي).

أما السبب الذي نعتبره أساسيا في خراب وخلاء المدينة فهو التحولات الظرفية التي عرفها القرن الخامس عشر وانتقال الخطوط التجارية من البحر الابيض المتوسط الى المحيط الأطلسي عندما احتل البرتغاليون «أرجين». وبذلك كان موت سجلماسة وإخلاؤها حيث لم تعد الوظيفة التجارية هي الرئيسية بالمدينة.

من النصوص التي ترجع الى هذه الفترة هناك ألحسن الوزان، يذكر في بداية القرن السادس عشر بان سجلماسة عبارة عن مجموعة من القصور المحصنة اما سجلماسة المدينة فقد خربت وأخليت وبقيت أجزاء من سورها القديم.

«كما انها كانت في الماضي حاضرة مهمة بها عددا من الدور السكنية والمساجد والمدارس تتوسطها نافورات الماء. وكان الماء يرفع من الوادي ليصل الى الدور بواسطة الناعورة». والحسن الوزان قضى بمنطقة سجلماسة سبعة شهور.

أما ابو محلي السجلماسي وهو ابن المنطقة ومنها خرج في بداية القرن

السابع عشر (1613 م) بعد ان جعل منها إمارة مستقلة. قبل ان يدخل مراكش ويطرد زيدان ابن احمد المنصور الذهبي منها. فيذكر انها خربت.

ويرجع خراب المدينة والتي يتحسر كثيرا على فراغها الى فساد الامير الجائر وكثرة الفحش والفساد في المدينة وظلم العباد. وهذه هي المناكر التي قام ابو محلي بسببها بالثورة على أبناء السلطان أحمد المنصور.

وقد اصبحت سجلماسة منذ ذلك تذكر فقط لتدل على نفس المنطقة التي تعرف بتافيلالت حاليا.

الاستنتاجات :

فسجلماسة من خلال هذه الروايات والنصوص المختلفة التي ذكرنا تظهر منذ تأسيسها في القرن الثامن الميلادي على أنها كانت تتوفر على المجالات الاساسية espaces للمدينة في القرون الوسطى مع التذكير بأن سجلماسة تعتبر أول مدينة اسلامية أسست بالمغرب 757 م بعد القيروان 683 م وهذه الاخيرة ليست الا معسكرا وقاعدة لانطلاق الفاتحين.

فسجلماسة بنيت قبل فاس 808 م وتاهرت 761 م.

هذه المجالات الاساسية في المدينة الاسلامية هي،

1 ـ السور والقصبة :

● السور : مبني بالحجارة في الاسفل وبالطوب في الاعلى فتحت فيه 12 بابا حسب ما ذكر البكري منها ثمانية أبواب من الحديد (يعتقد أنها غلفت من الخارج بصفائح من الحديد حتى لا تتعرض للحرق عند حصار المدينة) وليس من المستبعد ان تكون هذه الابواب الثمانية المقواة بصفائح الحديد هي ابواب سور المدينة بينما الأربعة الباقية ما هي الا ابواب الارباض او البساتين.

أما ابن الخطيب فيذكر ان السور كان حصينا وفتحت فيه ثمانية ابواب وجعل على كل باب من يحرسه عند الدخول والخروج.

ويذكر من بين هذه الابواب باب الزعفران كان مفتوحا بدون شك مقابل الطريق التجارية الرابطة بين سجلماسة وسوس (لان الزعفران كان ياتي من سوس).

أما الباب الثاني فهو باب القبلة (قبلة طلوع الشمس) وكان خاصا بخروج الملوك والامراء بالمدينة للصيد. والأبواب تربط العالم الخارجي بالمدينة.

● القصبـة : فسجلماسة كمدينة وكعاصمة مهمة واستراتجية كانت تتوفر على قصبة لسكنى الامير وجيوشه ولمراقبة المدينة من جهة ضد اي ثورة او انتفاضة ولحماية المدينة من الهجومات الخارجية والحصار المتكرر.

ليس هناك الا اشارة ابن فضل الله العمري عند الحديث عن سجلماسة يذكر بأنها لم تبق لها قصبة.

ومعلوم ان القصبة هي مركز السلطة والنفوذ في المدينة الاسلامية وسجلماسة كانت تتوفر على قصبة (الحفريات).

2 ـ المؤسسات والمراكز الدينية، وعلى رأسها الجامع الكبير والمدارس المرتبطة به وهذان العنصران موجودان بالمدينة منذ تأسيسها ذكر ذلك البكري في القرن العاشر ثم اكده في عين المكان الحسن الوزان في القرن السادس عشر الميلادي.

ومعلوم أن المسجد الجامع يحتل مركز المدينة الاسلامية بالقرب من الشوارع الرئيسية للمدينة التي تأدي الى الابواب.

3 ـ مراكز الانشطة التجارية والاقتصادية.

كل النصوص والرحلات تؤكد بان اهم وظائف المدينة، اعني سجلماسة، كانت هي التجارة ومنها تتوزع الطرقات نحو المغرب (فاس، مراكش، طنجة، سبتة وجدة، تلمسان ثم تونس والقيروان) نحو الشرق العربي خاصة مصر وكذلك نحو السودان. وبفضل استراتيجتها كانت سجلماسة نقطة اتصال هذه المحاور الثلاثة حيث كانت بالمدينة مخازن للبضائع المتوجهة نحو العالم الاسلامي او نحو السودان (الملح الذهب او التبر، الفضة بالاضافة الى الحبوب والنسيج).

والوظيفة التجارية ساعدت على تطور الصناعة وظهور الاسواق لتبادل السلع.

وعن الصناعة تؤكد الروايات ومحفوظات المتاحف على وجود دار السكة بسجلماسة في القرن التاسع والعاشر الميلادي.

ضرب الدنانير والدراهيم الفضية في عهد محمد بن الفتح الذي تسمى بأمير المؤمنين ولقب بالشاكر.

بينما في العهد المريني، نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، نجد بسجلماسة دار ضرب السكة كما جاء في مخطوط «الدوحة المشتبكة في ضرب السكة» حيث ذكر امين هذه السكة وشاهديها. وكان يضرب بها الدينار الذهبي. هناك كذلك صناعة اخرى مرتبطة بمعادن الفضة والذهب وهي تصفيتها في أحواض متعددة وهذا كذلك كشفت عنه حفريات سنة 1988 حيث تم العثور على اخواض من هذا النوع لتصفية معدن الفضة.

4 ـ المجال السكني : وهذا كذلك تؤكده النصوص والروايات بسجلماسة كما اظهرت عن بعض اجزائه الحفريات، فالبكرى في القرن العاشر يتحدث عن دور سجلماسة وأزقتها وأكد ذلك الحسن الوزان في بداية القرن السادس عشر حيث عاين عددا من الدور السكنية الجميلة.

هناك كذلك مباني عمومية مرتبطة بالشكان وهي الحمامات وهذا ما ذكره البكري في كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقية والعرب».

فسجلماسة أول مدينة اسلامية بالمغرب اسست بعد القيروان، كانت تتوفر على جميع المرافق الحيوية المعروفة في المدن الاسلامية مثل فاس ومراكش في القرون الوسطى.

المصادر والنصوص المعمدة

ـ ابو عبيد الله البكري : المغرب في بلاد افريقية والغرب
ـ ابن بطوطة : رحلة بن بطوطة.
ـ ابن حقول البغدادي : صورة الارض
ـ احمد بن ابي بكر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم.

- الجنابي مصطفى : البحر الزاخر والعيلم التيار.
- احمد بن يوسف الدمشقي : اخبار الدول واثار الاول.
- احمد بن ابي محلى السجلماسي : تقيد في تاريخ سجلماسة.
- ابن الخطيب الاندلسي : كتاب الاعلام.
- ابن سعيد الغرناطي : كتاب البديع.
- ابو حامد الاندلسي : عجائب المخلوقات
- ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار
- ابن عذارى : البيان المعرب
- ابن خلدون : تاريخ البربر
- الحسن الوزان : وصف أفريقيا
- ابو القاسم الزياني : الترجمان المغرب.

خزف سجلماسة وأهميته في التجارة الصحراوية

رحمة الحريقي

شكلت التجارة الصحراوية خلال العصور الوسطى محورا هاما وموضوعا من المواضيع الاساسية التي تناولها المؤرخون وكتاب الحوليات العرب. وانطلاقا من المصادر والنصوص المكتوبة ابن حوقل، البكري والادريسي، نعلم أن المنطقة الجنوبية الصحراوية عرفت فعلا مرحلة ازدهار تجاري وثقافي، هذه التجارة كانت تحتكرها مدن سجلماسة وتامدولت (بالمغرب) أودأغست (بموريطانيا) تاهرت (بالجزائر) وإفريقية (تونس) التي كانت تربط بين خطوط التجارة الصحراوية ببلدان المغرب العربي الكبير وبلاد السودان، هذه المنطقة التجارية اندثرت في نفس الظروف التي اندثرت فيها جميع المدن الصحراوية بما فيها سجلماسة التي عرفت تطورا كبيرا مع تطور تجارة الصحراء وتجارة الذهب والتوابل والعبيد إلى غير ذلك من البضائع. هذه التجارة لم تخلف إلا القليل من المواد التي تكشف عنها عملية التنقيب الاثري، خاصة وأن النصوص المكتوبة لم تتناول بالتفصيل كل البضائع التي تم نقلها وتبادلها بين شعوب الشمال وجنوب الصحراء الكبرى (السودان) من جهة، وشعوب ما وراء البحر الابيض المتوسط من جهة ثانية (انظر الخريطة).

الواقع، أن الابحاث الاثرية وإن كانت لاتزال في البداية تمكن من الكشف واستخراج مواد أركيولوجية تزودنا بمعلومات دقيقة عن تاريخ وثقافة واقتصاد الاجيال الماضية.

ويعد الخزف أو الفخاريات من أهم المواد التي تكشف عنها التنقيبات والابحاث العلمية الاثرية، حيث تشكل العنصر الاساسي والنواة الرئيسية للتأريخ إلى جانب النقود. ومما لاشك فيه أن هذه الفخاريات كانت من بين البضائع والمواد التجارية التي تم نقلها وتبادلها وإن كانت نسبة نقل وتجارة المواد الطينية قليلة جدا إذا ما قورنت بالبضائع الاخرى كالذهب والملح والتوابل...

نظرا لاهمية الموضوع وما يحمله من إشكاليات، تم تنظيم برنامج أبحاث واسع ضم عددا من الباحثين المغاربيين المهتمين بدراسة هذا الحقل العلمي. فالفخاريات مادة أساسية يرتكز عليها في البحث العلمي الاركيولوجي ولايمكن الاستغناء عنها كيفما كانت الحقبة التاريخية المهتم بدراستها.

والمشكل الاساسي الذي انصب عليه اهتمامنا يتمثل في تحديد مصادر الفخار المجلوب إلى جنوب الصحراء، ونخص بالذكر موقع أودأغست بموريطانيا الشرقية، ومن المعروف أن هذا الموقع معاصر لمدينة سجلماسة وتامدولت وتاهرت إلى غير ذلك من المواقع والمسالك الصحراوية، وموقع أودأغست هذا، كما أظهرت الدراسات والتنقيبات الاثرية يعتبر موقعا غنيا بالمواد الفخارية المستوردة من الشمال، وهو النموذج (أودأغست) الذي انصبت عليه الدراسات المخبرية بكل اهتمام.

كما أن موقع أودأغست كان محط عمليات حفر أثرية منذ سنة 1960 تحت إشراف الاستاذ جون دوفيس Jean Devisse، وقد تم نشر النتائج العلمية المستخرجة من الموقع في مجموعات.

إن التعرف على مصدر الفخار المكتشف بأودأغست كان بإمكانه أن يزودنا بمعلومات وافية كما وكيفا حول مصادر الفخاريات المستوردة في الفترة الوسيطية، ولكننا لا نتوفر على دراسات شاملة حول مراكز الانتاج الفخاري الاسلامي خاصة بمنطقة شمال إفريقيا.

وكان بإمكاننا أن نختار عملية التصنيف كوسيلة لتحديد نوعيات الفخار، لكن بالنسبة للفخار الاسلامي لا تستقيم الدراسة النوعية لان الفخار موحد ومتكامل.

لهذه الاسباب والاعتبارات أحيل هذا المشكل على مختبر الفخاريات بمدينة ليون الفرنسية، وفي هذا الاتجاه قمنا بتحريات أثنوأركيولوجية بالمغرب الجنوبي، وذلك بجمع عينات فخارية وطينية في الاماكن الحالية لانتاج الفخار وأماكن استخراج الطين (المقالع)، وبتحليل هذه المعطيات مخبريا يمكن التعرف من خلالها بالمقارنة على مصادر الخزف المستخرج من الحفريات بأودأغست.

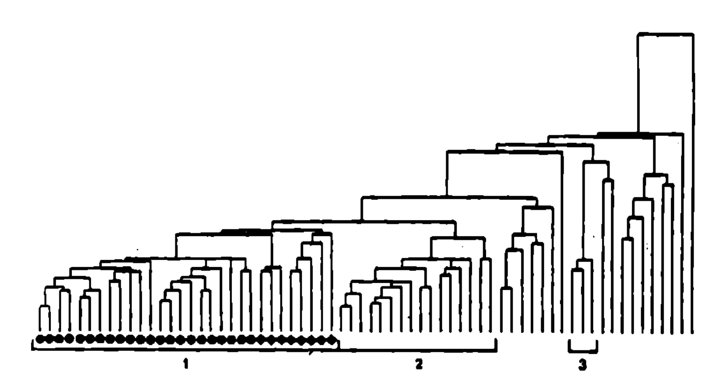
وقد حالنا الشك منذ البداية أن مدن جنوب المغرب والتي كانت التجارة الصحراوية أساس ازدهارها وهي التي زودت موقع أودأغست بجزء هام من إنتاجها الفخاري، ويحتمل أن تكون مدينة سجلماسة من بين المراكز الفخارية الهامة خلال فترة القرون الوسطى والتي كانت تصدر الفخار إلى أودأغست ولكن لم تقم بالموقع السجلماسي حتى الآن حفريات علمية منظمة، ويجهل جهلا تاما الفخار المنتج محليا وحتى المتداول في المنطقة، إلا أن الابحاث الاولى التي قام بها مختبر الفخاريات بليون وما عثر عليه من قطع وعينيات طينية تدل على أن المدينة كانت مركزا هاما لصناعة الفخار. ومن خلال التحليلات المخبرية يبدو التشابه واضحا بين الفخار المستورد إلى الجنوب وفخار منطقة سجلماسة. وفي هذا الصدد تم تقديم نتائج أولية خلال المؤتمر المنعقد بمدينة سيان بإيطاليا سنة 1984 حول الفخار الوسطوي بالحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط، ويبدو من خلال هذه المعطيات الاولية، أن منطقة سجلماسة قد ساهمت في تزويد أود أغست بما يقارب خمسين في المائة 50 % من الفخار المستورد.

وخلال هذا الملتقى أثيرت أيضا مسألة العينات والتي تمثل 20 % من الفخار المستورد إلى أودأغست والتي يجهل مصدرها، وقدمت كذلك فرضيات منها أن هذه العينات قد تكون مشرقية أو مصرية، وعلى أي فهي عينات أساسية لانها هي الغالبة في المستويات القديمة بحفريات موقع أودأغست.

وسعيا لزيادة توضيح هذه الاشكالية خصصت القسم الاخير من أطروحتي لتطبيق تحريات ميدانية، وفعلا فإن الدراسات التي أجريت حول المراكز التقليدية لصناعة الفخار بالمغرب الجنوبي كان الهدف منها تمكين وتزويد مختبر الفخاريات بمدينة ليون بمعطيات المقارنة، مكنتنا من معرفة

مصدر بعض الفخاريات المستوردة إلى المنطقة الصحراوية (أودأغست) خلال الفترة الوسطوية.

التصنيفات الاولية للقطع الفخارية بالمختبر أظهرت وجود مجموعات رقمت من 1 إلى 3 (أنظر الرسم التخطيطي) بالاضافة إلى نماذج فخارية منعزلة وغير مصنفة، بينما المجموعة 3 تم التعرف عليها بأنها افريقية (تونس الحالية) (انظر الرسوم 1).

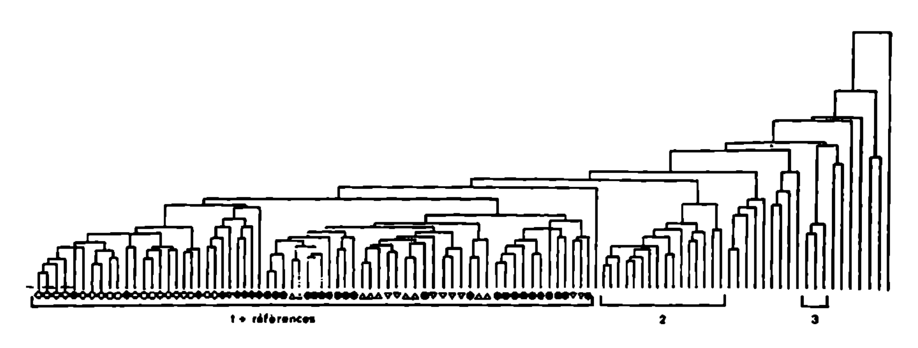


● التصنيفات الأولية للفخاريات المستوردة إلى موقع أود أغيست، مع الاشارة الى المجموعات الثلاثة التركيبية.

أما المجموعة 1 فتشتمل على نفس التركيبات بالمقارنة مع الانتاج الفخاري التقليدي لمنطقة تافيلالت، حيث يمكن التمييز ضمن المجموعة 1 بين أعداد متجانسة (دوائر مملوءة) وأخرى هامشية (مضلعات مملوءة).

ولتحديد التشابه الملاحظ بين المجموعة 1 وإنتاج تافيلالت الفخاري، قمنا بجمع عدد من المعطيات لهذه المنطقة صنفت كما يلي :

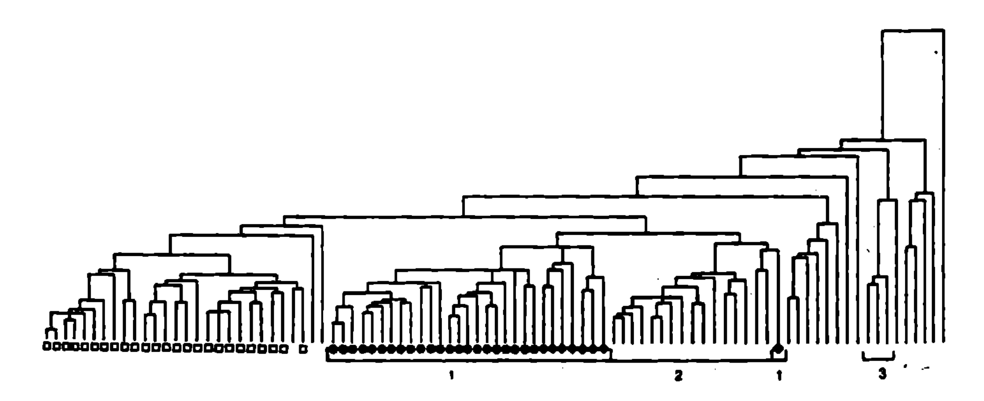
- قطع فخارية تقليدية بالمنطقة (دوائر دات محيط أبيض)
- قطع فخارية تقليدية وجدت بموقع سجلماسة بعد إخلائه (معينات).
- قطع فخارية تقليدية قديمة تم العثور عليها فوق الموقع (التقاطات سطحية)
- قطع فخارية تقليدية وطين تم جمعها بالجهة الغربية لمدينة سجلماسة مثلث (انظر الرسم 2)



● الفخاريات المستوردة إلى موقع أود أغيست وعينات تافيلالت.

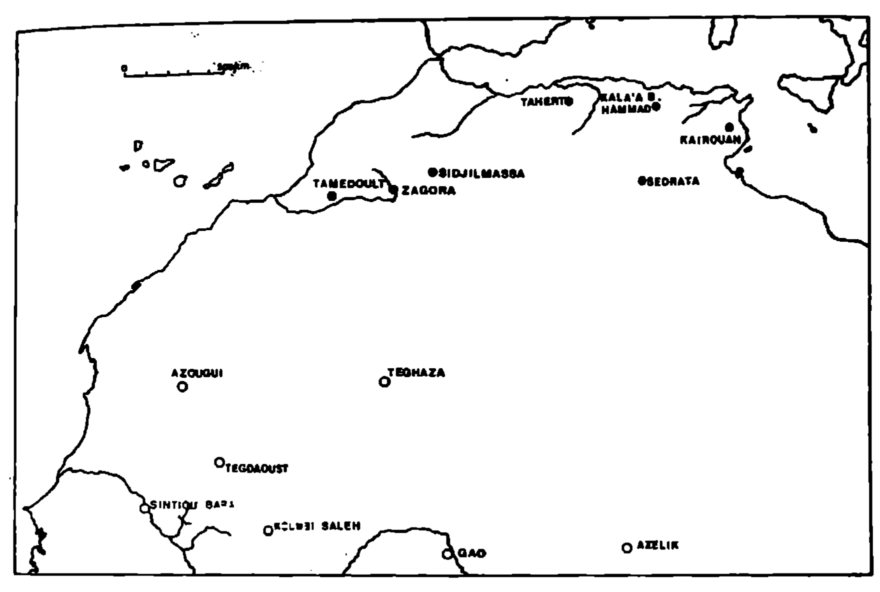
إن تصنيف القطع الخزفية التي عثر عليها بموقع أودأغست والمعطيات السابق ذكرها، تبين أن هذه القطع الخزفية والطين التي تم جمعها بالجهة الغربية لسجلماسة تندمج مع المجموعة الاولى (انظر الرسم التخطيطي) دوائر ومعينات مملوءة) وبالتدقيق، هناك تجانس المجموعة 1 مع المعطيات القديمة لمدينة سجلماسة ومع القطع الخزفية التي عثر عليها أو التقطت بالجنوب الغربي لتافيلالت. بينما القطع الهامشية وهي قليلة من المجموعة 1 (معين مملوء) تتشابه مع المنتجات المعاصرة الموجودة فوق موقع سجلماسة القديمة.

المعطيات البيانية التالية تبين أنه على الاقل قطعة واحدة من بين النماذج التي تم العثور عليها بأودأغست يحتمل أن يكون مصدرها من منطقة وادي درعة (مربع) (انظر الرسم 3).



● التصنيفات لعينات موقع أود أغيست وعينات ناحية زاكورة. (مربعات بيضاء).

المشكل الاهم الذي بقي معلقا، هو مصدر استيراد المجموعة 2 التي تم العثور عليها بموقع أودأغست. اعتقد في البداية أن أصلها مشرقي (الشرق الاوسط) لكن الآن يتجه الاعتقاد أن المصدر هو أحد الاماكن المغاربية ربما مدينة سدراقة، ويبقى التأكد من هذا الاحتمال مرتبطا بحفريات لاحقة.



● مواقع ومراكز الانتاج الفخاري بجنوب الصحراء المحتلة : خزف مطلي (دوائر بيضاء) ومراكز الانتاج (دوائر سوداء).

تحريات أثرية في منطقة تافيلالت

يوسف بوكبوط

تافيلالت، منطقة، بالمعنى الضيق تطلق على الواحة الممتدة على ضفاف نهري غريس وزيز والتي تحيط بمدينة الريصاني. لكن المعنى الواسع لكلمة تافيلالت يشمل كل المنطقة المنخفضة الممتدة بين الكتلة القديمة أوكَنات في الغرب والكتلة القديمة للطاوز في الجنوب، وبين حمادة كير في الشرق وواحات أوفوس في الشمال.

للاشارة فان موضوع هذه المداخلة سيتناول منطقة تافيلالت بالمعنى الواسع خلال فترة ما قبيل التاريخ.

يتكون سهل تافيلالت من طبقة رسوبية سطحية سميكة (من 5 الى 30 متراً) تغطي على امتداد كبير طبقات رسوبية اقدم. هذه الطبقات تخفي تحتها القاعدة الصخرية للزمن الجيولوجي الاول والتي تبرز الى السطح بكثرة في شكل نتوءات ابلاشية.

هذه النتوءات الصخرية هي عبارة عن حجر كلسي ديفوني، وعند اتصاله بالصخور غير النافذة (Vixen ou ordovicien) ينتج عنه تدفق الماء في شكل عيون.

هذا الاطار الجغرافي الملائم للاستقرار البشري، استأثر باهتمام انسان

ما قبل التاريخ، الذي عرف كيف يوظفه، حيث اختار أماكن غير وعرة وفي نفس الوقت ذات موقع استراتيجي تقيه من الهجمات المفاجئة.

إن معرفة طوبوغرافية وجيولوجية المنطقة لضرورية لمعرفة وفهم انماط عيش سكانها وطريقة استغلالهم للارض.

انطلاقا من دراسة وتحليل الوسط والبيئة الحالية، يمكن ان نخرج ببعض الفرضيات حول استغلال البيئة في الماضي.

فتعدد المواقع الاثرية الما قبيل تاريخية وتموضعها في اماكن دون اخرى حثنا على تركيز ابحاثنا في جهات تم اختيارها مسبقا بمراعاة (اعتبارا) شكلها الطوبوغرافي وطبيعتها الجيولوجية ومصادرها المائية.

إن منطقة تافيلالت لغنية جدا بمواقعها الاثرية بحيث تحتل مكانة مهمة في فترة ما قبيل التاريخ في المغرب وشمال افريقيا. فهي معروفة بالخصوص بمقابرها البربرية القديمة ونقوئشها الصخرية. إن اقدم الدراسات الاثرية التي همت المنطقة، لا تعود الى اكثر من خمسين سنة، فأول الحفريات اجريت من طرف Armand Ruhlmann بمقبرة ارفود الماقبيل تاريخية في سنة 1936، منذ ذلك الحين توقفت الاعمال حتى حدود سنة 1955 حيث نظم خلالها ج. موني J. Mennéé وش ألن Ch; Allen حفريات ابانت عن بعض المآثر الجنائزية في الطاوز وحاسي البرابر. في سنة 1957، اكتشف كل من مركي Marget وكموس Camus، بين أرفود والجرف على موقع جبل البوية، مقبرة من حوالي 1200 بناية جنائزية. رغم هذه الابحاث فإن المنطقة لم تكتشف ولم تدرس بعد بالشكل اللازم. لذلك فإن تنظيم تحريات وحفريات منهجية مستقبلية ستسمح بدون شك بالكشف عن مواقع اخرى.

عند قيامنا بتحريات اثرية للكشف عن مآثر جنائزية بربرية قديمة اخرى، لاحظنا أن التمركزات المهمة من حيث العدد مصحوبة دائما ببقايا سكنية من الحجر.

في هذا النطاق، نود هنا عرض بعض المشاكل التي اعترضتنا خلال تحرياتنا الاولى. عندما يتعلق الامر بمنطقة غير معروفة اثريا كما هو الحال

بتافيلالت، أول مشكل واجهناه هو كيفية القيام بهذه التحريات بعبارة اخرى ماهي المؤشرات المستعملة في اختيار اماكن المسح الاثري ؟ أهي مؤشرات مرفولوجية، ام طوبوغرافية، ام اخبارية ؟

إن طريقة تجزيء المنطقة الى مربعات غير واردة نظرا لتفرق المواقع الاثرية وللطابع الصحراوي السائد ولو في حالة استعمال التربيع، كيف سيكون المقياس ؟ فمقياس المسح الاثري مرتبط بنوعية الوثائق المتوفرة لدى الباحث : خرائط طوبوغرافية، جيولوجية، صور جوية.

وبقياسات الآثار المنقب عنها. إن طريقة التحليل المخبري (Stéréoxopique) مجسادي للصور الجوية اعطت نتائج هامة في المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية.

لقد استعملها الكولونيل بريدز J. Baredez في نهاية الحرب العالمية الثانية للتحري عن مواقع رومانية في شمال افريقيا.

كما استعملت بنجاح لدراسة المواقع الاثرية المهددة بغمرة مياه سد اسوان. ليس بعيدا عن تافيلالت وبالضبط في منطقة توات كوارة، اسفرت هذه الطريقة عن اكتشاف ودراسة 333 موقع سكني طللي.

إن الصور الجوية العمودية قد تساعد أكثر في الكشف عن مباني مطمورة اذا كان مقياس التصوير 1/20.000 بينما تقل الحظوظ اذا كان المقياس 1/50.000، كما هو الحال بالنسة للتغطية الجوية لمنطقة تافيلالت.

من هنا كانت الضرورة للقيام بتحقيقات (في الميدان) ميدانية. بعض المخبرين المحتكين بخبايا الارض كانت افادتهم لنا جد هامة.

I - الآثار الما قبيل تاريخية بجبل بوية :

تحتل هذه الاطلال المكان الاكثر ارتفاعا وتهمنا بحيث تشرف على المقبرة كما على السهل والواحة المجاورة.

ينتهي الموقع من الجهتين الغربية والجنوبية بحافة صخرية شديدة

الانجراف، اما من الجهتين الشرقية والشمالية الشرقية، فالموقع يحد بهوة سيلان متوسطة الانجراف. يبقى الممر الوحيد للوصول الى المنطقة السكنية هو الجهة الشمالية.

هذا الموقع الذي يظهر محصنا طبيعيا، لم يكن كافيا لضمان الحماية المطلقة، لهذا السبب دعم الانسان هذا التحصين ببناء سور دفاعي في الجهات السهلة العبور : على طول الهوة ومن الجهة الجنوبية حيث الحافة ضعيفة.

يتكون السور من ترابيع حجرية من الكلس الديفوني الرمادي. كما يلاحظ ان هذا السور بني على طريقتين : أحيانا نجده ثنائي الواجهة بينهما ملىء داخلي. هذا النوع يعرف بالطريقة البربرية. أحيانا أخرى نجده عبارة عن تراص من الترابيع الحجرية، وضعت افقيا الواحدة فوق الاخرى بدون ملاط. عرض هذا النوع الأخير يصل الى متر و50 بينما علوه الحالي لا يتعدى 1,70 م.

تتميز الوحدات السكنية بانفصالها عن السور، وهي كذلك منعزلة بعضها عن البعض ما عدى في حالتين، هاته الوحدات السكنية تأخذ اشكالا متعددة : مربعة، مستطيلة، مستديرة او شبه مستديرة وهي مبنية على الطريقة الاولى المذكورة من قبل، خاصة في الجزء السفلي الذي لا يتعدى علوه مترا واحدا. بينما الجزء العلوي للجدران بني بمواد هشة انهارت في أغلبها. داخل هذه البنايات، يلاحظ تراكن احجار مبعثرة، مصدرها سقوط السقف.

لم يراع في وضع هذه الوحدات السكنية اي تخطيط لشوارع أو ازقة منظمة.

داخل هذا المركب السكني تم اكتشاف ثلاثة مآثر جنائزية مستديرة القاعدة (قطرها سبعة أمتار) ومخروطية الشكل. في الجهة الجنوبية الشرقية لاحد هذه المآثر، توجد بناية صغيرة مستديرة الشكل من المحتمل ان تكون مكانا لتقديم القرابين والاضحيات.

على مجموع المنطقة السكنية قمنا بعملية جمع مواد أثرية، منها ما قبل تاريخية من جملتها :

- عدة شظايا منحوتة من حجر الصوان، بعضها منقحة لكن ليست لها اشكال واضحة.

- فأس حجرية منحوتة ومنقطة على الواجهتين.

- عدة رحى من أصل بازالتي نميز داخلها بين نوعين :

رحى دورانية Rotatives، وأخرى اهليجية بيضوية. القطع الخزفية متوفرة بكثرة في هذه المنطقة، فهو خزف نولون رمادي أو احمر، مقولب باليد واملس من الخارج، ومزخرف اما بالنقش او الطبع بواسطة اسنان المشط. اتخذ هذا الزخرف شكل خطوط متومجة. «Wavy lines».

II - آثار كارا اولاد الزهرة :

تشرف على السهل، اذ توجد في ملتقى نهر زيز ونهر أمربوح. وعلى غرار جبل بوية فالآثار السكنية بأولاد الزهرة توجد فوق جبل. هذه الوضعية وفرت للموقع مناعة طبيعية.

في الجزء العلوي منه تظهر قاعدة الصخور الكلسية للزمن الأول، في شكل طبقات افقية تنتهي من جهة الغرب والشمال الغربي بجرف صخري.

بالمقارنة مع موقع بوية فإن الوحدات السكنية بهذا الموقع تشغل مساحة أكبر.

حصن الموقع بسور دفاعي متصل، بني كذلك بطريقتين. في المناطق المحمية طبيعيا وضعت الترابيع الحجرية عموديا على شكل صف واحد واحيانا صفين متوازيين مملوئين من الداخل. أما في الجهات الاقل مناعة فالسور عبارة عن تراص من الترابيع الحجرية التي وضعت فوق بعضها دون ملاط يصل علو هذا السور الى 1,50م.

بالنسبة للوحدات السكنية فهي منفصلة عن السور، ومربعة الزوايا. تفصل بين هذه الوحدات السكنية ازقة ضيقة (عرضها متران) داخل هذا المجال السكني وجدنا ثلاثة مآثر جنائزية. حسب شكلها الخارجي يظهر أنها تنتمي الى الشكل البسيط ذي الغرفة الجنائزية المبنية على سطح الارض.

خارج السور وفي الممر المؤدي الى المنطقة السكنية، عثرنا على عشرات من البنايات الجنائزية التي يحتمل انتماؤها الى الشكل المذكور.

في مستوى أدنى، مئات من المأثر الجنائزية تشكل حزاما يحيط بالوحدة السكنية، بعضها تعرض للنهب. يتكون القبر من صندوق مستطيل، قعره عبارة اما عن تربيعة واحدة واما عن تبليط من الاحجار الصغيرة، لكنه في أغلب الحالات يكون القعر طبيعيا : حصى أو قاعدة كلسية، غطي القبر بثلاث او اربع ترابيع حجرية متحادية والمواد الاثرية الملتقطة على كل مساحة الموقع قليلة جدا :

- شظايا منحوتة من حجر الصوان، أحيانا منقحة.
- قطع من الفخار الخشن.
- قطع من بيض النعام.
- قطعتان من حجر الزينة، مستديرتا الشكل ومصنوعاتان من حجر ابيض، مشابهتان لاخرى وجدت في ركام احد المآثر الجنائزية.

اعتمادا (اعتبارا) على المواد الاثرية الملتقطة وازدواجية بناء الجدران، يمكن القول بصلة شبه بين السكن والمآثر الجنائزية.

ورغم ذلك، في الوقت الحالي، لايمكن تأكيد تزامنهما، لكن الشيء المؤكد هو انهما يعودان الى عهود ما قبل الاسلام بما اننا لم نعثر على اي اثر اسلامي.

III - اثار جبل بولكرون :

يشكل جبل بولكرون بداية الكتل القديمة لأوكنات التي تشكل الحدود الغربية لسهل تافيلالت. وهو محاط من الشمال والشرق بواد حانيش ومن الجنوب والغرب بواد كونات، كلاهما رافدان لواد غريس.

يوجد الموقع السكني قرب القمة الصخرية، نظرا لوجود حافة قوية عمد السكان في القديم الى بناء مدرجين. اقيم على حاشية كل منهما جدار من أحجار متراصة ملتصقة بواسطة ملاط من الطين.

حول هذا الجدار. من الداخل، بنيت غرف مربعة، نصفها مغمور بالتراب داخل هذا المركب السكني، لاحظنا تناثر مواد اثرية قليلة : شظايا من حجر الصوان، قطعة من عظم متحجر وقطع قليلة من الخزف المقولب باليد.

في الاسفل، اكتشفنا حول الجبل مآثر جنائزية منعزلة مخروطية الشكل، قاعدتها مستديرة (قطرها لا يتعدى 5 امتار)، تنتمي كلها الى الشكل البسيط ذي الغرفة الجنائزية المبنية، المعروفة بكثرة في البوية. على تل، جنوب شرق بولكرون، بالضبط في ملتقى حانيش وكونات، اكتشفنا مقبرة ما قبيل تاريخية، بها أكثر من اربعين مأثرا جنائزيا، مجملها تعرض للنهب وأفرغ من محتواه.

من ركام القبور المنهوبة، استخرجنا موادا اثرية، منها اجزاء طوق عبارة عن نظم من حبات بيض النعام وأخرى من عقيق احمر وابيض وأوراق حديدية ملولبة، ثم هناك خواتم من البرونز. وغير بعيد عن موقع جبل بولكرون، اكتشفنا مقبرة ما قبيل تاريخية تحتوي على اكثر من ثلاثين مأثرا جنائزيا موزعة على طول هوة مسيل.

قمنا بفحص احد هذه المآثر المنهوبة فالقبر مكون من صندوق مستطيل الشكل (3 أمتار على 80 سنتمتر) مغمور بالرمل، سقف بتربيعتين كبيرتين من حجر الكلس.

IV - اثار جبل أوفلال بالطاوز

هذه الاثار المخربة تجاور الموقع رقم 1. الذي وجدت فيه النقوش الحجرية والمآثر الجنائزية التي درسها كل من ش. ألن Ch. Allain و.ج. موني J. Meonié هذا الموقع محصن بسور ضخم يحيط بمجموع الوحدات السكنية، يصل علو هذا السور الى ثلاثة امتار بينما عرضه لا يتعدى مترين داخل السور. وجدنا مساكن ذات غرف متعددة، بنيت بطريقة اكثر انتظاما من كل المواقع التي سبق ذكرها، هذه المساكن تحتوي على منافذ.

هذا الموقع السكني يمكن ان يظهر حديث العهد، لولا تواجد عدة ادوات اثرية قديمة يمكن اسنادها الى العصر الحجري الحديث.

يلاحظ هنا كثرة الشظايا والادوات المصنوعة من حجر الصوان او احجار اخرى، وتواجد الخزف المقولب باليد، قطع بيض النعام، كما يلاحظ كثرة عظام الحيوانات.

V - اثار جبل بوتشرافين

جبل بوتشرافين هو عبارة عن تسلسل تلال صغيرة، على بعد 9 كلم جنوب شرق ارفود وعلى الضفة اليسرى لواد امربوح. في الحد الغربي لهاته التلال، وجدنا حظيرة نصف دائرية، طولها 25 متر. اطرافها تصل الى الحافة الصخرية، هذه الحافة تعطى مناعة طبيعية للموقع.

المواد الاثرية القليلة التي عثرنا عليها تتمثل في شظايا من حجر الصوان، تحيط بالتل عدة مآثر جنائزية من النوع البسيط. لكنه عثرنا على ماثر جنائزي من النوع المتطور، وهو مدفن ذو بناية معبدية، ويحتوي على مكان لتأدية الطقوس الجنائزية، منفصل عن القبر (Tvshs à chopelle).

بعد هذا العرض الوجيز حول نتائج ابحاثنا في منطقة تافيلالت، يظهر ان المنطقة غنية بآثار فترة ما قبيل التاريخ، لكن للأسف، تطاولت يد الانسان لنهب هذه المواقع، ساعد على ذلك الدور السياحي الذي تلعبه المنطقة، هذا الدور هو الذي شجع بائعو المواد العتيقة الى عرض المواد الاثرية التي تجذب السياح : الفخار المزخرف، السهام من حجر الصوان، الفؤوس الحجرية المصقولة. الادوات المعدنية، مواد الزينة، حبات بيض النعام، العقيق الاحمر المستورد من المناطق البونيقية.

عمليات النهب هذه تتمثل في افراغ وغربلة محتوى القبور الما قبيل تاريخية، كما تتمثل في انتقاء الادوات الحجرية الشيء الذي ينقص من جدوى اي تحريات منهجية ذلك، لان هذا الانتقاء تسبب في خلط المعامل التصنيفي للحضارات الماقبل تاريخية، مثال على ذلك، كهف تازوكارت قرب بودنيب، زاره دانيلو كريدنرت Danilo Gredenert سنة 1974 واستطاع ان يستشف اهمية الادوات الحجرية والخزفية الموجودة في الركام، هاته الأدوات كان من الممكن ان تغني معلوماتنا حول المنطقة في العصر الحجري الحديث.

لانقاد هذا الكهف من الاتلاف، اصبح من الضروري اجراء تحريات مستعجلة لمعرفة ما إذا كان ممكنا القيام بسبر Sondage يمكننا رصد التعاقب الستراتيغرافي للعصر الحجري الحديث في المنطقة، ومآثر جبل البوية بدورها

تعرضت للنهب والتخريب، من 1200 مأثر جنائزي، احصيت سنة 1958 من طرف ماكَات G. Magat، لم يبق سنة 1986 عند أول مسح اثري قمنا به، سوى مائة قبر سليم. في ثاني تحرياتنا الاثرية سنة 1988، لاحظنا انخفاض عدد هاته القبور السليمة.

المقبرة الما قبيل تاريخية - وكذلك الموقع السكني - استغلت ومازالت تستغل لقلع الاحجار من طرف مصلحة الاشغال العمومية. أخيرا، ننتهز فرصة تنظيم لقاء الجامعة الخريفية لمولاي علي الشريف، لنوجه دعوة الى السلطات المحلية والاقليمية لتكثيف جهودها لحماية هذا التراث الوطني.

المميزات الثقافية لاقليم الرشيدية

عبد العاطي لحلو

ذكر اسم سجلماسة لدى المؤرخين القدامى، نظرا لاهميتها كمركز تجاري وحضاري منذ تأسيسها في القرن VIII (8 م) الميلادي. وقد عرفت لدى دول بحر الابيض المتوسط من غربه الاطلسي الى شرقه.

ومنذ إقامة مكناسة بأراضي زيز المنخفضة سنة 757-758 م (140 هـ) ستتحول المنطقة من الاستغلال الرعوي المحض الى إقامة سوق كبيرة ومزدهرة يقصدها أهالي المناطق المجاورة وحتى البعيدة منها.

ومن الخصائص الطبيعية التي أهلت المنطقة لتلعب أدوارا مهمة وتجذب الانظار اليها كونها تحتل نقطة استراتيجية هامة بين الشرق والغرب، الشمال والجنوب، اعتبارا للطرق التي كانت معروفة في القرون السابقة، مما جعلها تحتل مكانة هامة في الاتصالات بين افريقيا السوداء (أو ما يسمى بالسودان)، والدول الواقعة على ضفة المتوسطي الشمالية والجنوبية، بالاضافة الى الشرق العربي إبان ازدهاره.

وأما من حيث الوسط الطبيعي فالعنصر الاساسي الذي تحكم ويتحكم الى الآن في توزيع السكان بتافيلالت مع ما يصحبهم من أنشطة، فهو الماء، إذ نجد تطابقا بين المساحة التي تصلها المياه والمجال الحيوي للسكان، وقد قال هيرودوت قديما بأن «مصر هبة النيل» وقد تصدق نفس المقولة على تافيلالت

اذ يمكن القول انها هبة زيز وغريس وهما الوادان اللذان يحددان على الخصوص المجال الحيوي بالمنطقة. واذا شئنا التوسع متتبعين الحدود الاقليمية الحالية لاقليم الرشيدية، وجدنا اختلافا وتنوعا يغني المنطقة، لا من الناحية الطبيعية والترابية فحسب، ولكن أيضا من الناحية البشرية والاقتصادية والثقافية. وكما يستهوينا إقليم الرشيدية بمناظره المختلفة من حيث الاودية - الجبال - الهضاب والواحات، يستهوينا أكثر تاريخ الاقليم العام منه والخاص، فمن تحليلات وكتابات المؤرخين القدامى منهم والجدد، ترسخ في ذهننا فكرة ازدهار وقوة ومكانة سجلماسة منذ العهود الاولى لتأسيسها، الذي سبق زمنيا تأسيس مدينة فاس، فهي لذلك المدينة الاسلامية الاولى التي عرفها أقصى الشمال الغربي الافريقي بعد القيروان بـ(تونس).

وأما الطابع الذي أعطى لسجلماسة، وهو الاسم القديم للمنطقة، مكانتها فهو النشاط التجاري، حيث كانت تفيد على هذا «الميناء البري» سلع من مختلف الجهات، وكانت آنذاك تتحكم في قنوات التوزيع. وكان ينتج عن هذه العملية، ان تتجمع سلع كثيرة ومختلفة بسجلماسة كما يتجمع تجار مختلفون في الثروة والانتماء.. الشيء الذي ترتب عنه غنى بشري وثقافي هام كانت قاعدته وأساسه النشاط الاقتصادي والتجاري لسجلماسة. ويعني هذا كله من ناحية أخرى الانفتاح الكبير الذي كانت تعرفه المدينة على العواصم الاخرى المعروفة آنذاك كفاس، تلمسان، القيروان، بغداد... إلخ.

وثروة سجلماسة وجاهها انعكس على نمط العيش بها، وفي عمرانها الذي وصف بالجمال والتناسق. ومما لاشك فيه ان المعمار التقليدي المتمثل في القصور بالمنطقة، لايزال شاهدا على المستوى الحضاري الرفيع الذي وصلته سجلماسة من قبل، وهو بشكله وأسلوبه يندرج ضمن التراث المعماري المغربي المتميز. وليس يعتبر تراثا، ما هو قائم من بنايات وأشكال هندسية، فحسب بل أيضا وعلى الخصوص المهارات والتقنيات المتوارثة التي تعبر عن عبقرية بلورتها أجيال عديدة للاستجابة لضرورات بيئية واجتماعية. وبشكل ملفت للانتباه، نجد ان هندسة القصور هندسة وظيفية جد ملائمة للظروف الطبيعية، شيئا ما القاسية، كما هي ملائمة لبنية السكان وتراتباتهم..

وكما هو الشأن بالنسبة لتقنيات البناء التقليدية، فإن هناك تراث هام يتمثل في نواحي الانتاج الزراعي وتقنيات الري (التحكم في الموارد المائية) الآبار - الخطارات، كما يتمثل في مهارات أخرى يدوية، صناعة الدباغة (الجلد الفيلالي المشهور مثلا)، الانسجة المختلفة، صناعة السبائك من الفضة والذهب... الخ.

وإذا كانت المظاهر المادية علامة على الازدهار فان ذلك لن يعدو أن يكون الا جزءا مما اشتهرت به سجلماسة التي ساهمت بشكل فعال في الازدهار الفكري والروحي للمغرب عن طريق علمائها ورجالاتها حتى أن ابن حوقل حين يصفها يطلي عليها نعوتا، تجعلها تضاهي القيروان بل وتتعداها. ومن سجلماسة أيضا كان ينطلق موكب الحجاج المغاربة الى الديار المقدسة مما يعزز مكانتها الروحية المرتبطة بالاسلام، وهي بذلك قلعة ساهمت بشكل فعال في نشر الاسلام عن طريق الشرفاء والعلماء في كل ربوع المغرب شمالا وجنوبا، وانطلاقا من هذا المعطى ايضا نشأت زعامات سياسية انطلقت، لضرورة تاريخية حتمية، الى توحيد البلاد وهو ما تم بالفعل على يد الدولة العلوية الشريفة التي أنتجتها أرض تافيلالت. وليس هذا التذكير الا لان الحياة الثقافية وتجلياتها باقليم الرشيدية مرتبطة ومستندة الى تاريخ المنطقة، والى معطياتها البيئية والجغرافية، وما حضارة سجلماسة / تافيلالت الا نتاج تفاعلات وتأثيرات، وتداخل البعد الزمني التاريخي بالبعد الطبيعي. واذا ما استقرأنا عناصر الثقافة بالاقليم فسنجدها مختلفة وغنية، ويرجع ذلك الى التأثيرات العربية الصحراوية، البربرية، الافريقية والاندلسية.. هذه التأثيرات تجد تجسيدا لها ايضا في الانسان الذي يعمر المنطقة : فالعنصر العربي والعنصر البربري نجده متواجدا الى جانب العنصر الصحراوي القديم (الحراثون)، والعنصر الافريقي الاسود الذي كان موضوع تجارة القوافل الى جانب سلع ثمينة كالذهب والملح..

إن هذا الاختلاف البيئي : جبال ذات قمم تكسوها الثلوج، أودية، مخانق، وهاد وكثبان رملية.. وهذا الاختلاف البشري، والثقافي، وهذا العمق التاريخي الذي شهدته المنطقة، منذ عهود ما قبل التاريخ، الذي تدل عليه النقوش الصخرية بالاقليم (الطاوس)، لم يدرس بما فيه الكفاية ولم يخلف وفرة مناسبة كما وكيفا من الدراسات التاريخية والابحاث القطاعية المختلفة لتسليط الضوء

على التاريخ الاجتماعي الاقتصادي والثقافي للمنطقة ولذلك وجب تنشيط الابحاث التاريخية، الاركيولوجية والانتروبولوجية بهذه المنطقة التي تعتبر إحدى الجذور للحضارة المغربية.

ومن ناحية أنماط العيش بالاقليم نجد أصنافا مختلفة، لكل منها مميزاته. من ذلك نجد النمط المرتبط بالترحال والانتجاع، وقد اضمحل هذا النمط بسبب الاستقرار وتطور الحياة المادية والاجتماعية والسياسية. وقد كان السكان الرحل وإلى عهود قريبة كثيري العدد تسودهم الروح القبلية وينجعون الى الحرية، كما ينحون الى بسط سيطرتهم على السكان المستقرين، يفرضون عليهم إتاوات لحمايتهم، وهؤلاء الرحل كان نشاطهم الاساسي هو الرعي (الانتجاع) وكانوا يسكنون الخيام ويملكون بعض القصور والخزانات الجماعية، يلجأون إليها من حين الى حين لتأمين مذخراتهم، وأما مجال تحركهم فيكون شاسعا يمتد في الجبال الى الصحراء والهضاب العليا. ثم هناك السكان المستقرون الذين يعيشون في المناطق الجبلية في القرى والمداشر، يقومون أيضا بتربية المواشي وببعض الزراعات.

إلى جانب هؤلاء وأولئك يوجد سكان الواحات ومنهم مالكي الارض، والشرفاء ومنهم الحراثون الذين يقع على عاتقهم عبء الانتاج وخدمة الارض وهذا العنصر قديم بالمنطقة. ويعيش هؤلاء السكان ويتعايشون في القصور المحصنة التي تنظم فيها الحياة الاجتماعية الدينية والمدنية تحت اشراف الجماعة، أما الشعور بالانتماء فيكون أساسه البعد المكاني والمكانة الاجتماعية.

وهناك فئات أخرى من الاحرار واليهود يشتغلون بالصناعات اليدوية المحلية وبالتجارة.

وأما اليهود الذين كان تواجدهم بالاقليم خصوصا في بعض المدن والقصور بتافيلالت وكانوا يشرفون على بعض القطاعات الاقتصادية فقد انمحوا تقريبا من المنطقة بسبب الهجرات الجماعية والفردية الى المدن الكبرى والى الخارج، وعلى الخصوص الى فلسطين، وقد تم ذلك ابتداء من السنوات الاولى للاستقلال الى بداية السبعينيات.

إن هذا المزيج من السكان الذي عاش وتعايش جنبا الى جنب لقرون طويلة رسخ عادات وأفكار وبلور تراثا شفويا وماديا جدير بالاهتمام.

وهذا العرض يريد فقط إثارة اهتمام وفضول الباحثين الى هذه الجوانب من الحياة الثقافية بالاقليم ولايتناول بالدرس والتحليل أيا منها لان المشروع الذي ابتدأته لايزال في بدايته ولم ينضج بعد، فالمجال فسيح ويتسع لكل الدراسات الجادة عن الحياة الجبلية او حياة الواحة وما بينهما؛ عن الترحال والاستقرار، عن اشكال وأنواع العمارة ومميزاتها من الخيام الى القصور البديعة، كما يمكن الانتقال من الفضاءات الفسيحة الى المجال المحدود (الواحات) لكن الكثير العطاء حين يحسن الانسان استغلاله وتنظيمه، وانطلاقا من ذلك يمكن دراسة المنتوج الثقافي الخاص وتركيبه في كل شامل.

وان كانت الادلة المادية كثيرة على تكيف الانسان والبيئة فان المنطقة تعرف حياة جماعية تتمثل ليس فقط في عمليات الانتاج، التوزيع والاستهلاك ولكن ايضا في التجمعات والحفلات الجماعية الدينية منها والدنيوية وهو ما يتجلى على الخصوص في المواسم المختلفة التي تشهدها المنطقة ومنها نذكر موسم الخطوبة بإملشيل الذي تعدى صداه حدود الجهة بل حدود المغرب الوطن بما يمتاز به هذا الموسم، وهو تجمع سنوي هائل لقبائل ايت حديدو وغيرهم، من أبعاد تجسد الحياة القبلية التقليدية ومؤسساتها وأعرافها وثقافتها ووجدانها الجمعي. كما يمكن ذكر موسم التمور بأرفود وهو موسم اقتصادي ثقافي هام لما لهذا المنتوج من ارتباط بقيم اجتماعية وثقافية لدى السكان.

وتبهرنا المنطقة أيضا برقصاتها الجماعية المختلفة وبفنونها الغنائية والزجلية، فعلى اختلاف الفئات والقبائل الموجودة بالاقليم نجد ألوانا من التعبيرات الفنية الجماعية عن طريق الايقاعات والرقصات التي تقام بمناسبات مختلفة يشارك فيها عدد كبير من النساء والرجال، كما نجد فنونا أخرى ذات طبيعة مدنية كفن الملحون المزدهر بتافيلالت.

ويظهر المشاركون في الحفلات الجماعية وهم مرتدون لباسهم الاصلي ويحمل هذا ايضا من القيم والدلالات الشيء الكثير، وليس ما ذكر الا قليل من كثير. وأولى العمليات التي يجب القيام بها للوقوف على ما يزخر به الاقليم من

معطيات ثقافية هو جرد كل العناصر المشكلة للثقافات التي نجدها في ربوع إقليم الرشيدية. ويدخل في هذا النطاق كل مظاهر الحياة المادية والعقلية والروحية للسكان على اختلاف مشاربهم ومحل إقامتهم ولهجاتهم.. وسوف لن يكون هذا الا خطوة أولية التي على ضوئها يمكن القيام بأبحاث قطاعية ميدانية وبدراسات مونوغرافية الهدف منها هو إبراز العناصر الثقافية والطبيعية والبشرية لكل جهة. وعلى ضوء ذلك أيضا يمكن إحداث مؤسسات ثقافية ومتاحف جهوية تعنى وتبرز النواحي المميزة لثقافة الجهة وتأمين استمراريتها ضد التغيرات المتسارعة التي تطمس معالم جدّت في بلورتها وإيصالها إلينا أجيال عديدة، وسوف لن يكون هذا الجهد عبثا أو تحنيط للماضي بل إغناء للحاضر وخدمة للتنمية الجهوية، كما يمكن أن يعتبر جهدا يخدم التراث الانساني بصفة عامة.

التجمع البشري وتنمية التراث المعماري والحضري للجنوب المغربي

مصطفى الادريسي

I التنظيم الاجتماعي والسياسي

لقد كشف لنا البحث التاريخي بأن سكان المناطق الاطلسية والجنوبية كانوا منظمين كمعظم جهات المملكة على شكل قبائل وإن المجال القبلي كان يطابق بالفعل علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية كانت موجودة بين اعضائه ولها اهداف رئيسية :

أ ـ التبادل بين مختلف أعضاء القبيلة من جهة، وبين هذه الاخيرة والقبائل الاخرى.

ب ـ السياسة الضريبية المفروضة من طرف السلطة المركزية على السكان

ج ـ تقسيم المجال الزراعي مع مجموعات اخرى.

لا غرو ان المجال القبلي وتموضعه يخضع بالخصوص للثقل الديمغرافي وللطاقة العسكرية للمجموعة، وكذلك للاتفاقات المبرمة بين المجموعات الاخرى واخيرا مع السلطة المركزية.

ان هذه الظواهر هي التي تضمن الملكية الجماعية لوسائل الانتاج الرئيسية التي تقوم عليها القبيلة ـ وتتجلى خصائص الملكية الجماعية فيما يلي :

أ - التوزيع المرحلي لوسائل الانتاج الرئيسية (الاراضي الزراعية، الواردات من الماء..) في حين ان الاراضي الرعوية تظل مجالا جماعيا لكل اعضاء القبيلة.

ب - تقسيم التكاليف المشتركة (من مصاريف وشراء الحاجيات الجماعية..) وكذلك التكاليف الضريبية بين مختلف اعضاء القبيلة.

ج - تنظيم الاشغال الجماعية على شكل «تويزة» من تجهيزات مائية مشتركة (سواقي، آبار، قنوات الري..)

والجدير بالذكر ان تطبيق هذه الاشكال الثلاثة المميزة للملكية الجماعية يتطلب وجود فعلي لمجلس يدعى «جماعة» - وهي تنظيم سياسي واجتماعي ديموقراطي الى حد ما ؟؟ تعتمد بشكل رئيسي على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج وتحتضن كل رؤساء القبائل (العائلات الكبار - الاولياء - العلماء والاعوان...) وهؤلاء الاشخاص ينتخبون عموما لاجل محدود : سنة او مدة الحملة فقط - وهكذا تجتمع كل السلطات، القانونية - التنفيذية والقضائية في يد «جماعة» والتي لا يعتبر رئيس القبيلة فيها الا ممثلا لها. ويعتبر «الاخ» او «العظم» هو العنصر الاساسي والنواة الاولية لهذا النوع من التنظيم، فالعظم هو عبارة عن تجمع لعدة ديار تقطنها اسر، تجمعها روابط قرابة او صداقة قديمة لتكون في الاخير ما يسمى بالاسرة البطريركية Patriarcale الموسعة عن طريق الزواج، النسب والاندماج - تتشكل هذه الاخيرة من ابناء واحفاد لاب واحد، وتعيش مجتمعة وغالبا ما تنضاف عناصر أجنبية الى صفوفها مثل ازواج البنات - وتجمع اسرتين او ثلاث في مكان معين يكون «الدوار» وهي وحدة يمثلها «أمغار» - يفترض هذا النمط من التمثيلية ان يكون دور أمغار محدودا يقتصر على ضبط العلاقات بين مختلف الاسر - ثم نجد على مستوى أعلى، وحدة وسيطة بين الدوار والقبيلة تدعى مجموعة مغلقة او «فخدة» وتتدخل هذه الوحدة كذلك في تعيين أمغار لجماعة، يبقى دور «الجماعة»، هذه المجموعة المغلقة محدودا كذلك وينحصر في تنظيم وضبط الحياة اليومية، وتقسيم التكاليف المحلية مثل توزيع الاراضي الزراعية والسواقي الخ.

تظهر هذه الوحدة على شكل اطار تضامني للمجموعة يتجسد في الدفاع عن المجال الزراعي والرعوي المشترك.

تتحد العديد من المجموعات المغلقة او الفخدات من اجل المساهمة في تكاليف القبيلة واذا ما نظرنا الى الهرم نجد حلفا او تكتلا يسمى الكونفدرالية وهي عبارة عن تجمع، مهمته تكتل وتوحيد كل قبائل المنطقة، وكمثال للكونفدراليات الموجودة في الجنوب نجد قبائل أيت يفلمان وأيت عطا.

ان اجتماع وتكتل القبائل داخل الكونفدرالية - ضرورة حتمية من اجل تلبية الحاجيات الاقتصادية - السياسية - الاجتماعية والثقافية لمختلف المجموعات الموجودة بالمنطقة وتعتبر الكونفدرالية اداة يعتمد عليها للتنسيق بين مختلف القبائل والسلطة المركزية.

يمكن لنا تحديد نظام معين، على المستوى المحلي، كسلطة قائمة على قاعدة ايديولوجية او سياسية تعمل باستمرار على ضبط وتنظيم العلاقات الموجودة بين مختلف المجموعات.

وقد تمكن النظام او السلطة المركزية بالفعل من ارساء اسسها وركائزها داخل «الجماعة» والكونفدرالية - وبعد تطور وتراكم العلاقات والتناقضات التي تكون في معظم الاحيان سياسية، نجد انفسنا امام بنية تجمع مختلف عناصر النظام - فتوسيع هذه البنية وتطورها راجع، تاريخيا، لنسق طويل من محاولات مركزة النظام عن طريق ادماج مختلف الانظمة او السلطات المحلية - وهذه البنية ليست في آخر المطاف إلا ما يسمى بالمخزن.

II الهندسة المعمارية والحضرية التقليدية «تراث مهدد»

تبدو مختلف المجموعات التي تنتشر في مجموع التراب كحقائق تاريخية مموضعة ومحددة في المكان والزمان وتشكل هذه المجموعات وحدة قوية، لها هوية ترتكز بالخصوص على وعي ترابي - وبالتالي فان لها ثقافة متسمة بالخصوصية تترجم شخصية مستقلة وخاصة بها.

ويعتبر الانتماء الى مجال معين كشرط للانتماء الى ثقافة معينة - ان مختلف التصورات المجالية تظهر كظواهر محددة لثقافة واحدة او لعدة ثقافات.

هذه التصورات للمظاهر المجالية هي التي يتمركز حولها الاعتراف بالخطوط المحددة لوجود المجموعات نفسها ويمكن ان نؤكد في هذا الموضوع على أن تطور الخطوط الثقافية المحددة والاعتراف بالانتماء الى مجال معين يرتبطان ارتباطا فعليا بالهوية التي عن طريقها تحدد مجموعة او جماعة ما نفسها.

نرى من الضروري تسطير وتأكيد الاهمية القصوى التي تكتسيها الهندسة المعمارية والحضرية التقليدية من الوجهة الثقافية في الجنوب المغربي - وهذا سواء تعلق الامر بتكتل مجموعات بنيوية منسجمة انسجاما كليا (تجمع ديار وقصبات). او بمجموعات غير منسجمة (قصبات منعزلة ومبعثرة في المكان) وقد تمكنت هذه البنايات من الخروج الى حيز الوجود بفضل الاخذ بعين الاعتبار جمال الموقع والمنظر العام الذي أنجزت فيه من جهة، ومن جهة اخرى القيمة المعمارية والزخرفية التي تعتمد على الاصالة التقنية في عملية البناء (مثل التراب المدكوك).

يمكن لنا تصنيف البنايات ألتي لها خاصية تقليدية في المعمار القائم على استعمال هذا النوع من التراب وكذلك الاحجار الموجودة في الجنوب بالاضافة الى وجود قصبات كاقامات كبرى محصنة، نجد قرى متينة (او قصور) - قلعات (اكادير، ايغرم) وبنايات ذات طابع ديني (مساجد - مدارس واولياء) او عسكرية (بروج المراقبة - رباط..) او مدنية (القصور).

تتسم هذه البنايات بطابع الاندماج القوي في وسط فيزيائي وبشري - ونظراً لمختلف هذه العوامل يجب الاسراع بعمليات الانقاذ والحماية بواسطة اصلاح وترميم هذا النمط من البناء المهدد حاليا بالانقراض الكلي.

إن التراث الثقافي المعماري والحضري يتعرض في الوقت الراهن الى اتلاف عميق بسبب تدخل عوامل فيزيائية وبشرية.

نعتقد بان التراب المدكوك مادة هشة وأن هذه الهشاشة هي المسؤولة الرئيسية عن تراجع هذا النوع من البناء ويمكن تجاوز هذا المشكل اذا توفر عنصر الصيانة. وبمعنى آخر اذا كانت هذه البنايات مصونة ومحفوظة بانتظام

يمكن لها أن تقاوم لمدة قرون أخرى وتتطلب عملية الصيانة يدا عاملة وموادا للبناء - Matériaux - وهذه الاخيرة يمكن ان تؤخد من عين المكان نظرا لتوفرها في المنطقة.

ان مشكل المحافظة على الفنون المعمارية التقليدية ليس مشكلا ماديا، فاذا تمكنت العوامل الفيزيائية اي تقلبات الجو - سيلان الماء وتسربه الخ من الهجوم على التراب المستعمل في البناء والقضاء عليه، فذلك راجع في الواقع الى العنصر البشري المسؤول الاول عن اهمال جزئي او كلي لهذا النوع من البنايات.

وترجع العوامل البشرية بالاساس الى تغيرات اقتصادية، اجتماعية وثقافية كالهجرة القروية وانفجار النواة الحضرية الصغرى (قصور)، ادخال انماط جديدة في عملية البناء اي ادخال مواد وادوات عصرية.

III انقاذ واعادة الاعتبار للتراث الوطني «نموذج قصبات الجنوب»

ان اهمال العديد من الآثار منذ سنوات يجعلها تتعرض لاتلاف تدريجي - فجل هذه الاثار تتميز بالتوفر على اشكال وانماط تعكس الفن البربري، وكذلك عناصر معمارية وزخرفية مأخوذة من الفن الاسباني الموريسكي ذي التقليد والطابع الحضري.

هناك عدة بنايات كما هو الشأن بالنسبة للقصبات التي تقطنها عائلات مالكة تتكلف بصيانة «اصلاحية» محضة للمحلات السكنية على حساب المظاهر الفنية والزخرفية التي تنقرض شيئا فشيئا.

تستوجب عملية حماية القصبات ان تكون اولا مسكونة، مصونة ومحفوظة بانتظام وبشكل دائم - المشكل الذي يعترض الاخصائيين هو ضمان وظيفة وادماج كل انجاز في الحياة اليومية - هذا سواء عن طريق ايجاد رصد او تعيين مطابق لبنية القصبات الاصلية والتي يعاد ترميمها وتهييؤها - من المفروض ان توضع مشاريع الانقاذ واعادة الاعتبار للقصبات في اطار السياق الشامل للتنمية في الاقاليم الجنوبية.

من الممكن ان تكون الفنون المعمارية التقليدية بالفعل قاعدة للانطلاق من اجل تحسين ظروف السكن.

وتشكل قيمتها الفنية وتناسقها النموذجي مع الوسط الذي توجد فيه عنصرا للجاذبية في افق تطوير السياحة الثقافية.

نفذ تنظيم الدورة :

عبد العزيز توري ـ المهدي الدليرو ـ عبد الكريم البسيري

بمساعدة :

صالح الحمزاوي	محمد الزين
عبد المالك تممان	عثمان حيمي

خليل الصافي

إعداد : المهدي الدليرو

تم طبع هذا الكتاب
بمطابع ميثاق - المغرب
الربـاط

رقم الايداع القانوني 990 / 1990